أعلام وأصحاب أقلام

تأليف

أنور الجندي

يرجع شبلي شميل
ولطفي السيد
وقاسم أمين

دار نهضة مصر
للطبع والنشر

مطبعة نهضة مصر بالفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

إن تاريخ العرب والإسلام وتاريخ الفكر العربى الإسلامى حافل «بالأعلام وأصحاب الأقلام» ، على مراحله المتعددة ، منذ فجر الإسلام ، وخلال دورته الحافلة التى لم تتوقف عن التجدد والتطور ، وما تزال مصادر هذا الفكر الخصبة تدفع على السطح جيلا بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، أعلاما وقادة ومفكرين وكتابا يحملون الأمانة ويضيفون إضافات جديدة .

وفى عصرنا الحديث ، ومنذ بدأت اليقظة ، وجرت معركة المقاومة للاستعمار والاستبداد معا ، ظهر أعلام حملوا لواء القلم ، وجاهدوا فى مختلف ميادين الفكر والثقافة والعلم والطب واللغة والتاريخ والتعاون والآثار والقانون والترجمة والرحلة والصحافة والفقه والتصوف .

* * *

إن الأمة التى تحمل رسالة حية ما تزال على مدى التاريخ ينبعث من أعماقها دعاة وكتاب ونوابغ ، يجددون فكرها ، ويدفعونها إلى الأمام ، فهى تصنع هؤلاء الأعلام ، ثم هم يصنعون التاريخ ، وفى مجال التحدى يبدو هذا المعنى أكثر وضوحا بالنسبة لتاريخ العرب والإسلام ، ففى مختلف المراحل التى كانت «تواجه الفكر العربى الإسلامى» بأزمة عاصفة ، كانت القوى الحية فى ضمير الأمة قادرة على أن تبرز أعلاما وقادة يجددون وجه الحياه ، ويصححون المفاهيم ويدفعون عجلة الحياة إلى الأمام قوية متماسكة .

وليس أبلغ فى التحدى ورد الفعل من حملة النفوذ الاستعمارى على العالم الإسلامى والأمة العربية منذ أوائل القرن التاسع عشر إلى اليوم ، ففى

نفس الأيام التى كان الاستعمار يشق طريقه ليثبت قواعده ، كان الفكر العربى يكشف عن جوهره ، وترتفع حراب رواده وأعلامه ، وتتجدد صحائفه على النحو الذى يكشف عن قدرة قادرة على مواجهة الصراع ، وتأكيد قدرة الفكر العربى على الحياة والحركة وعلى الاحتفاظ بقيمه ومفاهيمه ومعالمه دون أن يذوب فى الأممية العالمية .

ومن هنا كان لابد من أن تبرز صورة النضال ممثلة فى باقة من الأعلام ، فى مجال القلم وحده ، فقد كان « القلم » سلاحا جباراً ، هز الدنيا فى أيدى هؤلاء الأعـــلام ، حيث كانت « الكلمة » مناراً متوهجا يدفع إلى العمل والبناء ، ووقوداً لكل الثورات والانتفاضات ، كم أحيت القلوب الغافية ، وردت الايمان إلى النفوس الجزعة ، كانت الأمة حين تتردى فى اليأس ويقسو عليها الظلم ، ويمتلأ ضميرها بالتشاؤم وتنطوى على نفسها تنظر إلى الأفق ، وترى الليل يطول ، ثم يجىء صوت مجلجل من هذه الأصوات القادرة ، فيرد إلى النفوس الأمل ، ويطلع على يديه الفجر .

* * *

والحق أننا فى هذه المرحلة التى يزدهر فيها الأدب والفكر العربى اليوم ، ويمضى فى تقويم الماضى ، وفى ضوء إيمان اليقظة العربية بالعاملين الذين مهدوا الطريق وشاركوا فى وضع أحجار الأساس ، وتقديرا منها لهم ، كان لابد من ظهور دراسات ترسم صورة لتراجم هؤلاء الأعلام ، وتكشف عن مضامين حيويتهم وأعمالهم ودورهم .

وإذا كان قد أتيح لى أن أكتب عن أعلام الأدب العربى المعاصر[1] فى مجال الشعر والنثر والقصة واللغة العربية والصحافة والترجمة فقد بقى هذا القطاع الحافل من حياة الأعلام والرواد والنوابغ الذين عملوا فى مختلف مجالات المجتمع : رجال القانون والطب والآثار والمؤرخين والمصلحين والمجددين فى الدين ، ورجال التربية والفقهاء .

(١) راجع موسوعة معالم الأدب العربى المعاصر فى عشرة أجزاء المؤلف .

وعلى نفس النهج الذى اخترته، تناولت الدراسة هنا على مستوى العالم العربى كله ، ولقد أتيح لى خلال دراستى للدوريات والصحف العربية الحديثة أن أحصل على عديد من الوثائق والجذاذات والصور والنقول التى تكون فى مجموعها حلقات مختلفة ، أعتقد أن هذا الكتاب أحدها ، وأرجو أن أوفق فى ضم كل شبيه إلى شبيهه لتقديم مجموعات أخرى فى مجال « التراجم » ومجال آخر له أهميته هو « صورة المجتمع »[1] .

ولا أعتقد أن هذا العمل قد أوفى على الكمال المرتجى ، ولكنه محاولة لتغطية قطاع من قطاعات فكرنا العربى المعاصر جديرة بأن توجه إليه جهوداً كثيرة .

ولست أنسى فى هذا المجال فضل رجلين كانا دائما يدفعانى ويلحان على لاستكمال هذا العمل ، هما : الدكتور أحمد الحوفى ، الباحث الإسلامى العربى الجهير ، والعلامة أبوالفضل إبراهيم المحقق الموسوعى ورائد التراث العربى .

وإذا كان لى أن أقول كلمة عن هذا الكتاب فانى أعتقد أنه يمثل « وحدة متكاملة » فى مجاله ، ترسم فى مجموعها صور العصر من خلال أبرز رواده وأعلامه فى مجال الفكر .

ولا شك أن العصر الحديث فى العالم العربى قد حفل بعدد ضخم من الأعلام ، الذين قادوا هذه النهضة ، وحملوا لواءها ، وعملوا فى مختلف منازعها ، وقد حرصت أن تمثل هذه الباقة « طائفة المفكرين » ، الذين لم يكونوا من قادة الحركات الوطنية أو الثورات السياسية بمفهوم الزعامة الوطنية أو السياسية ، ولم يكونوا من الأدباء أو الكتاب الذين اقتصر عملهم على الأدب أو الصحافة . (ولكل من هؤلاء مكانه فى دراسات خاصة فى تراجم الأعلام) وإنما تتسم هذه الباقة بأن رجالها كانو قادة من قادة

---

(١) صدر للمؤلف فى مجال صورة المجتمع دراسة تحت عنوان «الشرق فى فجر اليقظة» .

الفكر يجمعون إلى ذلك صحبة القلم والقدرة على البيان ، وقد أردنا بتقديمها على هذا النحو المتناسق — فى هذه الفترة الزمنية التى تمتد من أوائل القرن التاسع عشر إلى أوائل الحرب العالمية الثانية بوصفها مرحلة متكاملة هى مرحلة « اليقظة » — قصدنا إلى أن ترسم هذه التراجم فى مجموعها « صورة كاملة » للحركات الفكرية والثقافية والاجتماعية المختلفة، وهى تتكون وتنمو ، وأن تصور بناء الأمة العربية فى مختلف مجالاته وهو يعلو ويرتقى .

وقد دفعنا إلى هذا ، أن الكتاب والباحثين قد أولوا الاهتمام فى هذه المرحلة للأدباء وحدهم وتركوا غيرهم من رجال الثقافة والفكر فى قطاع ضخم حافل بالأعلام والأعمال ذات الأهمية فى مجال الحضارة والنهضة وتنمية التراث .

ومن الملاحظ أن هناك شخصيات قد استطاعت أن تغطى بنفوذها على من ورائها ، وربما أخذت شخصيات أخرى أكثر من حقها ، بينما توارت شخصيات كانت أكثر إيمانا ، وأصدق عملا فى مجالها ، ولكنها لم تكسب خطأ من الشهرة أو التبزيز .

أما الشخصيات الجهيرة شهرة والتى كتب عنها الكثير ، فقد حاولنا أن نعرضها من وجهة نظر جديدة ، أو نلق الأضواء على جوانب منها لم تنل العناية الكافية من قبل ، مثلا: محمد فريد هذا الوطنى السياسى فى نظر الناس جميعاً ، قد عرضناه من ناحية جديدة هى أنه مؤرخ وقلما عنى الباحثون بهذا الجانب من جوانبه ، ولا يذكر محمد عبده وفريد وجدى ورشيد رضا إلا فى مجال الدراسات الإسلامية بينما خاض هؤلاء مجال دراسات أخرى وأبحاث فى مجال الأدب مجهولة مغمورة .

كما أن بعض أعلامنا قد اشتهر بلون معين أصبح علما عليه ، بينما له جوانب أخرى كثيرة لم تكشف ولم يسبق عرضها وتحليلها .

وقد كان تنسيق هذه الشخصيات كلها — ماحظى بالشهرة الضخمة وما لم

يحظ — فى « باقة » واحدة إنما يهدف إلى ، محاولة استكمال رسم صورة للمجتمع والفكر من خلال هذه الشخصيات جميعاً .

وميزة أخرى فى هذه الباقة — بالإضافة إلى أن شخصياتها تتكامل مع بعضها البعض — هو أن الكتابة وانتضاء القلم لم يكن بالنسبة لأغلبها حرفة أو صناعة ، وإنما كان متصلا بالعمل الذى اختاره هؤلاء الأعلام فى مجال الثقافة أو المجتمع ليكون أداة للدفاع عن فكرته وتجليتها للناس .

* * *

وتجرى مجموعة «أعلام وأصحاب أقلام» بين أعلام ولدوا بين عام ١٧٥٤ و١٨٩٨ وأقدم هؤلاء الجبرتى (١٧٥٤ - ١٨٢٢) وأدناهم الدكتور على مصطفى مشرفه (١٨٩٨ - ١٩٥٠) ويمكن القول أن مجال الدراسة هو : العالم العربى فى فترة زمنية تقع من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين. وأن المجموعة حوت فنوناً مختلفة منها : الرحلة : (محمود رشاد - عياد الطنطاوى) والترجمة :(رفاعة) وتاريخ أدب اللغة: (حسن توفيق العدل) وإحياء التراث ودراسة المخطوطات: (أحمد تيمور، أحمد زكى) واللغة العربية: (حفنى ناصف ، أحمد الاسكندرى) والأغانى : (أحمد خيرت) والعلوم : (على مصطفى مشرفة ، عثمان غالب) والطب : (على ابراهيم) والآثار العربية والفرعونية:(أحمد كمال الأثرى ، سليم حسن ،على بهجت) والقانون: (عمر لطفى) والتعليم والتربية : (أمين سامى) والصحافة: (أمين الرافعى) وفن النحت : (محمود مختار) وتحرير المرأة : (قاسم أمين) والموسوعات: (أحمد وفيق ، رفاعة الطهطاوى) والتاريخ العربى والإسلامى والوطنى والقبطى ومجددو الإسلام : (محمد عبده ، جمال الدين ، رشيد رضا) والمصرف والتعاون:(طلعت حرب وعمر لطفى) والتصوف:(البكرى) الخ . وقد أجرينا ترتيب الأعلام على أساس حروف الهجاء .

* * *

وأرجوا أن أستطيع فى فترة قريبة أن أقدم باقتين آخريين عن هذه المرحله : إحداهما لمجموعة من الأعـلام فى مجال الوطنية والحرية والثانية لمجموعة من مجددى الإسلام والأزهر .

هذا بالإضافة إلى الموسوعة الصغيرة « الأعلام الألف » التى قدمت منها ٣ أجزاء (٧٥٠ شخصية) والتراجم المطولة التى قدمتها لعدد من الأعلام فى درسات مستقلة أمثال زكى مبارك ، أحمد زكى ، عبد العزيز جاوش ، فريد وجدى ، المراغى الخ .

والرجاء أن يتاح لى أن أقدم عملا متكاملا فى مجال « تراجم الأعلام » هذا وبالله التوفيق ؟

أنور الجندى

— ١ —

أحمد الاسكندرى

(١٨٧٥ — ١٩٣٨)

فى مجال الجيل الذى واجه العصر الحديث بعد الاحتلال البريطانى لمصر وابتعاث دعوة العامية والدفاع عن اللغة العربية الفصحى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن يبرز اسم (أحمد) الإسكندرى كواحد من الرواد الأقوياء، الذين يتمثل إيمانهم بلغة الضاد فى علم وفهم وأداء يقوم على أساس البحث المنهجى الخالص، لا تشوبه شائبة الحماسة المفتعلة أو العبارة الزخرفية العاطفية، ويقوم أيضاً على إيمان قوى عميق الجذور بأصالة اللغة العربية وقدرتها على الأداء .

ولقد عاش الإسكندرى مطالع حياته لهذا المعنى، لم يشغله سواه شىء، وعندى أن كل ما اتصل به من بحث أو تأليف أو تدريس فى دار العلوم أو كلية الآداب، إنما كان وسيلة إلى غايته الكبرى، وآية ذلك أنه اشترك فى مختلف «المجامع» التى عقدت فى مصر منذ أوائل هذا القرن لإحياء اللغة العربية وتجديدها ودفعها إلى الأمام، قادرة على أداء المصطلحات الحديثة، وفى ظل الحركة التى قام بها المهندس وليم ولكوكس حين دعا المصريين فى خطاب ألقاه فى حفل عام فى حديقة الأزبكية إلى شجب اللغة العربية الفصحى واتخاذ اللغة العامية إداة للكتابة والتأليف، وقال إن هذا الاتجاه فى شأنه أن يحقق للمصريين النبوغ والاستقلال والحرية، مشيرا إلى تخلص الأوربيين من اللغة اللاتينية الأم وإنشاء لغات جديدة من لهجاتهم المحلية، وعندى أن هذا الاتجاه من دعاة التغريب قد كان نقطة البدء فى ذلك الخط الطويل الذى عاش يعمقه ويوسعه العلامة «أحمد الإسكندرى»، وأمضى

أكثر من أربعين عاما فى العمل من أجله ، ومن هنا كانت مشاركته فى مختلف المؤتمرات والاجتماعات التى عقدت من أجل اللغة العربية .

ولم يكن فى الخامسة والعشرين من عمره عندما اشترك مع توفيق البكرى وحمزة فتح الله والشيخ الشنقيطى وحفنى ناصف فى أول مجمع أهلى عقد فى القاهرة ، ثم كان من أبرز أعضاء مجمع نادى دار العلوم ، هذا المجمع الذى ضم أحمد زكى باشا وحفنى ناصف وفتحى زغلول وأحمد الإسكندرى ومحمد الخضرى .

وقد وضع هذا المجمع مئات الكلمات ، ثم رأى أحمد حشمت وزير المعارف إذ ذاك أن يستبدل بنادى دار العلوم لجنة فى وزارة المعارف تؤدى هذه المهمة وأطلق عليها (لجنة الإصطلاحات العلمية) كان الإسكندرى من أبرز رجالها ، إلى جوار اسماعيل رأفت واسماعيل حسنين وأبى الفتوح وأحمد زكى .

وقبيل الحرب العالمية الأولى عنّ لجماعة من الغيورين على اللغة العربية أن يعملوا برئاسة الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر ، كان منهم الإسكندرى وكانوا بضعة وعشرين عالماً ، وأمضى هذا المجمع أكثر من عامين يعمل ولم توقفه إلا ثورة ١٩١٩ ، ثم دعا إدريس راغب بعد الثورة إلى إعادة المجمع فأعيد ، وكان المترجم له فى مقدمة العاملين فيه .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فان المجمع العلمى العربى فى دمشق حين تكون بعد الحرب العالمية الأولى (١٩٢٠) إختار أحمد الإسكندرى واحداً من أعضائه ، ثم كان واحدا من أوائل المؤسسين لمجمع اللغة العربية فى القاهرة (١٩٣٢) وكان إلى أن توفى عام ١٩٣٨ من أبرز أعضائه ومن أكثرهم عملا ومن أقواهم عارضة فى الدعوة إلى ما آمن به وأعظمهم حجة فى تأكيد رأيه ، ولا عجب فى ذلك فإنه ظل متصل الأواصر بهذا العمل الذى

تخصص فيه ، باحثا ودارسا على نحو لم يعرف لكثير ممن عملوا بعد فى مجال خدمة اللغة العربية . وكذلك كان فى خلال السنوات الخمس الأولى من حياة مجمع اللغة العربية فى القاهرة والأخيرة من حياته ، على حد تعبير تلميذه الأستاذ محمد أحمد برانق — « محور المقترحات والمناقشات » حتى أطلق عليه لقب « مخ المجمع »

وفى خلال هذه الحياة الخصبة ، تبرز آثار (الإسكندرى) على قدر ما استطعت أن أصل إليها بعد مراجعات طويلة فى الصحف والدوريات العربية فى أربع أبحاث ضخمة يتحتم أن تجمع وتقدم للمثقفين فى هذا العصر ، تعريفا بأمثال هؤلاء الرواد الذين قدموا لأمتهم ووطنهم وللفكر العربى والثقافة العربية الإسلامية واللغة العربية عصارة فكرهم ، وعاشوا حياتهم كلها خالصة لوجه البحث العلمى دون أن يتطلعوا إلى جزاء مادى .

١ — مقالته عن (التعريب) التى ألقاها فى ١٩٠٧ فى نادى دار العلوم وهى حجته فى عمله طوال حياته ، وقوامها الإيمان بقدرة اللغة العربية على الأداء فى كل عصر ، لحاجات العصر ومتطلباته ، ومن هنا لا يجوز اللجوء إلى (التعريب) إلا للضرورة القصوى ، وإذا تحقق العجز فى نقل أسماء ومصطلحات الفنون والصناعات وأنواع النبات والحيوان والجماد .

٢ — بحثه فى مؤتمر المستشرقين فى روما سنة ١٩١١ الذى انتدب له ممثلا للحكومة المصرية بالاشتراك مع أحمد شوقى وأحمد زكى (الملقب بشيخ العروبة) وحفنى ناصف .

وكان أبرز ماعرضه على المؤتمر سؤال يقول :

هل يجوز أن تحل فى كل بلد لغة أهله العامية (لغة السواد الأعظم) محل اللغة الفصحى فى الكتابه وتستعمل فى المخاطبة .

وعرض الإسكندرى فى دراسة مطولة للهجات المختلفة والعامية فى

العالم العربى ، وكان قد أمضى سنوات فى دراسة لهجات الشام وبلاد العرب والعراق ومصر وتونس والجزائر ومراكش .

وبعد أن عرض القضية عرضاً كاملا تداول فيها الباحثون ، وانتهى المؤتمر إلى قرار إجماعى ينص على :

« إن اللغة العربية الفصحى هى اللغة التى تصلح للبلاد العربية الإسلامية للتخاطب والكتابة والتأليف ، وأن من واجب حكومات تلك البلاد أن تعنى بنشرها بين الطبقات الشعبية لتقضى على اللهجات العامية التى لا تصلح كلغة أساسية لأمم تجمعها جامعة الدين والعادات والأخلاق» .

وقد كان لقوة عارضة (الإسكندرى) فى هذه القضية أكبر الأثر فى إحراز مثل هذا القرار .

٣ — تقريره فى مؤتمر الطب فى بغداد ١٩٣٧ ، وقد تضمن هذا التقرير دراســـة شاملة لمختلف الألفاظ العربية الفصيحة التى تقابل مصطلحات الكيمياء الأجنبية ، ممـا كان يظن أن اللغة العربية عاجزة عن تأديتها ، وقد اعتبرت هذه المذكرة ذات أهمية كبيرة فى بناء مصطلحات العلم باللغة العربية .

٤ — دراسته عن (ابن خلدون) التى تقدم بها إلى المجمع العلمى العربى (١٩٢٩) وهى من أبرع الدراسات فى الاحاطة بمقدمة ابن خلدون وآرائه فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، فقد استطاع أن يوجز نظريته فى ٢٤ نقطة تعد من عجائبه فى الإيجاز .

* * *

ليست هذه كل آثار (الإسكندرى) فإنه له عديد من المقالات والدراسات ، أبرزها دراسات النقد التى كتبها فى الرد على ماورد فى كتب جرجى زيدان من أخطاء وتحريفات، ففى عام ١٩٠٨ نقد كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » وفى عام ١٩١٢ نقد كتابه « آداب اللغة العربية ».

وفى كلا المبحثين نجد السماحة والانصاف وتقدير عمل العاملين ، وهو لا يذكر مآخذه على الكتاب إلا بعد أن يذكر محاسنه ويقدم للنقد بتمهيد كريم ، يعطى مفهوم الباحث النزيه القصد ، المتطلع إلى معرفة الحق والكشف عن الأخطاء الذى جاء نتيجة قصور المراجع أو ضعف الاستنتاج وهو فى هذا يعذر المؤلف قائلا :

« الخطأ فى الاستنتاج وهو ما يعذر فيه المؤلف لأنه إجتهاد من عند نفسه فإن أصاب فله الشكر ، وإن أخطأ فمن ذا الذى ما ساء قط ، وعنده « إنه مامن كتاب وضعه بشر إلا وكان فيه لهوى النفس والعصبية الجنسية أو الخطأ والغفلة أثر أى أثر » .

* * *

ومن هذه المراجعات يتجلى عمق خبرة (الإسكندى) فى دراسات تاريخ العرب قبل الإسلام ، وما يتعلق بتقسيم البطون والأفخاذ ولغات العرب وشئون الأعراب والتعريب ، والقلب والاعلال — والابدال ، وكذلك المامه الواسع بالشعر والنثر والتصوف واليونانيات والفلسفة ، فإن قيل إن ذلك كله إنما هو مادة دراسته فى دار العلوم ، قلنا إن المعلومات عامة ، وفى مستطاع الباحثين جميعا ، ولكن الخلاف بين باحث وباحث ، هو تلك القدرة البارعة على حسن العرض على نحو علمى ومنهجى منصف واضح عميق ؛ وتلك سمة أبحاث الإسكندى فى كل ما عرف عنه .

ولقد صدق عبد العزيز الإسلامبولى حين صوره فى مجلة المعرفة بأنه « حين يدفع إليك رأيا من آرائه إنما يحرص على أنه يقدمه ملفوفا فى ألف دليل » .

ولقد سئل عن الشخصيات التى يقدرها ولماذا ؟ فاختار (الجاحظ) والخليل ابن أحمد ، وقال : أقدر الجاحظ أكبر تقدير وأنزله من نفسى مكان الرعاية والتجله ، فقد درست الشخصيات الممتازة التى صدرت عن

الشرق فى أشتات عصوره وحقبه ، ولقدكانت هذه الدراسة على نسق عليه كثيرون من أولئك الذين يعنون بالبحث الرحيب ، هذه السنوات التى أنفقتها فى البحوث الأدبية الخالصة قد دلتنى على أن الجاحظ جدير بالخلود ، ذلك أنه كان أديبا واسع الخيال ، رحيب الصدر ، جم الإحساس ، وكان عالما لا يتخذ فى بحثه أسلوب الرواية ، وإنما كان يعمد إلى المنطق وحده ، وكان له فى ذلك ضرب « تنقطع دونه الرقاب » ، وكان فيلسوفا من ذلك النوع الذى يعنى ما يقول .

* * *

وفى مبحثه عن (ابن خلدون) وهو سابق لكثير من أبحاث المستشرقين الذين اعترفوا بالفضل لهذا العلامة الكبير ، يقول :

« من الغمط لفضل ابن خلدون والجحود لمواهبه وعبقريته أن نقول بأن أكثر مباحثه فى المقدمة منقول من كتب المتقدمين فللرجل فيها فصول ونظريات هو أبو عذرتها ومبتكرها وخاصة ما كان متعلقا بالسياسة والاجتماع والعمران والاقتصاد ، حتى لا يعد مبالغا من يقول أنه واضع علمى العمران والاجتماع وأنه من أسبق من تكلم فى الاقتصاد السياسى . . .

وقد أوصله إلى هذه الآراء سرعة خاطره وتعمقه فى فهم العلوم والتفاته لأسرار الكون . . »

* * *

فإذا استدرج إلى المساجلة كان كريما سمحا لا يعرف المبالغة أو الاعتداد بما كان عنده من علم ، ولقد حاول أحمد زكى باشا مرة أن يدعوه للإدلاء برأيه فى كلمة (على الحركرك) وكان شيخ العروبة قد ذكر أنها مأخوذة من كلمة فرنسية (ركرك) فلما صمت الإسكندرى عاود مطالبته بالرأى ، فإذا به يكتب « ظن الباشا أن صمت مثلى إنما هو عن علم يكتمه ، ولا والله ليس إلا قلة الاعتداد بما خطر على بالى والاستهانة بما سنح لى فى تخريج هذا

الحرف (الحركرك) والله تعالى يقول : ولا تقف ماليس لك به علم « فأما إذا أحرجنى الباشا مرتين ولم يرض لى غير إحدى خصلتين الفتيا ولو بغير مقنع ، أو استحقاق الالجام بلجام من نار فإنى استغفر الله وأقول مالم أتعود قوله » وهكذا يواجه المجادلات ثم يدلى برأيه الذى يخرج عن رأى أحمـــد زكى ، مقدما مفهوما جديداً لاشتقاق الكلمة من اللغة العربية نفسها . . .

وإذا كان لنا أن نذكره كناقد منهجى وباحث على الأصول العلمية فإننا نذكر وجوه الملاحظات التى كان يأخذها فى نقد الكتب . . .

* الخطأ فى الحكم الفنى أى تقرير غير الحقيقة العلمية .
* الخطأ فى الإستنتاج .
* الدعوى بلا دليل .
* الخطأ فى النقل .
* الاستدلال بجزيئة واحدة على الأمر الكلى .
* النقل على المستشرقين من غير تمحيص .

فاذا ذكرنا أن ذلك كل عام ١٩١٢ قدرنا كيف كان مدى كفاية هذا الباحث للدراسة العلمية وعرفنا قدر هذه المجموعة السابقة من الرعيل أولال الذى خرجته دار العلوم (المدرسة الوسطى) بين الجامعةوالأزهر إذ ذاك ، فقد التحق الإسكندرى بالأزهر ثم تحول منها إلى دار العلوم فلما تخرج فيها عمل مدرساً بها ، وبقى ٢٧ عاما وفى عام ١٩٣٣ تولى تدريس الأدب بكلية الأدب وأحرز هذه المكانة فى مجال اللغة العربية والبحث العلمى ، وهو الإسكندرى ذى العزيمة المصممة التى دفعته إلى أن يهجر بلده إلى القاهرة ، فى مركب شراعى إلى كفر الزيات ثم مضى يمشى من قرية إلى قرية حتى بلغ القاهرة ، لا يملك إلا حافظة كتبه ، وهو فى سن العشرين فإذا به يحقق النبوغ والكفاية ، فيلمع اسمه فى مجال الفكر الأدبى،

ويظل حتى نهاية حياته صادق الإيمان بالفكر العربى الإسلامى واللغة العربية، لم يفارق ذلك التصميم العنيد فى الإيمان بما يعتقد أنه الحق ، فقد كان مؤمناً ـ على حد تعبير الدكتور منصور فهمى ـ بمبدأ لا يتزعزع عنه هو : أن اللغة العربية تكونت من عناصر تمت للأبدية والخلود ، فعنده أن عناصر هذه اللغة تنسحب إلى ماض لا أول له . وفى طاقتها إن تمد إلى مستقبل لا آخر له ، واللغة عنده ماضيها وحاضرها ومستقبلها وحدة قوية متماسكة تتسع لكل المصطلحات ، ويرى الدكتور منصور فهمى أن إيمان الاسكندرى هذا قد جعل المجمع بالغ الحرص على توفير المظان القديمة شديد العناية بممارسة ما احتوته من مدخور العربية وكنوزها . وأول من اقترح تدريس فقه اللغة فى دراسة العلوم .

* * *

ولد أحمد على عمر الأسكندرى ١٨٧٥ وتوفى ١٩٣٨ وعاش حياة عريضة ، فى مجال التعليم فى دار العلوم وجامعة القاهرة ، وفى مجال البحث العلمى بمؤلفاته وإثارة وفى خدمة اللغة العربية بالمشاركة فى مختلف المجامع ، وكانت دعوته أن تكون اللغة العربية هى « لغة العالم الإسلامى » كله للتخاطب والتاليف وإذا كانت هذه الدعوة تتجدد اليوم فلنذكر أن أحمد الأسكندرى هو أول من حمل لواءها .

من مؤلفاته وآثاره :

تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى (١٩١٢) ، نزهة القارىء ، الأدب العربى ، انتقاد كتاب آداب اللغة العربية ، المفصل فى تاريخ الأدب العربى ١٩٣٤ ، المنتخب ١٩٤٢ (بالأشتراك) ، فقه اللغة (١٩٢٦) اقتراح مقدم إلى المؤتمر الطبى فى بغداد (١٩٣٨) .

— ٢ —

أحمد تيمور

(١٨٧١ — ١٩٣٠)

من ذكرى النوابغ تستمد العبرة ، وتتكشف ملامح العصر ، فتبدو صورة لم تعد تتكرر . صورة (رجل ومكتبة) فى خلال ربع قرن . إنه أكبر قارىء فى تاريخنا العربى المعاصر ، فقد استطاع أن يجمع سبعة عشر ألف من المخطوطات والمؤلفات النادرة ، ثم قرأها وفهرسها وعلق عليها وأولدها حصيلة من الدراسات تمثل موسوعة ضخمة مازال العمل يجرى فى طبعها منذ ثلاثين عاما . ومنذ عام ١٩٠٣ إلى عام ١٩٣٠ حيث توفى أحمد تيمور كان الرجل عاكفاً على القراءة والمراجعة ، مولياً موارده كلها لاستظهار المخطوطات العربية بالنقل أو بالفوتغرافيا أو بالشراء من مختلف أنحاء العالم ، فى سبيل خدمة فكر هذه الأمة (الفكر الإسلامى العربى) بإثرائه مرة أخرى بآثاره التى ذهبت . فقد مر العالم الإسلامى بمرحلة من مراحل سيطرة النفوذ الأجنبى خلال أكثر من مائة عام استطاع خلالها الأجانب شراء وتهريب عدد ضخم من مؤلفات العرب وتراثهم ، صحيح أن عددا كبيراً من هذه الآثار قد طبع فى أوربا ـ ولكن أغلب هذا القدر قد حفلت به مكتبات باريس ولندن وبرلين وروما فضلا عن مكتبات أخرى كثيرة . وأصبح الباحث العربى لا يستطيع أن يستكمل بحثه فى موضوع من أهم موضوعات الفكر العربى الإسلامى إلا إذا قصد إلى احدى هذه المكتبات واستنسخ منها النصوص الكثيرة التى تضمها هذه الآثار .

* * *

ولقد اتجه أحمد تيمور فى ظل هذه الحركة الضخمة للاستيلاء على التراث العربى الإسلامى فى محاولة ضخمة إلى استنقاذ جانب كبير منه فأنشأ مكتبته ووسعها ، وعاش ـ سنوات طويلة يترقب كل مايظهر من المخطوطات هنا أو

هناك ليشتريه بأى ثمن ليحفظه من مغريات الهجرة إلى مكتبات الغرب وحرمان أهله منه ، وكان أحمد تيمور وأحمد زكى الملقب بشيخ العروبة يتنافسان فى هذا السبيل ، ويعملان من أجل الحصول على هذه الذخائر وكان لتيمور من يذهب إلى مكتبات الإستانة الغنية الحافلة بالآثار العربية والإسلامية وإلى مكتبات أوربا لينقل له بالفوتغرافيا عشرات من هذه الآثار . وكذلك فعل أحمد زكى بنفسه ، ومن ثم نشأ اتجاه ضخم إلى إحياء التراث العربى تولته دار الكتب آنذاك وتكونت مدرسة ضخمة لهذا العمل . ومن يطالع رسائل أحمد تيمور إلى الأب أنستاس الكرملى فى بغداد ومحمد كرد على فى دمشق وكانا معنيين بهـــذا العمل يكتشف أن هناك حركة ضخمة لها أطرافها فى استيراد المخطوطات ونسخها ، والبحث عنها من باريس أولندن أوبرلين أو غيرهما ، وهى حركة دائبة لاتتوقف تبحث عن هذا الكتاب أو ذاك ، وما طبع ومالم يطبع .

ولم يكن أحمد تيمور يتلقى هذا الكميات الضخمة من المخطوطات أو المؤلفات فيضيفها إلى مكتبته قبل أن يراجعها ويفسرها ويضع لها الجذاذات التى تكشف عما فيها من فنون ودراسات . وقد شغل نفسه فى هذا السبيل شغلا لا حد له ، أنفق فيه زهرة حياته وجل موارده . يدفعه إليه إيمان عميق باللغة العربية والتراث العربى الإسلامى ، وكان فى سبيل ذلك كله قد فرغ نفسه من كل عمل ، وتجرد لغايته ، وهو ليس بالحريص على الظهور أو إثارة المعارك الكلامية على النحو الذى عرف عن أحمد زكى وإنما كان دائبا على العمل منذ صباه فى درب سعاده ، حيث بدأت مكتبته ثم فى قويسنا حيث نقلها من بعد بعيدا عن ضوضاء المدينة حيث كان يعكف عليها أياما ، ثم فى الزمالك حيث نقلها من بعد خوفا عليها من حرائق الريف وقد ظلت هذه المكتبة تعمر فما من عظيم أو أمير أو ذى شأن توفى ، إلا أطلق رجاله يشترون له ماخلفه قبل أن يشتريها الاجانب ويصدرونها ، أما ماطبعه المستشرقون فقد حرص على الحصول على نسخ منه ، ثم وجه نفسه إلى استيراد مصورات من

نفائس المخطوطات التى لايوجد منها صور . وعندما أراد الشيخ طاهر الجزائرى — الرجل الذى أنشأ مكتبات دمشق — أن يبيع مكتبته بعد احتلال فرنسا للشام ، فضل أن يقدمها لتيمور بدلا من أن تذهب للأجانب ، ومن المغرب والحجاز واليمن والشام والعراق كان له أعوانه الذين ينسخون له أندر كتب التاريخ والأدب واللغة ومن روما وفينا ، حيث نقل كثيراً من المؤلفات . كما نسخ عددا من نفائس المخطوطات بخط يده ، وقد سلمت هذه المكتبة الضخمة بعد وفاته إلى دار الكتب فكانت ١٧ الفاً من المجلدات منها ٢٣٩٠ فى اللغة ، ٢٦٧٥ فى الأدب ، ٤٩٥٦ دين ورحلات ، ٣٩٧٤ لغات ومعاجم ، ٤٢٧٢ تاريخ وبلدان واجتماع ، إلى مجموعة من المؤلفات والوثائق بخط مشهورى العلماء من القرن السادس إلى القرن العاشر إلى عدد كبير من الآلات الفلكية والأوانى الصينية والخزفية ومحابر المشاهير وأقلامهم ، والجلود النفيسة وصور صلاح الدين والأفغانى والقاسمى والجزائرى وحسن الطويل ، ولعل أكبر عملية قام بها أحمد تيمور فى مجال المراجعة والدراسة الصابرة الرصينة هو : تصحيح لسان العرب والقاموس المحيط .

كما عنى بالكشف عن الجوانب الخصبة الغامضة فى تاريخنا العربى الإسلامى فأصبحت كتاباته فيها مراجع أساسية ومن هذه الأبحاث :

* خبايا الزوايا أو الألفاظ اللغوية المذكورة فى غير مواضعها .
* الكرات العربية الأرضية والفلكية .
* لعب العرب . التصوير عند العرب . المهندسون الإسلاميون .
* السفن الإسلامية وأسماؤها .
* الرتب والالقاب .
* المدافع والمكاحل عند العرب .
* ساعة عربية فى زمن المستنصر العباسى .

* نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة .
* من ألف فى التاريخ .
* دار ابن لقمان فى المنصورة .

وهناك عديدمن التراجم منها : أبو العلاء المعرى ، محمدعيادالطنطاوى، أعيان القرن الرابع عشر .

* * *

ومن أروع أبحاثه وأجملها : مقالته المطولة عن : نوادر المخطوطات وأماكن وجودها وقد نشرها عام ١٩١٩ فى الهلال ، وتعد من أهم المراجع التى اعتمد عليها العاملون فى إحياء الآداب العربية فى هذا العصر ، وقد أورد أماكن هذه الكتب فى الظاهرية بدمشق أو الاسكوريال بأسبانيا أو لندن أو ليدن أو باريس أو استانبول أو مصر . وأشار فى مقدمة البحث إلى تقسيمه لهذه الآثار على نحو يدل على الخبرة والفطنة فقال :

« ليس كل نادر جديرا بالذكر ، ولا كل مبذول بمرذول ، فرب غث نبهته ندرته ، وثمين أخملته كثرته . وإنما العبرة بقيمة الشيء ، فالسخيف سخيف وإن عز ، والنفيس نفيس حيثما كان » .

كما صور تيمور شـــارع الخليج المصرى بالفوتغرافيا قبل ردمه من جميع جهاته .

* * *

وبعد « أحمد تيمور » من الكفايات الضخمة التى تظهر فى إبانها ، فقد كان عملة مع زكى باشا فى مصر وعمل المعنيين بالتراث العربى الإسلامى فى عواصم العالم العربى والإسلامى فى هذه الفترة ، معدوداً من أعمال المقاومة للغزو الفكرى وللشعوبية والتغريب جميعاً ، فقد كان سحب هذا التراث من العالم العربى وتركيزه فى أيدى المستشرقين وكتاب الأجانب ، عملا بالغ الخطورة فى حرمان أصحاب الفكر الإسلامى من الوثائق والنصوص الأصلية ، وكانت دعوات التغريب والشعوبية قد أخذت طريقها فى الدعوة إلى العامية

والحروف اللاتينية (وقد دعا إليها مستر ولمور عام ١٩٠١ تقريبا) ومن أجل هذا عنى أحمد تيمور بالعامية فأفردلها معجما ضخما شغل به نفسه وبذل فى سبيله جهداً كثيراً ، وقد صور هذا الجهد فى رسالته إلى الأب أنستاس الكرملى فقال : (أما معجم العامية المصرية فإنى سأبذل الجهد فيه مستمدا منه تعالى المعونة والتوفيق ، وقد جعلت أس العمل فيه وضع ما يقابل اللفظ العامى من الفصيح ، ولذلك اضطررت لإعداد العدة له ، فطالعت القاموس جميعه ، واستخرجت منه ماظننته يقابل العامى فقيدته فى دفتر ضخم ، ولم يكن هذا العمل شيئاً مذكورا جنب تفرقة مافى هذا الدفتر على كراسات متعددة حسب المواضيع لأرجع إليها وقت الحاجة ».

وصور تيمور فى بعض كتاباته هدفه من هذا العمل ، « وهو إحياء اللغة الصحيحة بذكر العامى وتفسيره ورده إلى نصابه من الصحة إن كان عربى الأصل ، أو بيان مرادفه إن لم يكن كذلك ليحل محله ويرجع إليه فى الاستعمال ، فإذا جهلناه اقتصرنا على تفسير المعنى وتوضيحه ليتسنى لمن وجده بعدنا أن يتم ما بدأنا به ويوفى ماقصرنا فيه » .

وقد عرف له الباحثون قدره وفضله ، وقال أحدهم أنه قدم للباحثين خدمة كبرى فى إلغاء المسافة بين لغة الكتابة ولغة الكلام .

وله فى هذا : معجم تيمور فى العامية المصرية ، الأمثال العامية ، الكنايات العامية ، وله (البرقيات) وهى تمثل الكلمات التى اعتاد الناس التعبير عنها بألفاظ متعددة وله الموسوعة التيمورية (عدة أجزاء) والمختارات التيمورية ، والتذكرة التيمورية وكلها موسوعات تضم عصارات هذه القراءات الضخمة التى عاشها تيمور ربع قرن مبسوطة للقارىء ومنسقة ومبوبة .

فالتذكرة التيمورية (فهارس مرتبة على حروف المعجم فى جذاذات قيدنا بها مانحتاج إلى الرجوع إليه مما وقفنا عليه من الفوائد المنوعة فى

مطالعتنا كمسائل التاريخ وحوادثه والتراجم بأنواعها وأصناف الناس والأمم والطوائف والفرق والبلدان والبحار والأنهار والأماكن كالمساجد والمدارس والمسائل العلمية والأدبية من العلوم المتعددة الخ .

وهى تتمثل فى ٧١٧ جذاذة أدبية كل منها يمثل موضوعا مستقلا موردا كلمة مثلا : (القاهرة) ثم يورد لك عشرات الكتب والمراجع التى تناولت هذه المادة وأرقام صفحاتها فى هذه الكتب . وهكذا تبدو أعماله بالغة الأثر فى مراجعة تراثنا .

* * *

وبعد : فإنك إذا أردت أن تتعرف على الرجل وجدت إنسانا متواضعا ، عاش حياته مؤمناً بفكرته عاملا لها ، متجرداً لما أعتقد أنه الحق ، تعلم فى مطالع حياته فى مدرسة فرنسية هى مدرسة مرسيل ، ثم اتجه إلى العلم وإغرق نفسه فيه بعد أن توفيت زوجه التى أنجبت له محمود تيمور ومحمد تيمور . وآثر بعدها الانصراف إلى (دراسة الفكر) فاتصل برجلين كبيرين لهما أثر كبير فى حياته وفكره ، هما حسن الطويل والشنقيطى . وعنهما تلقى أصول البحث العلمى فى الفقه واللغة والمنطق وغيرها حتى ورثهما فى مجالهما . وكان وقد تجرد للعلم يقول : إننى لا أعرف من السياسة إلا مادة ساس يوس التى أقرأها فى المعاجم ، ويقول : إننى لأستحى أن يقع كتاب فى يدى ولا أطالعه ، وعندما ألف نور الدين مصطفى (الجمعية الطورانية) ودعاه للاشتراك فيها كما دعا غير المصريين من أرنؤد وجركس وترك وكرد قال :

« أنا عضو فى جامعة المسلمين ، أنى ولدت عربى اللسان ، وتأدبت بآداب القرآن ، وكلهم أرناؤودى أو طورانى أو جركسى ، قد نشأوا فى مصر عربا مسلمين لا يعرفون غير العربية لغة والإسلام دينا » .

وقد صور تيمور ارتباطه بأستاذه (حسن الطويل) ورسم صورة اتجاهه نحو الفكر والعلم فقال : أما سبب اجتماعى به وقراءتى عليه فإنى كنت قد

تخرجت من المدارس بعد تلقى مايتلقى فيها من العلوم المعروفة وأنا فى سن العشرين وقد علق بالعقيدة شىء من آثار التربية بهذه المدارس ، إلا أنى كنت مولعاً من الصغر بالإسلام ومحاسنه والمطالعة فى السيرة النبوية ومناقب الأصحاب والخلفاء فكان ينشرح صدرى لأشياء وينقبض لأشياء تعرض فيها شبهات . . فصرت أتردد على كثير من كبار علماء الأزهر وغيرهم لعلى أجد عندهم مخرجا . . حتى أرشدنى بعض الأصحاب للمترجم : (الشيخ حسن الطويل) فأخذت فى السؤال عنه من أهل العلم فكانوا ينفروننى منه حتى بالغ بعضهم ورماه بالزندقة . ثم سعيت فى الاجتماع به ، وسألته القراءة عليه والاهتداء بهديه ، فقرأت عليه العلوم العربية والمنطق ، وأعدت عليه (الصرف) بتوسع وعلوم البلاغة ، ثم قرأت طرفا من الحكمة فى شرح الدوانى على هيا كل النور للسهروردى ، وشرح رسالة الزوراء وغير ذلك . ولما رآنى مجدا فى التحصيل قرر لى درسا ثانيا بعد العشاء كنا نقرأ فيه كتب الأدب ونحوها ، وأنا فى كل هذه المدة أستوضح منه ما أشكل على فيحله لى ، فكان اجتماعى به ومصاحبتى إياه من أكبر نعم الله على فى دينى ؛ وكثيرا ما كان يغضب منى ويؤنبنى إذا رأى منى تهاونا .

وكنا نذهب إلى ضيعتنا فى قويسنا أو إلى حلوان نقضى الوقت فى مطالعة واشتغال حتى فى حالة المشى والتنزه كنت أحمل الكتاب معى وأسمعه منه فيقرر المسائل ونحن سائران » .

وتكشف هذه العبارات عن تواضع العالم ، وبساطته وسماحة نفسه ، وهو ما يصوره الأب أنستاس الكرملى حين قال عنه « فى جميع مكالماته ومفاوضاته كان ينطق بهدوء وسكينة وعلى وجهه إمارات الوقار والاحترام ، وكان إذا رأى منا فكرا أصوب من فكره عاد للحال عما له يتبع ماقلنا به ، ولم نر فيه مايشم منه المعاندة أو المكابرة أو المباهاة أو الادعاء أو الترفع أو التكبر ، بل على العكس رأينا فيه تواضعاً عظيما وحلماً يتلاشى بين يديه حلم الأحنف وعلما وافرا وفى مجال العلم يقول الكرملى : « ووجدنا

فيه من الحافظة قدراً عظيما لاسيما حفظه للكتب المخطوطة والمطبوعة فإنه لايكاد يصدق ، وإذا كان الكتاب مطبوعا فى عدة مدن من ديار الشرق والغرب أعلمك بهما وربما ذكر لك السنين .

وقد كان له مجلس حافل يضم البارودى وإسماعيل صبرى ومحمد عبده وطاهر الجزائرى وكرد على وعبد المحسن الكاظمى .

وقد شارك مع السيد محب الدين الخطيب فى إنشاء جمعية الشبان المسلمين وكان ثالثهم فى الفكرة والتنفيذ العلامه الشيخ الخضر حسين .

وكان لحملة رسالة الأحياء لقاءات ومراسلات وروابط وطيدة وقد ضمت هذه الحلقة أحمد زكى باشا وكرد على وأنستاس الكرملى ولويس شيخو وطاهر الجزائرى وعبد القادر المغربى على اختلاف الوطن والمعتقد وكان لهم جميعاً أثر بالغ فى أحياء التراث العربى وكان تيمور يطلق على كل من أصدقائه اسم واحد من أعلام الفكر القديم ، وقد أتاحت له إجادته الفرنسية والتركية والفارسية والعربية ماحقق من أثر حى باق من مجال الفكر .

من مؤلفاته :

التصوير عند العرب ، نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب ، تصحيح لسان العرب ، تصحيح القاموس المحيط ، اليزيدية : ومنشأ نحلتهم ، البرقيات : للرسالة والمقالة ، لعب العرب ، أعيان القرن الرابع عشر ، الآثار النبوية ، الأمثال العامية ، الحب عند العرب ، خيال الظل واللعب والتمثيل عند العرب ، الرتب والألقاب ، ضبط الأعلام ، الكنايات العامة ، الموسيقى والغناء عند العرب ، الخ .

— ٣ —

أحمد خيرت

(توفى عام ١٩٦٤)

فى شهر إبريل ١٩٦٤ انتهت حياة أشهر مؤلف للأناشيد العربية ، بعد عمل خصب مضطرد خلال أكثر من خمسين عاما فى هذا المجال الحيوى للنهضة ، فقدكانت الأناشيد ولا تزال ، سلاحا قويا فى المدرسة والجيش والحركات الوطنية ، تلهب الحماس وتجمع الكلمة ، وتهز المشاعر ، ولقد صدق القائل (أعطنى نشيد أمة أقول لك من هى) ولقد عاشت الأمة العربية حياة النضال والكفاح ضد الاستعمار والاحتلال والحماية تقاوم بأناشيد نارية العبارة ، سهلة التردد على الألسنة ، جميلة الوقع فى الآذان ربما لم تكتب ، لكنها كانت تنتقل بسرعة البرق من فم إلى فم فتملأ الجوانح إندفاعا نحو الحرية .

* * *

وقد شهدت ثورة ١٩١٩ عددا من هؤلاء الرواد الذين هزوا المشاعر بالكلمات الموحية المثيرة ، وفى مقدمتهم : سيد درويش ومحمود يونس القاضى و (أحمد خيرت) فقدكان إذ ذاك طالبا ثانويا ، وعضوا فى لجنة الطلبة لثورة ١٩١٩ صغير الحجم ، رقيق الجسد ، دقيق الحس ، عاطفيا عصبيا ، لا يهاب ولا يخاف ، يتنقل من مكان إلى مكان ومعه سلاحه « سلاح الكلمة » وقد غذى الثورة بأناشيد ثورية ، كانت كلماتها تتردد والصفوف المتراصة تتحرك بين الأزهر ونادى المدارس العليا ، وفى خلال التجمعات ، وأشهرها مما لا يزال يذكره من شهدوا هذه الفترة :

بنى النيل هبـوا وكونوا يدا   وردوا عن النيل كيد العدا
ولا تحسبوا ما بذلتم سـدى   وصونوا جلال الفدى بالفدا

وكان (أحمد خيرت) يلقى أناشيده فى ثوب (شحاذ) حتى لا يفطن رجال الاستعمار إلى حقيقة أمره ، ووصف إذ ذاك بأنه شحاذ القرن العشرين .

ولم يتوقف (أحمد خيرت) بعد ثورة مارس ١٩١٩ ، ولكنه واصل العمل فى خلال فترة اعتقال سعد زغلول وسفر الوفد المصرى إلى باريس، واستمرار الثورة المصرية فى صورة الاغتيالات والإيقاع برجال الاستعمار وأعوانه بقيادة عبد الرحمن فهمى .

وكانت الأزجال الملحنة فى شكل « مونولوج » تتغير وتتبدل لتساير الأحداث ، وفى سبيل ذلك اعتقل مرارا وكان آخر عهده بالاعتقال (نوفمبر ١٩٢٤) إثر حادث السردار المشهور ومضت أناشيد (خيرت) تسابق الحركة الوطنية فهى تحارب الاستعمار وتحمل عليه وتقاوم الخلاف، وتهاجم الاحزاب التى تخرج عن صف العمل الموحد ، وتتابع فى يقظة كل تطورات الحركة الوطنية .

فإذا بدأت الحياة السياسية الجديدة بعد الثورة ، أخذ يعمل على إدخال الأناشيد ضمن البرامج التعليمية ، فتقدم إلى (وزارة المعارف) بمشروع عرف باسم (المحفوظات الملحنة) واجه صعوبات جمه من أجل تنفيذه ، وكان قد نقل من عمله مدرسا للزراعة بشبين الكوم ، إلى لجنة الفنون الجميلة بوزارة المعارف ، مما أتاح له السعى لتحقيق برنامجه وتركيز دعائمه ، فاتيح له أن يعممه على مدارس القاهرة أولا لقلة الإمكانيات الفنية .

* * *

وفى حياة أحمد خيرت ظاهرتان واضحتان : أولهما (الطبيعة الفنية) فقد درس فى الزراعة العليا وأحرز دبلومها ، وكان فى الإمكان أن يعيش واحدا من رجال هذا الفن ، لولا موهبته الطبيعية التى برزت وفرضت نفسها ، واستطاعت أن تشق طريقها فى ظل حدث من الأحداث الكبرى

هو ثورة ١٩١٩ ثم وجدت مجالها فى إدخال هذا الفن فى المدارس والمعاهد المختلفة .

أما الظاهرة الثانية : فهى « قدرته على الجمع بين النظم والتلحين » فقد كان شاعرا وموسيقارا ، وأغلب أناشيده التى أربت على الألف نشيد هى من تأليفه وتلحينه ، وهو صاحب مدرسة فى هذا المجال ، لأنه تخلص من الطريقة القديمة (طريقة التخت) واختار منهجا جديدا مبسطا سهلا يتيح للطفل والشاب أن ينشد كلماته دون عسر ، وكان لقدرته على الجمع بين النظم واللحن أثرها فى انتشار ألحانه وأغانيه ، فإن معظم أناشيده تتسم بالبساطة والسهولة والجرس الموسيقى .

فهو فى نشيد القوات المسلحة يقول :

أماما أماما جنود الفـــدا	وسيروا إلى النصر تحت العلم
إلى عزة المجد رغم العـــدا	ولا ترتضوا غير عالى القمم
أماما أماما وكل ينـــادى	سلاما بلادى وعاش الوطن

وفى نشيد الأمة العربية :

للأمة العربيـــة	هتف الحماة وكبروا
بالعـزة القوميـــة	وبالاتحاد ســننتصر
الله جمع شملنا	وأتم نورا أنزله
فالمجد والعليا لنا	والحمد والتسبيح له
اللـــه اللـــه	له الحياة تسجد
اللـــه اللـــه	لجنـــده مؤيد

وفى نشيد الجزائر يتجلى طابعه فى البساطة والرنة الموسيقية :

شـباب الجزائر صدوا العـدا	وصبوا عليهم لهيب الردى
ونحن لـكم أخوة فى الفـــدى	إذا ما دعينا أجبنـــا النـــدا
قهرتم بإيمـانكم من عـــدا	وأنتم أولى العـز طول المـدى

أخى فى الجهاد، أخى فى النضال ... أخى فى الجهاد،أخى فى أوهاد
إذا لم أسر فى صفوف القتال ... فهذا جهادى عتاد ومال
كفاح الجزائر أعلى مثال ... وقهر الجزائر أمر محال
وعزم الجزائر يوم النضال ... سيمحو ويمحق كل احتلال

وهكذا يتطور أحمد خيرت بأغانيه وأناشيده وموسيقاه مع الأحداث فى مرحلة طويلة بدأت فى ثورة ١٩١٩ ، وامتدت إلى ثورة الجزائر والقومية العربية خلال خمسين عاما يستجيب للأحداث فى محيطنا العربى الكبير ويخطو مع النهضة والثورة خطواته التى لا تتوقف ، وفى عيد الأم نراه مشاركا :

إلى الأم نهدى ندى الزهر ... وللأم ننشر خير السير
فكم ضمنا صدرها فى الصغر ... وكم حاطنا ظلها فى الكبر
رضاؤك يا أم حصن حصين ... دعاؤك يا أم فتح مبين
وأنت الحنان وأنت الحنين ... وأنت السعادة للعالمين

وأمامى ثبت طويل عن الأناشيد التى ألفها ولحنها فى موضوعات شتى : الصياد ، العلم ، دعاء طفل ، نشيد البوليس ، نشيد الطيران ، شكرا لله ، الطيور تستقبل الصباح ، العزة الشماء ، عم يا خباز ، يا بايع الفطير ، أنشودة القطن ،أنشودة المشمش، أنشودة الحجاج ، مملكة النحل ، البحارة، قطار الرحمة ، أفراح النيل ، نشيد الهجرة ، الصلاة ، الجيش السودانى ، المولد النبوى ، العنب ، الزهر وعشرات غيرها . . .

وكلها تدل على مشاركة روحية كاملة لكل ما تضمه هذه البلاد فى مجالات الطبيعة ، والحياة والوطنية ، والزراعة ، والفنون ، ومن استهلالات هذه الأناشيد تبدو طبيعة أحمد خيرت الهادئة الموسيقية المشرقة :

الصلاة الصلاة أطلبوا عون الاله
حن قلبي لبلادي يارجال فمتى يوم الوصال
تجات انعم المولى فقولوا جل من أولى
عزم أسد البحار من حديد ونار
بالله ياشمس لاتغيبي عن جنة المشمش الرطيب
شجرة القطن خبريني متى أرى التبر عن يميني
إمنح العصفور ريشاً وكذا الينبوع ماء

وهكذا تبدو براعة الاستهلال والبساطة فى هذه الأناشيد الحلوة التى عاشها كثير منا فى مطالع شبابه وغناها .

* * *

ولقد عاش أحمد خيرت حياة عملية خصبة مجلجلة ، راعياً لأمانته هذه منميا لها كلما أتيح له أن يرتقى وتكبر مسئوليته حتى بلغ منصب ، « كبير مفتشى الأناشيد بوزارة التربية والتعليم » وغمر المدارس بأناشيده ، وقدم عشرات الاستعراضات على مسرح معهد الموسيقى العربية ،ودار الاوبرا ، والكثير من المدارس ، وأدخل الأناشيد الجماعية أول مرة عام ١٩٢٨ بنشيد من تلحينه ألقاه أربعة آلاف طالب ظل يدربهم عشرة أيام ،واتسع نطاق هذه الأناشيد الجماعية حتى بلغت عشرة آلاف طالب .

وكما غذى أحمد خيرت ثورة ١٩١٩ ، اهتز لثورة ١٩٥٢ وعاشها بوجدانه وشاركها فى أحداثها وانتصاراتها بعشرات من الأغانى والأناشيد ، كما أمد ركن الأطفال فى الإذاعة فى مختلف عهوده (أبله زوزو وبابا صادق وبابا شارو) وكان يمهد للبرنامج بنشيد صغير :

هل تعلمون تحيتى عند الحضور إليكم
أنا إن رأيت جماعة قلت « السلام عليكم »

وساند كثيراً من النابغين والنابغات فى مجال النشيد والألحان أمثال فايده كامل ونجاة الصغيرة ، ولم يقتصر على تلحين الأناشيد الوطنية ، بل نظم ولحن الأناشيد — العاطفية ، وســاهم فى النهضة المسرحية : نادى أحياء التمثيل العربى ، والنسر الذهبى والمعارف ومنتخب المدارس . واعتلى خشبة المسرح ممثلا هاويا ، وأبرز أعماله أوبريت (أدى يومنا) التى ألفها ولحنها ومثلها مع زملائه أعضاء نادى منتخب المدارس على مسرح جورج أبيض ورواية (أحمد وحنا) أبان ثورة ١٩١٩ ومثلت على مسرح الاوبرا .

وهكذا انطوت حياة خصبة عريضة لرائد من رواد الأغنية والنشيد والموسيقى ، وهب حياته لوطنه وكان رمزا على الخلق والاخلاص ، كان قد ولد فى ٢٤/٥/١٨٩٩ بحى السيده زينب بالقاهرة بحى الدقى بعد أن احيل إلى المعاش عام ١٩٥٩ وكرمته وزارة التربية والتعليم إذ ذاك فطبعت الكثير من أناشيده التى نظمها ولحنها أطوال عمله بها فى مجموعة وزعت على المدارس .

والحق إن حياة أمثال هؤلاء الرواد فى حاجة إلى دراسات واسعة ومراجعات شاملة لإنتاجهم وأثارهم تؤرخ بها النهضة الفكرية والفنية فى بلادنا ، ونحن نتطلع فى هذا المجال إلى المجلس الأعلى للآداب والفنون الذى يستطيع أن يحقق هذه الأمنية .

توفى فى ١٥ أبريل ١٩٦٤

مولفاته وآثاره : مجموعات الأغانى والاناشيد

— ٤ —

أحمد زكى

(١٨٦٨ — ١٩٣٤)

يعطينا (شيخ العروبة) صورة المحارب بالقلم ، الرجل الذى شرع قلمه ليدافع عن الأمة العربية خمسين عاما . يدافع عن لغتها وتاريخها ، ما من قلم كتب وأخطأ إلا وكان أحمد زكى له بالمرصاد ، يرد عليه ويصحح له : وقته كله ملك للعلم فى صومعة تضم الألوف من الجذاذات ، ومعه عقل طيع وعاطفة متحمسة ، وجسد صحيح ، وقلب خافق ، وثلاث لغات يجيدها ، ومال ينفق منه فيذهب إلى أقصى الأرض بحثا وراء المخطوطات فيشتريها بما شاء أصحاب مكتبات استانبول وفرنسا وألمانيا أو ينقلها بالفتوغرافيا ، ثم يصلح حواشيها ويجدد شبابها ويحرر أخطائها وينظم لها الفهارس ، ويعلق على ما يشاء منها ، ويحضر المؤتمرات ويناقش المستشرقين ويقدم لها كشوفه التاريخية والأدبية ، فتح باب الدعابة فى الكتابة وقسا فى النقد إلى أشد حالات العنف وأدخل إلى العربية طريقة الترقيم الأفرنجية والاختزال ، وعمل على إصلاح الحروف العربية بمطبعة بولاق الأميرية وهذب لغة الدواوين وخلصها من العبارات الركيكة والكلمات التركية وعمل فى الجامعة سكرتيرا وأستاذا ، وطوف بالأندلس والحجاز ، وذهب إلى أقصى الأرض وعاش حتى لحظاته الأخيرة يكتب ويقرأ ويراجع .

* * *

عاش أحمد زكى (باشا) حياة خصبة للفكر والعلم والأدب والتاريخ واللغة ، عاشها بالطول والعرض والعمق : باحثا فى أعماق الكتب بالغا إلى قرار هوامشها وزواياها ، ذاهبا فى الآفاق إلى كل مكان يجد فيه كتابا عربيا ، يبدأ تاريخ حياته الفكرى بحضور مؤتمر المستشرقين ١٨٩٢ ويظل حافلا متصلا إلى وفاته

عام ١٩٣٤ ، فى رحلة طويلة وسياحة متصلة خلال أربعين عاما كاملة ، كان فى خلال الفترة الأولى منها يقضى يومه كله فى عمل متصل ، عمل مترجما بقلم المطبوعات فى وزارة الداخلية ١٨٨٨ واشتغل بالتحرير والترجمة فى الوقائع المصرية ثم نقل إلى منصب مترجم فى مجلس النظار ١٨٨٩ وانتدب للترجمة فى المدرسة الخديوية حتى بلغ منصب سكرتير ثانى مجلس النظار ١٨٩٧ فسكرتيرا عاما ١٩١١ وظل كذلك حتى أحيل إلى المعاش ١٩٢١ .

فى خلال هذه الفترة بعد إنتهاء عمله الرسمى كان ينتقل إلى خزانة كتبه فغذاؤه وعشاؤه فى تلك الخزانة محبوسا بها . . . ومنذ عام ١٩٢١ تفرغ لها لم تشغله غير رحلاته وكتاباته فى الصحف وإعداد أبحاثه .

* * *

وقد أتيح له خلال عمله فى مجلس النظار أن يهذب لغة الدواوين ويخلصها من العبارات الركيكة والاصلاحات القديمة فأعاد بهجة دواوين الإنشاء فى عهد الأيوبيين . ومن أهم الكلمات التى أذاعها: الدراجة والسيارة ، وعرف بقدرته الفائقة على الترجمة الفرنسية على البديهة ، وكان بارعا فى الأسبانية والإنجليزية فضلا عن لغة الضاد ، سبق ســــائر العلماء وفضلهم باستعماله الجذاذات (الفيش) ترى فى داره خزانات تملؤها بطاقات مرتبة على حروف المعجم . كل طائفة منها على حسب الفن أو الباب الذى يرجع عليه وكان هذا سر قوته فى الرد السريع على كل ما يعرض من أخطاء حول أسماء المدن العربية أو المواقع أو التحقيق التاريخى .. اشترك فى مؤتمر المستشرقين الدولى فى لندن (٨ سبتمبر ١٨٩٢) ومؤتمر المستشرقين ١٩١٠ مع أحمد شوقى وحفنى ناصف وأحمد السكندرى ، كما زار جنيف سنة ١٨٩٤ وهمبرج سنة ١٩٠٢ وأثينا سنة ١٩١٢ . وعمل فى الجامعة المصرية الأهلية سكرتيرا وأستاذا .

* * *

وسافر وسيطا بين ملوك العرب ، وزار الشام وحلب ١٩٢٤ واليمن والحجاز ١٩٢٦ ، وبيت المقدس ١٩٣٠ ، وزار الأندلس فى رحلته الأولى

١٨٩٢ وتنقل بين غرناطة وحمرائها وأشبيليه وقرطبة باحثا منقبا . وسافر إلى باريس ١٩٠٠ وحين قصد إلى فلسطين حمل معه مسودة كتاب (مسالك الأبصار لابن فضل الله) فكان يقرؤها على بعض علماء القدس الأثريين ، ويقارن بين ما ورد فيها من وصف آثار القدس وما هو موجود فى وقته . وكان له دفاع عن قضية البراق الشريف فوضع لها دراسـة شاملة فى لغة فرنسية عالية ، مستندا على أمهات الكتب التاريخية الأدبية . وكان إلى ذلك عضوا فى مجلس الأزهر باعتباره سكرتيرا لمجلس الوزراء ، وقد روى مصطفى عبد الرازق أنه كان ظهيراً للمناضلين عن استقلال الأزهر ،وأبعاده عن تنازع السلطان . بل كان هو المدبر فى السر بين اثنين من أصدقائه لاشتراك هيئة كبار العلماء ومجلس الأزهر فى الحركة الوطنية اشتراكا رسمياً ، وقد حيكت من أجل ذلك وشاية أخرج على أثرها من مجلس الأزهر الأعلى وعزى إليه أنه صاحب الدعوة إلى فكرة الرابطة الشرقية على أن تصبح جامعة بين الأمم الإسلامية « إذ لا نزاع فى أن الشرق سيظل شرقا بيمنه وبركته ومفاخرة » ، وهو يرى « أن من الخير لمصر أن تكون رأسا لشقيقاتها وجاراتها من بلاد الشرق وأمم العروبة من أن تكون ذنبا لبلاد الغرب وأممه » .

* * *

وكتب أحمد زكى (باشا) مئات الدراسات والمقالات والمراجعات وكان مجاله الأوفى فى جريدة (الأهرام) خاصة فى الفترة من (١٩٢١ — ١٩٣٤) وله كتابات متعددة فى المؤيد والبلاغ والسياسة والهلال .

والواقع أن أحمد زكى (باشا) لم يعالج موضوعا واحدا على نحو التأليف العلمى الموسوعى وإنما كان قوة كبيرة لا تدع كلمة تقال دون أن يعلق عليها مصححا أو مراجعا أو مضيفا ، وغايته البحث عن المدفون والكشف عن المجهول من الأفكار والآراء والنوادر والتواريخ .

وله فى ذلك رسائل متعددة منها : « وصف مجالس الندابات » حين جمع أ كثر من ألفى بيت من مراثيهن .

وقد فاجأ العلماء فى مؤتمر المستشرقين الأول بكتاب « الأصنام » لأبى المنذر هشام بن محمد وأطلعهم عليه وهو كتاب مفقود لا توجد منه إلا النسخة التى كانت معه . كما حصل من دمشق على كتاب « مثالب العرب لأبى المنذر » وحصل من اليمن على « الأكليل » للهمذانى .

وقد أتيح له أن يقدم كتبا مندثرة مثل «الأخلاق للجاحظ» ، والمسالك والممالك للعمرى وتجارب الأمم لابن مسكوبة ، ونهاية الأرب للنورى ، وصبح الأعشى للقلقشندى . وأهم مشروعاته الفكرية التى جدد بها شباب اللغة العربية والأدب العربى هى :

* إصلاح وتحسين الحروف العربية بمطبعة بولاق الأميرية .
* إحياء الآداب العربية حيث قدم عشرات المخطوطات إلى دار الكتب .
* إدخال طريقة الترقيم الافرنجية واستخدامها فى الكتابة العربية .
* أدخل طريقة الاختزال فى الكتابة العربية .

كانت له فى خلال حياته الفكرية الطويلة مساجلات ومعارك أدبية وتاريخية متعددة مع كثير من أعلام الفكر والمؤرخين .

وكانت « المناظرة » هى الفن الذى برع فيه كما يشهد تلميذه بشر فارس .

وأسلوبه فى كتاباته ومناظراته ساخر فيه هزل وتقريع ، وقد تحدى العلماء بالحجة والعبارة الساخرة العنيفة .

وليس أشد من إيمانه بنفسه ، وثقته بمراجعة من قوله :

« عنى وعنى وحدى خذوا النبأ الصادق . فعندى وعندى وحدى الحجة الصادقة والبرهان القاطع » .

أنا الطائر المحكى وغيرى هو الصدى ودع كل صوت غير صوتى فإننى

ولم يكن أشد منه غيرة على تاريخ العرب والإسلام ، ومقاومته لكل من يهاجم هذا التاريخ . فيرد على « اسماعيل صدقى » الذى قال : إن عصر الماضى كان عصر انحطاط . يقول : أيظن أن عصر صلاح الدين عصر إنحاط . أو عصر الناصر محمد بن قلاوون ، ليس على وجه البسيطة مفخرة للإسلام فى العمارة ، مثل جامع السلطان حسن ، ومثل قصر الحمراء فى غرناطة ، هل نسيت أن دولة المماليك هى التى جعلت القاهرة أجمل متاحف العالم ، بما أنشأته من مساجد وقصور وعمائر ، أم هل فاتك أن أكبر الموسوعات العربية قد ظهرت على ضفاف النيل أيام الناصر محمد بن قلاوون ، أما عصر الإنحطاط المصرى الصحيح فهو الذى كانت بدايته مجىء الأتراك العثمانيين فاتحين غالبين ناهبين مدمرين » .

* * *

ويوجه الكلام لأحد مساجليه فيقول : إنه شهد الله لايجارى جهلة المترجمين فى تحريف الأسماء العربية التى هى العنوان الخالد لمجد الإسلام ولفخامة الحضارة العربية .. إننى لمحزون إذ أرى قومى والكاتبين باللسان العربى المبين لايزالون متغافلين عن تراث أجدادنا الباقى لنا ، إذ أراهم يعتمدون على الغريب عنها ويتطفلون على الأفرنج حتى فى نقل الأسماء التى يجب أن نحتفظ بها ليكون لنا منها ذكرى تنفخ فينا ذلك الروح القوى الذى جعل لأجدادنا مقاما كريما فى الأولين) .

وقد صور رحلته إلى أوربا والأندلس التى استمرت ستة شهور (بدأت فى أغسطس ١٨٩٢ وانتهت فى فبراير ١٨٩٣) حيث قال :

« لاقيت حر أوربا وحرارته كأشد ما يكون ، وقاسيت بردها وصبارته فوق ما يقدر عليه شرقى مثلى تغرب فى أوربا لأول مرة ، زرت بضعة من عواصم أوربا هى روما وباريس ولوندره ولشبونة . وزرت أكثر من

أربعين مدينة زيارة تدقيق وتحقيق وتعلمت لغة أهل الأندلس الحالية حتى توصلت إلى الكتابة والخطابة بها على قدر إمكانى » .

ويقول إنه « نال شرف المثول بين أيدى ملكة الأندلس دينا ماريا كرستينا أم الفونسو الثالث عشر : لاطفتنى وتكلمت معى فى أشتات من العلوم والأدبيات حتى بهرتنى من كثرة إطلاعها ، ودار الحديث مليا على اللغة العربية وآثارها وآثار العرب بأسبانيا وطالبتها بالكشف عن بقايا مدينة الزهراء التى أنشأها عبد الرحمن الناصر » .

* * *

تنقل أحمد زكى باشا بين أسلوب السجع والمحسنات وبين أسلوب البحث العلمى ، ثم غلب على أسلوبه روح السخرية والفكاهة وظل يتطور حتى بلغ أسلوبه الذى عرف به أخيرا وهو فى مقدمة من فتح باب الدعابة فى الأسلوب الحديث . يحلّى أسلوبه بالسجع ليجعل عبارته بهيجة مرحة ، ومن أمثلة ذلك وصفه لأكل الضفادع فى باريس :

قال : فوسوس إلى إبليس بالتجربة وانضمت إليه النفس الخبيثة وهى أمارة بالسوء ولكن طبعى بقى مصراً على العناد والنفور ، فاشتبكت المحاورة والمناظرة بين الطرفين . وأنت تعلم أن (ضعيفان يغلبان قويا) فما بالك إذا كان من القوة والبأس بمكان إبليس والنفس وكان خصمهما من الضعف بدرجة الطبع وكان غلابا ، فها قد أصبح مغلوبا ، والخلاصة أننى طلبت الخادم وأمرته باحضار هذا الطعام .

نعم ، نعم ، طلبت هذا النوع ، وأعنى به أبا هبيرة والعلجوم فاحضر لى طبقانى وسطه شىء مشتبك مرتبك . يشبه العقرب سوى أنه أبيض ، عظام دقيقة صغيرة تكسو أطرافها لحوم خفيفة مستديرة ، وكلها على شكل مختلط مختبط يزيد فى الكراهية والنفور .

فاصطكت أسنانى وانطبقت أجفانى وحولت وجهى برعدة من رأسى ،

فجاءة أبو مره وقال لى : جرب هذه المرة — ما هو المانع العقلى والشرعى من أكل الضفدع . أليس البدوى يتلذذ بالتهام الجراد ، أليس الرفاعية يأكلون الثعابين . أليس الرشيدى يتفكه بأكل أم الخلول ، أليس الاسكندرى يهيم غراما ببراغيث البحر (الجمبرى) أليس ساكنوا السويس لهم تجارة كبيرة بالسرطان (أبو جلمبو) ، أليس الفلاح فى صعيد مصر يتحيل بكل وسيلة لاصطياد فار الغيط حتى إذا أصابه انقلب إلى أهله فرحا مسروراً وصنع وليمة للعيال والجيران ويكون فى القرية عيد مشهور . . »

وقد أثار فى مؤتمر المستشرقين (فينا ١٩١٠) مسألة تتعلق بأمانة النقل عن الأسلاف ، وهل يجوز لطابع كتبهم القديمة أن يتصرف فى نقله بالحذف والإصلاح والتهذيب ، أويبقى الأصل كما ورد ، وقد أقر المؤتمر رأيه فى ابقاء الأصل على حاله الطبيعى .

ووصفه صديقه الدكتور أحمد عيسى بأنه « منذ عرفته ما رأيته تناول غذاء ، أوعشاءه فى حريمه إلا أن كان مريضا ، وقد عرف ببساطة الكريم العربى وما من مستشرق تطأ أقـــدامه أرض مصر حتى يسعى لرؤية زكى باشا » .

٭ ٭ ٭

هذا وكان شيخ العروبة عصبي المزاج سريع الغضب سريع الرضى ، قلقا متحركا ، كتب عن نفسه فقال : (ولى كل يوم موقف ومقالة) قاطع الطربوش النمسوى أيام حرب البلقان ولبس طربوشا مغربيا ، وهو صاحب الدعوة إلى (مصريون قبل كل شيء) للتوحيد بين العنصريين ، وهو الباحث عن تاريخ بيت المقدس وقد حبس نفسه ثلاثة شهور باحثا ومنقبا ، وارتفع ضغط الدم عنده تحت وطأة البحث ، قال : تأثرت حين وصلت فى دفاعى إلى نقطة تسامح المسلمين إبان قوتهم وإزدهار أيامهم ، واعتدادهم بعظمتهم ، بينما هم الآن تجمد حقوقهم ويظلمون لأنهم ضعاف متخاذلون ، وما

ارتفع ضغط الدم عندى إلا عندما وازنت بين الأمس اليوم وذكرت قول الشاعر .

وبينـــا نسوس الناس والأمر أمرنا
إذا نحن فيهم ســـوقة تتنصف

* * *

وبعد فقد كان أحمد زكى (باشا) قوة من قوى الأمة العربية ، عاش ماجداً وترك تراثا ضخما ما زال مبعثرا فى مجلدات الصحف ، وترك مكتبة ضخمة ما تزال محبوسة فى غرفات دار الكتب بالقلعة .

توفى فى (٢ يولية ١٩٣٤) .

من مؤلفاته وآثاره :
السفر إلى المؤتمر . موسوعات العلوم العربية ، الدنيا فى باريس .

— ٥ —

الدكتور أحمد فؤاد

(١٨٨٦ — ١٩٣١)

الدكتور أحمد فؤاد واحد من جيل من المفكرين المجاهدين الذين مروا بتاريخ مصر فى فترة من أدق فتراتها تتماثل صورهم وتتشابه أخلاقهم ومفاهيمهم ، كأنما هم أبناء أسرة واحدة ، تتسم شخصياتهم بالتضحية والوفاء وعمق الإيمان وعزمة اليقين وقوة الأحرار ؛ عاشوا فى مرحلة « الوطنية » من تاريخ مصر ، مجاهدين ، مشردين ، بين الكفاح والسجن والهجرة ، ومن هؤلاء : عبد العزيز جاويش ، يحيى الدرديرى ، وأمين الرافعى وأحمد وفيق ؛ وهم وإن بدا لكل فهم طابع مفرد ، إلا أنهم يتماثلون فى هذا المعنى العام الذى يجمعهم ؛ ذلك هو الإيمان بالحرية وحق هذه الأمة فى الحياة والتبريز والوصول إلى مكانها المرموق .

* * *

تتمثل فى حياة أحمد فؤاد ، مقومات الذكاء والخلق والتضحية ، وقد عاش متصل الكفاح ، عمل فى المجال السياسى الوطنى ، وفى المجال الثقافى الدينى وشارك فى إنشاء جمعية الشبان المسلمين ، ودعا إلى (الجلاء) كما دعا إلى وحدة وادى النيل ، واحتمل فى هجرته صنوف العذاب والمشقة والإرهاق ، فلما عاد كان آية البذل والتضحية من أجل الفقراء والمرضى من رواد عيادته ، وهو إلى ذلك العلامة المتوفر على البحث والإطلاع والثقافة .

* * *

وقد كان شأنه فى ذلك ، شأن النوابغ من أفراد جيله يجمعون بين التفوق فى الدراسة والاشتغال بالحركة الوطنية ، اتجه إلى دراسة الطب . فأوغل فى دراسته دون أن يتخلى عن إعتلاء منبر نادى المدارس العليا

جامعا بين الخطابة والكتابة ، موضوعا فى قوائم خصوم الاحتلال حتى يقع حادث الوردانى عام ١٩١٠ فيتهم ، ثم يثبت أن لاوجه لإقامة الدعوى عليه ، فيحرم من تلقى الدراسة فى المدارس المصرية ، هنالك يهاجر إلى الأستانة ، فيلتحق بمدرسة الطب بها دون أن ينقطع عن العمل للحركة الوطنية ، ويمضى يراسل اللواء والشعب والعلم وهى صحف الحزب الوطنى. فلما هاجر الشيخ عبد العزيز جاويش عام ١٩١١ عمل معه وشارك فى إصدار صحيفته ، وعملا معا إصـــدار جريدة (العلم العثمانى) وعاشا معا فى تركيا يعملان لمصر ، وللإسلام ، وكان يرعى إخوانه أعضاء الحزب الوطنى المنفيين المشردين إلى أن أعلنت الهدنة ، ودخل الخلفاء الأستانة ، ومن ثم غادروها جميعا إلى برلين عن طريق روسيا ، وكان له الفضل فى إعداد المؤونة والزاد لهم ، فقد اشترى بجميع مايملكه من النقود خبزا وزيتا وعسلا ، حمله معه ، — ومضى يوزع عليهم أثناء السفر الطويل ، ولولا خبرته تلك لأهلكهم البرد فى شتاء روسيا القارس وهم يعبرون من تركيا إلى ألمانيا . وفى أوربا ، أقام فترة فى ألمانيا ، ثم رحل إلى ميونخ عاصمة بافاريا مع بعض إخوانه واتصل بكثير من علماء ألمانيا ، وكان بيته فى ميونخ : موئل إخوانه ، يرعاهم ، ويقدم لهم كل مايملك من معونة ، ولقد كانت داره إلى ذلك كعبة المصريين وقبلة المعوزين ، كما وصفها بعض زملائه ، يرى المودة فوق جمع المال وهو الطبيب الناجح الذى منح كل دخله لهؤلاء الأبرار.

* * *

وكان إلى ذلك مشتعل الفكر قوى العارضة ، لا يذل ولا يرضى التبعية ، يتمثل ذلك فى موقفين واضحين له : عندما حاول بعض رجال الحكومة الألمانية أن يتخذوا منه عونا لمحاربة بعض الأحزاب فأبى ، وقال : أن واجب الضيافة يحتم عليه أن يكون محايدا ، ولا يكون من عوامل الانشقاق .

وعندما أحس بأن أوربا تريد أن تجعل ثمن الاستقلال لمصر ولاءاً فكريا

لها ، وكانت إجابته : (أن ديوننا لعلماء أوربا لا يمكن أن تكون بحال من الأحوال ثمنا لاستقلالنا ، فإن الاستقلال لاثمن له ، أما العبودية لها فذلك هو المستحيل ، إننا لانقبل أن نعيش فى نور العلم مع الاستبعاد ، ولا يتعلم المرء إلا ليزداد تقديرا ومعرفة لكرامة الإنسان وحقوقه » .

ولم يمض الدكتور أحمد فؤاد أيامه سدى فى أوربا ، فقد اشترك فى المجمع العلمى لمقارنة المدنيات فى ألمانيا واختير عضوا فيها ، واتخذ من موضوع «وحدة الحضارة المصرية والسودانية » موضوع دراسته وقد وسع فى هذه الفترة مطالعاته فى الأبحاث الاجتماعية والسياسية والتاريخية وأنفق على شراء المؤلفات قدرا كبيرا من المال ، واستطاع أن يجمع عددا كبيرا من الوثائق والحجج ، التى تؤكد أن المصريين والسودانيين « شعب واحد فى نظر العلم والتاريخ » ونشر عن ذلك مقالات عديدة فى الأهرام ، كانت تورد على هيئة افتتاحيات ، وقد جعل ذلك أبرز اهتماماته بعد عودته إلى مصر عام ١٩٢٤ ، وكان قد أمضى أربعة عشر عاما فى مهجره ، أحرز فيها أعلى الدرجات الطبية من جامعة برلين فى الأمراض الباطنية ، وكانت قضية فى وادى النيل تمر بأدق أدوارها ، وهو كطبيب كان يصور مصر والسودان على أنها جسد واحد ، رأسه المفكر الناظر مصر وجسده الفعال السودان ، وقلبه النابض وشريان حياته هو النيل .

وقد مضى يورد من الأدلة والأسانيد والوثائق العلمية المنقولة عن أمهات كتب — أساتذة الغرب المجردين عن الهوى وعن الولاء الاستعمار ما يثبت هذه الدعوة ويؤكد الوحدة العريقة بين جميع سكان النيل ،المتمثلة فى هذه العلاقات المدنيةوالدينية المتينةالتى كانت قائمة منذ فجر التاريخ ، ومنذ أن انتقل الإنسان من الهمجيةإلى أولى درجات الحياة الاجتماعيةإلى اليوم ، قوية ، محكمة العرى والأمشاج .

وقد جعل حملته هذه فى مواجهة المعاهدات البريطانية ، مهاجما

اتفاقية السودان التى عقدها كرومر سنة ١٨٩٩ ، ومشاريع معاهدات ملنر وكرزن .

وقد تناول الدكتور أحمد فؤاد فى دراسته هذه الروابط الأكيدة بين مصر والسودان مدللا عليها بمختلف الوثائق ومن بينها : التوراة والقرآن ، والمراجع العلمية القديمة والحديثة والكتابات والنقوش المحفورة على الآثار والأحجار ، وخلص إلى إقرار حقيقه أساسية هى : (إن وادى النيل — كان منذ أقدم عصور التاريخ بلادا واحدة جنسا ولغةودينا وعوائد ، وإن كل هنالك من الفارق هو فارق اللون ، وهذا ينشأ عن اختلاف الإقليم ، فمن سكن أعالى النيل وتعرض لحرارة شمس خط الاستواء المحرقة أشعتها ، إسودت بشرته على توالى الزمن والسلالة ، أما من قطن الأقاليم الشمالية من الوادى فيخالف الأول فى بياض بشرته ، ثم إن بين ذلك درجات تزداد فى السمرة كلما قربت الديار من خط الاستواء ، وهذا شىء طبيعى يحدث فى كثير من الممالك الطويلة الشقة من الشمال إلى الجنوب كالهند وبلاد العرب وغيرها ، وليس معنى حدوث ذلك إختلاف الجنس كما يزعم دعاة الاستعمار ،إن أقوال علمائهم كالاستاذ (اليوت) وهو أكبر ثقة فى علم فحص العظام بالبلاد الانجليزية بل ومن أقدر أساتذة العالم فى هذا الباب وتقريره بعدم وجود فارق بين الهياكل المصرية والسودانية من حيث الجنس وإنها جميعا إفريقية لأكبر دليل يدحض مايدعون ، لقد أجمع علماء التاريخ وجنسيات الشعوب على وحدة وادى النيل وأهله فى الجنس والدين واللغة والثقافة حتى فى طريقة البناء وكثير من المصطلحات والعادات .

وقال إنه تجشم الكثير من النصب والسهد فى جمع هذه الوثائق ليدحض مقررات الاستعمار وليدفع الباطل بالحق » .

ولقد كانت قضية « وادى النيل » من القضايا السياسية والوطنية

والثقافية الهامة فى مطالع هذا القرن ، وبعد السيطرة البريطانية على السودان إسميا برسم مصر وبريطانيا ، وفعليا بالنفوذ البريطانى .

وقد شغلت هذه القضية كثيراً من الباحثين الذين خصصوا لها وقتاً وجهدا كبير وفى مقدمتهم الدكتور أحمد فؤاد ، والدكتور محجوب ثابت، وهذا الأخير قد نشر عشرات من الأبحاث العلمية والتاريخية حول هذا الموضوع ، هذا بالإضافة إلى مايتمثل فى خطاب وكتابات ودراسات المثقفين السودانيين وهو موضوع جدير بالاستيعاب والإحاطة كجزء من صفحات الثقافة العربية .

ولما كان الاستعمار والنفوذ البريطانى قد حاول استغلال بعض نظريات الأجناس ودراسات التجزئة العرقية والقبلية والدموية وسيلته إلى فصل أجزاء العالم العربى كمصر والسودان ، والمغرب العربى بأقطاره الأربعة ، وبين العرب والبربر ، وبين شمال السودان وجنوبه ، فقد حق أن يتصدى لهذه الأبحاث دارسون علماء يأخذون منهج البحث العلمى ويعتمدون على النصوص والوثائق والأسانيد ويكشفون عن زيف النظريات التى حاول الاستعمار تبنيها ، وخطأ النتائج التى استخلصت يبرزوا الحقائق التى تهدم محاولات التجزئة وتقطيع أوصال الوطن الواحد .

* * *

عاش الدكتور أحمد فؤاد حياته من أجل فكرتين : الفكرة الوطنية متمثلة فى مقاومة الاحتيال ، والفكرة الوحدوية بين أجزاء الوطن النيلى ، وقد استوعب من أجل الدفاع عن الجلاء والوحدة النيلية الأبحاث المختلفة فى مجال التاريخ والآثار والقانون والسياسة فكان على قدر واسع من الذكاء والفهم ، وقد أولى تاريخ مصر القديم والحديث اهتمامه أساساً ، وأتاحت له قدرته فى الأحاطة بعدد من الغات كالتركية والفرنسية والألمانية والانجليزية ، هذا التوسع والتعمق .

وقد جمع إلى هذه الثقافة ، براعته كطبيب وتفوقه كنطاسى ، مع إيمان بالله وفهم عميق للإسلام ، والثقافة العربية ، ولم يقف أمره عند دراساته فى وحدة وادى النيل ، بل كانت له رسالة عن (الشفرة عند العرب) وكان قد وجد أصولها فى دار الكتب المصرية ، فعمد من خلالها إلى إستخراج القواعد المعروفة الآن فى العالم الحديث من نظام المكاتبات المعروفة بالشفرة والتى اعتمد فيها الإفرنج على الأصول التى عرفها المسلمون قبل ذلك بقرون عديدة ، كما كان يعمل فى سنواته الأخيرة فى إعداد دراسة عن « الشعوب العربية فى جزيرة العرب » وبالجملة فقد كان نموذجاً ثقافياً عالياً وصفه الدكتور الدرديرى فى مجال وفرة الإطلاع والبحث فقال : « كنت ممن عاشره وساكنه فى أوربا ومصر ، فكان لا ينقطع عن المطالعة سواء فى الناحية السياسية أو العلمية أو الاجتماعية وكثيراً ما كنت أنصح له بالهوادة فى إطلاعه الواسع) .

* * *

أما فى حياته الخاصة فقد كان مثلا للخلق والإيثار ، عرف بالمروءة ، متواضعاً فى خلقه ، وكان حجة فى فنه ، ثقة فى طبه ، رحيما بمرضاه ، يقول : لو إن الله بسط فى رزقى ما أخذت أجراً من مريض أبداً ، فالأجر من المريض المحتاج تعافه النفس، وأنا لا آخذه مختاراً ، ولما كثر المترددون على عيادته ، أشار عليه البعض بمضاعفة أجره أسوة بزملائه المشهورين فأبى ، وأصر على إبائه ، وقال : لن أرهق المريض بالأجر والمرض معاً ، ولا أستطيع أن أوصد بابى دون الفقراء والضعفاء .

وكان الدكتور أحمد فؤاد عفيفاً قنوعاً زاهداً فى زخرف الدنيا وبهجتها ، وقد بلغ أحياناً دخله فوق المائة من الجنيات فى الشهر كان ينفقها جميعاً ، وقد عاش فقيرا ومات فقيراً فقد كان يعالج مرضاه ويشترى لهم الدواء أحياناً ، ويعالج جميع النازلين بمصر من أهل العالم الإسلامى والأمة

العربية دون مقابل . وقد صور صديقه أحمد توفيق منهجه فى حياة ومفهومه للنهضة فى عبارات دقيقة ، قال : « كان يريد أن تستعيض بلادنا بالتربية عن الكبرياء وبالمبادىء عن العبارات ، وبأداء الواجب عن تكلف المجاملة ، وبسيادة العقل على استبداد الأوهام ، وبعصمة النفس عن خبثها ، وبحب المجد عن حب النقد ، وبالجرأة عن الدسائس ، وبالنبوغ عن حضور الذهن ، وبالحقيقة عن الزهو ، وبروعة السعادة عن حلل المنفعة » .

ولاشك تعطى هذه المفاهيم صورة العالم المتصل بواقعية الحياة ، والذى لايتعلق بالمثاليات الذهنية ، والذى يقيم مفاهيمه على أساس الجمع بين الإيمان والعمل ، والعقل والقلب ، والمزج بين القيم الأساسية للنفس الإنسانية والاتجاه مع العصرية والإيجابية .

وقد حاول الدكتور أحمد فؤاد أن يكون بحياته نموذجاً لهذا الخلق الذى رسمه فكان فى مختلف مراحل حياته وطنياً ، وسياسياً أو كاتباً وخطيباً ، أو طبيباً وعالماً من أولئك النماذج القليلة التى لاتتطلع إلى الجزاء أو الشهرة ، ولعل الشاعر شوقى قد حاول أن يصور هذا المعنى فى رثائه للطبيب العالم حين قال :

تلك العيادة لم تكن عبثاً ولا ... شركا يصيد مأرب وطنيا
دار (إبن سينا) نزهت حجراتها ... عن أن تضم ضلالة ومجونا
مات الجواد بطبة وبأجره ... ولربما بذل الدواء معينا
وتجس راحته العليل وشاره ... يكسو الفقير وتطعم المسكينا
أدى أمانة علمه ولطالما ... حمل الصداقة وافياً وأميناً
داويت كل محطم فشفيته ... ونسيت داء فى الضلوع دفيناً
كبد على دمها اتكأت وجمها ... فحملت هم المسلمين سنيناً
ظلت وراء الحرب تشق بالنوى ... وتذوب للوطن الكريم حنيناً

* * *

ولد أحمد فؤاد فى القاهرة ١٨٨٦ وتطلع فى ثقة إلى الدراسات العليا واختار الطب واتصل منذ شبابه بالحزب الوطنى ، وكان مصطفى كامل بالنسبة إليه رائداً ومعلماً ، فلما قطعت دراسته عام ١٩١٠ اتجه إلى أوربا فأكمل دراسته كطبيب فى ألمانيا ثم عاش فترة فى تركيا ، واتخذ من ميونخ مقراً له بعد الهدنة ١٩١٨ حتى عاد إلى مصر ١٩٢٤ فافتتح عيادته ، وواصل جهاده فى مجال القلم والصحافة وشارك فى تأسيس جمعية الشبان المسلمين ، واتصل بالمجاهدين الذين كانوا يقيمون فى القاهرة من مختلف أنحاء العالم الإسلامى والأمة العربية حتى توفى فى ٢٠ نوفمبر ١٩٣١ .

مصادر البحث . الصحف أكتوبر ونوفمبر ١٩٣١ ، كتاباته فى الأخبار يناير ١٩٢٤ .
وله مؤلف : (وحدة مصر سودان فى نظر العلم والتاريخ) .

— ٦ —

أحمد كمال الأثرى

(١٨٥١ — ١٩٢٣)

كان علم الآثار فى القرن الماضى وقفا على الأجانب . وكانت الآثار العربية كلها غنيمة باردة بين أيدى الأثريين الغربيين الذين كانوا قد قدموا إلى مصر فى أوائل عصر إسماعيل وأخذوا يسيطرون على مناطق الآثار ويكتشفونها ثم يهربون الثمين الغالى منها إلى بلادهم .

وكان شامبليون قد حل الكتابات المصرية القديمة بمقارنتها بالكتابات الأخرى ، ونشأ على أثر ذلك « فن الآثار المصرية » . وقدم على مصر (ماريت باشا) الذى أسس متحف بولاق وخلفه ماسبيرو ، وجاء بعدهم علماء أوربا وأمريكا ، وفى عام ١٨٧٩ أنشئت مدرسة اللسان المصرى القديم وأدارها بروكش ثم أغلقت بعد بضعة عشر سنة وجددها «ماسبيرو» .

ومنها تخرج (أحمد كمال) أول أثرى مصرى حمل علم الريادة فى هذا الفن ، وقد واجه فى سبيل تحقيق هذا الأمل مشاق هائلة وكفاحا قاسيا ، إذ حال الأجانب دون وصوله إلى هذا الهدف ، فقد كانوا حريصين على أن يظل هذا العلم وقفا عليهم دون غيرهم . ذلك أن «أحمد كمال» كان وطنياً صادق الإيمان بوطنه .

وكان النفوذ الأجنبى يحاول أن يستغل حملات الحفريات والآثار فى خلق تيار التجزئة ، وأن يوجه حركة بعث الحضارات القديمة ، فى محاولة للدعوة الفرعونية فى مصر ، والفينيقية فى لبنان ، والآشورية فى العراق ، وكلها دعوات تهدف للقضاء على وحدة الأمة العربية . وخلق أقليميات ضيقة ، أما أحمد كمال (باشا) فقد كان استطاع أن يحقق نصرا فكريا خطيرا فى هذا المجال حين اكتشف أن اللغة العربية ولغة قدماء المصريين هما من « أصل واحد»

وكان هذا الكشف ضربة موفقة ضد أهواء الاستعماريين من رجال الآثار، حققت لهم ما توقعوه حين قاوموا إتجاه أحمد كمال فى شبابه من الوصول إلى العمل فى الآثار .

* * *

ولد أحمد كمال فى القاهرة (٢٩ شعبان ١٢٦٧) الموافق ١٨٥٠ ودخل مدرسة اللسان المصرى القديم (١٨٦٩) وتلقى دروسا فى فن الآثار المصرية على الأستاذ بروكش باشا الأثرى الألمانى الشهير ، ونبغ فى درس اللغات العربية والفرنسية والألمانية والقبطية والحبشية فأجادها .

حاول الالتحاق بالمتحف المصرى ليشتغل فى المباحث العلمية مع الأثريين من الإفرنج فحال الاستعمار دون هذه الرغبة خوفا من أن ينشأ من المصريين رجال يعرفون أهمية آثار أجدادهم ويقفون دون نقل هذه الآثار إلى أوربا، فعمل مترجما فى (وزارة المعارف) وأستاذاً للغة الألمانية فى المدارس .

ولم يتوقف خلال ذلك عن العمل فى فن الآثار وعن السعى للالتحاق بالمتحف المصرى ، حتى انفرجت (كوة صغيرة) فعمل مترجما فى المتحف ، ولم يلبث أن خطا خطوة إيجابية حين عمل أستاذاً للغات القديمة ، ثم عين أميناً مساعدا وبدأ ينشر نتيجة أبحاثه العلمية الدقيقة ، ويقوم بالحفريات الكثيرة فى الوجهين القبلى والبحرى التى جاءت بنتائج تاريخية كبرى ، واستطاع أن يسعى عام ١٩١٠ لدى حشمت باشا وزير المعارف إذ ذاك ليحمل الحكومة على تعليم اللسان المصرى القديم لبعض الطلبة ، وقد نجح فى ذلك فبرز سبعة من أزكى تلاميذ مدرسة المعلمين هم : محمود حمزة — سليم حسن — أحمد عبد الوهاب — محمود فهمى — رياض ملطى — أحمد العدوى — رمسيس شافعى — وابنه (حسن كمال) .

أما محمود حمزة وسليم حسن فقد وجهما صاحب الترجمة فى درس علم الآثار فى منزله وفى المتحف المصرى ، أما حسن كمال فقد ذهب إلى اكسفورد حيث درس علم الآثار فلما سد الباب فى وجهه درس الطب .

وفى ١٩٢١ عين ثلاثة منهم فى المتحف منهم : محمود حمزة وسليم حسن. وفى سنة ١٩٢٣ أنشأ المترجم له مدرسة عالية لتعليم اللسان المصرى القديم، وأنشأ عديدا من المتاحف ، وقد أمضى حياته حتى وفاته فى (٥ - أغسطس ١٩٢٣) فى العمل والدرس والتنقيب وزيارة المتاحف الأوربية ، وكانت أهم ثلاثة مشاريع فى حياته هى : (١) تجديد مدرسة اللغات القديمة . (٢) تعميم المدارس والمتاحف ودور الكتب (٣) أعداد معجمة الكبير فى المقارنة بين اللغتين المصرية والعربية وما بينهما من الموافقات وأسرار الاشتقاق . .

وقد وضع مؤلفات عديدة بالفرنسية والعربية :

فله بالفرنسية : (١) صفائح القبور فى العصر اليونانى والرومانى ، (٢) الموائد القديمة فى الطبقة الوسطى إلى العهد الرومانى (٣) الدر المكنون فى الخبايا والكنوز (٤) رسالة فى المبانى المصرية (٥) رسالة فى الإشارات الهيروغليفية .

وبالعربية له من المؤلفات : (١) العقد الثمين فى تاريخ قدماء المصريين (٢) بغية الطالبين فى علوم وعوائد وأخلاق وديانة قدماء المصريين . (٣) ترويح النفس عن مدينة الشمس (٤) اللآلئ الدرية لتعليم اللغة الهيروغليفية (٥) قاموس النباتات المصرية القديمة (٦) الدر النفيس فى مدينة منفيس (٧) محاضرات عن الحضارة القديمة .

هذا فضلا عن عشرات المقالات فى المقتطف والهلال والمنار ، وله إلى ذلك (قاموس اللغة المصرية القديمة) الذى أمضى فى تأليفه ٢٥ سنة وأتمه فى ٢٢ مجلدا ضخما باللغات المصرية القديمة والعربية والفرنسية . وقد أجرى معارضة الكلمات باللغات الأخرى كالقبطية والحبشية والآرامية والعبرية .

* * *

وقد وصف قاموسه بأنه من أغرب المؤلفات فى وضعه إذ يكتب الكلمة ويبين اشتقاقها ثم ماعرف عنها من الآثار حيث يورده بنصه ليعلم منه تاريخها

ثم يردف ذلك بالألفاظ العربية التى تناسبها ،فهو كتاب لغة وتاريخ وا ثار وعلوم وفلسفة . رتب كل حرف فى مجلد واحدا واضعاً أولا الرســوم الهيروغليفية ثم الحروف الصوتية منها وما يقابلها فى العربية ثم كتابة الرسوم والحروف معاً ثم ما يقابل الكلمة باللغة الفرنسية وهو عمل شاق. أمضى فيه نحو ربع قرن .

وكان مفتاح بحثه هـــذا أنه اكتشف فى إحدى الحفريات أن اسم (الريان بن اوليد) هو فرعون مصر الذى عاصر يوسف الصديق وقدقرأ اسمه فى آثار (تل بسطه) .

أما مشروعه الضخم فهو مقارنته بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية . وقد صدر هذا فى أبحاث متعددة كتبها عام ١٩١٤ قال :

«إن كثرة مطالعتى فى اللغة المصرية القديمة منذ كنت فى الثامنة عشرة من عمرى إلى أن بلغت الستين مهدت لى سبيل الوصول إلى اكتشاف غريب مفيد ، ألا وهو أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة من أصل واحد ، وهى لغة (الإعناء) إن لم يكونا لغة واحدة افترقتا بما دخلهما من القلب والإبدال كما حصل فى كل اللغات القديمة .

وكنت قبل الآن أدرس اللغة المصرية القديمة على الأسلوب الذى تلقيته من أستاذى (هنرى باشا بركش) فى مدرسة خاصة على نفقة الحكومة . ولبثت مقتفيا مناهجه كغيرى من الأثريين إلى قبل الآن بثمانى سنوات . وفى أثناء ذلك كنت أرى للألفاظ العربية مثيلا فى اللغة المصرية القديمة ، وكنت أدونها شيئا فشيئا ، حتى كتبت ، وأخيرا اطلعت على مقالة أدرجها المعلم نافيل الأثرى فى المجلة المسماة (ريزولدى ترافكس)أبان فيها بناء على النص المنقوش فى الدير البحرى من زمن الدولة الثامنة عشرة ١٦٠٠ ١٣٨٠ ق . م . أن المصريين الأول اشتهروا باسمهم (الاعناء) ومعناه فى العربية أقوام من قبائل شتى . ولم يذكر النص من أين جاءوا ، ولكن

ذكر المدن التى أسسوها باسمهم ، ، هذا فيما فوق طيبه من الجنوب إلى بعد (منف) تدلنا على أنهم استعمروا تلك الجهة فى بدايتهم ثم كثروا وانتشروا، ويقول النص المشار إليه : أن فريقا منهم هاجر إلى جهة القيروان وتونس والجزائر وسمى نفسه (أعناء التحنو) وذهب فريق آخر إلى أواسط أفريقية وسمى نفسه (أعناء الستو) ، ومضى فريق ثالث لعله بعض من الفريق الثانى إلى بلاد الصومال ثم اجتاز البحر إلى بلاد العرب وانتشر فيها ، وسار من هناك إلى جنوب فلسطين وسمى نفسه (أعناء منتو) فهذا الانتشار يوضح لنا أن « الأعناء » سكنوا تلك الجهات الشاسعة والمناطق الواسعة وبثوا فيها لغتهم فصارت لغة أصلية للبلاد . ثم استنبط أعناء وادى النيل طريقة الكتابة فكان لهم الفضل على غيرهم ، لكنهم حصروها فى ضفاف النيل ودونوا كتابتهم على الآثار بقلم الحفر البارز أو المجوف ، كما أنهم رشقوها على أوراق البردى والأقمشة والخشب .

وأشار بعض من عرضوا لرأى أحمد كمال إلى أن هذا القول قريب من قول العلامة رونس الذى رجح أن المدنية المصرية الأولى قد جاءت من بلاد العرب والعراق . وما تردد من أن قدماء المصريين من العرب أو العرب منهم .

وعلى ضوء هذا الرأى الذى وصل إليه أحمد كمال وضع معجمه المطول معتقدا أن لغة قبائل الأعناء التى سكنت مصر وما جاورها فى الأقاليم ، وهى أصل االلغة العربية بنص النقوش الأثرية .

* * *

وهذا أنموذج مما أورده فى قاموسه فى أسماء بعض الحبوب والنباتات والأشجار والآثار المصرية فى كلماتها المصرية القديمة (بر) القمح (حنت) هى الحنطة أى (البر) ، (فو) هى الحنطة وقد وردت (الفوم) فى القرآن .

(شرت) وهى سريت أى الشعير . (ترا) أى ذرة (بول) وهى فول لأن الباء تقلب فاء ، كفيوم أصلها بيوم (كمنن)أى كمون — (أمم) أى عم، بمجموعة أعمام — (عونت)أى عوان وهى النخلة الطويلة . (طماردى) جمار النخيل (زدتو) أى الزيتون — (زت) أى زيت (كرما) جمع كروم وباللغة العربية كرم (من) مان الأرض أى شقها للزراعة (سق) أى شق الأرض أى فلحها والسلك والحرث . (نزا) هو العوز فى العربية والجنسية (سشن) أى شوش نيات طيب الرايخ (عينو) أى عنب بالعربية والعبرية (تون) أى تين . وهكذا .

* * *

وجملة القول أن أحمد كمال باشا هو رائد الأثريات العربية المصرية وهو أول من استطاع أن يتقن هذا الفن الحديث وأن يصل فيه إلى مركز التبريز بعد أن ظل هذا الفن أكثر من سبعين عاما حكرا للأجانب ولأعقابهم ، وقد عرف بوداعة الخلق والبعد عن الإدعاء والغرور مؤمنا بوطنه وبفنه ، صادق اليقين بعلمه . واضح الشخصية .

وقد حقق بعمله هذا نتائج باهرة وترك فى علم الأثريات والحفريات تراثا واضحا سار فى أثره محرم كمال وسليم حسن وغيرهم .

من مؤلفاته :
العقد الثمين فى تاريخ مصر القديمة ، اللالى الدرية فى قواعد اللغة الهيروغليفية ، بغية الطالبين فى علوم مصر الأقدمين ، الدر المكنوز فى الخبايا والكنوز .
أهم أبحاثه :
بحثه عن اللغة العربية أقدم اللغات الشرقية وأم المدنية المصرية البابلية .
(مجلة المنار م ١٨ ص ٦٣) والمقتطف مارس ١٩١٤ .

— ٧ —

أحمد وفيق

(٠٠٠ — ١٩٣٨)

منذ عام ١٩١٠ برز اسم «أحمد وفيق» على صفحات جريدة العلم، كما برزت أسماء الشباب المثقف الجديد، المتطلع إلى الحرية، من أمثال: أمين الرافعى ولطفى جمعه ويحيى الدرديرى وعبد السلام ذهنى إلى جوار أسماء الأعلام: محمد فريد وعبد العزيز جاويش وعمر لطفى يمثلون مجموعة من المجاهدين بالقلم فى سبيل الحرية والوطنية، ثم يتسع مجال هذه الأقلام بعد الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ فى مرحلة جديدة من العمل الثقافى والوطنى.

أما أحمد وفيق فهو ذلك الكاتب القانونى الطابع، الذى شارك فى تحرير صحيفتى العلم والشعب ثم حرر بعد ثورة ١٩١٩ اللواء الجديد، ثم واصل كتاباته فى الأهرام والسياسة.

وتوج عمله فى مجال الفكر والقانون بموسوعته الضخمة «علم الدولة» الذى أصدره سنة ١٩٣٤ فى ثلاث مجلدات، فاستحق تقدير الباحثين الذين احتفلوا به وبمؤلفه، وأولوه تقديرهم.

ولقد ظلت كتابات «أحمد وفيق» طوال حياته مثلا للرصانة والتعمق فلم يجنح إلى أسلوب الصحافة السريع السطحى فى بعض الأحيان، وظل طوال حياته يتناول الأمور فى تفهم، ويقبلها فى أناه، ويصدر أحكامه فى دقة.

* * *

وتتمثل حياة «أحمد وفيق» فى مرحلتين واضحتين: الفترة الأولى إلى

الثورة وهذه فترة كفاح وجلاد ، لا يتوقف ،كانت كتابات الوطنيين من تلاميذ مصطفى كامل قد أخذت طابع الدقة ممتزجا بالحماسة ، وقد تنوعت فشملت مختلف قطاعات الحياة والفكر ، وجالت فى ميادين السياسة والقانون والاجتماع ، وناقشت عشرات القضايا فى مجال التعليم والحضارة والحكم والدستور ، وقد أتيح لهؤلاء الكتاب: أمثال أحمد وفيق ، وأمين الرافعى ، وغيرهم أن يسافروا إلى أوربا ليشاهدوا وجـــوه النهضة ، كما أتيح لهم أن يقرأوا فى تاريخ الأعلام والمجاهدين من أجل أوطانهم ، وهم فى ذلك كله قد جردوا أقلامهم للتوجيه والتثقيف، تخرج أفكارهم من خلال النظرة الوطنية ، فى حملة ضخمة مستمرة على الاستعمار والنفوذ الأجنبى ، فاذا عرضوا لما شاهدوه فى الرحلات ذكروا مصر ، وحاولوا أن يقتبسوا لها منه ، وإذا قرأوا عن نهضات الأمم كانت دعوتهم إلى أن تحقق مصر ماحققت هذه الأمم . ويهتز أحمد وفيق حين يعلم أن اليابان تجعل التربية الأخلاقية أساس نهضتها فيكتب سنة ١٩١١ يقول : أن الحكومات اليابانية تبذل الجهد فى تربية النشىء تربية أساسها الدين وقوامها اليقين وأن هذه الرسالة التى تتبعها اليابان اليوم ، تلقى الفزع فى قلوب الدول الأجنبية ، وهى التى تنفر الأمم من تقويم أخلاق أفراد شعوبها » .

وهو يغار من تسابق الأمم إلى النهضة، وعجز مصر عن بلوغ الشوط فى ذلك ، فلا يلبث أن يكتب : بينما نرى الأمم تتقاسم الخطوط السعيدة وتتشاطر الثروات ، وتتنازع سلطان العالم ، نرى مصر تقنع بأقل من فتات الموائد ، كأنها فى خدمة الغاصب آلة مبتكرة فذة ، لا حاجة بها إلى شحم وزيت ووقود ، حتى تذوب ، وبينما كل أمة صامتة لتتقن العد والحساب ترانا لا نتكلم إلا لنكذب ، ولا نبتسم إلا للأوهام ، ولا نتسلى إلا بالأفكار الميتة ، لقد جهلنا سر الحياة ومعنى الوجود فأصبحنا والزمن فى غير ملاكنا وقصرت الرغبة فى أن تدفعنا إلى الاعتقاد بأن شخصيتنا الصحيحة داخل نفوسنا وفى مظاهر عصرنا » .

وهو فى عشرات من مقالاته فى تلك الفترة يعالج قضايا « الحرية » من خلال أحداث مصر وأحداث العالم وتلك أمثلة لموضوعاته : الشدائد خير استاذ للشعوب ، الاستعمار قديما وحديثا ، نظرات فى المدينة ، كيف ينهض الإسلام ، تنازع البقاء بين الدول ، انجلترا والتعليم فى مصر .

وهو فى هذه المرحلة الباكرة يتصدر افتتاحات صحف العلم والشعب ، ويكتب التعليقات السياسة الخارجية فيتحدث سنة ١٩١١ عن: ألمانيا والاتفاق الروسى النمسوى ، فارس بين المطامع الأوروبية ، المسألة المراكشية ، فرنسا ومراكش بعد احتلال فاس .

* * *

وقد سبق هذا الشباب عميدهم « محمد فريد » إلى مثل هذه الدراسات التى يمتزج فيها التاريخ بالسياسة فكتب فى مجلة «الموسوعات» عديدا من المقالات تحدث فيها عن توسع الاستعمار فى أفريقيا ، وناقش قضايا الحرية وصراع الأمم الشرقية مع الاستعمار ، وسار على نهجه أحمد فؤاد ، وأمين الرافعى وأحمد وفيق .

وفى هذه المرحلة سافر أحمد وفيق إلى أوربا ، وشارك مع محمد فريد فى عديد من المؤتمرات التى كان يعقدها للدعوة لمصر ، وأعد عشرات الأبحاث عن الاحتلال فى مصر ، انتفع بها فى إطلاع مندوبى الدول فى مؤتمر فرساى وغيرها من المؤتمرات التى عقدها الحزب الوطنى فى أوربا .

* * *

أما فيما بعد ثورة ١٩١٩ فقد تغير وجه الحياة السياسية فى مصر،هنالك حاول عن طريق جريدة اللــــواء الجديد أن يعارض اتجاهات الارتباط بالانجليز ، فحوكم وسجن.

ثم اختار أن يعمل فى مجال البحث القانونى ، والدراسات الثقافية فحقق كثيراً من النتائج وله فى هذا المجال دراسات نافعة فى مقدمتها كتبه :

* علم الدولة
* الدين واللغة والتقاليد .
* عصبة الأمم .

كما نشر فى جريدة الأهرام عددا من الأبحاث والدراسات .

* * *

وقد وضع أحمد وفيق مجلدا ضخما من مذكراته الوطنية ، بلغ ٣ آلاف – صفحة ، صدر منها جزء واحد فى صفحات قليلة تحت عنوان (فى سبيل الوطن) عام ١٩٣٢ قدم له بكلمات أشار فيها إلى أنه دون « مذكرات يومية خلال حياته الوطنية التى بدأ عام ١٩٠٦ » إجابة للخلق الوطنى القويم بعد أن أوصدت أمامه سبل النشر .

وقد صور مصر بأنها تستشهد مع غروب الشمس فى ظل الاحتلال لتنبعث مع شروقها ، وأشار إلى زعماء النهضة : مصطفى كامل ، وعمر لطفى ومحمد فريد ، وعبد اللطيف الصوفانى ، وأمين الرافعى ، وعبد العزيز جاويش وأحمد فؤاد .

وقد تناول فى هذا الجزء من المذكرات «خطة انجلترا المرسومة للاستيلاء على مصر منذ عام ١٧٧٥ ، وهى خطة واحدة فى جوهرها وإن اختلفت مظاهرها » .

كما تناول بالدراسة النفسية « سعد زغلول » ومكانه من الحركة الوطنية وقد إقتصر هذا الجزء المطبوع على صفحات قليلة ، أما باقى مذكراته التى أشار إليها فانها لم تطبع ولم تنشر بالصحف فيما نعلم .

* * *

أما كتابه « علم الدولة » فهو بحث قانونى ضخم شغل به نفسه وأنفق فيه جهدا ضخما حتى حفل بتقدير القانونيين وأقام له شيخ المحامين « إبراهيم الهلباوى » حفلا ضخما حضره عشرات من أعلام الثقافة والقانون . أمثال

السنهورى ولطفى جمعه والدكتور هيكل وعبد القادر حمزه ، وعبد الرحمن الرافعى ، ومصطفى عبد الرازق .

والحق إن كتابه « علم الدولة » كان حدثا هاما فى عالم الفكر ، فقد شغل به المترجم له عشرين عاما وراجع من أجله مايزيد على ألف مرجع ، من أبحاث الكتاب الأوربيين ، وعد بذلك أول عمل من نوعه فى اللغة العربية ، وقد قدمه فى تواضع جم ، أدهش الباحثين حتى أشار إلى ذلك إبراهيم الهلباوى حين قال[1] «وجدت بونا شاسعا بين غزارة علمه، وتواضعه وبساطته، لأنه فى مصر والشرق يوجد رجلان، إما رجل تكون شهرته ثرثرة وتدخلا فيما يعنى ولا يعنى فيتكون له من ذلك اسم عظيم، وإما رجل يعتمد على كفاءته الشخصية ، رأسه رأس رجل مفكر يقدر الحياة قدرها ، ويحتقر مظاهرها الكاذبة » .

وقد اتخذ « وفيق » منهج الباحث العالم فى كتابه مهتديا بتجربة أستاذه فى مدرسة الحقوق ، الذى قال له يوما : إذا أردت أن تنتج فكرة صالحة ناضجة فاقرأ الكتاب مرة ثم مرة ثانية ثم مرة ثالثة . اجعل دراستك الأولى قاصرة على تبين معنى الكلمات ، وبعد ذلك فكر فى مرادفاتها ، وبعد ذلك فكر فى متناقضاتها ، حتى تنجلى لك الألفاظ جلاء تاما ، أما القراءة الثانية فاقصرها على المعانى ، أما الثالثة فتخرج منها بالثمرة الناتجة من القراءات الثلاث ، وكون لنفسك رأيا ، ثم أكتب » ويقول وفيق إنه أتبع هذا المنهج حتى وفق لإخراج كتابه على هذا النحو فاستغرق زهرة شبابه ، وإنه قد استظهر بالصبر والجلد خلال هذه العشرين من الأعوام ، بعيداً عن المطامع المادية وقد وصف الباحثون عمله هذا بأنه «جهد ضخم قصد به وجه العلم وحده » .

وقد أشار أحمد وفيق إلى أن عمله هذا كان استجابة لتساؤل البارون ده نوب أستاذ القانون الدولى الذى كان يقول وهو يشرح أثر الإســـلام فى

(١) السياسة اليومية ٢٥ أكتوبر ١٩٣٤ .

القانون الدولى لشرق أوربا : إنه ينتظر شرقيا ملما بالفقه الإسلامى وآداب اللغة العربية وعادات الإسلام وعرفه وأخلاقه ونظمه يقوم ببيان علاقة ما بين أجزاء الدولة الإسلامية بيانا صحيحاً يكيف طبيعتها القانونية وموضوعها .

* * *

وبعد فقد كان أحمد وفيق واحداً من كتاب الوطنية ، والصدق ، عاش حياته مجاهدا بقلمه فى سبيل حرية مصر ، من أولئك الأبرار الذين تركوا العمل فى وظائف الحكومة ليعملوا فى ميدان الوطنية الخالصة المجردة من مطامع المادة ، فقد عمل محاميا فى مكتب محمد فريد ، وعزف عن الشهرة ، وأخلص لعمله العقلى والقانونى ، ولم يسخر قلمه يوما لخدمة كبير أو عظيم ، وعاش للمبادىء وعرف بالجرأة والغيرة والإقدام .

بدأ حياته الفكرية يكتب فى صحف الحزب الوطنى وهو مازال طالبا فى كلية الحقوق ، ومزج بين الصحافة والمحاماه . وعندما نشبت الحرب العالمية ، أعدت بريطانيا عدتها لإعلان الاحتلال ، سارع أمين الرافعى فأغلق جريدته « الشعب » حتى لا ينشر بلاغ الحماية ، ومنذ عطل « الشعب » نفسه اعتقل أمين الرافعى وأحمد وفيق وسائر زملائه ، فقضوا أغلب سنوات الحرب فى السجن ، فلما انتهت رحل إلى أوربا حيث أذاع تقرير الحزب الوطنى عن احتلال بريطانيا لمصر على رجال السياسية ومندوبى الدول فى مؤتمر فرساى . وقد وصفه نظراؤه وأترابه بأنه كان مثال الأخلاق والصراحة إلى أقصى حدود الصراحة ، والوفاء ، وكان شعلة من الذكاء ، كما عرف بالجرأة والشمم والإقدام يتأجج حماسة ويلتهب غيرة مع وداعة قلب وعلو نفس ، فقد كان نحيل الجسم عميق النظرات ، حاد النقاش ، قارس اللفظ إذا مامست مصر بنقد أو تجريح ، خطيبا رغم رقته ونحوله ، زاهدا فى الدنيا .

ومما يروى أن اختلف موظفو جريدة اللواء مرة مع إدارته فكفوا عن

العمل ، وانصرفوا من الدار ، فشق ذلك على « وفيق » فجمع بعض رفاقه وتركوا مدرسة الحقوق ، وقصدوا إلى إدارة اللواء حيث أخذوا أماكن العمل ، فمنهم من اشتغل بالتحرير ، ومنهم من عمل فى المطبعة حتى صدر اللواء فى موعده .

ولقد عاش أحمد وفيق إلى ختام أيامه وفى كتابته مرارة تحس بها حين تقرأ له ، مصدرها إحساسه بالغبن ، فقد لقى هؤلاء الرواد بعد ثورة ١٩١٩ إنتقاصا وإعراضا عنهم فى ظل صراع الأحزاب الحاكمة فترة مابين الحربين ، ولعله قد كشف عن مشاعره هذه فى حفل تكريمه حين قال : إنى أمقت الأنانية الفردية واقدر الإثرة العامة ، أن فى مصر جنوح غريب شاذ يعمل جاهداً فى مجاهـــدة كل ثقافة وهدمها ، ملقيا باليأس إلى روع كل مفكر منتج ، وإن هذا الجموح بالاستهتار بالإنتاج الثقافى المصرى ، صادر عن غرور وجهل » .

هذا هو الطابع النفسى لوفيق عام ١٩٣٤ ، ومع ذلك فلم يصرفه هذا الشعور عن مواصلة العمل الخالص ، المجرد من الهوى ، مؤمنا بأن « أبناء الشرق أدرى بمشاكلهم وشئونهم ووسائل علاجها وتفسيرها وتحليلها ، وإن مرد ذلك عنده إلى (قانون البيئة وماله من أثر فى البيئة) وماله من أثر فى النفوس والمشاعر « والإحساسات والأغراض » .

ولم يحل الغبن بينه وبين حب مصر ، ذلك الحب القوى العميق ، حب العقل والقلب معا حين يقول : « إن مصر قد استقرت فى أعماق بقضها وقضيضها ، استقرت فى أنسجتى دمها ولحمها وروحها وربطنى بها رباط الأمومـــة والبنوة وجعلتنى أحمل اسمها وأتكلم لغتها وأدوس أرضها فى احترام واكبار » . توفى ١٩٣٨/٦/٩

علم الدولة : (٥ مجلدات) الأول والثانى والثالث والرابع ، والقسم الأول من الجزء التاسع (عصبة الأمم) ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ ، فى سبيل الوطن ، اللغة والعادات ، أثر الحافز الشخصى فى تطور الاصلاح لاجتماعى (١٩٣٦) ، أبحاثه فى جريدة العلم يوليو ١٩١١ ، جريدة الشعب أكتوبر ١٩١٣ جريدة اللواء المصرى يوليو ١٩٢٤ .

— ٨ —

أمين سامى

(١٨٥٧ — ١٩٤١)

شهد (أمين سامى) من تاريخ مصر والأمة العربية أكثر من ثمانين عاما شارك خلالهـــا فى مجال التربية والتعليم فى المرحلة الأولى من حياته وبالتأليف والبحث فى المرحلة الثانية مشاركة ضخمة قوامها الإيمان والصدق والإخلاص . وكان أبرز دراساته فى مجال التعليم والتاريخ القومى بصفة عامة ودراسة نيل مصر وولاتها وأحداثها بصفة خاصة .

وقد برز فى صف النوابغ منذ مطالع شبابه مدرسا ومعلما ومربيا ،وقد امتدت هذه المرحلة حتى عام ١٩٢٩ حين اعتزل العمل الحكومى وفرغ للدراسات التاريخية فأخرج أضخم عملين : (١) تاريخ التعليم فى مصر (٢) تقويم النيل .

أمضى ناظرا للمدرسة الناصرية تربع قرن كامل وتخرج عليه خلاله عشرات من الأعلام والنوابغ من بينهم وزراء وصحفيون وفى مقدمتهم: حافظ عوض ولطفى السيد وعبد الخالق ثروت ومصطفى النحاس وحلمى عيسى ، وقد ولى إدارة مدرسة الناصرية منذ عام ١٨٨٥ وولى نظارة دار العـــلوم ١٨٩٥ ثم عمل فى ديوان وزارة المعارف ، وشارك فى وضع كثير من مناهج التعليم، حتى أطلق عليه من بعد لقب (شيخ المعلمين) ، وفى خلال ذلك سافر إلى باريس واستانبول .

ولقد أثرت عنه أحاديث وكلمات عن فلسفة التعليم وجهده فيه : فهو لايرى علامة ما ، بين صغر السن والنبوغ ، وأن التبريز فى أول الشباب لا يكشف عن نبوغ فى المستقبل ، وله فى ذلك وجهة نظر يقول :

ليس صغر السن دليلا على النبوغ ، كما أنه ليس دليلا على أن يكون

لصاحبه شأن كبير ، فإن كثيرا من علماء الأجيال الماضية بدأوا دراستهم فى أعمار لاتقل عن العشرين أو الثلاثين وأذكر أن (الغزالى) كان من هذا النبوغ ، فإنه بدا دراسته فى سن متقدمة فكان يطلب العلم مع طلاب كانوا أقل منه كثيرا فى العلم ، وكانوا قد حصلوا على جانب كبير من التعليم ، قبل أن يحصل عليه ، ولكن مثابرته ، واجتهاده ، مكناه من اللحوق بهم والتفوق عليهم ، وأصبح عالما عظيما ، وفيلسوفا يفخر به العرب ، ويجب أن ينشأ له كرسى فى الجامعة لتدريس حياته وفلسفته ، وكذلك قل فى غيره ممن تعلموا ، وهم كبار السن ، كالشيخ الانبابى ، والشيخ محمد عبده وغيرهما . فالعبرة ليست بالسن ـ ولكن بنوع التعليم وطريقته ، وبالرغم من ضعف التعليم فى الجيل الماضى ، فقد أخرج نوابغ أمثال : محمود الفلكى ـ ورفاعة الطهطاوى ـ وعلى مبارك ـ وعبد الله فكرى ، ومحمود سامى البارودى ـ ومحمد على البقلى ـ وغيرهم من رجال النهضة المصرية الذين رفعوا لواءها وكانوا دعامتها » .

ثم هاجم نظم التعليم فى العصر الذى ولى عصره — فى الثلاثينات — فقال : « إن التلاميذ يتعلمون قشورا من كل علم ، وهذه القشور سرعان ماتمحى » وأشار إلى الأسلوب الذى كان متبعا فى أوائل القرن : « لقدمكثت فى مدرسة الناصرية خمسا وعشرين سنة فكنا نعقد للتلاميذ امتحانا واحدا فى مادة واحدة كل أسبوع فيدخلون الامتحان النهائى وهم متمكنون من دروسهم واثقون من أنفسهم » .

* * *

والحق أن (أمين سامى) كان قد شارك فعلا فى وضع هذه المناهج التى أصبح يهاجمها من بعد، فقد عمل عضوا باللجنة العلمية بوزارة المعارف خمسا وعشرين سنة، ولكنا لانستطيع أن نحمله هو ، أو نحمل مجموعة من العاملين مسئولية اضطراب مناهج التعليم فى فترة الاحتلال ، ذلك أن الخطوط الأساسية للتعليم كله فى مصر كانت قد رسمت منذ أوائل الاحتلال و نفذت

بدقه، واستهدفت تخريج موظفين فحسب، وكانت بعيدة كل البعد عن أن تتمثل القيم الأساسية للثقافة العربية أو تعمل على تربية الشباب تربية وطنية كاملة .

أما (أمين سامى) فقد استطاع خلال نظارته للناصرية أو لدار العلوم أو اشتراكه فى لجنة علمية لوزارة المعارف ، أن يبنى شبابا التفوا حوله وأحبوه ، بناهم بالقدوة والتوجيه الذاتى خارج نطاق المناهج نفسها ، وذلك عمل المربى والمصلح .

* * *

ولكى نعرف (صورة العصر) خلال حياة أمين سامى نستطيع أن نبحث معه عن أبرز الأحداث التى أثرت فى مجرى حياته ونجد فيها مفتاح شخصيته ، والقيمة الأساسية لمفاهيمه النفسية والاجتماعية التى ظلت توجهه طوال حياته .

يقول : الحادث الذى أعده أهم أثر فى حياتى يرجع تاريخه إلى عهد بعيد ، إلى عهد الصبا منذ كنت تلميذا صغيرا فى مدرسة المبتديان لا أتجاوز العام السادس ، فقد حدث أنى رغبت فى السفر إلى أهلى فى القناطر الخيرية فذهبت إلى محطة مصر ، وكانت أرضها وقتئذ ترابية ، وأردت اللحاق بالقطار فلم أستطع ذلك إذ كنت جئت متأخراً ، فرجعت أدراجى وبينما أنا أسير على الرصيف ، لمحت نصف ريال مجيدى بين ثنايا ترابه فعففت عن أخذه وتركته مكانه .

وكان لى قريب من طلبة الأزهر الشريف ، فتوجهت لإخباره بتأخرى عن السفر ، وأنبأته أنى رأيت ريالا مجيديا على رصيف المحطة فنهض وأمرنى بمصاحبته إلى مكان الريال فوجدناه كما هو ، فهوى إليه وتناوله لنفسه وحده . أما أنا فوجدت فى عفتى ماشرح صدرى وأراح ضميرى ، فلزمتها طوال دراستى الابتدائية والثانوية والعالية فهونت على نفسى الحياة ، وسهلت أمامى المصاعب ، فلم يمنع من نجاحى فى كل عام عائق ، ولما انتهت دراستى العالية بمدرسة المهندسخانه ، وصرت فى انتظار التعيين ، أنا وخمسة من إخوانى حدث

ذات ليلة ونحن نائمون فى المدرسة أن شبت النار فى مخزن وزارة المعارف وتصاعد لهيبها حتى أحس به مؤذن الفجر فى جامع مصطفى باشا وكان كفيف البصر ، فبدلا من أن يؤذن للصلاة ، صار ينادى البواب قائلا : الحريق يا عبد الله ، الحريق يا عبد الله ، فقمنا نحن التلامذه هالعين وفزع الناس والبواب إلى مكان الحريق ، أما أنا فقد ذهبت إلى مسجد السيدة زينب حيث أديت فريضة الصبح .

ولما ارتفع النهار قابلنى باشكاتب الديوان (وزارة المعارف) وطلب منى أن أوقع على (محضر) يتضمن أن الحريق وقع بالقضاء والقدر ، وأطلعنى على توقيع زملائى الخمسة ، فلم أجد فى نفسى ارتياحا إلى هذا العمل ، لأنى لم أذهب لمشاهدة الحريق حتى أقف على سببه ، هل هو القضاء والقدر أم العمد ، ورفضت التوقيع على المحضر فهددنى الباشكاتب وقال لى : إن استخدامك مرتبط بالتوقيع ، فقلت له : سيان عنـــدى أن استخدم أو لا أستخدم ، أما إن أوقع على شىء لم أعرف حقيقته فهذا ما لا أقبله مطلقاً .

وفى الساعة العاشرة طلبنى المرحوم اسماعيل زهدى باشا وكيل الديوان وشدد على فى ضرورة التوقيع على المحضر ، وهددنى بعدم الاستخدام إن لم أوقع ، ولم يزدنى ذلك إلا إمتناعا ، وبعد الظهر من نفس اليوم دعينا إلى مقابلة مفتش عموم المدارس والمكاتب وأول ما خطر بنفسى عن مقابلته هو إخراجى من عداد الذين سيعينون عقابا على مخالفتى ، ولكن لما مثلنا بين يديه كان أول ما نادى به من الأسماء (أمين سامى) فاجبته فوراً فقال لى : أن مدرسى المدرسة انتخبوك لتكون مدرسا ، وأمرنى بالسفر صباح اليوم التالى وكان ذلك فى ختام شهر شوال ١٢٩١ هجرية وعمرى إذ ذاك تسعة عشر عاما .

فكان هذا الحادث أكبر معوان على الجد والنشاط فى حياتى » .

ولا شك هذه الصورة تكشف عن نفسية « أمين سامى » التى واجه بها عصره ، والمنهج الذى سلكه فى عمله ، مما حقق له مكانة جليلة فى محيط المعلمين والمفكرين على السواء ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه استطاع بعد أن بلغ الستين وترك عمله الرسمى ، أن يبدأ عملا جديداً غاية فى الاجهاد والمشقة ، وهو البحث العلمى وإعداد مبحثين من أهم المباحث الدافعة إلى المراجعة والدقة ، وبهما عرفنا قوة إرادته ، وتماسكه وسلامة شخصيته .

ولقد لفت هذا الطابع الأنظار إليه ، فلما سئل عنه قال : إنى أعزو الاحتفاظ بنشاطى إلى شيء واحد لازمنى طوال حياتى ، ذلك هو تحقيق الرغبة فى القيام بالواجب مهما كانت المشقة ، فهذه الرغبة التى أعمل على تحقيقها فى كل ماأقصد إليه من أمور الحياة،هى أهم شيء يدفعنى للعمل ، ويحفز أعصابى إلى الحركة والنشاط مستهينا بما يعتورنى من التعب » وقد بلغ به الاهتمام بتنظيم وقته وتنسيق حياته أن يضع قاعدة عامة : « إننى آوى إلى فراشى عند شعورى بالتعب والسأم ،فأنام فى اليوم ساعتين فى أغلب الأحيان فإذا طرأت على ذهنى فكرة أثناء الليل فإنى أنهض من فراشى وأسجلها وأعود مرة أخرى » .

* * *

صور « أمين سامى » منهجه فى البحث العلمى خلال دراسته التى ضمنها موسوعته (تقويم النيل) فقال : طالعت فى كتاب الكافى فى تاريخ مصر . حادثاما ، ولما كنت حريصا على أن أتتبع أحداث مصر يوما فيوما ، أردت أن أقف على الحقيقة المقنعة من « الدفترخانة » بالقلعة ، فقصدت إليها ماشيا ، حتى اهتديت إلى الدفتر المطلوب ، واستغرقت المراجعة ثلاث ساعات كاملة ، دون أن يصيبنى السأم ، ودافعى هو تحقيق الرغبة ، واعتقد أن مدار النشاط فى أعمال الإنسان هو « الغبطة » فإذا لم يكن فى طبيعة الإنسان ما يدفعه إلى العمل والاجتهاد فليس ثم ما يوقظ فيه الاهتمام .

* * *

ولما كانت موسوعته (تقويم النيل) قد شملت تاريخ مصر منذ أوائل الإسلام فقد ضمت أسماء الولاه التى تولوا حكم مصر ، ذاكرا أهم الأحداث موجزا مسلسلا ، ثم وسع البحث منذ عصر محمد على . وأضاف ثبتا كاملا لمقاييس فيضان النيل وتحاريقه من عام ١٥١٧ إلى ١٨٤٨ وعانى فى ذلك متاعب جمة ، وقد أعانه على ذلك فيض ثقافته الهندسية فاستطاع أن يعد عشرات من الخرائط الملونة وعديدا من الجداول التى تسجل كل ما يتعلق بالنيل من حركات الرياح وضغط الجو ومخارج الأنهار ووقوع الأمطار ، وتأثير الرياح المختلفة فى سوق الأمطار إلى الأنهار » وقد استطاع أن يحقق فى بحثه هذا نتائج هامة: فقد حرر أمر نهاية الفيضان والتحاريق بما لم يسبق إليه . وقد راجع فى سبيل ذلك عشرات المراجع ومن هذه المراجع ما هو نادر الوجود ، أو لا وجود له إلا فى بعض المكتبات الخاصة .

ومن أبرز أبحاثه بحثه عن النقود فقد شرح مختلف أصناف النقود التى كانت متداولة ، وما طرأ عليها من التغيير.

كما تصدى لوفيات الأعيان وآثارهم القيمة وخاصة رجال العلم . وقد احتاج فى ذلك إلى مراجعة الشيوخ المسنين ، وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين ومانقش على أحجار ترب المقابر ، أما منذ أول القرن الرابع عشر الهجرى فإن ذلك كان بالنسبة له ميسورا « فهى أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها » ومنها إلى وقتنا أمور تعلقناها وقيدناها وسطرناها » .

* * *

ويقول أمين سامى فى تقويم خطة عمله فى كتابة «تقويم النيل» : هذا كتاب ضمنته ثمرة أتعابى مدة نصف قرن من الزمان كاتبا منقبا مجتهدا فى جميع الحقائق التى تهم الناس معرفتها ، مقتحما كل ما اقتضت الحال مشقة الأسفار إلى خزائن الكتب فى حواضر أوربا وغيرها » وقد أشار إلى أنه اضطر إلى مراجعات فى كتاب (النجوم الزاهرة) عن جدول تحاريق

وفيضان النيل النيل المطبوع بمطبعة بريل فى مدينة لندن ١٨٥١، ولما كانت باقى أجزائه ليست موجودة إلا فى مكتبة باريس ، فقد سافر إلى أوربا صيف ١٩٠٣ لهذه الغاية ووجد فى المكتبة الأهلية بباريس أجزاء منهذا الكتاب بخط المؤلف — وأجزاء منسوخة من الأصل .

وأشار أمين سامى فى صدر الجزء الأول الذى أصدره عام ١٩١٦ إلى أنه منذ سبعة عشر عاما (أى منذ ١٨٩٩) قد اشتغل فى وضعه ، ليكون كتابا يبحث فى أحوال النيل ويقول : لم أدخر جهدا فى تحريره بالأخذ عن أوثق المصادر مما حملنى إلى الرحلة إلى دور الكتب فى أوربا وفى الأستانه » وقد استخرج من ودائع المخطوطات ماشاء إخراجه وابتاع من هذه المخطوطات ماأمكنه شراؤه حتى بلغ ماأنفقه أربعة آلاف جنيه .

وأشار إلى منهجه فى البحث فقال : « لم نكن نرضى لأنفسنا أن نكون مجازفين فيما نجيب به فنلق القول على عواهنه ، بل كنا نتحرى أشد التحرى فى المسائل ، فلا نقدم على الإجابة أو الكتابة فى شيء ما حتى نتأكد منه ، ونتثبت بأقصى مافى الوسع ، كما تقضى بذلك أمانة العلم وكرامة النفس ، حتى لقد كان يكلفنا ذلك السفر بأنفسنا ومراجعة ما تدعو الحاجة إلى مراجعته ونسخ ما يهمنا من ذلك بنفسنا وتضحيتنا نفيس الوقت والمال من أجل ذلك » .

* * *

وفى دراسته للتعليم فى مصر تبدو نفس الصورة : صورة العالم المحقق ، فقد رسم صورة للتعليم فى مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى عام ١٩١٦ ، عارضا لتأسيس المدارس العالية ، كالهندسة والحربية والطب ، مفصلا شئون تعليم البنات والمدارس الأهلية ، والأزهر ودار العلوم ، والجامعة المصرية ، ومدارس المعلمين والقضاء الشرعى وتعليم مجالس المديريات ومختلف مايتعلق بالتعليم فى الجوامع والمساجد والروابط والزوايا

والخوانق ، كما أحصى عدد تلاميذ مدارس الحكومة جملة وتفصيلا من عام ١٨٦٣ إلى ١٩١٥ ، وتطور التعليم بالمدارس فى مثل هذه الفترة ، متضمنا ذلك لوائح شهادات الدراسة الابتدائية والكفاءة والثانوية ، وقد ابتكر نماذج لعرض الإحصائيات غاية فى الدقة والبراعة ومن أمثلة ذلك أنه استطاع أن يختصر فإن كتاب إحصاء التعليم الذى يضم أكثر من مائة صفحة فى صفحة واحدة تغنى عن مطالعته متضمنة كل ما ورد به من بيانات.

وقد أشار إلى مدى الجهد الذى بذله فى إعداد هذه الدراسة الموسوعية فقال : « إننى أودعته معلومات شتى لم أحصل عليها إلا بشق النفس ، مترددا فى أوقات فراغى بين مظانها » كما صور مجهوده فى الدعوة إلى التعليم « التربية الأولية فى الديار المصرية » وكيف جمع ألوف الاستعلامات من الاستمارات ووضعها فى نماذج على هيئة إحصائيات . وأشار إلى أن نسبة المتعلمين عام ١٩١٥ بلغت ٢٩ فى المائة وأن البالغين سن التعليم والمحرومين منه يبلغون ٧١ فى المائة كما أن المحرومات من التعليم من البنات بلغت ٩٤ فى المائة وأن نسبة المتعلمات هى ٦ فى المائة فقط .

وقال إذا أريد إزالة هذا الحرمان يجب فتح ٩٦٤٩ مدرسة للبنين وإعداد ١٩٢٩٨ مدرسا لتلك المدارس وتحضير ٩٨٤٢ مدرسة للبنات مع إعداد ١٩٦٨٤ من المدرسات .

* * *

وأشار أمين سامى إلى أنه كان ولوعا بالعمل فى مجال التعليم وقد فضله على كل مجال آخر حتى أنه دعى للخدمة وكيلا لمديرية الدقهلية ، ثم قاضيا بمحكمة الاسكندرية « بماهية تزيد عن ماهيتى بكثير ففضلت الإقامة بين وظائف العلم مع قلة ماكان من مرتبها » وأنه قد فعل ذلك « إقتداء بسيد الأولين والآخرين القائل : (إنما بعثت معلما) .

ولطالما أشار فى أبحاثه وكتاباته إلى « الصدق فى الخدمة » والشغف

بالعمل وقال : « لو وليت أقل أمر ، لما وجدت فى أوقاتى دقيقة خالية من العمل » كما تطلع منذ شبابه إلى أن يؤدى عملا فى مجال البحث والثقافة ، فلا يكتفى بعمله الوظيفى : « أحسست من أوائل نشأتى ، أن على دينا لمصر ، يجب أداؤه عند القدرة عليه فعنيت فوق عنايتى بالوظائف التى أسندت إلى بتأليف بعض كتب ، أسأل الله أن يمن بالانتفاع بها بقدر متاعبى التى عانيتها فى وضعها » وربما قصد بذلك كتابية عن العلم والتعليم فى مصر وتقويم النيل أو لعل له كتبا أخرى مدرسية وتعليمية لم نصل إليها .

* * *

ولا نستطيع أن ننسى اهتمام أمين سامى بدراسة حلقات التاريخ القريب منه، ومن ذلك أنه كان قائم الاتصال بالبطل أحمد عرابى لم ينقطع عن زيارته حتى قبيل وفاته ، وقد استطاع أن يحقق معه بعض المواقع التاريخية فى ثورته وفى اللقاء الأخير استمر الحديث أربع ساعات . كان آخر عبارة قالها له عرابى : « كنت أريد الخير » وقد سجل أمين سامى هذا الحديث وصحح به كثيرا مما كان غامضا فى أحداث هذه الفترة .

من مؤلفاته وآثاره :
تقويم النيل (٣ أجزاء وملحق) ، التعليم فى مصر ، النفحات العباسية فى المبادىء الحسابية .

— ٩ —

أمين الرافعى

(١٨٨٦ — ١٩٢٧)

« إن الصحافة فى البلاد المحتلة أراضيها بجنود الغاصب مهمتها أشق من مهمة زميلتها فى البلاد المتمتعة بحريتها . من أجل هذا مرت الصحافة المصرية بكثير من الأدوار الصعبة والظروف الحرجة ، لأن الغاصب كان يخشى إرتفاع صوتها بالدفاع عن حقوق البلاد ، ويخاف ذيوع تعاليمها الوطنية بين جميع الطبقات ، فأراد أن يتخلص من هذا الرقيب الساهر على مصالح الوطن ، والذى لا يفتأ كل يوم يعدد سيئات المحتلين وتنبيه الأمة إلى خطر بقائهم متحكمين فى شئون البلاد . . . . هنالك — أخرجت الوزارات المسيرة بإرادة الأجنبى تلك القوانين العتيقة التى أريد بها القضاء على حرية القلم فى مصر فعانى الكتاب الأحرار ما عانوا من متاعب السجون ، وكم حيل بينهم وبين العمل فى ميدان الشرف . وقد أبت الصحافة الحرة أن تتراجع أمام القوة ولا زالت تجاهد وتناضل حتى كتب الفوز لها ، فلم يخفت صوتها فى أى عهد من عهود الشدة ، ولم يضعف إيمانها أمام أى إجراء من الإجراءات الاستبدادية » .

* * *

وهكذا استهل (أمين الرافعى) عملاق الصحافة العربية المصرية وشهيدها عامه الخامس من جريدة الأخبار — (٢٧ ديسمبر ١٩٢٤) التى كانت أول صحيفة وطنية صدرت بعد ثورة ١٩١٩ فى ٢٢ فبراير ١٩٢٠ — وهو يحمل لواء الدفاع عن تحرير مصر . وكان فى ذلك ينطلق إلى مرحلته الثانية فى العمل الصحفى الشريف الذى اتسم به . أما المرحلة الأولى فقد

كانت قبل الحرب العالمية الأولى فى بداية عام ١٩٠٩ حيث حرر فى اللواء والشعب وأصدر العلم والعدل والاعتدال ثم أعاد جريدة الشعب للظهور إلى أن أوقفها عندما أعلنت الحماية على مصر عام ١٩١٤ حتى لا ينشر قرارات الحماية . . وقد كتب خبرا قصيرا فى عدد ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ تحت عنوان : «احتجاب الشعب عن قرائه» : ضمنه هذه العبارة: يحتجب الشعب عن قرائه منذ اليوم وسنعود إن شاء الله إلى الظهور .

وقد كتب آخر مقال له يوم ٢٥ نوفمبر ١٩١٤ ، وكان قد أنذر بالعقاب إن عاب الحماية أو انتقدها ، فاستقر رأيه على أن يوقف الجريدة حتى لا يكتب ما يخالف عقيدته واعتقل على أثر ذلك وظل سجينا أحد عشر شهرا فى سجون درب الجماميز وطرة والسجن الأسود بالجيزة وسجن الاستئناف .

وكانت جريدة الشعب أوسع الصحف رواجا فلم يبال ذلك فى سبيل إيمانه بعقيدته .

* * *

استهل أمين الرافعى حياته الصحفية بالحديث عن : (خطر يهدد الصحافة)«قال: إن حرية الكتابة وحرية القراءة هما الدعامة التى ترتكز عليها المدنية الصحيحة ، فاذا مامست إحداهما بشىء خيف على المدنية الزوال ، وأصيب العدل فى أكبر أركانه .

لذلك رأينا الأمم إذا أخذت فى التكون وسرت فى عروقها دماء الحياة نادت بحرية الصحافة ودافعت عنها ما استطاعت لاعتقادها أن فيها الزاجر القوى الذى يصدع النفوس الشريرة والهيئات المستبدة ، ويمسكها عن إيصال الأذى إلى الغير فتسلك سبيل الحق والعدل ، وتكشف عن المظالم . . »

هكذا بدأ أمين الرافعى إتجاهه الوطنى بعد تخرجه من كلية الحقوق

منتظما فى العمل الصحفى بجريدة اللواء ، وكان أبرز ما تعرض له نقد : نظام التعليم فى مدرسة الحقوق وجناية الاحتلال الانجليزى على التعليم العالى فى مصر ، وما أفسده من أنظمة فى نظارة مستر (هيل) .

ثم مضى لحارب سياسة الوفاق واضطهاد الصحافة بإحياء قانون المطبوعات ، وتحدث عن كثير من الأعلام الذين جاهدوا فى سبيل أوطانهم، وعرض صورا للاعلام: مازينى: وأبو حنيفة وابن حنبل ومدحت.

ودعا إلى إعلان الحداد (يوم ١٤ سبتمبر ١٩٠٩) إحتجاجا على الاحتلال فى مثل ذلك اليوم عام ١٨٨٢ ، وبذلك صدر اللواء مجللا بالسواد ، واشترك فى مقاومة مشروع مد أجل امتياز قناة السويس مع محمد فريد بما حقق هزيمة المشروع وانهياره ، وعرض لجميع الأحداث الوطنية فى مناسباتها مثل توقيع اتفاقية السودان — ١٩ يناير ١٨٩٩ — وضرب الاسكندرية — ١١ يوليو ١٨٨٢ — وغيرها من المناسبات وعاون عمر لطفى فى الدعوة التعاونية.. ومضى يعمل فى صحف الحزب الوطنى فكتب فى اللواء ١٩١٠ ثم فى الشعب وحمل على الخديو عندما أقر المعتمد البريطانى على تدخله فى شئون مصر ، وهاجم غورست فى نطاق تقريره ، ودافع عن الصحافة ، وحمل لواء المطالبة بالدستور .

وظل يعمل فى هذه المرحلة قويا مؤمنا إلى أن أوقف صحيفته بنفسه حتى لا ينشر قرارات إعلانات الحماية أو يقف موقف الراضى عن الذل ، وقد وصف شقيقه المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى هذا الاحتجاج بأنه كان أول احتجاج من مصرى على الحماية البريطانية .

* * *

وبعد أن انتهت الحرب بدأ (أمين الرافعى) مرحلة جديدة من العمل فى الصحافة ، فأصدر أول صحيفة وطنية بعد الثورة : (الأخبار) .

واستهل مقاله الأول فى ٢٢ فبراير ١٩٢٠ بقوله :

(ليست القضية المصرية صعبة الدفاع ولا فى حاجة إلى الشرح الطويل فاننا لا نبغى شراء حريتنا ، وماكان لأحد أن يدعى شيئا من هذه الحرية التى هى ملك لنا وحدنا ، ولو كان للانصاف وجود فى المعاملة السياسية لما تردد مؤتمر الصلح عقب الحرب فى الحكم لنا ، ولكن الذين أقاموا أنفسهم للفصل بين الشعوب خضعوا لمطالبهم وطرحوا الحق جانبا ، وانصرفوا إلى إرضاء بعضهم بعضا .

وهكذا لا يظهر الأقوياء لنا فى مظهر القوة ، إلا لأننا قد قبلنا الخضوع لهم وجثونا أمامهم ولكنا إذا نهضنا جميعا نلنا حريتنا ونجونا من أسرهم) .

ثم صور عمل (الأخبار) قال: فنحن إذن لا نخدم فى الأخبار هيئة خاصة ولا نعبر عن رأى طائفة بالذات ، وإنما نخدم أمة وندافع عن مبدأ واحد هو الاستقلال التام للبلاد المصرية .

وكان أمين الرافعى قد شارك فى تأسيس الوفد ١٩١٨ ، وتولى سكرتارية هذه المنظمة بعد أن تم التوفيق بين الحزب الوطنى والوفد لتكون الأمة هيئة واحدة ، وقامت جريدة الأخبار على أساس هذا الاتجاه ، وكان عمله كبيرا وضخما من الناحية الصحفية والسياسية والقانونية حتى اختلف مع الوفد ، وكان شريفا شجاعا فى معارضته ،فلم يبال الخصومة مع سعد زغلول فى أوج عظمته ولم يتردد فى مقاومه رأيه الذى كان يرمى إلى عقد المعاهدة مع الانجليز على غير الأساس الأول الذى أقرته الأمة ودعا إليه سعد زغلول نفسه .

وقد بدأت هذه الخصومة عندما أعلن سعد فى خطبة له أنه يقبل استئناف المفاوضات دون أن يفكر فى (تعديل الأساس) الذى ينبغى أن تقوم عليه هذه المفاوضات وهو إلغاء الحماية البريطانية ورفع الأحكام العرفية وقبول الانجليز للتحفظات المصرية .

وطالب أمين الرافعى سعدا بأن يكون « الأساس » هو الاستقلال التام لمصر والسودان ، وأعاد إلى الذاكرة أن هذا المبدأ هو الذى قرره الوفد من قبل وحمل سعد باشا على الذين عدلوا عنه .

ولقى أمين الرافعى فى سبيل إيمانه بمبدأه واصراره على رأيه — رغم كل محاولات الاغراء والتهديد — لقى هولا وأذى وعنتا بالغا ، وهبط توزيع جريدته بعد أن أعلن سعد بأنه يقرأها نيابة عن أتباعه ، وبعد أن هاجمت المظاهرات دارها مرات .

غير أن أمين الرافعى لم يلبث أن دافع عن سعد زغلول عندما نفى للمرة الثانية إلى سيشل فى ديسمبر ١٩٢١ وكان من أشد المناضلين من أجله .

كما حمل على تصريح ٢٨ فبراير حملة شديدة لما تضمنه من تحفظات وصفها بأنها ضمانات تهدم الاستقلال ، وقال إن احتفاظ انجلترا بصورة مطلقة بتولى هذه الأمور إنما هو حكم الحيلولة الصريحة بين مصر وبين التمتع بحقها فى الاستقلال . بل هو قضاء فعلى على مبدأ السيادة التى تتظاهر انجلترا بالاعتراف به لمصر .

كما طالب قبل أن تشكل لجنة الدستور الثلاثينية عام ١٩٢٢ أن تباشر وضع «الدستور» جمعية وطنية تأسيسية تنتخبها، فلما شكلت هذه اللجنة قدم لها عديدا من الآراء والاقتراحات التى كانت موضع الاهتمام عند إعداد نصوص الدستور .

وقال سعد زغلول أنه كان يقرأ ملاحظات أمين الرافعى على الدستور وهو فى سيشل فيعجب ، حتى كأنما كان يعبر عن آرائه وأفكاره .

ومضت جريدة الأخبار تشق طريقا عسيرا بعد أن اختلفت مع سعد زغلول حتى اضطرت إلى الاحتجاب فى فبراير ١٩٢٦ وإن كان قد استأنف

إصدارها فى ١٢ مارس ١٩٢٧ إلا أنه لم يلبث أن أوقفها نهائياً بعد أن اشتدت عليه عوارض المرض إلى أن توفى فى ٢٩ ديسمبر ١٩٢٧ .

* * *

وقد صور مدى ما كان يواجه من عنت فى هذه الفترة فى مقال بتاريخ فى ١٧ ديسمبر ١٩٢٥ فى مستهل العام السابع للأخبار فقال: إذا كانت الأخبار قد لاقت كثيرا من المتاعب والمصاعب فى هذه الأعوام القلائل فإن هذا الذى لاقته كان أمرا طبيعيا مادامت (الأخبار) تريد أن تكون جريده مبدأ أو صحيفة نضال وجهاد فمن كان له مبدأ يريد أن يذود عنه ومن كان يبتغى العمل فى ميدان النضال والجهاد وجب عليه أن يوطن نفسه على تحمل المشاق ..

* * *

ولكى نكشف عن ملامح شخصية أمين الرافعى نروى حادثين هامين فى حياته الصحفية الأول ما رواه (عبد الوهاب على) أحد محررى الأخبار ، ذلك أنه أبان حوادث السودان المعروفة عام ١٩٢٥ ، كان موقف الأخبار عنيفا فى الحملة على بريطانيا . « ولما كانت دار المندوب السامى فى القاهرة هى مصدر الحصول على الأخبار ، فقد كان يقصدها الصحفيون حيث تمدهم — دار الاحتلال — ببعض أخبار السودان قبل أن تذاع فى بلاغات رسمية . قال : قدمت بطاقتى إلى السكرتير الشرقى فاذن لى بالمقابلة بعد دقيقتين ، واستدرجنى فأطرى أمين الرافعى ، ونوه بشرف خصومته وعفة قلمه .

ثم قال : أتريد أخبار : كيف وأنت مرسل من جريدة تتهم الانجليز بأنهم (كلاب قدرون) ، ونحن لا نعطى هذه الأخبار إلا للصحف الموالية لنا ، ولو أنكم اعتذرتم عما نشر لأعطيناكم الأخبار ، ثم انبرى يقول: إن ما كتبه أمين الرافعى سيكون سببا لتقديمه إلى المحاكمة مالم تعتذرون عنه .

وقد أخطر الصحفى أمين الرافعى بما جرى من حديث توا بعد نهاية المقابلة فلم يلبث الرافعى أن جعله موضوع افتتاحيته فى نفس اليوم قائلا :

«إن الانجليز يرون فى الكلمات التى كتبناها شيئا يستحق المحاكمة ، ولا يرون فى ضرب الأبرياء السودانيين ما يستحق المؤاخذة ، إلا شاهت الوجوه» .

وقال كلمته الخالدة : إن الحصول على الأنباء للصحف من الغاصب عمل يجب أن يتعفف عنه المصرى الأمين ولو أغلقت دونه المصادر كلها .

أما الحادث الثانى فهو ما كتبه الدكتور حسين هيكل . . . قال : كنت عند (أمين) أيام كان مختلفا مع سعد باشا فى نظرية المفاوضات وفيما نتحدث أقبل جماعة من الطلبة وتقدم إليه أحدهم قائلا :

إنا قد جئناك لتبين لنا ما يضر البلاد من هذا الخلاف الذى بينك وبين سعد ، فالناس جميعا يعرفون فيك الإخلاص والصدق ولو إنضم معك فريق منهم وقع فى البلد الإنقسام وفى الإنقسام مضرة . فكان جوابه :

«أن الذى وهبنى قلبى وعقلى ، أوجب على أن لا أقول إلا الحق ، وما أصدق أن الحق يمكن أن يضر ، إنما الضرر كل الضرر فى الدعوة إلى ماليس بحق واتباعه ، وسأتابع السير فى خطتى أياً كانت النتائج ، أتابع السير فيها حتى تفصل رأسى عن جسمى ..»

* * *

هذه صورة أمين الرافعى كما تبدو من خلال الأحداث ، صورة رجل دعوة ، ملء القلب بالإيمان والصدق وأمانة القلم وحب الوطن ، كان يرى أن الأمانة فى الصحافة ألا يقبل فيها إغراء وأن لا يراعى فيها كسبا ولا مغنما ، وعندما عرضت عليه المناصب رفضها وقال إن مهمتى الوحيدة فى هذه الأمة أن أقول ما أعتقد وأن أقوله فى الصحافة .

وكان «أمين» فى رأى جميع زملائه ومعاصريه «الصادق الأمين» ، لم يختلف أحد منهم فى ذلك حتى خصومه من أمثال الدكتور فارس نمر صاحب المقطم الذى أشار إلى إقتداره وتواضعه (إذا ذكر ما أسداه لوطنه من فضل) .

وقد أشار صاحب المقطم إلى أن صحفيا إنجليزيا كبيرا هو (السيرفلنتين) قدم مصر إبان الحركة الوطنية ١٩١٩ منتدبا عن جريدة التيمس لبحث المسألة المصرية ومطالب الوطنيين، فلما عرض عليه أن يلتقى ببعض قادة الحركة خطر بذهن الدكتور فارس نمر أن يقدم إليه أمين الرافعى ليخاطبه فى ذلك فقبل، فلما ذهب الصحفى الانجليزى لمقابلته بهره أمين بقوة حجته فقال عنه :

« إنه يملك من الذكاء وقوة الحجة والاقناع قدرا بالغا وأن ذلك سيؤيد المطالب المصرية » وعرف بأنه كان لا يكتب إلا إذا درس وبحث، وأسلوبه مدعم دائما بالحجج والمستندات والوثائق، وقال عنه توفيق دياب : أنه وقف من حصن مبادئه على صخرة صلبة عالية لا ترتفع إليها مجريات الحوادث الواقعة، ولا يجذبه عنها مايجرى به الوادى الخصيب على العاملين من خيرات ونعم، كلا، ولا يزحزحه خطب ملم أو عاصفة كاسحة ».

ومصدر ذلك فى رأينا إنما يرجع إلى نزعته الصوفية الخالصة المستنيرة فقد كان زاهدا فى مظاهر الحياة ومتارفها، ولعل نشأته فى بيئة متدينة هو مصدر احساسه بأن الحياة فكرة، لذلك لم تشغله زخارفها وعاش عزوفا عن المطامع التى يتهالك حولها الناس. ومن أجل هذا المعنى الحى القائم فى أعماقه رفض كل العروض التى قدمت إليه وظل متماسكا مؤثراً أن يتحمل الفقر والاضطهاد ويتعرض للأخطار صابرا متجلدا.

وقد لقى فى سبيل عقيدته عنتا كبيراً، وعندما وقعت الخصومة بينه وبين سعد، واختلف رأيهما بدأت سنوات الأخبار القاسية، التى وصفها تلميذه أحمد وفيق : كانت سنوات عجافا تمتع فيها بأقصى لذة من لذات ضروب الشقاء المستنكر المتولد عن نكران الجميل والارتباط الوثيق بأتعس الحظوظ.

وقال عنه داود بركات : عاش صحفيا لا يعرف فى الصحافة غير الدعاية،

ولا يعرف فى الدعاية إلا النظر القويم بلا مواربة ولا غموض ولا إبهام ولا مجاملة ولا مراعاة ، ولا يعرف فى ذلك حزبا ولا فئة فهو مع كل شخص وكل حزب وكل فئة تنهض للدعوة التى يدعوها ويروج لها : دعوة الحرية والاستقلال .

* * *

ولعل أبرز مواقفه الوطنية : «المذكرة السياسية» التى كتبها بعد انتهاء الحرب العالمية مباشرة عن المسألة المصرية والتى أصبحت مرجعاً رئيسيا فى دراسة القضية المصرية لأنها أول مذكرة وضعت بعد الهدنة (تاريخ المذكرة ٢٠ يونيه ١٩١٨) وموقفه من حل مجلس النواب وبطلانه ، فقد أداه عمق فهمه أن قرار حل مجلس النواب يعتبر باطلا حيث لم يتحدد فيه موعد الانتخاب والتاريخ الذى يجتمع فيه المجلس ومادام البرلمان لم يدع فإن من حقه أن يستأنف اجتماعه .

وقد ظل يدافع عن هـــذا الرأى حتى تم انعقاد البرلمان فى فندق الكونتننتال من تلقاء نفسه فى ٣١ نوفمبر ١٩٢٥ .

* * *

ولد أمين الرافعى فى الزقازيق (ديسمبر ١٨٨٦) وأتم دراسة الحقوق عام ١٩٠٩ ، سافر إلى الاستانة ١٩١٣ .

وكانت له رحلات متعددة إلى لوزان وباريس ، وكانت له صداقات بارزة مع كبار السياسيين الأوربيين وكان موضع تقديرهم لوطنيته واستقامة تفكيره .

وقد مات أمين الرافعى شهيد الصحافة العربية المصرية حقا وصدقا .

آثاره : مفاوضات الإنجليز بشان المسألة المصرية ١٩٢١ ، جريدة الشعب ١٩١٤ ، جريدة الأخبار ١٩٢١ – ١٩٢٧ .

— ١٠ —

البشير الابراهيمى

(١٨٨٩ — ١٩٦٥)

هذا رجل من أعلام الفكر الإسلامى فى الجزائر ، عاش شاعراً وكاتبا وصحفيا وخطيبا وأمضى حياته مجاهداً فى سبيل ثلاث كلمات : «اللغة العربية — الإسلام — الجزائر» فهو واحد من تلك المدرسة التى نشأت فى العالم الإسلامى على أثر سقوطه تحت النفوذ الأجنبى ، وكان إيمانها بأن تحرير الوطن لا يتم إلا عن طريق العلم والثقافة وبناء العقول وتربية النفوس ، وكان الشيخ محمد عبده فى العالم العربى من أبرز دعاة هذه المدرسة ، وقد امتدت فكرته إلى المغرب كله على أثر زيارتيه لتونس والجزائر فى أوائل هذا القرن والتقائه بصفوة المفكرين والعلماء ومحاضرته الشهيرة فى الجزائر عن نشر العلم كوسيلة للحرية واليقظة ، مع الانصراف عن السياسة ودخائلها .

هنالك برزت فى المغرب كله دعوة قوامها تحرير الفكر من قيد التقليد والعودة بالإسلام إلى ينابيعه الأولى وإنشاء المدارس وحلق العلم والدراسة فى المساجد فنشأت المدرسة السلفية فى المغرب وظهرت جمعية العلماء فى الجزائر وكان المعهد الزيتونى فى تونس قبلة أبناء الجزائر وليبيا ، كما كان جامع القرويين يغطى حاجة المغرب الأقصى .

* * *

ولقد كان الاستعمار الفرنسى قد اتخذ من الجزائر نقطة وثوب على المغرب كله عام ١٨٣٠ ومنها امتد إلى تونس والمغرب ، ولكنه ركز نفوذه فى الجزائر على أن تصبح فرنسا الجنوبية وأقام نظمه السياسية فيها على أساس محو عربيتها وإسلامها محوا تاما وإلحاقها بفرنسا فكراً ولغة وروحا .

وقد مضى فى خطته شوطا ، حتى برز فى أوائل القرن رجل كان قد تعلم فى الزيتونة وقصد إلى الأزهر ثم اتجه إلى مكة ، وجال جولته فى العالم العربى والتقى بأهل الفكر فيه ثم عاد إلى الجزائر عام ١٩١٣ ذلك هو أمام

الجزائر وباعث يقظتها دون منازع « عبد الحميد بن باديس » مؤسس جمعية العلماء، والرجل الذى إستطاع أن يتحدى نفوذ الاستعمار الفرنسى فى الجزائر بإنشاء ثلاثمائة مدرسة حفظت اللغة العربية والقرآن وأنشأت جيلا يعرف العربية بعد أن ألغى التعليم فى الجزائر باللغة العربية من برامجها واعتبرها لغة دخيلة، هذه النهضة التى بدأها عبد الحميد بن باديس على رأس قرن من الاحتلال الفرنسى (١٩٣٠) ضمت رجالا غاية فى الاخلاص والبذل والكفاية أمثال : الطيب العقبى ، وتوفيق المدنى ، والعربى التبسى ومبارك الميلى .

وكان البشير الإبراهيمى فى مقدمة هؤلاء ، ومن أبلغهم لسانا وبيانا وأعمقهم إيمانا بالعمل فى سبيل ذلك الهدف حتى أنه ولى هذا العمل وأشرف عليه بعد أن توفى (ابن باديس) عام ١٩٤٠ فحمل اللواء وسار به ربع قرن حتى توفى فى مايو ١٩٦٥ .

فقد كان البشير الإبراهيمى مليئا بالحيوية ، صادق الإيمان ببناء (الأمة) عن طريق التعليم ، والمحافظة على عروبة الجزائر وإسلامها ومقومات فكرها العربى الإسلامى من أن يذهب بدداً فى ذلك الغزو الفكرى والتغريب الذى كانت فرنسا تحاول به أن تفصل الجزائر عن الأمة العربية والعالم الإسلامى لتضمها بالفكر والروح إلى الغرب .

* * *

ولسنا هنا بصدد الحديث عن الخطوات التى حققتها جمعية العلماء ودور عبد الحميد بن باديس رائد هذا العمل الضخم فقد استطاعت جمعية العلماء بقيادة البشير الإبراهيمى أن تمضى فى الطريق وأن توسع نطاقها وتعمق مجراها[١].

ولم تلبث هذه المدارس القرآنية العربية أن بلغ عددها عام ١٩٥٥ أربعمائة مدرسة وبلغ تلاميذها ٧٥ ألفا من ذكور وإناث وبلغ مدرسوها ٧٠٠ مدرس ، بل استطاعت هذه الدعوة أن تنشىء (المعهد الباديسى) عام ١٩٤٧ الذى يعطى الشهادة الأهلية العربية لأول مرة .

(١) راجع كتابنا « الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال أفريقيا » .

وكان جهد البشير الإبراهيمى ضخما جداً فى هذا العمل ، الذى قام على أموال الجزائرين وحدهم ، دون معونة من الدولة المحتلة التى لم تكن تعترف بهذه المدارس . كما لقيت هذه المدارس ولقى مدرسوها صنوفا من العنت وألوانا من الاضطهاد لا حد له ، فكم من مدرس سجن ونفى وقتل من أجل هذه الرسالة ، ولولا أن دعاة (جمعية العلماء) ومدرسيها كانوا أصدق إيماناً وأكثر تضحية من غيرهم لما استطاعوا أن يسيروا بهذا العمل أشواطاً واسعة وأن يحققوا به نتائج طيبة حفظت اللغة العربية فى الجزائر ، حتى لقد يمكن القول بحق أن كل من يتكلم اللغة العربية فى الجزائر اليوم مدين لجمعية العلماء ولجهد ابن باديس والإبراهيمى وزملائهما .

* * *

ولقد كان شعار (الإبراهيمى) وجماعته هو « حماية اللغة العربية من الضياع » فاللغة العربية هى الهدف الأول والأكبر وهذه صيحته دائماً :

« اللغة العربية هى لغة الإسلام الرسمية ، ولهذه الأمة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان ، كل منهما يقتضى وجوب تعلمها ، فكيف إذن أجتمعا . حق من حيث أنها لغة دين الأمة بحكم إن الأمة مسلمة ،وحق إنها لغة جنسها بحكم أن الأمة عربية الجنس فهى دنيا ودين معاً ، ومن هنا نشأ ماتراه من حرص متأصل فى هذه الأمة على تعلم العربية ومانشهده من مطالبتها مطالبة جماعية بحرية تعليمها ، ومانشاهده من قلق واضطراب فى أوساط الأمة لموقف الحكومة المخجل من اللغة العربية وما نراه من سخط عميق على القوانين التى تعرقل تعليمها وذلك كله لأنها مفتاح الدين أو جزء من الدين» .

هكذا كان الإبراهيمى يواجه حكومة الاحتلال فى جرأة ، ويعلن صيحته المؤمنة وعنده أن : « اللغة العربية فى القطر الجزائرى ليست غريبة ولا دخيلة ، بل هى فى دارها وبين حماتها وأنصارها ، وهى ممتدة الجذور مع الماضى ، مشتدة الأواخى مع الحاضر ، طويلة الافنان فى المستقبل ، ممتدة مع الماضى لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ،

ترحل برحيلهم ، وتقيم بإقامتهم ، فلما أقام الإسلام مقيما لايتزحزح ، من ذلك الحين بدأت تتغلغل فى النفوس فأصبحت لغة دين ودنيا معاً ، أزاحت البربرية عن ألسنة البربر فغلبت وبذت ، وسلطت سحرها على النفوس البربرية فأحالتها عربية، كان ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر ، واقتناع لا يد فيه للقهر ، وكذب وفجر من يسمى الفتح الإسلامى استعماراً ، ومن قال إن البربر دخلوا فى الإسلام طوعاً ، فقد لزمه بأنهم قد قبلوا العربية عفواً لأنهما شيئان متلازمان حقيقياً وواقعاً . لايمكن الفصل بينهما ، ومن يحاول الفصل بينهما كمحاول الفصل بين الفرقدين » .

ومن هذا يفهم مدى ذلك الجهد الضخم الذى بذله (البشير الإبراهيمى) خلفاً لابن باديس على هذه النهضة فى سبيل تخريج «جيل قائد» يحمل اللواء ويمضى فى كل مكان ليعلم ، وقد أشار الإبراهيمى إلى أن المعهد الباديسى يحمل لواء (التربية الإسلامية) من أجل إخراج جيل مسلح بالفضائل يجمع بين حياة الفكر ومتانة الخلق وإحياء الدين والدنيا .

وقد احتمل مدرسو جمعية العلماء متاعب لا حد لها عندما تعمق خطوهم وكانت حكومة الاحتلال الفرنسى قد واجهت هذا العمل أول أمره بإستهانة وظنت أنه لن يحقق شيئاً يذكر ، فلما اتسع نطاقه أخذت فى مقاومته بعنف وضراوة فمضت تسن القوانين فى التضييق على العاملين واشترطت أن يحصلوا على تصريح (رخصة) وكانت إجراءات التصريح معقدة ، شاقة ، وذلك حتى تصرف المعلمين عن العمل فى هذه المدارس ثم أخذت تسجنهم وتضطهدهم ، بينما يجد غيرهم من العاملين فى مدارس الحكومة كل تقدير ومـوالاه .

وكذلك قاومت دعاتهم الذين يلقون المحاضرات فى المساجد ثم فرضت على هذه المدارس تعليم اللغة الفرنسية وفرضت ثلاث ساعات فى اليوم لها وحدها رغبة فى هدم منهج اللغة العربية والقرآن .

ومع ذلك فقد مضت جمعية العلماء ومضى البشير الإبراهيمى يذكر فى نفوس زملائه وأبنائه نداً للموالاة والاستمرار .

* * *

ولم يكن البشير الإبراهيمى قاصراً على حمل لواء التعليم ولو فعل لكفاه ذلك جهاد العاملين ولكنه كان داعياً إلى الإيمان بالعربية ممتزجة بالإسلام، منافحاً عن وحدة العرب والبربر فى فهم عميق ومنطق صريح ، يقول :

« الشعب الجزائرى فرع باسق من تلك الدوحة ، عدت عليه عوادى الدهر فنسى مجد العروبة ولكنه لم ينس أبوتها ، وابتلاه الاستعمار عن قصد بالبلبلة فانحرفت فيه الحروف عن مخارجها إلا الضاد ، وجاءت «جمعية العلماء» فنفخت من روح العروبة فى تلك الانساب فإذا هى هى صريحة ، وسكبت من سر البيان فى تلك الألسنة فإذا هى فصيحة ، جمعية العلماء هى التى حققت للجزائر نسبة العربى الصريح بريئاً من شوائب الهجنة ، وأحيت فى نفسه شعور الاعتزاز بنفسه وفى لسانه شعور الكرامة اللغة ، وفى ضميره شعور الارتباط بين ثلاثة المقومات : فى الجنس واللغة والوطن ، فجمعية العلماء هى التى أثبتت للاستعمار أن الدماء البربرية التى مازجت الدم العربى أصبحت عربية بحكم الإسلام وبحكم العمومة والخؤولة الممتدين فى سلسلة من الزمن ذرعها ثلاثة عشر قرناً ، مزاج فطرى احتكمت القدرة تداخل أجزائه والتحام نسبى وصل التاريخ أطرافه مرتين . ولو تحدثت جمعية العلماء لقالت لكل العاملين فى الشرق العربى لرفعة العربية وإعلاء شأنها بين اللغات بأنها عملت لها أكثر مما عملوا لها وهم أحرار آمنوا فى بلد بلسانه وجنسه عربيان وحاكمه وحكومته عربيان ، وعملنا لها تحت زمجرة الاستعمار فى بلد لم يبق من عروبته إلا اسم الجنس يضرب مثلا للجهل والانحطاط ، ولم يبق من عربيته إلا اسم الفعل تجعله رمزاً للبذاءة والسباب » .

وعلى ضوء هذا البيان العربى البليغ ، ومضمونه الحر الصريح تتكشف شخصية البشير الإبراهيمى خليفة إبن باديس وحامل اللواء من بعده فى معركة

ضخمة امتدت على يديه سنوات حتى أذن الله للثورة الجزائرية أن تستعلن فتجد وقودها من هذه الدعوة التى شحنت النفوس والقلوب بالإيمان بحق الأمة الجزائرية فى الحياة ولغتها ودينها وكيانها فى البقاء . فقد كان الإبراهيمى إلى ذلك كله كاتباً مناخاً له صحيفة بارزة هى (البصائر) يرسل فيها دعوته ويقول كلمته للاستعمار الفرنسى جريئاً ، وقد ظهرت سنوات قبل أن تعطلها الحرب العالمية الثانية ، ثم عادت إلى الظهور عام ١٩٤٧ واستمرت حتى عام ١٩٥٤ .

* * *

وقد تناول البشير الإبراهيمى فى كتاباته مختلف القضايا الدينية والاجتماعية والسياسية وكشف عن رأى جمعية العلماء فى عشرات الأمور . وقدم فى صحيفته مئات من شباب الجزائر وكتابها وشعرائها وكان من أبرزهم : محمد العيد وحمد سحنون ومفدى زكريا والعزيز بن عمر ومحمد بوزو وعبد الكريم العقون وفرحات الداجى وحمزة بوكوشة وأبو بكر اللمتونى .

وكان إصدار مثل هذه الصحيفة عملا خطيرا ومجهدا حقا ، فهى صحيفة تقاوم الحكومة ولا تواليها ، وتدعو دعوة اللغة العربية والإسلام ومن هنا تجد المقاومة فى الترخيص لها ثم حصولها على الورق وإيجاد المطبعة العربية ثم هى لا تجمع الإعلان إلا بثمنه الذى ترفضه .

ولكن الشيخ البشير رحمة الله كان قوى المعارضة صادق الإيمان فقد جاهد فى سبيل الإبقاء على هذا الصوت المدوى الذى أتاح فرصة كبرى لإعلان الكلمة وبناء جيل من الكتاب والشعراء وحمل لواء الدفاع عما أسماه « الذاتية الجزائرية » : التى هى عبارة عن العروبة والإسلام ممتزجين كما دعا إلى تربية الأمة وحفظ مقوماتها وإحياء اللغة العربية وآدابها .

وكان البشير إلى ذلك خطيبا مفوها ، وشاعرا له ديوان غير مطبوع وله ملحمة بلغت عشرات الألوف من الأبيات منها أكثر من خمسة آلاف

بيت عن الإسلام وتاريخه ، وقد استمعنا إليه مرات فى القاهرة وهو يردد أجزاء منها ، وقد ضمنها قصصا ومواقف وأحداثا ترتبط بتاريخ الجزائر الحديث ومقاومته للاستعمار وخصوم الإسلام والعربية ومنها قوله :

نغار على إحسابنا أن تمتهن — والحرص عن مجد الجدود مؤتمن
ولغـــة العرب لسان ممتحن — إن لم يذد أبنـاؤه عنه فمن

ومن نظمه عن أثر الإسلام فى العرب : —

عوضتهم عن الخسار الربحا — فابصروا بعد الظـلام الصبحا
علمتهم كرامـة الإنســـان — وجئتهم بالعدل والإحسان

وهـكذا :

وكان له أسلوب من الرمز يقصد إليه إذا ضيق عليه الخناق فلم يستطع أن يرسل آراءه حرة ، وقد أطلق عليه « سجع الكهان » يقوله فى أيام الأزمات ليفوته على الرقيب . ومن ذلك قوله :

نحن الكهان — أفراس رهان — منا السابق المصلى — ومنا الآبق المولى ، كما أرها للنبوة ، ودليلا للضعف إلى القوة ، فلما عادت الكسور إلى شرائعها ، والقيصرية إلى ذرائعها ، (يقصد فرنسا) آن لنا أن نعود إلى الإنذار ، ونصرخ فى وجوههم ، حذار حذار ، أن بطش الله لشديد ، وأن الحديد قد يفل الحديد » .

وهكذا عمل البشير الإبراهيمى فى ميادين التعلم والأدب والصحافة ، وقاوم فرنسا فى أضخم مجال ، واستطاع أن يسير بالعمل الكبير إلى غايته ، ولم ينس فلسطين فكتب عنها مقالات نارية ، ودعا إلى حرية الشمال الأفريقى ، وذكر مصر فى مختلف أحداثها ومحنها ، ولم يقف عند العالم العربى وحده فآزر الباكستان واندونسيا فى معركة الحرية .

وقـد عاش حياة قلقة مضطربة ، بالغة الخطر ، بين أيامه فى الجزائر يعمل ويقاوم وسائل العنف التى تحاول أن تحطم البناء ، وتفرض عليه

القيود ، أو مسجوناً فى وهران لايستطيع أن يودع جثمان رائده إبن باديس يوممات أو مهاجراً إلى مصر والشرق العربى داعياً إلىقضية الجزائر .

* * *

وكان قد ولد فى بجاية عام ١٨٨٩ وتلق تعليمه على يد علمائها ، ثم غادرها مهاجرا إلى المشرق حيث جاوز فى المدينة المنورة ودرس النحو والبلاغه ، وحمل لواء الدعوة السلفيه الداعية إلى العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى ، وعمل ١٩١٦ أستاذا للأدب العربى بالمدرسة السلطانيه بدمشق حتى انتهت الحرب العالمية الأولى ثم عاد إلى الجزائر سنة ١٩٢٠ فانتظم مع ابن باديس عام ١٩٣٠ فى جمعية العلماء وخلفه عام ١٩٤٠ واصدر البصائر عام ١٩٣٥ ثم توقفت (١٩٣٩ — ١٩٤٦) ثم عاد إلى مصر فطاف بالشرق وأمضى بمصر سنوات الثورة الجزائرية ينافح عنها وينشر آثار كتابها ودواوين شعرائها ، وقد نشر له فى القاهرة كتاب ضخم ضم مجموعة آثاره . تحت عنوان (عيون البصائر) ثم عاد إلى الجزائر بعـــد استقلالها فأقام بها مريضا ، وقد هده الجهد والإعياء حتى توفى عن ٧٦ عاما عريضة من الكفاح والجهاد وخلف أثاراً من الفكر والأدب وأجيالا من الشباب المؤمن بوطنه وعروبته وإسلامه .

(توفى فى مايو ١٩٦٥)

من مؤلفاته :
« عيون البصائر » والمنظومة الرجزية فى ٣٦ ألف بيت (مخطوطة) ، ومجلة البصائر

— ١١ —

توفيق البكرى

(١٨٧٠ — ١٩٣٢)

تألقت شخصية السيد توفيق البكرى سنوات طويلة ثم انطفأت فجأة ، فكانت كالشهاب الذى سرعان ماهوى ، إذ ما لبث الرجل النحيل المترف الذى تشع عيناه بالذكاء ، أن أمضى سنواته الأخيرة الطويلة بين المصح والعزلة ، وإذا كانت حياته العملية قد بدت قصيرة توقفت تقريبا عام ١٩١١ حين انسحب من الحياة الاجتماعية وخلف مناصبه العديدة ومجلسه الحافل بالبهجة والوقار ، فإنها كانت عريضة خصبة أثارت كثيرا من الأحقاد والخصومات.

وقد بدأ تألقه عام ١٨٩٢ ، وهو نفس اليوم الذى ولى فيه « عباس حلمى الثانى » عرش مصر ، وكان له رفيقا فى الدراسة ، وفى خلال العشرين عاما التى تلت ذلك من تاريخ مصر كان توفيق البكرى مبرزا فى مجـــال السياسة والأدب ، مؤلفا ومحدثا وكاتبا وشاعرا ، ثم كان إلى ذلك زعيما للطرق الصوفية تدين له بالولاء وهى فى ذلك الوقت قوة روحية ضخمة ، فقد عقد له عباس رئاسة الألوية الثلاث : السادة البكرية ، السادة الصوفية ، نقابة الأشراف . وكان منذ عام ١٨٨٩ شيخ السادة البكرية بعد وفاة شقيقه عبد الباقى البكرى .

وكان توفيق قد أحرز حظا من التعليم العصرى واللغة الفرنسية ، ودرس العلوم العربية والشرعية وحظى بصداقة الشيخ محمد عبده إمام العصر ، أو الشيخ المفتى كما كانوا يسمونه ، وحضر دروسه الخاصة فى جامع عابدين ، كما تلقى دراسات فى غريب اللغة العربية وآدابها على الشيخ محمد محمود الشنقيطى الكبير .

وقد عرف فى مجال الدراسات الأدبية ، بعدد من أراجيز العرب أملاها وشرح غريبها وكان كتابه « صهاريج اللؤلؤ » هو أعظم أعماله ،

وقد أصدره عام ١٩٠٦، أما فى مجال الدراسات الإسلامية فقد أصدر ١٩٠٢ كتابه « المستقبل للإسلام » ردا على ما أثاره بعض المستشرقين من شبهات. وله إلى ذلك شعر ونثر كثير، كانت تحفل به الصحف، لبلاغته من ناحية ولمكانة صاحبه من ناحية أخرى.

وقد استطاع البكرى أن يحتفظ لنفسه بالمهابة والمكانة العريقة، الموروثة أصلا عن بيت البكرى والمتصلة بثقافته وذكائه والمعيته، حتى أنه نال تقدير الرجلين المتنازعين على النفوذ فى مصر : كرومر صاحب السلطة الفعلية وعباس صاحب السلطة الشرعية.

ولقد واجه الاحتلال البريطانى فى مطالعه بأجرأ صيحة، فقد أرسل يطالب بريطانيا بالجلاء عن مصر، وله خطاب مفتوح صريح وتصريحات لجريدة التيمس عام ١٨٩٣ قال فيها : أنا ضد الاحتلال البريطانى وأعتقد أن البلاد قادرة على حكم نفسها، غير أن الأمور لا تجرى دائما على النحو الذى يقدرها أصحابها فقد بدت له صلة مع السلطان عبد الحميد الخليفة العثمانى الذى أنعم عليه بدرجة من الدرجات العالية وهى رتبة قاضى عسكر الأناضول فأثار عليه غضب الخديو الذى حاول أن يحصل على مثلها لأحد أتباعه فعجز.

وبدأ هذا الخلاف واضحا فى لقاء بين الخديو والسيد، بمناسبة المولد النبوى، تبادلا فيه الكلمات اللاذعة، ثم جاء حدث من أبرز الأحداث فى علاقتهما، كان مقدمة للاضطراب الذى عاناه البكرى من بعد وأنهى حياته السياسية والاجتماعية قبل أن يموت بأكثر من عشرين عاما.

ذلك هو حادث « قصيدة الهجو » كما أطلق عليها إذا ذاك، هذه التى نشرتها جريدة الصاعقة يوم عودة الخديو من مصيفه عام ١٨٩٧ والتى استهلها ناظمها على هذا النحو :

قدوم ولكن لا أقول سعيد   وملك وإن طال المدى سيبيد

ولهذه القصيدة قصة طويلة، أتهم فى نظمها « مصطفى لطفى المنفلوطى »

وتردد أن البكرى هو ناظم مطلعها ، وأن له فى عجزها أبيات تحمل عبارات الحقد على زميله وصفيه القديم(١) .

هنالك بدأت تلك المعركة النفسية التى هزت كيان الرجل النحيل الرقيق ، وأفسدت عليه كل شىء ، فقد كان الخديو يرسل إليه بعد منتصف الليل يدعوه إلى مقابلته ، ويهدده بألوان من التهديد ، وقد أزعجه هذا أيما إزعاج وحول حياته إلى جحيم ، حتى أنه كان يخيل إليه أن الخديو قد أرسل له من يقتله ، وأن عيونا تترصد له داخل قصره .

وقد انتهى به هذا إلى اضطراب العقل ، مما حدا بأهله أن ينقلوه إلى مصح فى أعالى جبال لبنـان ، وبذلك انتهت حياته الفكرية والسياسية ، وانخلع عن نفوذه الأدبى والاجتماعى .

وربما كان يمكن أن يتماسك البكرى لولا أن عزل السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ مما أغرى به الخديو فى مزيد من المتاعب ، فكانت سنواته الثلاث من بعد غاية فى الشقاء والاضطراب .

* * *

ولقد كانت دار البكرى فى الخرنفش ، وهى من قبل سراى والى مصر عباس الأول ، آية من آيات الترف والثراء والأبهة ، وكانت القاعة الكبرى فيها غاية فى الرواء ، والفخامة ، مفروشة بأنفس الطنافس ، مذهبة السقوف والجدران ، وقد تصدرها ذلك الرجل النحيل الجسم الواسع العينين الذكى اللماح ، الذى حفل مجلسه بأعلام مصر ، من رجال الأدب والسياسة والوزراء والأمراء فإذا طال المجلس وتطاول ، انتقل مع زواره إلى مائدة حافلة ، فلا يزالون يأكلون ويسمرون حتى يمضى الهزيع الأول من الليل ، ولطالما وقع فى هذه القاعة ما يكشف عن مؤامرات السياسة ومصاولات النفوذ ،

---

(١) إقرأ تفصيلات أوفى عن هذه القصيدة فى كتابنا « الشرق فى فجر اليقظة » و « صفحات مجهولة فى الأدب العربى المعاصر » .

ولقد حفظ الأدب العربى تلك الرسالة التى دبجها « حفنى ناصف » فى عتاب «توفيق البكرى » حين زاره فى داره،ووقف مع الواقفين للسلام عليه، فإذا به يتجاوزه ويغضى عنه،وقد مد له حفنى ناصف يداً فتجاهلها ولم ينظر إليها .

وهناك مهرجاناته التى كان يتصدرها ، بين مشايخ الطرق الصوفية ، وهم متحلقون حوله فى نسق عجيب ، بطبولهم ودفوفهم وبخورهم ، يتلون «دلائل الخيرات»بصوت مرتفع متناسب فى نغماته وأوزاته ، وكيف كانت طوائفهم تقبل من بعيد واحدة بعد أخرى ، ومعها أعلامها ومصابيحها ودفوفها ، ثم تتهادى من باب الدار وخلفها رجالها ذوى العمائم الخضراء يجهرون بالازكار والأوراد ، فيتجولون فى الحديقة الفسيحة فاتحين الطريق ثانية وثالثة ثم تتقدم كل طائفة منهم ، وعلى رأسها الخليفة وعلمه ومصباحه إلى صاحب السماحة حتى إذا اقتربوا منه ، التفوا حوله فى نصف دائرها ، يتلون أدعيتهم ويلثمون أطرافه وينصرفون .

* * *

هكذا كان الشيخ البكرى فى سنوات تألقه ، يعيش حياة مرموقة ذات نفوذ ، وكانت آثاره الأدبية نوعا من هذا النفوذ ، وإن كانت فى الحق أداة الإفضاء عن مشاعره ، وهى مشاعر تدل فى أغلبها على القلق والحرمان والوحشة ، ولا تعطى صورة السعادة أو إشراقة الحياة المضيئة بالرغم من طابع الحياة الذى كان يحياه . وتلك خلة هذا الصنف من ذوى الطموح ، الذين يتصدرون مجالات السياسة ويكابدون مناوراتها وأهوائها .

ولعل الدكتور زكى مبارك قد بلغ فى تصوير ذلك الغاية حين قال : إن توفيق البكرى كان يجمع بين خلتين من أكرم الخلال ، هما حدة الذكاء وقوة الشعور بطيب الحياة ، وما اجتمعت هاتان الخلتان لرجل إلا كانتا مصدرا فياضا لنعيمه وبؤسه ، وقلقه وهدوئه ، والدنيا لا تقسو إلا على الرجل الذكى الملهم الذى يعرف أسرار الكون ويتذوق أطايب الحياة وعندى أن البكرى فى حدود مايكشف شعره : إنسان معذب العقل والقلب

والروح ، اتصل بأسباب الفتن والمصائب حين رأى أن يكون له فى السياسة أطماع ، وفى الحب أطماع ، فكان يعيش بين دسيستين : دسيسة المجد ودسيسة الجمال ، ولقد كان بعض ذوى الشأن يرسل العيون لاقتفاء آثاره ، ونقل مايقع فى أسماره ، وفى بعض ذلك مايذهب برشد الحليم وينقل العقل من مكان إلى مكان . وأكبر أثر تركه البكرى هو كتاب «صهاريج اللؤلؤ» ، وهو أثر كاف فى الدلالة على أن صاحبه كان مرشحا للجنون منذ أمد بعيد فإنه لم يتفق لكاتب فى اللغة العربية أن يظفر بذلك الحظ من الذكاء وما ظن القارىء برجل تمثلت لذهنه ألوان التشبيهات والاستعارات والكنايات فى أكثر العصور الأدبية حتى استطاع أن يحولها على أسلة قلمه إلى ملك خاص لاينازعه فيه مكابر أو حسود» .

وقد أشار السيد رشيد رضا إلى أن توفيق البكرى كان كاتبا شابا نحيف الجسم ، عصبى المزاج ، مترف المعيشة ، حريصاً على بلوغ الغاية من حظوظ الحياة المادية والمعنوية وقد جنت عليه السياسة فصرفته عن كل ما كان يرجى منه لخدمة أدب اللغة الذى كان يميل إليه بطبعه أو إصلاح الطرق الصوفية التى كان متمكنا فيها بمنصبه ، ولقد وجه إليه رشيد رضا كما وجه إليه فريد وجدى ، وعبد العزيز جاويش نقدات شديدة ولاذعة عن نهج الطرق ، ولكنه فيما يبدو لم يكن متفرغا لادخال أى إصلاح ، تحت ضغط ذلك الصراع الذى وقع بينه وبين الخديو فألجأه إلى الاعتصام بنفوذ كرومر ، والاتصال بالصحف الموالية للانجليز ، وذلك فى مواجهة خصومة الخديو .

* * *

وفى مجال «الإسلام» و«التصوف» كان للسيد البكرى جولات أبرزها كتابه «المستقبل للإسلام» وفيه يتحدث عن الدور الذى لعبته الطرق الصوفية فى نشر الإسلام خلال القرن التاسع عشر فى إفريقيا .

ويرى السيد البكرى أن أهم الأسباب فى انتشار الإسلام هو خدمة

دعاته وهم «الصوفية» ، ويقول «الصوفية جمعية فى الأمة الإسلامية مرتبة النظام ، منظمة الهندام ، يبلغ عددها مائة مليون من النفوس ، فهى أكبر جمعية فى الدنيا لا يضارعها البوكر فى الصين ولا الطوائف الدينية فى أوربا ، وقد قامت هذه الجمعية بالدعوة الإسلامية قياما عجيبا » .

وقد تناول هذا المعنى فى كثير من أبحاثه ومساجلاته بعد ذلك ، فأشار عام ١٩٠٧ إلى « أن العالم الإسلامى وقف عن التقدم والغلب أمام الدول الأوروبية مدة مديدة ، فاستطالت هذه الدول بين الممالك الإسلامية وغلبن الكثير منها بالقوة العقلية والمادية ، ولكن الذى أعجزها وضاعت معه قوتها ، هم « الصوفية » فالصوفية فى الحقيقة ، القوة الدالة على الحيوية والنماء فى العالم الإسلامى ، فتراهم فى إفريقيا وفى الصين والهند وأواسط آسيا ، بل فى جزر المحيط يدعون الإسلام ويدخلون الأفواج فيه على مدى الأيام ، حتى أن الخطوط التى ترسم فى إفريقيا لبيان حدود الإسلام وراء خط الاستواء تنتقل متقدمة إلى الجنوب فى كل عام ، وذلك من أثر فتوح مشايخ الصوفية فى مجاهل إفريقيا ، وما دخل المستعمرون فى قرية من قرى الكونغو لا وجدوا الصوفية قد سبقوهم إلى نواحيها . . »

ولقد واجه السيد البكرى حملات الصحف والكتاب عليه ، ورد عليهم مؤكدا أهمية التصوف مستشهدا بكتابات الأمام الغزالى ، وأشار إلى اهتمام الكتاب الغربيين بالصوفية : يقول « من اطلع على المؤلفات الكثيرة التى تؤلف فى هذه السنين فى أوربا عن أحوال الصوفية وتاريخ الطرق علم أن مسألة « الصوفية » هى المسألة الشاغلة للباحثين عن حالة الإسلام والمسلمين .

ولقد شارك البكرى فى مختلف الدعوات والحركات التى دعت إلى النهضة والثقافة ، فاشترك فى مجتمعات اللغة العربية التى عقدت فى تلك الفترة ، وكان بعضها يعقد فى داره ، كما اشترك فى الدعوة التى قام بها اسماعيل «عصبر نسكى» القادم إلى مصر من القوقاز لعقد مؤتمر إسلامى سنة ١٩٠٨ ، وكان هدف المؤتمر التعريف الاجتماعى والثقافى بين المسلمين بعيداً عن قضايا

السياسة ودون ارتباط بمشروعات الجامعة الإسلامية التى حمل لواء الدعوة إليها جمال الدين الأفغانى أودعا إليها السلطان عبد الحميد .

* * *

وقد صور سليم سركيس لقاء له مع السيد البكرى عام ١٩٠٥ فقال : أدخلنى إلى غرفة مكتبة ملأتها طاولة مستطيلة ، طولها أربعة أمتار ، حافلة بالكتب والأوراق والأكياس ، لأن سماحة السيد يضع أوراقه وآثاره القيمة فى أكياس صغيرة ، يكتب غالباً بقلم رصاص، وغالباً يدخن ،وهو يكره الكلام أثناء اشتغاله بالكتابة . ومما قاله إن له آثار أكثر من كل كاتب مصرى ، لكنه يبخل بنشر كتاباته » .

* * *

أما المرحلة المظلمة من حياة السيد البكرى فقد جاءت على أثر غلبة المخاوف والأوهام عليه ، وقد بدأت هذه الاضطرابات العصبية حين كان يتصور أن هناك من يريد القضاء عليـــه حتى كان يختفى فى بعض زوايا الحجرات، وكان أبرز من يخشاهم الخديو السابق، وخصوم السلطان عبدالحميد ، ولقد كان أرسال السيد البكرى إلى مستشفى العصفورية فى لبنان أشبه بالأبعاد السياسى ولذلك ألقى عليه ستاراً من النسيان خلال سبعة عشر عاماً أمضاها هنالك حتى عاد فى يونية ١٩٢٨ ولما كان سليم سركيس الصحفى السورى صديقاً للسيد منذ مطالع شبابه ، فقد عن له عام ١٩٢٣ إلى أن يقصد إلى مستشفى العصفورية لزيارته ، فلما عاد كتب بعض مقالات صور فيها مدى مايلاقيه البكرى من أهمال وزراية، ومما قاله سركيس: أن الشيخ يعامل معاملة لاتليق بمقامه وأن أمره مهمل الإهمال كله ، حتى أنهم لا يعنون بأمر ملبسه ، وقد رآه يلبس حذاء ضخما منكراً وجبة رثة صفراء ، وتصدى السيد عبد الحميد البكرى خليفته وابن أخيه لتكذيب ماذكره سركيس ، غير أن رسائل كثيرة توالى نشرها فى الأهرام والبلاغ والمحروسة ، أكدت سوء حالة

السيد توفيق . ومن أهم هذه الأحاديث ماحصل عليه فؤاد معبعب فقد أدلى إليه المشرف على مستشفى العصفورية بتصريحات جريئـــة :قال إن يكن من المحقق أن مرض السيد غير قال للشفاء ، فجنونه لايكاد يسمى جنونا بالمعنى المعروف ، فهو مفكر أديب ، حافظ لكثير من قواه ومواهبه يحادثك حديث العقلاء ، وله آراء خاصة فى الشئون السياسية ويكثر من المطالعة ، وهو يدفع لنا بقائمة كتب من حين إلى آخر نطلبها له من المكتبات .

فلما عاد (يونية ١٩٢٨) إلى القاهرة تجدد الحديث عنه وقال من زاروه أنه مازال على ذكائه المتوقد ، وذهنه الحاضر ، وذاكرته ، وبراعته فى الحديث » .

وكانت أحاديثه إذ ذاك تشير إلى أنه سيهجر مصر بعد قضاء بعض شئونه ، للسكن فى احدى جزر البحر المتوسط ، غير أن العمر لم يبلغ به ماأراد فقد توفى بعد ذلك بقليل ، وخلف صورة مريرة للطموح والذكاء حين يفلت من قيوده .

توفى فى (١٣ أغسطس ١٩٣٢)

* * *

(أجازته العلمية) ، صورة أجازة الشيخ الانبابى للسيد توفيق البكرى

(أجازة ولدنا فخر السلالة الهاشمية وطراز العصابة الصديقية ، بعد أن قرأ على رسالة الأوائل للشيخ عبد الله البقرى ، ونبذة من الأصول والفقه والتفسير فيما لاح لى كوكب فلاحه وفاح لى بشر مسك صلاحه ، رأيته أهلا لتلك الصناعة ، وجديراً بتعاطى هاتيك البضاعة حيث أفاد وأجاد وكشف عن المعانى النقاب ، وأراد الاقتداء فى أخذ الأسانيد من سلف فبادرت بطلبه بإعطائه بلوغ أربه) ١٨٩٢ م .

نموذج أسلوبه :

« التعليم يطلب لثلاثة وجوه : الارتزاق به أو اللذة العقلية ، التى فيه ، أولهما معاً ، أما كونه يطلب للارتزاق به ، فذلك لأن أبواب الرزق ، أصبحت موضوع التنازع بين الأمم ، فمن كانت عدته العلم غلب سواه عليها به ، أما طلب العلم لذاته فهو لتطلع النفس الانسانية دائماً للكشف عن المجهولات التى تحيط بها ، ولايوجد العلم بمعناه الحقيقى فى أمة إلا إذا وجد من يطلبه لذاته » .

توفيق البكرى

من مؤلفاته وآثاره :

فحول البلاغة ، أراجيز العرب ، بيت الصديق ، المستقبل للاسلام ، التعليم والإرشاد ، صهاريج اللؤلؤ .

-١٢-

توفيق أسكاروس

(١٨٧٤ — ١٩٤٢)

لما كان التاريخ القبطى جزء من تاريخ مصر فى الفترة بين العصر الفرعونى والعصر الإسلامى ، وكان له معالمه وأثره وامتدادة فى مجال الفكر والاجتماع والدين، فقد برز فى أوائل القرن مجموعة من الباحثين أتيح لهم التوسع فى هذه الدراسات مع ظهور كشوف توت عنخ آمون عام ١٩٢٢ وبروز طابع «المصرية» فى مجال الفكر والدعوة إلى أحياء طابع الفرعونية. فقد حفلت الصحف والمجلات بأبحاث عديدة فى هذا المجال وتعددت الدراسات فى الثلاثينات ثم كان إنشاء المتحف القبطى نتيجة لها ومن ثم فقد أخذت هذه الأبحاث طابع التعمق والترابط كجزء هام من تاريخ مصر .

* * *

وقد برز فى هذه الفترة كتاب عديدون منهم مرقص سميكة ، جرجس فلتاؤس عوض ، أنطون زكرى، وكان من أبرز هؤلاء المؤرخ القبطى توفيق أسكاروس الذى حفلت الصحف بأبحاثه فى دقائق التاريخ القبطى بخاصة وتاريخ مصر بعامة. وكان أبرز اهتمامه موجها نحو الأعلام والأبطال.

وقد صور دوافعه واتجاهاته فى مقدمة كتابه « نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر » حين قال :

خلقت مولعاً منذ الصغر بالوقوف على آثار الآباء والأجداد ومطالعة أخبارهم وما اشتهر من الأحاديث عن تلك الآثار ، وما انطمس من فخار ومجد .

وأشاد بالدم المصرى قائلا : بهذا الدم المصرى نفخر بصيانة أسلافنا لدينهم وجنسيتهم نتباهى .

ثم نعى على المشارقة أنهم لايحصلون على تسجيل ذكريات أعلامهم وأبطالهم ، بينما كان الأجداد يقيمون المسلات فى مواقع الحرب أو قاعدة الملك كعلامات على الذكرى المتجددة للبطل العظيم .

ثم قال « إن فى ترجمة نوابغ الرجال العاملين فى كل أمة لخير الهيئة الاجتماعية والمنازعين لخدمة الإنسانية ، لاقصد منها إلا تقديم المثال الحى ، سواء فى الأفعال أو الكلمات الخالدة التى نطقوا بها أو فى الأعمال العظيمة التى قاموا بها لصالح المجموع » .

ودعا إلى الاجتهاد فى التنقيب لاحياء ذكر أجدادنا كلما عثرنا لهم على فضل .

ثم تحدث عن التاريخ فقال : التاريخ أبلغ منصف فى الوجود بعد الله وإن العرض من التاريخ الصحيح هو العلم بما وقع لكل أمة قديمة أو حديثة ، قوية أو ضعيفة وما مر عليها من الأدوار التى أسعدتها وأشقتها ، والتاريخ لاشك من أهم حاجياتنا العصرية ، لأنه من وقت أن فقدت مصر استقلالها فتغلب الفرس عليها فاليونان والرومان لم يعد لنا تاريخ خاص بل أصبح تاريخنا ، تاريخ تلك الأمم التى حكمتنا » .

وعنده أن الغرض من التراجم هى تقديم العظة البالغة ، فأنه لامجال لأن يدرج فى دراستها اسم الثراة أو المشهورين فى زمانهم ، وإنما يدرج أولئك الذين قدموا خدمات حقيقية لأمتهم ، ليكون ذلك على حد تعبيره ، « المنشط الحقيقى على اقتفاء أثر هؤلاء العاملين » .

ودعا أن يكون المؤرخ خالى الغرض يتعشق الحقيقة وحدها ، وعليه أن يجعل من وكدة الإشارة إلى المصادر الأصلية والمراجع الحقيقية مثل كتب التاريخ الموثوق بها والمستندات المخطوطة .

وقد جمع توفيق أسكاروس فى كتابه طائفة من النوابغ فى مجال السياسة

والعلم والأدب والدين — وأصدر منه جزئين(١) ومن أسف أن شغلته أعماله المتعددة فلم يتم هذه الموسوعة .

* * *

وليس لتوفيق اسكاروس أبحاث ضخمة مطبوعة ، فقد شغل نفسه بالكتابة فى مختلف الدوريات منذ مطالع شبابه إلى حين وفاته ، وإعانة على ذلك أنه كان قريبا من المراجع،فقد عمل فى دار الكتب المصرية (الكتبخانة) منذ ١٨٨٩ حتى بلغ السن عام ١٩٣١ تقريبا ، مما أتاح له الانتفاع بالمراجع والمخطوطات فى عشرات الأبحاث التى قدمها والتى سد بها ثغرات متعددة فى التاريخ المصرى القديم والقبطى والحديث ، فقد كان مبرزا فى صناعة الفهارس وترتيب المكتبات وخاصة الأفرنجية منها ، وقد قرأ عشرات المصنفات فى اللغتين العربية والفرنسية واطلع على فهارس المكتبات العامة فى أوربا .

ثم انضم إلى لجنة التاريخ القبطى وساهم فى الدراسات التى أصدرتها وأصدر تقويم جمعية النشأة القبطية خلال ٤٦ عاما كاملة . أما أبحاثه فقد انتظمت الهلال والمقتطف والمقطم والأهرام خلال هذه الفترة وله ابحاث هامة عن تاريخ الكنيسة وا كتشاف منابع النيل ومنشأ الجمعية الجغرافية والعلاقات التاريخية بين مصر والحبشة والمؤلفات القديمة فى الآثار العربية(٢) له محاضرات متعددة وزيارات متوالية إلى الأديرة المبثوثة فى وادى النطرون وصحراء سينا. وقد نشر فى الصحف نبذا عن رحلاته إلى هذه الأديرة وخاصة دير أنبا أنطونيوس وذكر كيف أن العلماء الأجانب يقدمون إلى مصر ليزوروا هذه الأماكن التاريخية بينما يقصر أهل الوطن ، وقد سرد ما وجد بها من مخطوطات وآثار مما هو بسبيل الاهتمام به والدراسة بوصفها أساس التاريخ المسيحى فى القرون الأولى لظهورها .

(١) الجزء الأول فى ٣٦٨ صفحة صدر ١٩١٠ والثانى صدر ١٩١٣
(٢) جريدة الأهرام (١٩٢٢ — ١٩٢٩)

وقد أتاحت له فرصة العمل فى دار الكتب ١٨٨٩ — ١٩٣١ أن يصبح من كبار علماء المكتبات على أحدث فنون تنظيمها ، وخاصة فى المؤلفات الأفرنجية التى لم يكن يعمل فى ميدانها إلا القليل . وقد بلغ منصب رئيس قسم « المغيرين » الأفرنكى بدار الكتب وكان قد اختير للعمل فيها متفوقا فى مسابقة بعد تخرجه من مدرسة الحقوق ، ويعزى نجاحه فى المسابقة إلى إجادته للغة الفرنسية ، فقد تقدم مع محمد مسعود الكاتب المؤرخ فيما بعد وغيرهم للامتحان فطلب منهم أن يكتبوا رسالة بالفرنسية عن تاريخ المكاتب عامة والمكاتب فى الشرق الإسلامى ، فأحرز التفوق . فلما عمل فى دار الكتب التى كانت فى ذلك الوقت مكتبة صغيرة ، اتصل بحذاق فن الكتب من الألمان والانجليز الإخصائيين فأفاد منهم كثيراً . حتى أنه استطاع من بعد أن ينظم مكتبات عابدين والجامعة المصرية وبطريركية الأقباط الارثوذكس .

وقد نما القسم الأوربى الذى عمل به فى دار الكتب والذى كان نواته مجموعة كتب الجمعية المصرية التى تألفت عام ١٨٣٦ فى القاهرة من علماء الأجانب وقد ورثت دار الكتب مؤلفاتهم التى اقتنوها فى مختلف اللغات عن تاريخ مصر قديمه وحديثه .

كما اتصل توفيق اسكاروس برجال البعثة الأثرية الفرنسية بالقاهرة كما اتصل بالمؤرخ القبطى اللامع ميخائيل شاروبيم صاحب تاريخ الكافى .

* * *

وإذا كان توفيق اسكاروس قد برز فى مجال إعادة كتابة التاريخ القبطى وأحاط به وشغل نفسه به شغلا عظيما ، فإن الأمانة العلمية تقتضى أن نذكر له أنه كان معنيا بالكتاب العربى جملة وإن كان من رواد فن فهرسة الكتب وإعدادها ، وكتابة تاريخ هذا العمل والمحاضرة فيه ، والإلمام الواسع بفنون المؤلفات والآثار والتحف والنقود العربية . وله فى ذلك محاضرة

وكتاب ، أما المحاضرة فعن فضل مصر فى حفظ الكتب والآثار العربية ، أما الكتاب فهو « دليل موجز لزائرى دار الكتب » وفيهما دراسة واسعة للمكتبة العربية الحديثة وفضل على مبارك فى تأسيس دار الكتب ، فإنه لما رأى أكثر المخطوطات النفيسة التى حبسها المؤلفون والعلماء ووقفها السلاطين المماليك والأمراء وأهل البر على المدارس والجوامع والأضرحة وغيرها تتسرب إلى الدوائر الأوربية والبلاد الأمريكية استطاع فى ٢٣ مارس ١٨٧٠ تأسيس « الكتبخانة الخديوية المصرية » لتجمع شتات الكتب المتفرقة وقد بلغ عدة ما جمع من الكتب ٢٠ ألف مجلد وجعل مقرها سراى مصطفى فاضل بدرب الجماميز .

* * *

ويسجل « توفيق اسكاروس » الخطوات التى خطتها مصر فى سبيل حفظ الكتاب العربى حين أوفدت بعثة إلى الاستانة لشراء الكتب والمخطوطات أو تصويرها بالفوتوغرافيا ، وكان من أهم الأعمال فى هذا المجال مشروع أحياء الآداب العربية عندما قرر المجلس الأعلى لدار الكتب ١٩١١ طبع : صبح الأعشى ، والأحكام فى أصـــول الأحكام للآمدى ، والاعتصام للشاطبى ، والخصائص فى اللغة لابن جنى . وكيف أمكن الحصول على مكتبات كاملة منها : مكتبة مصطفى فاضل ، ومجموعة قدرى باشا فى الإصلاح القضائى والمحاكم الأهلية ، ومجموعة خليل شبراوى فى تاريخ الحملة الفرنسية ، ومجموعة الدكتور بيومى فتحى فى الآداب العربية والتاريخ العام وأبحاث المستشرقين وما قدمه يوسف كمال من خارطات الجغرافيا والكرات الأرضية والسماوية القديمة فى عالم الطباعة . كما حصلت على مخطوطات أوراق بردية باللغتين اليونانية والعربية أقدمها من القرن الأول والثانى للهجرة . ومجموعة من النقود الإسلامية تشمل خمسة آلاف قطعة وإلى غير ذلك من بردى وجلد ، وخزف وعظام وخشب ورخام ، والمصحف الذى جىء به من جامع عمرو بن العاص وهو مكتوب فى أوائل القرن الثانى عشر للهجرة تقريباً بالخط الكوفى على ورق غزال .

وأشار توفيق اسكاروس إلى المؤلفات التى أخرجتها دار الكتب ووزعتها يوم الاحتفال بتكريم أحمد شوقى أمير الشعراء (٣٠ أبريل سنة ١٩٢٧) وأشار إلى ماحصل عليه حسن توفيق العدل أستاذ اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية ببرلين من كتب نادرة ، فاشترت دار الكتب مجموعتين عظيمتين إحداهما ١٠٥٢ مجلداً قيمتها سبعين ألف مارك ذهب سنة ١٨٨٤ .

* * *

وأشار توفيق اسكاروس إلى أن مصر حفظت الآثار العربية والكتاب العربى عن طريق خمس مؤسسات هى دار الآثار العربية فى القاهرة منذ عام ١٨٣٥ ودار الآثار اليونانية الرومانية فى الاسكندرية والمتحف القبطى بمصر القديمة التى بدأ تأسيسه سنة ١٩٢٠ ثم دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٨٧٠ .

* * *

ولتوفيق اسكاروس إلمام واسع بالنقود والأنواط والجلود والأوراق البردية ، وله معرفة واسعة بالخطوط الكوفيه والمغربية ، كبيرة الحجم وصغيرها ، وقد استطاع أن يسجل ذلك كله وينشىء منه تاريخا شاملا لتطور الكتاب العربى ، وكان هو مشاركا فى هذا العمل كله منذ ١٨٨٩ حتى وفاته ، فقد اتيح له أن يشارك فى تنظيم المكتبات الضخمة فى القاهرة واتصل بها وألم بمائلها من مخطوطات ومطبوعات ، عربية وفارسية وتركية وفرنسية وإنجليزية ، خلال مكتبات عابدين وجامعة القاهرة ودار الكتاب ومكتبة البطريركية الأرثوذكسية ومن هنا كانت قيمة أبحاثه فى مجال الكتاب العربى ، وإن كان تخصصه فى الكتاب الأفرنجى ، هذه الأبحاث المنثورة فى الصحف خلال أربعين عاما .

من آثاره :

الأوراق البردية (ترجمه عام ١٩٣٠) ، دليل موجز لزائرى دار الكتب ١٩٢٧ ، محاضرته عن الكتاب العربى (مايو ١٩٢٧) المقطم .

١٢٥٨١

–١٣–

جمال الدين الافغانى

رائد اليقظة فى الشرق

(١٨٣٨ — ١٨٩٧)

مهما وصف جمال الدين الأفغانى بأنه رائد أو مصلح أوقائد أو ثائر فإنه يبدو أكبر من أوصافه . ومهما كتب عنه فهو متجدد الضياء كالمنار يهدى إليه كل باحث أو مؤرخ أو داع إلى الإصلاح . فإذا قيل إنه كلمة الانتفاضة فى الشرق الإسلامى والعالم الإسلامى والعالم العربى ، أو إنه صانع الثورات التى اندلعت فى إيران وتركيا ومصر ، أو أنه صاحب الدعوة إلى مقاومة استبداد الملوك والحكام الظالمين أو مقاومة الاستعمار البريطانى وصاحب الحملات العنيفة عليه ، فان ذلك كله هو «جمال الدين الأفغانى» الرجل الذى جعل حياته المشردة التى لم يستقر خلالها فى قطر أو بيت أو منصب وكان يستطيع ، كأنما أراد أن يجعل من هذه الحياة قربانا للحرية وعبرة للتاريخ ، فهو الذى رفض العطاء لأن الليث لايعدم فريسته أينما ذهب ، وهو الذى رفض كسوة التشريفة ونياشينها لأنها تجعله كالبغل المزركش ، وهو الذى رفض المناصب لأن رتبة العلم أعلى الرتب ، وهو الذى هز الملوك والخلفاء والأباطرة بكلمة الحق ، يقولها لايخاف ولايجامل ولايخشى شيئاً . وهو الذى هز قلوب المفكرين بعبارات الثورة ، وهز قلوب الشعوب بألفاظ الحماسة ، فأيقظ الجيل ، فتح أمامه الطريق ليعرف حقه ، وليصرع حكامه الظالمين وليقوض حكومتهم ، وليملأ صحفه بعبارات جديدة ومضيئة مشرقة تعطى للأمة مفاهيم الكرامة والعزة والقوة والمقاومة ، كل ذلك هو جمال الدين الأفغانى .

* * *

لقد سبق جمال فى دعوته إلى تحرير العقيدة محمد بن عبد الوهاب وعاصره فى الدعوة إلى الحكومة النيابية أحمد مدحت وخير الدين التونسى . ولكن

جمال يبدو شيئاً آخر ، شيئاً مثيراً باهراً ، يهز القلوب ويخطف الأبصار ، لقد كان عصره مظلماً شديد الظلام ، وكان يحمل المشعل فى السراديب ، الملتوية والأزقة المتعرجة ، وكان دعاة الجمود وحماة الظلم وقادة الاستبداد والطغيان أقوياء ، وكان الاستعمار عنيفاً ، ونفوذه مازال يمتد ويزداد ، لذلك ذهب جمال ضحية دعوته ومات شهيد فكرته ، فلقد انتهى إلى اليأس بعد أن تضافرت القوى على محاصرته ، ولكن هل ذهبت دعوته حقاً أدراج الرياح ، كلا ، فقد بقيت الجذوة المقدسة التى أوقدها مشتعلة ، حمل لواءها من بعد كثيرون ، منهم من كانوا أقل تضحية واندفاعا منه ، ومنهم من كان أعمق تضحية وقد مضوا جميعاً وشقوا طريقهم حتى عمت اليقظة كل مكان بعد جمال بنصف قرن .

* * *

هل كان جمال مخطئاً فى دعوته إلى «الثورة» بدلا من «التربية» ، هل كان سليم الصدر حتى خدعته حيل الأفاعى ومؤامرات الغادرين ، هل كان أسلوبه خالياً من الأعداد وتدبير القوة وحشد الدعاة .

لقد جرت حول ذلك أبحاث كثيرة تحاول أن تغض من شأن هذه الدعوة الباهرة التى حمل الرجل لواءها ثلاثين عاما فى عمره الذى لم يكتمل إلى الستين .

وفى خلال أيام قاسية من تاريخ العالم الإسلامى (١٨٧٠ — ١٨٩٧) بدأ فيها نفوذ عبد الحميد وإسراف اسماعيل واستبداد شاة الفرس واندلعت الثورة العرابية وأحتلت مصر وقضى الانجليز على ثورة المهدى وظهر فساد المفسدين أمثال أبو الهدى الصيادى ، وأخذ النفوذ الاستعمارى يمتد إلى كل مكان فى العالم الإسلامى ، وكان جمال ، هو القلب النابض بالدعوة إلى الحياة والمقاومة والحرية واليقظة خلال هذا الظلام كله ، لا يرهب حاكما ولا سلطة ، ولا يطمع فى جاه أو مال .

ليس عليه إلا «الجبة» الواحدة حتى تخلق ، وصدره هو صناديق كتبه ،

يعيش على لقيمات قليلة ، قد فرغ عقله وقلبه لهذه الأمة يبحث أدوائها ويلتمس لها الدواء .

يقول « الشرق ، الشرق ، لقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه . فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض فى سبيل توحيد الكلمة فيه دواء انقسام أهله وتشتت إرادته واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف فقد اتفقوا على ألا يتفقوا » .

وقد صور دعوته فى عديد الكتابات والكلمات المضيئة :

« علينا قلع مارسخ فى عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية على غير وجهها . وحملهم القضاء والقدر على معنى يوجب أن لا يتحركوا بطلب مجد ولا للتخلص من ذل، علينا أن نحرر العقول من قيد الجمود وتطهير العقيدة .

وتخليص البلاد من نفوذ أوروبا وخصوصاً نفوذ انجلترا، وتخليصها من استبداد الملوك والأمراء وإنشاء النظم الحرة الدستورية فيها وجمعها تحت زعامة موحدة .

علينا بناء روح الكرامة للمسلمين واشعار أهل الشرق بعزتهم وحقهم فى الحرية وزعزعة صروح الظلم » .

* * *

وقد صور جمال الدين أبرز معالم حركته الفكرية فى حديثه مع عبد القادر المغربى بأنها عبارة عن الاهتمام بقلع مارسخ فى عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها ، مثل حملهم نصوص « القضاء والقدر » على معنى يوجب عليهم أن لا يتحركوا إلى طلب مجد أو التخلص من ذل، ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان وقرب إنتهائه مما يثبط هممهم عن السعى وراء الإصلاح والنجاح فى نظير ذلك مما لاعهد للسلف الصالح به . فلا بد إذن من فهم القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها الثابت من حيث يأخذ بهم إلى مافيه سعادتهم » .

وقد آمن جمال بأن « الثورة السياسية» هى الوسيلة المثلى لتحقيق دعوته. وفى سبيل ذلك يرى جواز خلع واقصاء الأمراء الذين يؤيدون النفوذ الأوربى أويحولون دون هذه الأهداف، أما وسائل الإصلاح التدريجى عن طريق التربية والتعليم فكان يرى إنها بطيئة جداً وفى سبيل هدفه دفع تلاميذه واتباعه إلى الكتابة والتحرير وايقاظ المشاعر ونقد تصرفات الحكام وتحطيم أسطورة قدسية الحكم المطلق وكان يطلق على دعوته إلى الكتابة « تمزيق حجب الاوهام عن أنوار العقول » .

— ٢ —

وقد وصف الشيخ محمد عبده مدى أثر هذا التيار الذى خلفه جمال الدين فقال : إن أهل مصر قبل قدوم جمال الدين الأفغانى كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون إن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله أوخيانته وظلمه. ولا يرى أحد فيهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه فى إدراة بلاده .

وكان جمال الدين يرى أن إداته فى حركة النهضة: هم (العلماء) وعليهم أن ينهضوا إلى إحياء الرابطة الدينية، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى مساجدهم ومدارسهم. حيث يرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض فيأخذوا بأيدى العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ويجمعون أطراف الوشائج إلى معقل واحد يكون مركزه فى بيت الله الحرام ، حيث موسم الحج فى كل عام — ولعله انصرف من بعد عن هذه الوسيلة بعد أن تكشف له ضعف هؤلاء العلماء عن فهم هذا الهدف الكبير الذى سبق جمال به زمنه »

ولقد كان جمال الدين آية فى الإثارة وهز المشاعر ، قال لأهل الهند : وعزة الحق وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين ذبابا لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ولو كنتم مئات الملايين وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم البحر واحطتم بجزيرة بريطانيا لجررتموها إلى القاع وعدتم إلى وطنكم أحراراً .

وقال للمصريين : أنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد وربيتم فى حجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة إلى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين فلو كان عروقكم دم فيه كريات حيوية وفى رؤسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل وهـذه المسكنة ؛ انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط ، فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم ، هبوا من غفلتكم وأصحوا من سكرتكم ، وعيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء .

وأنت أيها الفلاح المسكين : تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق وبقوم باود العيال فلماذ لا تشق قلب ظالمك ، لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك .

* * *

وقاوم النظام النيابى الذى يفرضه الحاكم أو الأمير والذى يظل الاستبداد قائماً فى ظله : يقول :

« إن القوة النيابية لأى أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيق ، إلا إذا كانت من نفس الأمة . وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيلة ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لها فإن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة من أحدثها .

ومثل هذا المجلس النيابى تكون قوته المحدثة له خارجة من محيط الأمة والمحدث له قوة خارجة عن الأمة ومجالسها يعارضها منافع مضادة ، وهدفان مختلفان ، مثل هذا المجلس لا قيمة له ، ولا يعيش طويلا .

وإن نائبكم سيكون ذلك الوجيه الذى امتص مال الفلاحين لكل مساعيه، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم أسقط منهم همة ، ذلك الرجل الذى لا يعرف لإيراد الحجة تجاه الحاكم الظالم معنى ؛ ويرى فى كل دفاع عن وطنه ومناقشة للحساب قلة آداب وعدم حنكة وتهور » .

وقد دعا جمال الدين إلى «وحدة المسلمين» على نحو يحقق لهم التجمع فى وجه النفوذ الاجنبى والاستعمار على هذا النحو .

« أن من أدرنه إلى بشاور دولا إسلامية متصلة الأراضى متحدة العقيدة ، يمتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة ، لا التمس أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا فإن هذا ربما كان عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى جهده لحفظ الآمر ما استطاع ، ويعتقد أن حياته بحياته على أن تكون أن أول صيحـــة تنبعث على الوحدة وتوقظ من الرقدة صادرة من أعلاها مرتبه وأقواها شوكة » .

تلك مرحلة فى الفهم سبقت ، تمثل عصرها ولا تتكرر حيث اختلف ظرف الدعوة وتقدير الزمن : فهى بالمعنى التاريخى وظروف عصرها تؤكد الغرض منها وهو التجمع على نحو من الانحاء لمقاومة الاستعمار لا لتأييده .

— ٣ —

إتخذ جمال الدين الأفغانى لدعوته وسائل الكتابة والخطابة وتكوين الجماعات السرية والمحافل ومقابلة الملوك والأمراء والسلاطين .

ومن أجل ذلك أنشا «العروة الوثقى» فى باريس بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده ، وأنشا المحفل الماسونى فى القاهرة ، وقد قاوم النفوذ البريطانى صحفه ومحفله مقاومة بعيدة المدى ، وغضب الملوك والأمراء لحرية رأيه حين كان يحبهم بأفكار الشورى والحياة النيابية وتسليم الشعب مقاليد الحكم ، فقد أصدر العروة الوثقى فى باريس بالاشتراك مع الشيخ عبده وجعل هدفها وحدة المسلمين وإيقاظهم من سباتهم وتنبيههم إلى المخاطر التى كانت تهددهم وارشادهم إلى سبيل مواجهتهم والتغلب عليها .

وقد صدر منها ١٨ عددا (مارس ١٨٨٤) ثم توقفت بعد أن عاقت المؤتمرات الاستعماريه تداولها ، كان يدير سياستها الأفغانى ويحررها عبده

وتتولى الإنفاق عليها جمعية (العروة الوثقى) ذات الفروع المتعددة فى الهند وإيران ومصر وغيرها والتى استهدفت العمل على إنهاض الدول الإسلامية وتنبيهها للقيام على شئونها وتنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية وتقليص ظلها فى رءوس الطوائف الإسلامية .

وقد أصدر الإنجليز أوامرهم فى مصر والهند بمنع دخول المجلة وتغريم من يوجد عنده عدد واحد منها خمسة جنيهات ومع ذلك فقد هربت داخل مظاريف خادعة .

أما الماسونية فقد رأى فيها أداة لتجميع أنصار دعوته، فإنضم إلى محفلها فى القاهرة غير أن رآها لا تحقق مراده فقد قيل له إن الماسونية لادخل لها فى السياسة فعجب لذلك وقال :

لقد كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت أتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين أسطوانات المحافل الماسونية. أن أول ما شوقنى للعمل فى بناية الأحرار عنوان كبير خطير : « حرية — مساواة — أخاء » ، وغرضها منفعة الإنسان وسعى وراء «دك» صروح الظلم وتشييد معالم العدل المطلق.

غير أنى مع الأسف أرى جراثيم الإثرة والأنانية وحب الرئاسة والعمل من الجماعات بمقتضى أهوائهم » .

ومن أجل هذا أنشأ محفلا وطنيا تابعا للشرق الفرنساوى ، ضم ثلاثمائة من المفكرين والناهضين من المصريين . وقسم العاملين شعبا . شعبة أحاط بها إنذار ناظر الجهادية كى ينظر بعين العدل والإنصاف إلى الضباط الوطنيين الذين تمادى زمان مكثهم فى السودان ، وشعب أخرى لإنذار ناظر الحقانية والمالية ولفتهم إلى أحقاق الحق وعمل العدل . وقد اتجهت كل شعبة إلى الوجهة التى عينت لها وأدت للنظار ما أمرها به المحفل بلهجة

وأسلوب عنيفين ، فأحدث ذلك هزة فى الأندية والدواوين وبلغت الخديو توفيق فأزعجه الأمر .

وكان ذلك سبيلا لأن يلتقى الخديو بجمال الدين ليسمع أراءه فى الإصلاح ولم يستمر هذا المحفل طويلا . . والقول بأن «جمال الدين» بهذا النحو كان ماسونيا فى حاجة إلى أناة وبعد نظرية وتجرد من الإسراف فى تحميل الأمور ما لا تحتمل عن الإسراف ، فهو قد ظن فى الماسونية ما كان يظنه الكثيرون أنها مؤسسة عدل فلما التمس ذلك لديها خيبت ظنه فأنشأ محفله الخاص الذى لم يطل به المدى .

— ٤ —

كان لقاء (جمال الدين) بالملوك والأمراء والسلاطين مثلا رائعا لقوة إيمان هذا الداعية الجرىء الذى لا يخاف فى قولة الحق لومة لائم .

ولعل هذه الجرأة وهذه الصراحة هى التى ملأت الملوك والأمراء رهبة منـــه خوفا على عروشهم وسلطانهم وأطماعهم أن تذهب حين يحققون ما دعاهم إليه ، بينما كان يؤمن أن ذلك الاتجاه الدستورى سيربط بينهم وبين شعوبهم برباط المحبة ويزيل من النفوس مخاوف الاستبداد وعوامل الطغيان والفناء : ذلك أن جمال الدين كان يدعوهم إلى الشورى والحكومة النيابية وإشراك الشعب فى الحكم وإنشاء الدساتير التى تحقق تنظيم السلطات .

وفى لقائه مع الخديو توفيق ، قال له الخديو : أن أكثر الشعب خامل جاهل ولا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فتلقون أنفسكم والبلاد فى تهلكة .

ولكن جمال الدين لم يقبل رأى الخديو بل عارضه : وقال :

إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لايخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب ينظر إليكم وإن قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم

فى اشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون بإجراء إنتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذها باسمكم وأرائكم فإن ذلك يكون أثبت للملكم وأدوم لسلطانكم .

وكذلك كان موقفه مع السلطان « عبد الحميد » فإنه إقترح عليه أن يجعل من ولايات الإمبراطورية « خديويات » على غرار خديوية مصر تبقى خاضعة للخلافة ويأتمر الخديويون بأمر السلطان .

فانبرى له السلطان يقول : ماذا أبقيت أيها السيد لتخت آل عثمان ؟ قال جمال الدين : يبقى جلالة مولاى السلطان ملك أولئك الملوك . فإذا قويت هذه الخديويات فإنه سرعان ما تنتظم إيران وأفغان والهند ويصبح الإسلام قوة عنيدة يرهب الغرب جانبها وتهدأ ثائرته على الإسلام .

وفى إيران كلفـــه الشاه بوضع الدستور فلما اطلع عليه أحس بأنه سيقضى على نفوذه الامبراطورى لذلك عارض فيه ،وقال لجمال الدين أيصح أن أكون وأنا ملك ملوك الفرس كأحد أفراد الفلاحين .

قال جمال الدين : أعلم أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستورى أعظم وأنفذ وأثبت مما هى الآن ، الفلاح والعامل والصانع فى المملكة أنفع من عظمتك ومن أمرائك . أن أمة تستطيع أن تعيش بدون ملك . ولكن هل رأيت ملكا عاش بدون أمة .

وعندما التقى بالقيصر فى روسيا جرى الحديث حول الخلاف مع الشاه ذكر له جمال الدين رأيه فى الحكومة الشورية وضرورة اتباعها .

قال القيصر : إنى أرى الحق فى جانب الشاة ، إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم به فلاحو مملكته .

فانبرى جمال الدين يرد عليه : أعتقد ياجلالة القيصر أن عرش الملك إذا كانت الملايين من الرعية أصدقاء له خيرا من أن يكونوا أعداء يترقبون الفرص ويكتمون فى الصدر سموم الحقد ونيران الإنتقام .

وهكذا صدق جمال الدين ربه إيمانه بالحق وقرع الآذان بالحق وفى ذلك معناه بالنسبة لرجل لا مطامع له تجعله يخفض من صوته أو يجامل .

وهكذا كانت خصومة جمال للإستعمار والاستبداد قد امتزجت بدمه وامتدت منذ مطالع شبابه ومنذ رفع صوته ، فقد طورد فما قر له قرار ، طورد من مصر وأخرج منها بعد أن اتهمه الانجليز بأنه مهيج خطير . وطورد من الهند ومن إيران ومن تركيا، كان فى كل مكان يجد الخصم الألد من صنائع الإستعمار الذى يتهمه ويؤلب عليه ، كانت كلمة الحق قد جعلت منه جواب آفاق لا يقر له قرار ، طوف بالحجاز والهند وفرنسا وبريطانيا وروسيا وزار كلا من مصر والآستانة مرتين كأنه موكل بقضاء الأرض يذرعه ، ولكم حملته البواخر ، فى دورة طويلة حول الأرض ، فقد ولد فى قرية سعد أباد من أعمال كابل بالأفغان ثم انتقل مع والده إلى كابل فلما أكمل دراسته سافر إلى الهند،ثم عاد إلى بلاده ليزمع السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، فامضى فى رحلته حوالى العام زار خلالها بعض بلاد الإسلام فلما عاد ولى الوزارة وكانت تجربته المريرة وتدخل الإنجليز.

هنا لك خرج من أفغانستان إلى الهند ، فبدأ فيها دعوته وأثار مشاعر الهنود نحو الاستعمار ثم أزمع السفر إلى الحجاز فلم تسمح له حكومة الهند، بل نقلته فى مركب على طول سواحل الهند حتى غادرها واتجهت به إلى السويس فأقام فى القاهرة أربعين يوما ، ومنها تحول إلى تركيا حيث أقام فى الآستانة فترة من الوقت ثم عاد إلى مصر فأقام فيها إقامته الطويلة التى امتدت ثمانية أعوام.فلما أخرج منها حمل إلى الهند مرة ثالثة فاقام فى حيدر أباد الدكن ثم نقل خلال ثورة مصر العرابية إلى كلكتا ، فلما انتهت الثورة سمح له فقصد إلى أوربا واتجه إلى انجلترا . ثم هبط إلى باريس فأقام فيها حيث أصدر العروة الوثقى ، ثم عاد مرة أخرى إلى الشرق حيث تلقى برقية من ناصر الدين شاه العجم يدعوه إلى بلاده فاتجه إليها ، غير أن الخلاف لم يلبث أن وقع بينه وبين الشاه فتركها إلى روسيا حيث أقام فى بطرسبرج . ثم تحول

منها إلى ميونخ حيث لحق به الشاة وطلب إليه العودة معه إلى إيران حيث وقع الخلاف الأكبر بينهما ، فتركها إلى البصرة ومنها سافر إلى لندن ثم لم يلبث أن استجاب إلى دعوة السلطان عبد الحميد فعاد إلى الاستانة حيث انتهى به إلى المطاف .

— ٥ —

أى رحلة هذه التى طوف فيها جمال الدين حول الدنيا عبر آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وله فى كل بلد معركة وصيحة ، مائبنية شىء عن إيمانه بدعوته ، اختلف فى مصر مع الخديو توفيق بعد أن تعهد له قبل عزل أبيه إسماعيل أن يأخذ الأمر بالشورى متى أصبح الأمر بيده، فما أن سقط إسماعيل ، وتولى توفيق حتى حرضه القنصل البريطانى على إخراجه فأصدر أمره بإبعاده على نحو مهين ،إذ قبض عليه ليلة ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ وهو عائد إلى بيته ومعه غلامه أبوتراب وحجز فى الضبطية ولم يمكن حتى من أخذ ثيابه ، وحمل فى الصباح فى عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديد ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة إلى السويس وأنزل منها إلى باخرة أقلته إلى الهند.ونشرت الحكومة بيانا فى ٢٦ أغسطس ١٨٧٩ — ذكرت فيه نفى السيد ووصفته بأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا وأنه سعى فى الأرض « بالإفساد » .

* * *

وفى استانبول وقع الخلاف بينه وبين شيخ الإسلام حسن فهمى الذى حقد على جمال الدين : جلال قدرة وخشى نفوذه ، فانتهز فرصة إلقائه محاضرة فى دار الفنون فاستخرج منها عبارات اتهمه من أجلها بالإلحاد ، وقد واجه جمال الدين الموقف بعنفه وشجاعته وجرأته التى عرفت عنه واضطره الموقف أخيرا إلى الهجرة .

وهنالك معركته الكبرى مع ناصر الدين شاه إمبراطور العجم الذى دعاه إلى بلاده عام ١٨٨٦ فلما بلغ طهران وأقام فيها ثارت من حوله الأحقاد وتوجس ناصر الدين من الأفغانى نخاف نفوذه ، فانصرف

جمال الدين من إيران . غير أن الشاه لم يلبث أن لحق به فى روسيا وألح فى لقائه وظل جمال يرفض فتبعه إلى ميونخ وتوسط بينهما بعض الكبار فلما التقى بالشاه عرض عليه الذهاب إلى بلاده ليكون رئيس وزرائه ، فلما أبى جمال الدين أخذ الشاه يلح عليه إلحاحا شديدا ، هنالك قصد جمال الدين إلى فارس ، حيث كلفه الشاه بأن يضع القانون الأساسى لمملكة فارس لتكون حكومة ملكية شورية ، فلما وضع جمال الدين « الدستور » انزعج له الشاه إيما انزعاج وصدق وشايات الصدر الأعظم من أن ما وضع من القوانين ينزع منه سلطانه ويضمه إلى السوقة والفلاحين . هنالك سافر جمال الدين إلى بلدة (الشاه عبد العظيم) — وقد تبعه عدد من العظماء والعلماء حيث أخذ يشجعهم على إصلاح حكومتهم فخاف ناصر الدين وأوفد إلى بلدة شاه عبد العظيم مائة فارس حيث قبضوا على جمال الدين وهو مريض وحملوه من فراشه على برزون وساقوه إلى أن أخرجوه من إيران إلى ولاية البصرة .

غير أن أمر شاه فارس لم ينته عند جمال الدين عن هـذا الحـد ، بل تطور تطورا خطير فقد قصـد إلى المنفى ومضى يحمل على الشاة ويكتب عنه فى الصحف ويحث بريطانيا على السعى فى خلعه .

* * *

وكان لجمال الدين معركته مع أبو الهدى الصيادى الذى هاجمه واتهمه بالإلحاد وفساد الاعتقاد ومما كان يردده قوله من قول جمال على أنه اتهام : «أنا أطوف بأشجار « البيدار » طواف الحجيج بالكعبة » وهذه الأشجار مقامة على السدود التركية التى كانت محل نزهته لظاهر الاستانة .

هكذا مضت حياة هذا الرجل الفذ مثيرة مليئة خصبة عميقة ، رحلات وجولات ومقابلات وأحاديث وعمل لا يتوقف من أجل الغاية التى أمن بها والفكرة التى سيطرت على نفسه .

وكانت حياته بوقائعها تطبيقا لفكرته وكانت شمائله مثلا عاليا

للدعاة والمصلحين فهو يفطم نفسه عن الشهوات ولا يرى من اللذات إلا اللذة العالية .

ينظر إلى المال نظرته إلى التراب فلا يدخره ولا يتبادل منه إلا ما هو ضرورى للحياة .

سليم القلب ، حليما ، إلا أن عصى الشرف والدين ، كريماً يبذل ما بيده ، لايهاب الموت كأنه لايعرفه.

* * *

وصفه أديب إسحق بأنه «أسمر ، ربعة ممتلىء قوى البنية جذاب المنظر ، نافذ اللحظ خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، يرتدى سراويل تطبق على الكاحلين، وعمامة صغيرة بيضاء ،عزب ، عفيف النفس ، لا يأكل غير مرة واحدة فى اليوم ، يكثر من شرب الشاى والتدخين . قوى العارضة ، طويل الحجة،واسع المحفوظ، له نظرة نفاذة تكاد تكشف حجب الضمائر، وتهتك أسرار السرائر .

وقد شهده شبلى شميل خطيبا على ندرة ذلك منه فقال: أنه وقف فى تياترو زيزينيا — وعلى محضر جمهور غفير من علية القوم ، فألقى خطبة سياسية أبدع فيها معنى ومبنى وجرأة، وبقى يرتجل الكلام نحو ساعتين دون أن يبدو عليه أدنى تعب أو تلعثم حتى خلب العقول وأقام الناس وأقعدهم .

وقال شبلى شميل : أنه تكلم بلغته الممزوجة ببعض لكنة أعجمية تنم عن أصله وكان وقعها على الأذن محبوبا ، تكلم فيهم بفصاحته النارية فكان له اليد الطولى فى تحريض الأفكار وضرام الثورة العرابية فهو زعيم الناقمين فى ذلك العهد » .

ووصف محمد عبده أسلوبه فى التعبير بأن « له سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها كأن كل معنى خلق له » وأن « له قوة على حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه

تفكك عقدها ، وله لين فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيها أحد » .

وقد أجمع كل من عرفه على براعته فى الكلام فى مختلف الفنون ، وأن له مران فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيه أحد ، وأنه ما خاصم أحدا إلا خصمه ، ولا جدله عالم إلا ألزمه . بل قيل أن ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء ، وقد وصف عبد القادر المغربى قدرته فى الجدل بأنه كان يعمد إلى الحجة البليغة من أقرب طرقها فيفجأ بها الخصم فيفحمه ويقطع عليه حجته، وأنه كان يناقش مرة بعض الأوربيين فى المفاضلة بين الشرق والغرب فأفحم السيد خصمه بنبرة حادة وقال : كفى الشرق شرفا أن قام منه رجل مازالت أمم أوربا تعبده إلى اليوم (يقصد السيد المسيح) .

وقد أثر عنه أنه : كان يتابع المعارف الأدبية والمستكشفات العصرية ويلم بما وضع أهل العلم ، ومن أبرز أعماله الفكرية المكتوبة رده على مذهب الدهريين فى وقت لم يكن أحد يعرف عن هذا المذهب إلا القليل .

قال جمال الدين : أن كثيرا من مسلمى الهند تلوثوا ببدعة (النيتشريه) التى بثها الانجليز فى بلادهم من حيث أنهم (أى الانجليز) رأوها أقرب وسيلة للوصول إلى غرضهم وتأييد سلطانهم فى الهند ، فقد وجد الإنجليز أن الإسلام يطلب من أتباعه أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان فى أوطانهم ، ولاحظوا أن ذلك هو طبيعة الإسلام التى لا يمكن انسلاخه عنها ، ولا انتزاعها من فطرة أبنائه ، ففكروا فى أمر يضعف هذه العقيدة فرأوا أن أقرب طريق هو نشر التعطيل بين المسلمين وأن الدعوة إليه أنفذ إلى قلوبهم من الدعوة إلى التثليث، والتعطيل الذى هو الإلحاد يسمى بالإنجليزية نيتشر (Nature) ففتحوا مدرسة عظمى لنشر تعاليم النيتشرية

وبث مبادئها فى نفوس النشىء المسلم ، ومن أجل ذلك ألف رسالة فى الرد على الدهريين وقال : أن الإنجليز إنما سعوا إلى جعل المسلمين دهريين ولم يسعوا فى جعلهم مسيحيين لأنهم رأوا بعد طول تجربة أن دعوة المبشرين لمسلمى الهند بالنصرانية لم تنجح وإن المسلمين نصارى وزيادة ، فهم يؤمنون بعيسى قبل إيمانهم بمحمد .

وجمال الدين من أصحاب المزاج الدموى ، ولكنه كان طيب القلب سليم الصدر ، سهل الانخداع وكان فطنا حاد الذهن يكاد يكشف حجب الضمائر ، كونته عوامل عدة : العلم والرحلة والتجربة ولقاء الملوك والإعلام ، وقد عرف بالاندفاع والحدة ، حتى إذا لاحت له بارقة أمل تعجل السير للوصول إليها ، حديد المزاج ، وكثيرا ما هدمت فيه الحدة مابنته الفطنة ، وقد أشار إلى ذلك مصطفى عبد الرازق حين قال : « إنه ربما كانت الحدة وما بها من عوامل الإخفاق نتيجة لخلو حياته من النساء » :

وقد رفض عرض السلطان حين اقترح أن يرسل له حسناء من قصر يلدز يتأهل بها وقال : أما أنا فمعرفتى بما تطلبه الحكمة الزوجية من معانى العدل ، وعجزى عن القيام بأمره دفعنى أن أتقى عدم العدل ببقائى عزبا من أن أتأهل وأكون ظالما .

وعلق على انصراف حاجته عن الزواج فقال : من ترك شيئا عاش بدونه ، وكان من رأيه أنه لامانع من السفور إذا لم يتخذ مطية للفجور ولكنه يرى أن مساواة الرجل والمرأة أمر ممتنع بل مستحيل . .

وقال الشيخ محمد عبده : أنه كان قد فقد داعية الزواج والقدرة عليه بانصراف الذهن عنه إلى ما علق آماله من عظائم الأمور .

— ٦ —

كانت خصومة جمال الدين لبريطانيا خصومة عنيفة فقد قاومت حكومة محمد أعظم خان فى أفغانستان وأسقطتها وكان جمال الدين وزيرها الأول حين دعا إلى الشورى وعمل على إقامتها فخشى الإنجليز هذا الأمر وعملوا على إسقاط هذا الملك . وكان جمال الدين فى سن الثلاثين إذ ذاك (١٨٦٩) .

وخرج جمال الدين من وطنه لأول مرة وكأنما صمم على أن يقاومهم فى كل مكان،فقد آمن أنهم هم العقبة فى سبيل حرية العالم الإسلامى وتقدمه. وقد أثار عليهم الثائرة فى الهند ومصر وفى كل مكان ذهب إليه .

أما فى الهند فقد هز مشاعر الشعب فقاوموه . . فقال : إننى ما أتيت إلى الهند لأخيف حكومة بريطانيا العظمى ، ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلى يسجل عليها وهن عزيمتها وضعف شوكتها وعدم أمنها فى حكمها .

وفى مصر قاوم نفوذهم ونفوذ الاستعمار جملة ودعا إلى تنكيس أعلامهم وكان من أثر دعوته قيام الثورة العرابية .

وقد دعاه الإنجليز للتحدث معه بعد ثورة السودان حيث لوح له لورد سالسبورى بملك السودان ليطفىء الثورة ؛ قال سالسبورى : أن بريطانيا تعلم مقدرتك ونحن نقدر رأيك قدره ونحب أن نسير مع حكومات الإسلام بودة وولاء، على قدر ما تسمح لنا الظروف،ولذلك تصورنا أن نرسلك إلى السودان بصفة سلطان عليه ، فتطفىء جذوة فتنة المهدى وتمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا فيه .

قال جمال الدين : تكليف غريب وسفه فى السياسة ما بعده سفه ، يا حضرة اللورد : هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا إليه بسلطان وهل تملكونه حتى تملكونى عليه .

إن الإصلاح وما تنويه بريطانيا من عمله فعلى سبيل الاستطراد والتطفل . إننى ألفت نظرها ونظر كبير رجالها إلى إيرلندا وما تعانيه من ضروب البلاء فيما تنشده لنفسها من طلب الاستقلال .

لماذا لا تجيبون سؤلهم وتصلحون أمورهم وهم أقرب إليكم وبينكم وبينهم من الجامعات ماهو معدوم لكم فى مصر والسودان ... »

وقد هاجم جمال الدين أعوان الانجليز والاستعمار فى كل مكان . هاجم الخديو إسماعيل فى مصر وتحدث عن الخلاص منه ، وقال فى حديث له مع الأستاذ براون : لا أمل فى الإصلاح قبل قطع ستة أو سبعة رءوس وسمى بالاسم شاة العجم وكبير وزرائه . ويقول ويلفرد بلنت فى تاريخه السرى أنه فى ربيع عام ١٨٧٩ كثرت المنافسة بين أنصار جمال فى الوسائل التى يمكن بها خلع الخديو إسماعيل أو فى اغتياله إذا استعصى خلعه ، وروى كرومر فى كتابه مصر الحديثة : أن محمد عبده قال : أن الكلام دار فى خطة معينة لاغتياله لم تنفذ لعدم وجود الشخص الذى يتكفل بذلك .

* * *

أما مقاومة جمال الدين للنفوذ البريطانى فقد كان بعيد المدى، فقد حمل جمال الدين كبير المجتهدين «ميرزا حسن الشيرازى» على إصدار فتوى بإلغاء الامتياز باحتكار التنباك الذى منحه الشاه ناصر الدين لشركة إنجليزية ، فلما أصدر الميزرا فتواه الخطيرة بتحريم التنباك على المسلمين لأنه إسراف وضرر بالأمة، كان لها صدى كبير وأثر بالغ .

ثم اتسع الخلاف بين جمال الدين وناصر الدين الذى دعاه مرتين للعمل معه ثم لم يلبث أن خاف الشورى ، هنالك مضى جمال الدين يهاجمه بعنف ويحمل عليه . ثم كان أن دعا السلطان عبد الحميد جمال الدين إلى الأستانة ورجاه أن يكف عن الوقيعة فى الشاة . وقال الخليفة : وأنا بناء على أملى فيك وعدته بأنك تكف عنه .

قال جمال : ما كنت ناويا أن أترك شاة العجم حتى أنزله قبره غير أننى امتثالا لأمر مولانا خليفة العصر عفوت الشاة . . عفوت الشاة . . (أى عفوت عن الشاة) .

قال عبد الحميد : بحق يخاف منك شاة العجم خوفا عظيما . .

ولم يلبث أن قدم على جمال الدين رجل من العجم يدعى بأبى الذهب واسمه (رضا أقا خان) كان صديقه فى حبس قزوين عندما اعتقله الشاة ، وقد تحدثا فى أمر الأمة الإيرانية ، وشقائها بناصر الدين سلطانها .

وقال رضا أقا خان يوما : إنه هو حاضر ، أنه يفدى نفسه لتخليص أمته . فقال له جمال : إن كان ذلك فاذهب وافعل . فذهب رضا . وبعد أشهر بينما ناصر الدين فى جامع عبد العظيم فى طهران ، إذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال : « خذها من يد جمال الدين » وجاءت الأنباء إلى الأستانة وتحدث الناس عنها فلم يخف جمال مشاعره بل أبدى سروره وقال : قد تحقق أن الأمة الفارسية لم تمت وأنها أمة لم تنقطع منها (الآمال) لأن الأمة التى يقوم أحد أبنائها ليأخذ بثأرها ويفتك بالطاغى الذى على رأسها لا تكون قد فقدت جراثيم الحياة، ولما وردت المجلة الفرنسية وفيها صورة القاتل مصلوبا معلقا والناس ينظرون إليه ، هتف جمال :

(علو فى الحياة وفى الممات) وقد نقل الجواسيس ذلك إلى السلطان وتحقق له قول جمال : (أنه مازال وراءه حتى أنزله قبره) .

* * *

وكذلك كان موقفه مع القيصر فانه بعد أن جبهه بكلمة الحق فى الشورى ، علت وجهه علامات الغضب ، ولم يطل الحديث معه ، فلما سافر من روسيا ، قال بصراحة لمن حوله : لتصلين صلاة الجنازة قريبا على القيصر والقيصرية . ولم يلبث أن اشترك فى مؤامرة خلعه وأرسل من ميونخ إلى ألمانيا رسالة سرية يحملها « عبد الرشيد ابراهيم » التتارى إلى عم القيصر وزعيم المؤامرة .

— ٧ —

وكان لابد لجمال الدين فى معركته مع الاستعمار والاستبداد من أن يكون له مرفق من السلطان عبد الحميد، ذلك لأن جمال الدين كان يدعو إلى الجامعة الاسلامية وكان عبد الحميد حريصا على الانتفاع بنفوذه، حتى تكون هذه الجامعة تحت سلطانه ولقد كان جمال الدين يعرف استبداد عبد الحميد ولكنه كان يحاول اصلاحه بروحه الصادقة العميقة الإيمان بالحرية . وكان السلطان ماكرا خبيثا يظهر لجمال الدين بمظهر براق، وكان جمال الدين لصدق نفسه وإصالة روحه، يعتقد أنه ربما أمكن أن يأتى الخير معه ، ولكن عبد الحميد كان يخشى نفوذ جمال الدين وسلطانه وسحره وازداد خوفا منه فرقا بعد مقتل ناصر الدين شاة . . ولقد كان جمال الدين فى غنى عن رحلة الموت إلى استانبول . ولكنها كانت النهاية توشك أن تنزل الستار على حياة الرجل الحر الذى لم يكن له وطن والذى اطلق عليه الأتراك لقب (السرسرى) أى المتشرد الآفاق ، ولقد خدعته رسائل أبو الهدى الصيدى الذى زين له ضرورة لقاء السلطان وكان — إذ ذاك — فى لندن يجاهد شاة فارس .

وقال المابين الهمايونى لرستم باشا سفير تركيا فى لندن : لا يقبل جلالته لكم عذرا فى إقناع جمال الدين بالمجىء إلى الآستانة ليقابله ثم يعود إذا شاء وكانت الرسائل كلها تزين له رحلة النهاية .

وروى أن الشاة هو الذى بعث للسلطان عبد الحميد يرجوه استقدام جمال الدين بعد أن خوفه من خطره وشره .

فلما وصل قوبل مقابلة باهرة ، وبالغوا فى اكرامه وبره . وقربه عبد الحميد إليه وأعد له قصراً فى محله « بنشا نطاش » كان إذا دعاه سير إليه عربة خاصة .

وتعدد اللقاء وأفسح الخليفة الداهية لجمال الدين حتى ظن أنه قد بلغ قلبه وأنه محقق أماله فى الإصلاح .

وقال جمال الدين فى هذه الفترة: أن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم زكاء ودهاء سياسة ، ولكن للأسف أن عيب الكبير كبير . والجبن من أكبر عيوب الملوك .

وأشار جمال الدين : أن مارأيته من يقظة السلطان وشدة حذره واعداد العدة اللازمة لابطال مكايد أوربا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة قد دفعنى إلى مد يدى له فبايعته بالخلافة .

وهكذا خدع السلطان عبد الحميد جمال الدين ، ونسى الداعية النابغة ماوقع بين السلطان ومدحت .

غير أن جمال الدين لم يلبث أن اكتشف الخدعة ولكن بعد أن حوصر فى قفص من ذهب .

* * *

فقد حدث أن طلب جمال الدين لأحد معارفه رتبة وزيادة راتب فوعد السلطان وأفضى جمال الدين للرجل بتحقيق مطلبه ، ثم مضت الأيام ولم تصدر الإدارة السنية بما طلبه فكتب يستنجد السلطان وعده ، فلما لم تبد بوادر شىء مما رغب فيه ، طلب مقابلة السلطان لأول مرة ، وكان السلطان هو الذى يدعوه إليه ، ، فاستقبله السلطان باشا ودخل جمال الدين بوجه عبوس وفاجأ عبد الحميد بقوله :

أتيت لاستميح جلالتكم أن تقيلنى من بيعتى لأنى رجعت عنها . ودهش السلطان وقال : ياسيد : هل افتكرت بما تقول ، قال جمال الدين : نعم ، بايعتك بالخلافة والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد ، بيد جلالتك الحل والعقد ، وبامكانك ألا تعد ، وإذا وعدت وجب عليك الوفاء ، وقد رجوتك فى أمر كذا ووعدت أن تمضيه ولم تفعل . .

قال السلطان : سبحان الله ياحضرة السيد ، أن أمرا خفيفا كمثل ذلك يجعلك أن تهجم على نقض بيعتى لأجله . أما كان يحسن بفضلك أن تلتمس

لى عذرا بكثرة مشاغل السلطة . وتذكرنى قبل نقض البيعة . سامحك الله واحسن جزاءك .

ثم أصدر إرادته حالا بما طلب جمال وآنسه كثيرا وباسطه .. فلم يلبث أن علق جمال الدين على الحادث بعـــد فقال : الحق يقال إننى شعرت بتسرعى وعرفت خطئى كما عرفت له فضله وسعة صدره .

* * *

ولا شك أن هذه القصة تعطى صورة لنفسية جمال الدين الأفغانى فى هذه المرحلة من حياته خاصة ، وترسم لمحة من مزاجه الدموى ولولا أن راويها هو محمد باشا المخزومى صديقه الذى صاحبه خلال سنواته الأخيرة فى الأستانه لما اعتمدناها ،ففيها سرعته واندفاعه ،ثم رجوعه عما رآه ونقضه لما دبره ، ولقد ظلت الدسائس تعمل عملها ، ومضت الحلقة تضيق عليه والرقابة تشتد حتى منع أى أحد من الاختلاط به . . وعرف جمال كيف يعيش الخليفة فى نطاق المخالفين من المنافقين الحاقدين فجابهه يوما بالأمر «ياجلالة السلطان . مللت من تعاطينا الشكاية ومن غيرك صاحب الأمر خذ بحزم جدك محمود ، واقص الخائنين من خاصتك . خفف الحجاب عنك وأظهر للملأ ظهورا يقطع من الخائنين الظهور ، نعم الحارس الأجل» .

وأطرق السلطان وقال : سأفعل إن شاء الله على التدرج . وأمضى جمال الدين فى الأستانة خمس سنوات شبه سجين، تكشف له السلطان عبدالحميد خلالها على حقيقته فلم يعد يخشى أن يقول رأيه فيه صراحة . . وتحول عن رأيه الأول فيه وقال : أن هذا السلطان سل فى رئة الدولة .

ولما حاول رئيس المابين أن يلفت نظره إلى أنه يهز سبحته فى حضرة السلطان قال جمال الدين بجرأته المنقطعة النظير :

سبحان الله : أن السلطان يلعب بملايين الناس ، ألا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبحته كما يشاء .

ولكن علامات الغروب كانت قد أوشكت أن تطبق على هذه الروح العالية، وكانت آية الآيات فى موته أن يقطع ذلك اللسان الذى أثار القلوب وهز الأرواح . وأن يمضى جمال الدين أيامه الأخيرة دون لسانه ، يتكلم بالإشارة، وهذه أقصى مراحل المحنة فى حياة هذا الداعية العملاق .

* * *

فقد أجمع مؤرخوه على أن قضى بعلة السرطان وقد نشبت بين الفك والنحر : قال : إبراهيم اليازجى : « ودب فى مجرى الفصاحة منه ولا عجب أن يدب السرطان فى البحر » وتعددت الروايات فقالوا: أنه لما ظهر المرض فى فكه أمر السلطان أن يجرى العملية له طبيبه الخاص، ورآه الدكتور لاردى فوجد أن العملية لم تجر على وجهها ولم تعقبها التطهيرات اللازمة .

وقيل كان هناك رجل عراقى اسمه (جارح) يعمل طبيبا للأسنان ، ويتردد كثيرا على جمال الدين يعالج له أسنانه ، وكانت نظارة الضبطية قد استمالته بالمال ليكون جاسوسا على جمال الدين . ولم تمض عدة أشهر على حادث الشاة حتى ظهر السرطان فى فك الشيخ من الداخل وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح وما لبثت روحه أن فاضت بعد أيام .

وسمع (شكيب أرسلان) من الكونت ردن واستر المستشرق فى (يناير ١٩٢٣) — وكان صديق جمال الدين : أن السلطان أبى إلا أن يتولى اجراء العملية الجراحية طبيبه الخاص. وأنه رأى أن حالته قد ازدادت شدة بعد العملية فلما أحضر له طبيبا هو الدكتور (لاردى) قال أن العملية لم تجر على وجهها ولم تعقم وقيل أنه طبيب الأسنان العراقى ، وربما ظهر السرطان فى فكه نتيجة لعمل خارج .

وقال عبد الرشيد إبراهيم الداعية الإسلامى والرحالة التركستانى المسلم وقد حضره قبل وفاته أنه ردد كلمات مهموسة قال له : أشهد بالله أن كلام النبى قبل وفاته : أمتى أمتى وأنا أقول ملتى ملتى .

وهكذا ذهب جمال الدين ضحية الغدر، هذا الرجل الذى لم يطأطأ رأسه لظالم والذى رفض أن يكون ملكا . واعتذر عن كبرى المناصب ، وهزأ بالرتب والنياشين وكان لا يرى له بالمال حاجة ، حتى كان عبد الحميد يرسل له خمسين جنيها من المجيدات الفضية فيأمر جمال حاملها إليه بإفراغ كيس النقود وسط المجلس ، وهنا يهجم الحاضرون على الفضة فى سبيل الوصول إلى أكبر عدد ممكن إليها . وكان يقول : لا أمس هذا المال الكريه بيدى ، ويضحك ساخرا مرددا : أن السلطان يرسل الفضة إلى ، أما الذهب فقد أبقاه لأبى الهدى . وكان ذلك موقفه دائماً من المال فعند ما هاجر من مصر وذهبوا يقدمون له المال أشاح إليه بوجهه وقال : ما حاجتى إليه إن الليث لا يعدم فريسته أينما ذهب

* * *

وكان بالغ الجرأة فى الدعوة إلى الإسلام ، صلى فى شرفة الأوبرا فى بطرسبرج — فى المقصورة المجاورة للقيصر — الذى دهش لأمره وأرسل له جنرالا يسأله فى ذلك فلم يقطع صلاته بل أتمها على وجهها ثم قال له : أن رسولنا قال «لى مع الله وقت لا يسعنى فيه ملك مقرب ولا نبى مرسل» وقد ألهمنى الله أن أصلى فى تلك الساعة فى هذا المكان وأنا لا يسعنى فى هذا الوقت امبراطور شامخ ولا خاقان .

وكان يردد دائما قولته الحزينة : ليس لى وطن ، على أنه لا وطن اليوم للمسلمين ، ولم يكن جمال الدين يؤمن بشىء يمكن أن يقف أمامه هدفه ، ولما راجعه محمد عبده فى أسلوب العمل ودعا إلى أن « التربية والتكوين » أنفذ من الانقلاب السياسى قال له : انت مثبط وعزة الحق وسر العدل ، لو أن لسانى نطق عن كلمة التراجع لقطعت لسانى ولو أن يدى تراجعت لقطعت يدى ، هذا منهاجى ولو أغضب منى أقرب الناس »

وقد بلغ اليأس إلى أعماق نفسه فى أيامه الأخيرة فكان يردد كلمات مثيرة «أن المسلمين فقد سقطت همتهم ونامت عزائمهم وماتت خواطرهم وقام شىء واحد فيهم هو شهواتهم » .

وقال لشكيب أرسلان عندما لقيه ، فى الآستانة ، وسأله عن المسلمين : هؤلاء قوم كلما قلنا لهم كونوا بنى آدم ، قالوا أن آبائنا كانوا كذا وكذا وعاشوا فى خيال ما فعل آباءهم ، غير مفكرين بأن ماكان عليه أباؤهم من الرفعة لا ينفى ماهم عليه اليوم من الخمول .

وكان يرى أنه لم يبق فى الإسلام أخلاق ويردد : هذا محمود سامى البارودى(١) عاهدنى ثم نكث معى وهو أفضل من عرفت من المسلمين .

ويقول : قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد أن لا أمل أن يصلحوا إلا بأن — ينشأوا خلقا جديدا وجيلا مستأنفا .

وقال عن بذلة التشريفة المزركشة بالقصب حين قدمت إليه ورفضها : لو لبستها ، أكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل .

وكان يقول : «أن السجن بطلب الحق خلوه والنفى فى سبيل الله سياحة والقتل شهادة وهو أسمى المراتب ، » وقال «إننى غير راض عن نفسى لأن داء الخمول أقعدنى فلم يوصلنى إلى أسمى مرتبة وهى مرتبة الشهداء . وحطنى فى مصاف المنفيين من أرض إلى أرض والمسجونين فيها »

وكان يقول دائما : يهمنى أن أصل للطمأنينة القلبية : ذلك أننى استطعت فى حياتى أن قلت الحق ، ولم اكتمه ، لا رغبة ولا رهبة بل جاهرت به وأنى بلغت من الشجاعة مرتبة فعلت معها بعض ماأقول .

* * *

وصفه صديقه المخزومى باشا الذى رافقه سنوات (من ١٨٩٢ — ١٨٩٧) أنه كان سريع الحفظ ، سريع الذكر ، بطىء النسيان ، وأنه ليذكر خطابا ألقاه أو مقالا أملاه ، وأنه كثيرا ما يعطى خصمه الحق بعـــد أن يفحمه وينبهه إلى ما أغفله من الحجج أثناء الجدل . وأنه صحيح العقيدة موقن بالألوهية ، شديد التمسك بحكمة الدين نفورا من التقليد فى المذهب مجتهدا .

(١) يقصد أن البارودى كان وزيراً فى الوزارة التى أخرجته من مصر .

وقد عرف أنه تسامى عن التعصب لأى فرقة من المسلمين ، وكان مذهبه حنفيا وأنه لم يكتب شيئا بيده، بل كان يملى أو يوحى بفكرته إلى واحد من أنصاره . وكان يوقعها أحيانا بكلمة (مظهر بن وضاح) وقد قاوم النظرية الصوفية السلبية فى العزلة عن المجتمع : وكان يردد قوله :فناء الصوفى فى الله وفنائى فى خلق الله . ومن قوله : أن الإسلام والذل لا يجتمعان فى قلب واحد ، وكان قسمه : وعزة الحق وسر العدل .

وكان جمال يلبس قباء وكساء وعمامة جرداء . وكان فى أول عهده بالترحال يستصحب معه جبة ثانية، ولكن لما توآلى النفى صار يستثقلها ، فيترك الذى عليه إلى أن تخلق فيستبدلها بغيرها . وقد أمضى من هجرته ثلاث سنوات فى باريس وأربع فى روسيا وثمان فى مصر وخمسة فى الأستانة .

وكان لجمال الدين الأفغانى لقاء تاريخى مع الفيلسوف الفرنسى رينان جرى فيه بحث الأديان، وكان رينان قد هاجم الإسلام والشرق ثم راجع رأيه بعد أن لقى جمال الدين الذى أقنعه بأن ما يرى فى المسلمين من الانحطاط والتقهقر أن هو إلا من سوء فهم أهل الجمود من رؤساء الدين لحكمته وقد وصف رينان جمال الدين وصفا مثيرا حين قال :

« خيل إلى من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته وأنا اتحدث إليه إنى أرى أحد معارفى القدماء وجها لوجه ، وإنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحد من أولئك أحرار الفكر العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعلمون على تحرير الانسانية من أسرها . . »

توفى (١٠ مارس ١٨٩٧) .

من مؤلفاته : واثاره

(١) تاريخ الافغان

(٢) رسالة الرد على الدهريين

(٣) ابحاث ومحاضرات كتبها الشيخ محمد عبده نقلا عنه فى جريدتى مصر والتجاره . . سنة ١٨٧٢

— ١٤ —

حسن توفيق العدل

(١٨٦٢ — ١٩٠٤)

هذا واحد من سفراء اللغة العربية فى عالم الغرب ، هؤلاء الذين حملوا أمانتها إلى الجامعات الكبرى، وعندنا أن أول هؤلاء هو: «محمد عياد الطنطاوى » الذى أقام فى البلاد الروسية فى الأربعينات من القرن التاسع عشر وترك فى جامعة بطرسبرج بالذات أثارا وتلاميذ ، أما فى هذا القرن فقد حمل هذه الأمانة : محمد عبد العزيز ، وشريف سليم ، وحسين والى وحسن توفيق العدل وعبد العزيز جاويش ومهدى علام بجامعات ألمانيا وبريطانيا ، أما « العدل » فقد تخصص فى دراسة آداب اللغة العربية كأول رائد لهذا الفن من أبناء العصر الحديث من العرب والمصريين وبقدر ما عرف عنه من الذكاء والبراعة ، فقد كان عمره قصيرا ، كعمر الزهر ، فقد توفى فى الثانية والأربعين وهو يعمل فى جامعة كمبردج سنة ١٩٠٤ .

* * *

وهو واحد من ذلك الرعيل الذى خلط دراسة الأزهر بالدراسة فى دار العلوم ثم فتحت له آفاق الاتصال بالجامعات الغربية ، فكان خلال إتصاله بها مثلا عاليا لوطنه : « حسن خلق ، وعمق فكر ، وصدق إيمان » ولقد بدأ نبوغ « حسن توفيق العدل » مبكرا منذ دخل الأزهر فقد أحرز أربع أجازات قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، من أساتذته إبراهيم السقا وحسن العدوى والإنبارى ومحمد الشنقيطى ثم أتم تعليمه فى دار العلوم ، ولم يلبث أن أختير مدرسا للغة العربية فى المدرسة الشرقية ببرلين حيث أمضى بها خمس سنوات ، وعلم بها كثيرا من المستشرقين الألمان الذين برزوا من بعد فى الدوائر الدبلوماسية .

وأمضى العدل فى ألمانيا خمس سنوات مدرسا ، ولكنه استطاع

أن يكتسب ويتعلم ويضيف إلى ثقافته ، وينقل إلى وطنه ، عملين كبيرين :

* فن التربية (البيدا جوجيا) .
* اداب اللغة (على النحو الغربى الحديث) .

ولقد أعانه على دراسة فن التربية الحديث أن كان لهذا الفن جذورا فى الفكر الإسلامى ، وقد تناوله عديد من أعلام كتاب المسلمين أمثال : الغزالى وابن سينا وابن حزم ، ومن هنا كان ، الانتفاع بالمنهج الحديث يتصل بإعداد النصوص وتحليلها وتقويمها. وقد أنشأ كتاباً فى هذا الفن أسماه (البيدا جوجيا العملية أى علم هداية الأطفال) ذكر فيه طرق تهذيب الناشئة وأعدادهم نفسيا وخلقيا واجتماعيا .

يقول فى مقدمته : « لما قضى الله سبحانه على الرحلة إلى بلاد أوربا والمقام بمدينة برلين عاصمة البروسيا ، انبعث فى الخاطر ، استكشاف أحوال المعلمين والمتعلمين ، ومعرفة كيفية التعليم والتعلم ، فأخذت فى زيارة مدارسهم العامة والخاصة ، وعززت ذلك بدراسة علم (البيداجوجيا) فى مدارسهم الجامعة وخارجها إلى أن وقعت بعونه على خبيئة كنوزهم ووجدت الضالة التى كنت أنشدها خلال ربوعهم، فاستعنت الله فى وضع كتاب فى علم البيدا جوجيا إيفاء بحقوقى الوطنية» وقال إن هذا فن لم يقدمه كتاب عربى آخر فيما يعلم حتى ينسج على منواله أو يبنى على أساسه وفسر كلمة (بيداجوجيا) اليونانية :

بيد = أطفال ، اجوجيا = هدايه

وقال إنه علم التربية الإنسانية ، لم يكن من قبل مستعملا لديهم ، وإنما هو علم حديث استنبطه منذ عهد قريب علماء أمم أوربا وجعلوه تحت قواعد وقوانين هداهم إليها الاختيار والتجربة » .

وقد صدر هذا الكتاب فى مصر ١٨٩١ .

٢ — وكانت تجربته الثانية فى إعداد موسوعته عن « تاريخ آداب

اللغة العربية » هذا الكتاب الرائد فى إنشاء هذا الفن فى الأدب العربى الحديث ، والذى استهدى به كل من كتب فى هذا الفن : مصطفى صادق الرافعى ، وجرجى زيدان والزيات وغيرهم ممن جاءوا بعد ، ومع ذلك فلا زال هذا الكتاب « فى سبع مجلدات » مخطوطا يعلوه غبار القدم بغلافه الممزق فى دار الكتاب المصرية ، وكان العدل قد أعده وألقاه على هيئة محاضرات فى مدرسة دار العلوم فى الفترة التى قضاها فى مصر بعد عودته من برلين إلى أن أعير للتدريس فى جامعة كمبردج .

وقد بدأ كتابه بتعريف اللغة وتعريف الأدب ، ثم تحدث عن تاريخ أدب اللغة وتعريف الأدب فقال « إن تاريخ أدب اللغة لأى أمة إنما يبحث عن حالة الحياة العقلية والبيانية للأمة فى عصورها المختلفة ، وعن نشأة لغتها وتدرجها ومدوناتها » وأشار إلى أن تاريخ أدب اللغة تابع فى تقسيمه للتاريخ السياسى أو الدينى فى كل أمة ، لأن الأحوال السياسية أو الدينية تكون فى العادة عامة « فأما أن تبعث الأفكار وتحرك الأميال لمزاولة المعارف أو تكون سببا فى وقوف الحركة الفكرية فى الأمة بما يلحق السياسة أو الدين فى الضعف أو الوهن. وعنده أن «ابتداء إزدهار اللغة العربية وقيامها بمقتضيات الملك والسياسة ، إنما كان منذ ظهور الإسلام».

وقد تناول فى موسوعته تقسيم الكلام عن تاريخ أدب اللغة العربية إلى خمسة عصور . « الجاهلية — أول الإسلام — الدولة الأموية — الدولة العباسية والأندلسية — الدول المتتابعة» وهو نفس التقسيم الذى سار عليه جميع من جاءوا بعده ولم يذكروا فضله أو يشيروا إليه . وقد أشار « محمد كرد على » إلى كتاب « العدل » هذا بعد أن دفعه إليه لقراءته ، فقال « إن مما قرأته فيه أن أوزان الأعاريض هى من مخترعات العرب الصرفة وأنهم لم يأخذوا وزناً من غيرهم بل أخذ عنهم كثير من أمم أوربا أوزانا من القافية » ، ومما يذكر أن العدل قد استفاد فى هذا البحث بأبحاث أستاذه (بروكلمان) عن الأدب العربى .

٣ — ولم يقف إنتاج « العدل » عن هذا الحد فإن له آثاراً أخرى لها أهميتها ، أهمها كتابه « سياسة الفحول فى تثقيف العقول » وقد ضمه مجموعة من كلمات الحكماء وروائع التراث العربى الإسلامى .

يقول : إن أعظم مايفيد الإنسان ويهديه إلى سبيل الرشاد ويجعله سلطانا على أنظاره وقيما على أفكاره إنما هو تثقيف العقل ، وإن أولى ما يأخذ الإنسان به نفسه فى تثقيف عقله وتوسيع نطاق فكره ، إنما هو النظر إلى التخلق بالآداب ، والبصر فيما يكسبه الشرق ويجوز به طرق العزة والشرف ، ويقول : « لطالما أمعنت نظرى فى الحصول على ناموس يرشد الإنسان إلى هذه الطلبه ، وجست خلال كتب الآداب والتواريخ فى سبيل قشدان هذه الضالة » وهو فى كل ما يكتب ويقدم لاينسى أن يذكر وطنه وشغفه بما يعود عليه من الخير بحسبانه مصدر العمل الأساسى عنده .

٤ — وله أيضا كتاب (أصول الكلمات العامية) .

وقد اتجه إلى بحثه خلال إقامته فى برلين وتدرسه اللهجة العربية المصرية بالمدرسة الشرقية — ببرلين فقد دعاه ذلك إلى بحث فى الألفاظ والتراكيب التى يستعملها المصريون فى التحاور : « فكنت أجد الكلمات التى تلهج بها (١) إما عربية محضـــة ولكن اعترى الكثير منها القلب والإبدال والتصحيف والتحريف (٢) أو غير عربية ، وهى التى تناولها العربى من أفواه القبط منذ فتح البلاد على يد العرب ، أو التى أدخلها الدخلاء إلى اختلاف لغاتهم والتى جاءت بها الدول التى حكمت مصر بعد العرب ، وليس عدد هذه الكلمات بالنزر اليسير » غير أن مما حال بينه وبين إتمام البحث اشتغاله بدراسته الخاصة هناك ، فلما عاد إلى مصر وجد من نفسه نزوعا إلى متابعة التنقيب فى هذا الموضوع « لإرجاع الألفاظ إلى أصولها سواء العربى منها أو الدخيل » وشد من عزمه ما لقيه من نهضة ، فكان هذا الكتاب فتحا فى مجال آخر من كتاب مجالات العمل الأدبى والثقافى .

* * *

ولا شك أن هذه الآثار كلها تعطى صورة نفس طلعة إلى العمل طابعها الإخلاص والصدق ، مدفوعة بإيمان لاحد له باللغة العربية والوطن.

ولم يقف العدل عند فنون النثر ، بل إنه لشاعر أيضا ، وله رسالة فى النحو نظمها على غرار ألفيه ابن مالك هى (المقامة العدلية) وضعها منذ كان طالبا فى دار العلوم — (مدرسة المعلمين الناصريه) وكان من المفروض إذ ذاك على كل طالب أن يحفظ مقامات الحريرى ، وبقدر قوة الحفظ تعطى له الدرجة . ولما كانت كثرة اشتغاله بالدراسات الأخرى قد حالت بينه وبين حفظ هذه المقامات فقد وضع هذه المقامة العدلية لتكون شفيعة له عند أساتذته ، وقد انتقى لها من الألفاظ العربية مالا يوجد فى مقامات الحريرى وقد أتيح له أن يقدم مقامته العدلية لأستاذه حسين المرصفى ، ناسبا إياها إلى شخص غيره ، فأكبر الأستاذ أمرها وسأل عن واضعها ، ولما علم بأنه تلميذه أعفاه من تكاليف حفظ المقامات الحريرية استثناءاً له وحده لما أظهر من براعة وفضل .

* * *

ومن آثار «العدل» رحلته إلى برلين مطبوعة على الحجر فى ١٣ جزءا (بدار الكتب المصرية) — أطلق عليها اسم (الرحلة البرلينية) صور فيها أحداث رحلته ووقائعها ورسم صورة لمدن ألمانيا التى زارها وحكى مقابلته لامبراطور ألمانيا بزيه الشرقى وإلقائه قصيدة باللغة العربية أمامه نوه فيها بتاريخ ألمانيا وكيف قلده الامبراطور بيده وساما رفيعا وسلمه براءته .

وله كتاب (رسائل البشرى فى ألمانيا وسويسرا) وله غير ذلك كتاب (مرشد العائلات إلى تربية البنين والبنات) .

وله آثار أخرى لم تطبع منها منظومة فى النحو وأخرى فى الحساب وتاريخ اليونانيين والرومانيين وتاريخ ممالك أوربا إلى سنة ١٨٩٠ وحياة العرب قبل الإسلام .

* * *

ومهما كانت حياة (حسين توفيق العدل) قصيرة فإنها كانت خصبة إلى حد لا مثيل له ، فقد ولد ١٨٦٢ فى الإسكندرية ، وتعلم فى الأزهر ، وأحرز فى سن العشرين أجازة الأزهر واتصل بدار العلوم فتخرج منها سنة ١٨٨٧ وفى نفس العام استدعى فى بعثة لوزارة المعارف إلى ألمانيا معلما للغة العربية فى المدرسة الشرقية فى برلين ، فأقام بها حتى عام ١٨٩١ وكانت هذه السنوات الخمس خصبة إلى أبعد حد ، فقد أصدر فيها مجلة أطلق عليها اسم (التوفيق المصرى) دعا فيها إلى رفعة وطنه كما علم عـــديدا من الباحثين ، وأفاد من دراسات البيداجوجيا وتاريخ آداب اللغة العربية وأصول الكلمات العامية ، كذلك درس أساليب التعليم فى المدارس الألمانية والبريطانية وقد استطاع الالمام بكثير من الثقافات الأجنبية الحية فأجاد الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وفى ألمانيا ساح العدل فقصد إلى القرى المختلفة والمدن ، واستطاع أن يرسم صورة واضحة للحضـارة والفكر فى بلاد الجرمان فى رحلته البرلينية ورسائل البشرى فى السياحة بألمانيا وسويسرا .

ولما برح العدل برلين عائدا إلى مصر أمضى بضـعة شهور متنقلا فى أوربا فزار معظم مدنها ثم قصد لندن للوقوف على طرق التربية والتعليم التى كان معنيا بها فزار جامعات أكسفورد وكمبردج وايتون وهارو .

ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٩٢ فأحدث نهضة كبرى بمؤلفاته ومحاضراته فى دار العلوم ، وفى خلال فترة إقامته فى مصر (١٨٩٢ — ١٩٠٣) أصدر مؤلفاته هذه ونشرها وعلم عديدا من الشباب الذى أتيح له أن يبرز من بعد فى مجالات التربية والثقافة والصحافة .

ثم كانت خاتمة حياته القصيرة متمثلة فى دعوة الدكتور براون المسئول عن الدراسات العربية فى جامعة كمبردج له للعمل معه فسافر إلى بريطانيا ، ووصل إليها (أكتوبر ١٩٠٣) ومضى فى تعليم فئة من طلبة المدارس الجامعة بانجلترا باللغة العربية ، غير أن أمر ذلك لم يطل فلم يلبث أن توفى

على أثر نوبة قلبية فى (٣ يونية ١٩٠٤) فأعيد جثمانه إلى مصر حيث شيع إلى مقره الأخير (٢٨ يونية ١٩٠٤) .

وبعد: فان حسن توفيق العدل واحدمن روادنا فى مجال الفكر والثقافة أدخل إلى فكرنا المعاصر فنونا جديدة ، وهو واحد من أعلام دار العلوم عاش حياةقصيرة ولكنها عريضة خصبة. اتصل فيها بدوائر الفكرفى الغرب وحاج عشرات العلماء فى أمور اللغة العربية والإسلام وأولى اهتمامه شئون التربية والتعليم فى معاهد ألمانيا وبريطانيا وكل مكان ذهب إليه — ... تحية له اليوم فنحن بعد مائة عام من مولده ذاكروه ومقدرو فضله وأثره .

«أجازة حسين توفيق العدل»

من أجازة الشيخ محمد الانبابى شيخ الإسلام (شعبان ١٢٩٨ هـ) إلى حسن توفق العدل :

« وممن اغتنى بعد ما اقتنى ، وقطع المفازة فطلب الاجازة ولدنا النبيه النبيل والعالم النجيب الجليل والشاب الصالح الكامل الألمعى الشيخ حسن توفيق الملقب بالعدل ، السكندرى الشافعى ، لازال بعناية الله ملحوظا ، بعد أن لازمنى مدة مديدة ، وأخذ عنى علوما عديدة ، فلما لاح لى كوكب صلاحه ، وفاح لى نشر مسك فلاحة ، ورأيته أهلا لتلك الصناعة ، وجديرا بتقاضى هاتك البضاعة ، حيث أخذ من الفنون بأقوى طرف ، وأرادوا الاقتداء فى أخذ الأسانيد بمن سلف ، فبادرت لطلبه بإعطائه بلوغ أربه ، فلم أثن عنه عنان العناية بل أجزته بما يجوز لى رواية ويصح لى دراية من فروع وأصول ومنقول ومعقول ، وأذنته بالتدريس وأن يتخذ العلم خير جليس » .

من مؤلفاته :

: رسائل البشرى فى السياحة بألمانيا وسويسرا

: البيداجوجيا

: الرحلة البرلينية

: مرشد العائلات إلى تربية البنين والبنات

: أصول الكلمات العامية

: تاريخ آداب اللغة العربية

: سياسة الفحول فى تثقيف العقول

— ١٥ —

الدكتور حسين الهراوى

(توفى ١٩٥٤)

هذا باحث عالم له آثار منوعة ونتاج أدبى وفكرى متصل منذ عام ١٩١٨ تقريباً إلى عام ١٩٣٤ وليس له فى سير الباحثين شأن مذكور ولا يعرف عنه إلا القليل، مع أن الدور الذى قام به كان جليل الشأن، فقد دافع عن الإسلام دفاعاً مستنيراً فى مجالات عدة وقاوم حملات بعض المستشرقين ورد مغالطاتهم وأخطاءهم، وكشف عن دورهم، وإذا كانت مفاتيح فكر أى كاتب تتجلى فى مطالع آثاره، فإن هذا الطبيب الشاب الذى كان يتملس طريقه قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى وفى ظل ثورة ١٩١٩ قد بدأ يكتب عن أثر العرب والمسلمين فى حضارة أوربا، يوم أن كان هذا الأثر منكور التقدير يجد أشد الأغضاء والإغفال، ثم لم يلبث أن اشترك فى أول معركة للغة العربية فى الجامعة وهى معركة كلية الطب أو مدرسة الطب المصرية فى الدعوة إلى تدريس علوم الطب باللغة العربية، وذلك فى ظل المحاولات التحررية التى اتصلت بثورة ١٩١٩ فى مقاومة الاستعمار البريطانى والاحتلال والنفوذ الأجنبى فى مجال التعليم والحث على إعطاء اللغة العربية الصدارة فى مجال الدراسات العليا. هذه المطالع تلقى ولاشك الضوء على اتجاه هذا الطبيب المولع بصناعة القلم ...

ويمضى الدكتور الهراوى فيكتب فى مجال الطب والإسلام ويناصر كل ما يتصل بأمجاد العرب والمسلمين ويكشف عن فضلهم فى مجالات الطب، وأثرهم فى الحضارة الغربية حتى تراه عام ١٩٣٣ يشمر على ساعده وقلمه — إن صح هذا التعبير — ليواجه الحملة التى اجتاحت الشرق الإسلامى، وهى حملة

التبشير » وقد كان لها فى مصر خطر وزلزال ، فإذا هو يشن حملة ضخمة ويتصدر الكتابة فى افتتاحية الأهرام محاربا إشراك المستشرق (فنسنك) الهولندى فى عضوية المجمع اللغوى الوليد إذ ذاك ، كاشفاً عن مواقفه من الفكر العربى الإسلامى ، ولقد كان لهذه الحملة أثرها السريع فقد ألغت دعوة استقدام فنسنك وحيل بينه وبين عضوية المجمع ، ثم إذ بالدكتور الهراوى يدخل معارك قلمية مع الكثيرين فى مجلتى الهلال والمعرفة عن دور المستشرقين فى الفكر العربى الإسلامى . وعندما بدأ الدكتور هيكل ينشر فصوله الأولى من كتابه (حياة محمد) فى السياسة الأسبوعية مقتبسا إياها ومترجما من كتاب إميل درمنجم حاوره وداوره فى نظريات المستشرقين وشبهاتها ... كما عارض الدكتور زكى مبارك فى التسليم بفضل المستشرقين تسليما كاملا . . .

* * *

وكان من رأيه أن أمثال فنسنك من متعصبة المستشرقين إنما يفرضون فرضاً معينا ثم يبحثون فى الآيات القرآنية عما يناسب هذا الرأى « فإذا وجدوا آية تدحض رأيهم حذفوها حذفا وأنكروها إنكاراً . حتى يخرجون بالنتيجة التى تزرع الشك فى فؤاد من يطلع على أقوالهم من غير تمحيص » ويقول : « إن هذه الطريقة لم يبتدعها (فنسنك) إنما هى طريقة قديمة من أقدم ما ورد فى كتب المستشرقين والغرض منها جلى ظاهر ، وهى تزويد جماعة المبشرين والمستعمرين بحجج شبه منطقية يزعزعون بها عقائد المسلمين ويقللون من تمسكهم بدينهم » وعنده : « إن هذه هى إحدى الطرق التى وضعها رواد الاستعمار منذ زمن قديم ، وكانت إحدى وسائلهم مع تقوية اللغة العامية حتى لا يتفاهم المسلمون ولا يفهموا قرآنهم » .

وأشار فى معرض هذه المعركة الضخمة إلى أنه استطاع أن يحصل على تقرير لجنة العمل المغربى فى أوربا ، وفيه يقول المستشرق سيكارو : « إن

الإسلام فى روحه الخاص قوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغباتنا ونزعاتنا فمن مصلحتنا التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطاننا » .

ولم يتوقف الدكتور حسين الهراوى عند هذا الحد بل لقد ذهب يستعرض آراء المستشرقين ويرد عليها ، ففند آراء برينو الذى كان يدرس اللغة العربية لفريق من طلبة أوربا ، فيقول لهم : إن لغة القرآن ،هذه اللغة التى ماتت ولا يتكلم بها أحد ، فهى (لاتينية)اللغة العربية» ويرد على مرجليوث الذى يغالى فى الطعن على نسب النبى ويقول إن اسم أبيه عبد الله ومعناه أنه مجهول الأب وهو لا يلبث أن يقرأ كتابا من كتبهم إلا وجد فيه جهلا بالإسلام وإجماعا على الطعن فى النبى ...

ويصل من هذا كله إلى أن يقول : أننا يجب أن نقرأ للمستشرقين فى حرص ويقظة ولا نسلم بكل ما يقولون ، فإن للاستشراق غرض وهدف . . .

* * *

وهكذا كانت أعمال التبشير فى الثلاثينات فرصة ضخمة لظهور كفايات مثقفة تدافع عن الإسلام وتواجه المعركة على نحو علمى لا يكتفى بالمقالات القائمة على الصراخ ومطالبة الحكومة بإيقافه ، وفى مقدمة الذين كشفت المعركة عن قدرتهم فى هذا المجال الدكتور هيكل والدكتور حسين الهراوى الذى أشار فى بعض كتاباته إلى هذا المعنى حيث قال : أنه لما اشتدت وطأة المبشرين فى الأغواء عكفنا على دراسة شىء غير قليل عن طرقهم ومؤلفاتهم وخرجنا بنتيجة رسخت فى عقدتنا رسوخا قويا هى «أن المستشرقين هم طلائع المبشرين » .

ونحن نرى أن الاستعمار يستغل قوى المستشرقين والمبشرين جميعاً ويعول كثيراً على كتابات المستشرقين الذين قد يكونوا متعصبين لمفاهيم أساسية فى الفكر الغربى . أو يكونوا على غير قدر كبير من الكفاية

اللغوية مما يحول دون فهمهم النصوص العربية الإسلامية : (البلاغية والفقهية) ومن هنا تنكشف أخطائهم أو آرائهم المضطربة ، هذا مع التحفظ بأن هناك قلة قليلة من المستشرقين يعملون فى دوائر الاستعمار وهناك أخرى فئة مخلصة للبحث العلمى ، وفيهم أنصاف لا شك فيه وقد أوردنا لبعض هؤلاء آرائهم فى كتابنا «الإسلام» : فى غزوة جديدة للفكر الإنسانى».

* * *

وقد كان الدكتور حسين الهراوى فى مجال مناقشة الدكتور هيكل حول ارائه فى فصوله عن «حياة محمد» وقد استحدث بحثاً مضى فيه ثمة ولم يتمه ، ذلك الذى أطلق عليه (التحليل النفسى لحياة محمد) وقد نشر منه فصولا قليلة ، قال فى مطالعها أنه قد وجب أن نواجه حملة التبشير بلسان العلم الصرف لا بلسان المنطق : «لذلك أردت أن أنشر نوعا جديدا من البحث عن القرآن فى ضوء العلم الحديث فى الطب والفلك » وسنرى « أن القرآن قد سبق العلم بنحو ألف وثلاثمائة سنة » وقال « إن هذه الأبحاث لا تقنع المبشرين والمستشرقين ، لأنهما حرفتان يجاهد أصحابهما فى سبيل بقائهما ، لذلك يجب أن نراجع ما يكتبون بعد أن نجردهم من تلك الثياب المنمقة ، ونهتك ستر الغرض الحقيقى الذى يكتبون من أجله وعلينا أن نحترم أنفسنا وندافع عن شرقيتنا ونحرر فكرنا حتى نفهم العالم كما هو لا كما يجب أن يكون».

وكان المصدر الذى دفع الدكتور الهراوى إلى إعداد هذه الأبحاث أساسا إنما هو إيمان صادق بالفكر العربى الإسلامى وحمايته من « أن تستشرى حوله الشكوك والشبهات فينصرف عنه أهله » كاشفا عن غناه وثرائه ودوره الإيجابى الحى . وهو ينعى علينا خطأنا الفاضح فى أن نعتمد على الغرب حتى فيما يخصنا من التاريخ القومى وما يخص المصريين من الكتب الأفرنجية بينما كتب المرحوم أحمد كمال باشا الخطية مازالت رهينة الرفوف والدواليب .

وقد حمل لواء الدعوى إلى مقاومة حملة التشكيك والتغريب وإثارة

الشبهات حول الفكر العربى الإسلامى : « هذه الموجة الهائلة التى اكتسح الغرب بها أفكار الشرقيين قد وجب أن تصادمها موجة أخرى من الشرق، هذه الموجة الشرقية هى الأنانية فى الأدب والاجتماع والاعتزاز بالنفس وتحرير الفكر الشرقى من أثر التخدير الطويل الأمد » ..

* * *

ولم يقف عمل الدكتور حسين الهراوى وفكره عند هذا الحد ، بل أنه عالج بالأسلوب العلمى . قضية أخرى هى القصة الغربية المترجمة إلى العربية ومدى أثر هذه القصة على المجتمع ، وهو أساسا لم يخصها للقصة فهو يراها « أقرب موارد الدراسة النفسية بأسهل أسلوب يحتمله العقل والجهد » ولكنه لا يرى فى الأدب الغربى فى هذه الفترة ما كان يقدمه من قبل من روائع ، ويرى أنه تحول بعد الحرب العالمية الأولى نحو وجهة الاستهتار الجنسى ، فليس للروائيين فى الغرب مصدر الهام غير هذا الموضوع ، القائم على استهتار المجتمع الحاضر بروابط الزوجية والأسرة » .

ويتعرض لتفصيل هذا فيقول « على أن العالم مملوء بماهو أهم من انتهاك الحرمات ووصف المخازى، ولكن المسائل الجنسية لذيذة الأحاديث جذابة المواضيع وأكثر رواجا واستثمارا ولذلك نرى هؤلاء الأساطين يعنون بالمادة قبل أن يعنوا بنشر الصالح » .

أن القصة المصرية يجب أن تكون مخالفة للقصة الغربية كما تختلف بيئتنا وبيئتهم ، وأشار إلى أنه لم يوجــــد إلى اليوم كاتب غربى حديث استطاع أن يكتب قصة تساوى (عطيل) أو (هملت) ذلك لأن الكتاب الحديثين فى الغرب مهمتهم تسلية الجماهير فيتولى الكتاب زعامتهم وإرشادهم إلى الطريق الذى ينالون منه حظا وافراً من النجاح فى الحياة) ..

وبعد أن أفاض الدكتور حسين الهراوى فى مناقشة هذه القضية وفق منهج البحث العلمى القائم على الدراسة . لا العاطفة ، خلص إلى أن الرواية المصرية يجب أن تختلف فى منهجها وطريقتها وأهدافها عن القصة

الغربية لأنها نابعة من بيئة لها مقوماتها الخاصة واستعداداتها من تاريخها وعقائدها وتراثها » .

هذا هو الخط الذى سار فيه الباحث الطبيب الذى بدأ كتاباته عام ١٩١٧ فى مجلة السفور ثم شق طريقا رسمته له ثقافته ومهنته ، فطالما نشر فصولا من يومياته فى السياسة الأسبوعية كشف فيها عن جوانب من الأخطار الاجتماعية التى مرت بالمجتمع المصرى فى ظل ما أطلق عليه (الفتنة الغربية) الصادرة عن القصة المترجمة وما كان لها من آثار وجرائم فى المجتمع جريا وراء ماتحمل من صور وأحداث .

* * *

وقد كان الدكتور الهراوى طبيبا لقسم مصر القديمة ولقسم عابدين ، وقد عاش حياته لمهنته صديقا للمرضى قادرا على أسداء الخير أينما يحل ، ثم هو بعد ذلك باحث له آثاره فى الإسلام والطب ، وله آثار مطبوعة ماتزال تحمل اسمه فى سجلات دار الكتب ، وذلك غير مقالاته المنوعة المتعددة فى الصحف ، ومع هذا فقد مضى الدكتور حسين الهراوى ، دون أن يذكره ذاكر وهو شقيق محمدالهراوى صاحب القصص الشعرية من أدب الأطفال التى قراها جيلنا فى مطالع حياته مثل (سمير الأطفال) ومازال بعضنا يحفظ هذه الكلمات له : (أنا فى الصبح تلميذ وبعد الظهر نجار) ..

ومازال الهراوى الشاعر موضع ذكر الناس ، أما الدكتور حسين الهراوى فقد اختفى فى تضاعيف تراث كبير ، وأسماء كثيرة فى أعلامنا مازالت آثارها مدفونة فى بطون الصحف والمجلات لم يكشف عنها بعد ولا شك أن فى آثارها نفعاً كبيراً وإضافات للثقافة العربية الإسلامية المتجددة فى ظل إيمان صادق فى هذا العصر بتقدير أعلامنا وأحياء آثارهم وإنا لنأمل أن يتاح لآثار هؤلاء الأعلام أن تجمع وتنشر .   توفى ١٩٥٤

من آثاره :

فضل العرب على الجراحه سنة ١٩١٧ ، المستشرقون والاسلام سنة ١٩٣٦ ، المكيفات : مضارها وعلاجها سنة ١٩٣٩ ، التطورات العلمية فى القرآن سنة ١٩٤٢ ، مقالاته فى جريدة الاهرام ١٩٣٣ و ١٩٣٤ ، والسياسية الاسبوعية ١٩٣٤

— ١٦ —

حفنى ناصف

(١٨٦٠ — ١٩١٩)

علم من أعلام أدبنا العربى المعاصر وواحد من الرواد الأول الذين كانوا أساتذة للمفكرين الذين برزوا فى محيط الحركة الفكرية فى أوائل هذا القرن : «حفنى ناصف» الشاعر الكاتب الذى ظلت آثاره الشعرية مطمورة أكثر من أربعين عاما حتى صدرت عام ١٩٥٧ بمجهود مشترك ساهم فيه أبنائه والمجلس الأعلى للآداب والفنون بالقاهرة .

عندما شب حفنى ناصف كان جمال الدين الأفغانى الثائر الإسلامى وداعية الحرية الكبير يقوم بجولته الطويلة بين إيران والأفغان والهند ومصر وأوربا وتركيا ، ثم يستقر به المقام فى القاهرة سنوات يهز فيها العقول الراكدة ويثير فى نفوس الشباب المثقف يقظة فكرية جديدة قوامها الحرية والمقاومة والتجمع . ولذلك لم يلبث حفنى ناصف أن تأثر خطا هذا الثائر فإذا بالثورة العربية تندلع -- وهى أثر من آثار جمال الدين الأفغانى — فيشارك فيها محاربا وشاعرا وخطيبا . كان يكتب الخطب ويوزعها على خطباء المساجد ثم يمضى ويسهم فى أعمال النهضة مشاركا فى كل مظهر من مظاهر الحياة الفكرية المصرية فيعمل مع محمد عبده وسعد زغلول فى الوقائع المصرية ويضع أسس النحو وتاريخ الأدب لوزارة المعارف ويشترك فى تأسيس الجامعة ويعمل سكرتيرا لها ثم أستاذا لتاريخ آداب اللغة العربية ويؤسس المجمع اللغوى الأول ونادى دار العلوم .

ويصبح خلال هذه الفترة الحافلة التى مرت فيها البلاد أستاذا لعدد من قادة النهضة أمثال : مصطفى كامل وطلعت حرب وأحمد شوقى وعبد الخالق ثروت وعبد العزيز فهمى ولطفى السيد وأحمد لطفى محامى الحزب الوطنى وعزيز خانكى .

وعمل حفنى ناصف فى ميدان القضاء فترجم القانون مع شفيق منصور يكن ورفيق فتحى ثم أصبح قاضياً فوكيلا لمحكمة طنطا وكان مثلا للقاضى العادل ومما يعرف عنه أنه حكم على مدير طنطا لأنه يسكن قصرا بدون أجر وأمر بأن يخرج متاعه بالقوة .

وعمل فى ميدان الصحافة فكان يكتب فى الأهرام بتوقيع « أدريس محمدين » مقالات جريئة لفتت الأنظار لمطالبتها بالإصلاح مما دفع صاحب الأهرام إلى أن يعرض عليه الاشتغال بالصحافة ، كما كتب فى جريدة المؤيد .

وفى ميدان التأليف له عديد من المؤلفات منها : غريب لغة الصعيد ، والأمثال العامية ورسالة فى الربا ورسالة فى المسميات بالحديثة . ورسالة فى المنطق وكتاب القطار السريع لعلم البديع .

وقد اشترك فى عدد من المؤتمرات من أهمها : مؤتمر العلوم الشرقية بمدينة فينا وقدم لأعضائه رسالتين عن مارية القبطية والسيدة هاجر وتأثيرهما فى اللغة العربية كما قدم كتابا أسماه : « مميزات لغات العرب » .

وفى مجال اللغة العربية اشترك فى المجلس العلمى ووضع عدداً كبيراً من الأسماء لمسميات جديدة .

وكان قد عين بعد وفاة الشيخ حمزه فتح الله مفتشاً أول لوزارة المعارف فشارك فى أعداد مناهج الدراسة وبرامج التعليم كما اشتغل بالتدريس فى مدرسة الحقوق وكلية الآداب ودار العلوم .

* * *

ومن أبرز آثاره العملية إعادة كتابة المصحف الشريف على نسق رسم مصحف الخليفة عثمان بن عفان وذلك حفظاً للدين واللغة .

ولقد لقى فى سبيل ذلك العمل عنتاً كبيراً وتكلف مشقة بالغة ، فقد جمع أشتاتاً من المخطوطات وأخذ يقارن بينها حتى استخلص منها قواعد الرسم للمصحف فى رسالة صغيرة ثم بدأ يصحح الرسم الذى كان موجوداً

— إذاك — على قواعدها الأصلية موالياً عمله ثلاث سنوات يساعده فى ذلك عالمان فاضلان هما : أحمد السكندرى ومصطفى العنانى ، وقد كان يولى هذا العمل إهتماماً كبيراً ، ويراه قريباً إلى نفسه وهو فى غاية العمر وقد سعدت نفسه حينما أتيح له أن يصحح المسودات الأخيرة وكأنما كان ذلك إيذاناً بانقضاء العمر . وقد واجهت محاولته لرسم المصحف معركة طويلة اشتركت فيها صحف وادى النيل والأهالى والأخبار ورد حفنى عليهم فى جريدة الأهرام .

وكان من أبلغ أحداث حياته وفاة ابنته « باحثة البادية » فى سن الثالثة والثلاثين وهى فى مقتبل الشباب ، وبالرغم من إيمانه بالله فان الحادث هزه هزاً عنيفاً ، حتى أنه عندما ذهب إلى الجامعة ليحضر حفل تأبينها غلبه التأثر وتعاظمه الأمر فأعيد إلى بيته محمولا ، وقضى بضع أيام فى حالة الغيبوبة حتى توفى مطالع ثورة ١٩١٩ (٢٥ فبراير) التى شارك فيها أبناؤه مشاركة فعالة.

* * *

وكانت باحثة البادية : ملك حفنى ناصف أكبر أبنائه وقد أحبها حباً عجيباً ورباها على الوطنية والتضحية والعلم . وكان يراسلها غائبة ويستمع إليها حاضرة . فيرى فيها ثمرة غرسه إذ كانت (ملك) مصلحة اجتماعية آمنت بأن مكان المرأة البيت ، وبالرغم من أنها هى أول فتاة مصرية تصل إلى التعليم العالى وتكتب فى « الجريدة » وتحاضر فى الجامعة ، فقد عارضت قاسم أمين فى اطلاق الحرية للفتاة ودعت إلى النهوض بالمرأة بما يتفق مع الدين والتقاليد وقد توفيت فى ١٧ أكتوبر ١٩١٨ ولم يبق حفنى ناصف بعدها إلا شهوراً

* * *

وكان حفنى ناصف العالم الشاعر إنساناً ممتازاً رقيق الحس مرحاً يحب الموسيقى ويولع بالنغم والفكاهة والسخرية الحلوة العذبة ويحسن تقليد الشوام والبرابرة والصعايدة والأروام فى لهجاتهم .

وقد أتيح له أن يرحل ويكسب من رحلاته مزيداً من التجربة والخبرة

والثقافة فقد زار الشام والأستانة وبلاد اليونان وآسيا ورومانيا والنمسا وألمانيا وسويسرا والسويد وبلاد العرب .

وفى خلال رحلاته اجتمع بأعلام الفكر والتقى عدداً من المستشرقين وصحح آراءهم ، فقد كان صادق الإيمان بعظمه التراث العربى وأمجاد الأمة العربية ، ومما يروى عنه أنه علم مقرىء جامع (أيا صوفيا) فى الأستانة قراءة القرآن وله فكاهات ونكات وأمازيح .

ولعل أجمل هذه الفكاهات قصة الستة الذين وقفوا على قبر الشيخ محمد عبده يرثونه ثم دب فيهم الموت على الترتيب الذى تحدثوا به . ولم يبق منهم غيره وغير حافظ إبراهيم ، وكان هو قد سبق حافظ فى القاء قصيدته فكتب إلى حافظ يقول له أن لا بأس عليه فى أن يلقى نفسه تحت القطار ولايخف وينام تحت بيت الوقف وهو مهدم فأنه لن يموت حتى يتقدمه هو إلى الفناء .

أتذكر إذ كنا على القبر ستة ... نعدد آثار الأمام ونندب
أبو خطوة ولى وقفاه عاصم ... وجاء لعبد الرازق الموت يطلب
فلبى وغابت بعده شمس قاسم ... وعما قليل نجم محياى يغرب
فلاتخش هلكاماحييت وأن أمت ... فما أنت إلا خائف تترقب
فخاطر وقع تحت القطار ولاتخف ... ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخص لحج الهيجاء أعزل آمناً ... فان المنايا منك تجرى وتهرب

وفى هذا الشعر من الفكاهة والسخرية مافيه حتى أن حافظ ابراهيم رثى نفسه بعد أن مات حفنى بقصيدة بدأها هكذا :

« آذنت شمس حياتى بالمغيب » ولكن حافظ عاش بعد حفنى ناصف بضعة عشر عاماً .

* * *

عاش حفنى ناصف ثلاثة وستين عاماً ، إذ ولد عام ١٨٥٦ وعندما أدخل المكتب وضربه الفقيه ركب دابة من قريته ويمم نحو القاهرة فدخل الأزهر

الشريف فأمضى به تسع سنين ثم دخل دار العلوم فأحرز شهادتها وعين ناظراً لمدرسة العمى والخرس.

وقد ترك حفنى ناصف فى أبنائه أثراً كبيراً فانعكست أخلاقه ومبادئه وإيمانه الأكيد بالعربية والوطن على بنيه فكما اشترك حفنى ناصف فى الثورة العربية، اشترك عصام الدين حفنى ناصف فى ثورة ١٩١٩ مع شقيقه مجد الدين الذى قال لى : إن السر فى تأخر طبع ديوان والده أن شعره وآثاره قد ضاعت أبان الثورة إذ كنت وشقيق قد اشتركنا فيها وكان منزلنا يفتش مرات متعددة . وفى كل هجمة من هجمات البوليس للبحث عنا كانت تحمل آثار حفنى ناصف من بين مايحمل ولا تعود، فكان من الضرورى العودة إلى الصحف فى أكثر من ثلاثين عاماً لنقل المقالات والقصائد . وهى عملية جد شاقة وقد ألف عصام الدين أكثر من ثلاثين كتاباً .

ويعد حفنى ناصف الحلقة الوسطى فى نهضة الشعر العربى المعاصر التى تأتى فى المرحلة التالية للحركة التى بدأها محمود سامى البارودى وسار فيها حفنى ناصف وإسماعيل صبرى وبلغت مداها فى حافظ وشوقى وكانت فى مجموعها تمثل مرحلة التحول عن الشعر القديم إلى الشعر الحديث، هذه المرحلة التى يمثلها خليل مطران ثم العقاد والمازنى وشكرى ثم أبى شادى .

وقد كان شعر حفنى ناصف سهلا رقيقاً مصقول الصياغة يحمل الفكاهة الخفيفة .

وجملة قول جيله وتلاميذه فيه هو ما قاله العقاد : « مامن طالب فى زماننا ولا فى الجيل الماضى إلا وهو مدين للرجل ببعض معرفته وثقافته شاكر له حظا من معلوماته ودروسه » .

* * *

وقد تبادل حفنى ناصف مع معاصريه الأعلام عدداً من الرسائل أمثال شكيب أرسلان ومحمد المويلحى وحمزه فتح الله ، وله رسائل مع الشيخ محمد

عبده وهو قاض فى طهطا ، ومع الشيخ الليثى بمناسبة أهدائه إليه قفصا من عنب ،و مع أحمد سمير أحد زملائه فى تحرير الوقائع .

كما كتب تاريخ حياته وهو طالب فى دار العلوم بناء على سؤال من ناظرها وتلك عبارته : سألت أيدك الله عن منبت شجرى ، ومبتدأ خبرى ، وحال تربيتى فى ماضى أمرى ، وكيفية سيرى ، فاعلم أن مسقط رأسى والأرض التى كان بها غرسى هى بركة الحج التى ترد إليها الوفود من كل فج ، بيد أن أبى جاور مولاه قبل أن تقر بى عيناه ، وشرعت فى حفظ الكتاب وبحمد الله بين الأتراب كالشهاب ، وسبقت الأقران فى القرآن إلى أن أذن الله بالإنتقال إلى محط الرجال ... الخ .

وقد عده صاحب مقال « طبقات الشعراء » الذى نشرته مجلة سركيس سنة ١٩٠٦ فى الدرجة العاشرة بين الكتاب ، وقدم عليه شوقى والبكرى والبارودى وصبرى وحافظ والمنفلوطى وشكيب أرسلان والكاظمى ومطران ، ووصفه بقوله : جرى فى الشوط الأول حيث كان ميدان الشعر قصير المدى،فبز نديم وسمير والزناتى ومفتاح وأمثالهم ، حتى إذا ابتدأ الشوط الآخر نال منه الأعياء فجاء مصليا بعد أن كان مجليا وأحسن بيت أعرفه هو مطلع قصيدته فى رثاء المفتى « الشيخ محمد عبده » :

لم لا تجيب وقد دعيت مرارا يكفى سكوتك أربعين نهارا

وفى مقال «طبقات الكتاب» سنة ١٩٠٩ فى مجلة سركيس أيضاً — وكاتب المقالين فى الأغلب هو مصطفى لطفى المنفلوطى — جعله السادس فى الترتيب ، مسبوقا بحافظ ابراهيم والمويلحى وتوفيق البكرى وابراهيم اليازجى ،وقال: لولا تبذله — استعمال الكلام المبتذل — فى أسلوبه لكان بديع هذا الزمان.

غير أن شكيب أرسلان وصفه بأنه سيد الأدباء فى عصره ، وقال أنه سمع اسمه أول مرة من فم الشيخ محمد عبده عندما كان منفيا فى بيروت ، وإن أبرز أعماله هو اهتمامه باللغة العربية واستنتاجه أن يكون منشأ

إختلاف اللهجات بين الأهالى فى الأمصار والقرى راجعا إلى اختلاف القبائل فى الجاهلية وبذلك فتح حفنى ناصف بابا صار يمكن الناس بعده أن يلجوه ويفضوا منه إلى فناء فسيح » وقال شكيب أنه كان ممن فكر فى هذه المسألة : « فلما رأيت رسالة حفنى ناصف مضيت فى التنقيب عما نقب هو عنه ، فلما دعيت إلى مؤتمر المستشرقين فى ليون ١٩٢١ خطبت باللغة الفرنسية وجعلت موضوع خطبتى فى ذلك المؤتمر « علاقة التاريخ باللهجات العربية » وقال : إن حفنى ناصف كان من رؤوس الأدباء فى الحقبة الواقعة على رأس القرن الرابع عشر للهجرة « وكنا نسمر عند الشيخ محمد عبده وغالبا عند سعد أفندى زغلول وكان من كبار المحامين وكان منزله فى الركن المقابل لباب سراى عابدين » . وأشار شكيب أرسلان إلى الجهد الذى بذله حفنى ناصف فى استنباط طريقة سيدنا عثمان بن عفان فى رسم المصحف الشريف وأنها استغرقت منه سبع سنوات .

* * *

ومنزلة حفنى ناصف فى مجال الجامعة وبناء الشباب المثقف مقدورة من كل تلاميذه ، الذين كانوا يرونه موجها ومعلما لهم فى داخل الجامعة وفى جلساتهم معه على قهوة كوبرى قصر النيل أو قهوة باب الخلق ، وكان يومها قاضيا فى طنطا ، يلقى دروسه مساء الخميس من كل أسبوع، قد خلف أحمد زكى الملقب بشيخ العروبة فى تدريس مادة « تاريخ الحضارة » وعرف بلين الجانب وارتفاع الكلفة .

ولحفنى ناصف فى مجال الأدب الشعبى والفكاهة وجلسات الظرفاء ، فقد عالج الأدب الشعبى لمصر وخلف آثار عديدة من الزجل والأغانى والفوازير والألغاز وجرت بينه وبين أبناء عصره مطارحات زجلية ، وقد إشترك فى نظم بعض الأغانى التى لحنها وغناها عبده الحمولى ومحمد عثمان وكان صديقا للموسيقار حسن أنور .

وله فكاهات وطرائف منها أن له صديقاً أسود ، كان إذا لقيه قال له: أهلا بالسواد الأعظم .

كما ندبته المحكمة المختلطة لوضع تقرير عن حقوق المؤلفين والملحنين ، فأعد تقريرا هاما يكاد يكون الأول من نوعه فى هذا المجال ، وكان ذلك عام ١٩١٥ وكما علم فى كلية الآداب طائفة من الشباب الذين أصبحوا أعلاما وقادة ، كذلك علم فى كلية الحقوق .

* * *

وبالجملة فقد كان حفنى ناصف قاسما مشتركا على مختلف نشاطات عصره ، وعلى معاهـــد التعليم تعلما وتعليما من الأزهر إلى مدرسة القضاء ، ومن وزارة المعارف إلى الجامعة ، ومن كلية الحقوق إلى كلية الآداب . ومن اللغة إلى القرآن إلى القانون ومن الشعر إلى النثر ومن الجد إلى الفكاهة . ومن التدريس إلى القضاء .

اسمه حفنى بن اسماعيل بن خليل بن ناصف

(توفى ١٩١٩)

من مؤلفاته وآثاره :

تاريخ الأدب وحياة اللغه العربية
مميزات لغات العرب
المقابلة بين لهجات سكان القطر المصرى
ديوان حفنى ناصف
رسائله فى الهلال (أبريل ١٩٠٥)

— ١٧ —

حمزة فتح الله

(١٨٤٩ — ١٩١٨)

إحتل اسم الشيخ حمزه فتح الله مكانا بارزا فى مجال «العلاقة بين البلاغة والتقعر» فى اللغة العربية ، وكان لذلك موضع التندر من الصحف والكتاب ، وربما حدث هذا نتيجة لأمرين : (أحدهما) أنه كان المفتش الأول للغة العربية ، فى وزارة المعارف زمنا طويلا و(الثانى) لأنه حقق القاموس اللغوى « مختار الصحاح » وقد ألقيت حوله ظلال من الشك بأنه نظم قصيدة أطلق عليها اسم « قصيدة أشكوك كوك » وكان الشاعر إسماعيل صبرى قد زار الشيخ عقب عودته من رحلة إلى مؤتمر المستشرقين عام ١٨٨٩ وجرى الحديث حول السفر وأعبائه ، فقال الشيخ حمزة : أنها رحلة موفقة لولا ما لاقيناه أحيانا من عنت كوك (يقصد شركة كوك) وأنا أشكوك كوك ، وقد أثارت هذه العبارة الشاعر إسماعيل صبرى واتخذها موضعا للمداعبة فنظم قصيدة معقدة الألفاظ على لسان الشيخ وأرسلها إلى إحدى الصحف فنشرتها ثم كذب الشيخ حمزة نسبتها إليه ولكنها كانت قد جرت على كل لسان وناد ، ومن هنا بدأ هذا الطابع من التندر الذى ارتبط بالتقعر فى اللغة العربية ، ووسعته الصحف الفكاهية وأضافت إليه [١] .

أما الشيخ حمزة فهو أحد أعلام هذه الفترة التى ارتبطت بالثورة العرابية وما بعدها ، وهو أحد البارزين من رجال القرن التاسع عشر ، ممن درسوا فى الأزهر وتوفروا على الآداب واللغة ، ثم اشتغل بالصحافة فى مصر وتونس ،

---

(١) اقرأ تفصيلا فى هذا الشأن فى كتابنا (الشرق فى فجر اليقظة) .

وشارك فى بعض المؤتمرات التى عقدت فى أوربا ودعيت إليها مصر وله عديد من المؤلفات ، وقد عمل مدرسا فى دار العلوم وكان من مقدمة روادها ، ثم استقر فى نظارة المعارف مفتشاً أول للعلوم العربية .

وفى حياة حمزه فتح الله حادث هام ورحلة ، أما الحادث فهو موقفه من الثورة العرابية ، وهو موقف لا يشرف كثيرا ، فقد اتصل بالخديو وحرر جريدة البرهان وأعلن أنها صحيفة الخديو ، ودعا فيه دعوة رجعية تغاير التيار الوطنى وتعارضه ، كما أصدر جريدة الاعتدال على هذا النسق فكان موضع سخط الجماهير ، ولعل ما وجه إليه من تندر وسخرية إنما كان مرتبطاً بأحاسيس الشعب خلال هذه الفترة ، وكان يستهدف القصد من قدرة عن طريق إسقاطه فى مجال تبريزه .

وللشيخ حمزة فتح الله قصيدة ذات طابع متخاذل ، هى قصيدة «اليأس» التى نظمها بعد الاحتلال واستهلها بقوله : « ألزم باب ربك واترك كل دون » وقد ترددت هذه القصيدة على ألسنة الناس فى هذه الفترة وشاعت على نحو واسع ، ووجدت فيها نفوس الناس ذلك العزاء السلبى ، وذلك بعد أن فشلت الثورة العرابية وهزم عرابى وحوكم ونفى وأصحابه ، وحكم على الألوف من أنصاره وأعوانه ، وفى ظل سيطرة النفوذ الإنجليزى فى أيامه الأولى على البلاد ، فى ظل سحابة قاسية من اليأس وانهيار كل معانى الحرية وتدهور الآمال ، وانقباض النفوس بالحزن والضيق والهزيمة .

* * *

أما رحلته فقد كانت إلى تونس — وهو فى الأغلب من سلالة تونسية — حيث عمل محررا بضع سنوات فى جريدة الرائد التونسى ، غير أنه لم يلبث أن عاد إلى مصر ، قبيل الثورة العرابية .

وقد شارك الشيخ حمزه فتح الله من بعد فى مؤتمرات المستشرقين فى فينا ١٨٨٦ ، واستوكهلم ١٨٨٩ .

ومن أبرز آثاره رسالته التى قدمها إلى المؤتمر العلمى الشرقى فى استوكهلم والتى أطلق عليها إسم «باكورة الكلام على حقوق النساء فى الإسلام» وضمنها دراسة عن بعض من نبغ من النساء فى العلوم خلال تاريخ الإسلام ، ومن أحرزن قصب السبق فى المنطوق والمفهوم ، ومن أخذ عنهن جهابذة الرجال من العلماء الأعلام : مثل كريمه بنت محمد بن حاتم المرزويه وزينب بنت أبى القاسم وشهده الكاتبة .

وقد إحتفل فى هذه الرسالة بإبراز موقف الإسلام من المرأة على نحو قصد به إلى « دفع ما يتوهمه بعض الأجانب عن النساء فى شريعة الإسلام» ولم يقف حمزة فتح الله عند بيان الجانب الفقهى أو التشريعى بل تناول جوانب عدة فى هذه القضية، وعنى بالجانب الأدبى فقال : لقد بلغ من عناية العرب بهن أن شعراءهم يرون أن مدائحهم لا تحوز القبول ولا تحظى بالصلات والإيضاح لها بالإسماع إلا إذا صدرت بالنسيب ، واستهلت بالغزل وافتتحت بأنواع التشبيب ، وليس لذلك من سبب سوى وهمهم بأن ميل الرجال إليهن ميل غريزى فى النفوس ، امتزج بالقلوب واقتضته الخليقة والتصق بالإحشاء، فيكون ذكر محاسنهن فى الأمادح داعية سماع القصيد بتمامه والإصغاء إليه ، ومع استحكام العشق فى فطرهم السليمة إلى الحد المعروف فى العذريين كان ذلك مع غاية العفاف وفرط الصيانة وشدة الاحترام ، فقد كانت نساؤهم يفخرن بالعفاف كما تفخر به الرجال » .

وعرض حمزة فتح الله للمرأة والعلم فقال : إن طلب العلم مشترك الوجوب بين الرجال والنساء ، وأن تعليمهن واجب عملا بقول النبى : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وبناء على هذا الأصل الدينى فقد طالما برع منهن كرام أربين فى العلوم على ذوى العمائم ، وتواريخ الأمة عابقة بعبيرهن ذكرا ، زاهية بأخبارهن زهرا ، بل قد خصهن بعض أئمتنا بالتأليف وبعضهم خصص به المحدثات فيهن ، بوجه مخصوص التزمه كصاحب مسند النساء وهو مجلد ضخم التزم فيه مؤلفه ذكر الأحاديث التى

روتها امرأة عن امرأة من غير أن يكون فى سندها رجال إلى سيدنا رسول الله ، أما نوابغهن فى الأدب والشعر والإنشاء وسرعة البديهة فهو بلا ارتياب عديد التراب أو قطر الغمام أو زهر الكمائم . »

وقد لقيت هذه الدراسة تقديرا من أعضاء المؤتمر حتى أن العلامة أحمد مدحت رئيس الوفد العثمانى فى المؤتمر عقب على البحث فقال : إن العالم الشيخ حمزه بسبب مؤلفه المختص بشئون النساء المسلمات وواجباتهن ومالهن من الحقوق قد أحرز المجد ، وحظى بمزيد الشرف ، بحل هذا اللغز وكشف المعمى ، والعثور على تلك الضالة التى لم تزل منشورة لأوربا ، ولم يسبق إلى حل معضلها إلى الآن ، وكلكم يعلم أن أوربا لم توجه أفكارها لدرس ما يختص بالأمور الشرقية إلا منذ عهد قريب ، وإلى ذلك العهد ، ولم تكن أوربا تحسب الشرق إلا صورة مجهولة أو شبحا غير ذى روح ، ولهذا لم توجه عنايتها نحوه ، ولا أجهدت نفسها فى معرفة حقيقته » وأشار إلى أن رسالة «حمزة فتح الله» قد دحضت النظرية التى كان الغرب يذيعها عن أن المرأة المسلمة لم تكن مهمتها غير قضاء أوطار زوجها أو سيدها ، وأنه لو كان ذلك لما أنجبت هؤلاء الأعلام من القادة والعلماء والشعراء والمفكرين وأن الإسلام كما صور الشيخ حمزه فتح الله قد عنى بوضع الأصول فى رعايتهن من رفق ورعاية وتربية وتعليم ، ومما دعا إليه ترجيح ذات الدين على ذات الجمال والحسب ، وعلى ألا تكون الزوجة من القرابة لئلا يخرج الولد ضاويا ، كما دعا إلى حسن الخلق معهن ، واحتمال الأذى منهن والتلطف فى تأديبهن ، وأن التربية فى الإسلام ليست قاصرة على إصلاح الأجسام ، بل تضم تثقيف العقول بالعلوم والمعارف والتربية النفسية .

* * *

وللشيخ حمزه فتح الله مجموعة من المؤلفات منها :

- العقود الدرية فى العقائد التوحيدية .

- رسالة فى الكلمات غير العربية الواقعة فى القرآن .
- التحفة السنية فى التواريخ العربية .
- مقال : إبانة ما للعرب من الفضائل .
- المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية .

وتنتظم مؤلفـــاته : علوم الكلام والتفسير والاجتماع والتاريخ والأدب واللغة .

* * *

ففى مؤلفه «التحفة السنية فى التواريخ العربية» : يتناول حدوث الشهور وتسميتها : فيقول : إن العرب لما وضعت الشهور وافق أوضع الأزمنة ، فاشتق للشهور معان من تلك الأزمنة ، ثم كثر حتى استعملوها فى الأهلة ، إن لم توافق ذلك الزمان : فقالوا : (رمضان) لما ارمضت الأرض من شدة الحر و (شوال) كما شالت الإبل بأذنابها ، وذو القعدة لما ذللوا القعدان للركوب ، وذو الحجة لما حجوا ، والمحرم لما حرموا القتال والتجارة ، والصفر لما غزوا فتركوا ديار القوم صفرا ، وشهر ربيع لما أربعت الأرض، وجمادى لما جمد الماء ، ورجب لما رجبوا الشجر ، وشعبان لما أشعبوا العود .. »

وتمثل بعض مؤلفات الشيخ حمزه فتح الله ، جانب الدراسات المنهجية فى المدارس المصرية ، وأهم هذه الكتب : « المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية » : وقد أشار فى مقدمته أنه كتبه مدفوعا لنصرة اللغة العربية وجريا على المنهج الذى رسمه على مبارك ناظر المعارف ، الذى رسم له منهجا لإلقاء درس عام فى اللغة العربية فى مدرسة دار العلوم .

وقد أمضى حمزه فتح الله ثلاثين عامافى وزارة المعارف(١٨٨٢ — ١٩١٢) وهى فترة من أدق فترات السيطرة الأجنبية على برامج التعليم ، ولم يعرف

أنه عارض اتجاهاً من اتجاهات التعليم ، كما حدث مثلا بين الشيخ عبدالعزيز جاويش من ناحية وبين دنلوب وسعد زغلول من ناحية أخرى ، وقد اكتفى بأن عمل فى حدود المناهج المرسومة وألف كتبه فى مجالها دون أن ينقدها .

أما فى مجال النقد الأدبى فقد كان واحدا من النقاد التقليديين فى هذه الفترة : أمثال حسين المرصفى ومحمد المويلحى . وطريقته فى النقد الأدبى هى طريقة القدماء ، ومنهجه أقرب إلى شرح اللغويات وإعرابها والمقارنة بين قصائد الشعراء التى تجرى فى موضوع واحد ، وقد أخذ عليه النقاد أنه يعطى حكمه قبل أن يقدم البراهين على ما يذهب إليه .

ومقاييسه فى النقد : صدق الكلام ، وجودة التعبير ، وعذوبة الألفاظ وفخامتها .

* * *

عاش حمزه فتح الله فى مجال الدراسات اللغوية والأدبية ، فى دار العلوم وديوان نظارة المعارف فلما أحيل إلى المعاش سنة ١٩١٢ عكف على دراساته حتى كف بصره وكانت وفاته خاتمة جيل من أدباء التقليد .

(توفى ١٩١٨)

من مؤلفاته وآثاره :

باكورة الكلام على حقوق النساء فى الإسلام (١٣٠٨هـ)
المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية (جزآن) .
رسالة فى وسم الإبل والخيل وغيرها عند العرب .
التحفة السنية فى التواريخ العربية .
صحيفتا الكوكب الشرقى ، الرائد التونسى .
رسالة فى الكلمات غير العربية الواقعة فى القرآن .

— ١٨ —

رشيد رضا

(١٨٦٥ — ١٩٣٥)

يمثل السيد « رشيد رضا » نموذجا لمجموعة من الموسوعيين فى مجال الصحافة والفكر العربى المعاصر ، هؤلاء الذين أتاحت لهم فسحة العمر إنشاء صحف شهرية عاشت السنوات الطوال وحوت عصارة العصر كله . وأصبحت من بعد مرجعا أساسياً لكل باحث بحيث لا يستغنى عنها ، فالمنار الذى أنشأه الشيخ رشيد رضا عام ١٨٩٩ قد عاش إلى وفاته (٣٧ سنة) شأنه فى هذا شأن الهلال الذى أصدره جرجى زيدان ، والمقتطف الذى أنشأه الدكتور صروف ، والعرفان التى أصدرها أحمد عارف الزين ، والمشرق الذى حرره الأب لويس شيخو ، فهذه أعمال فردية ضخمة عاشت طويلا وأصبحت مراجع هامة للباحثين تمثل قطاعا حيا له لونه وطابعه فى حياة الفكر العربى المعاصر .

* * *

أما المنار « فقد أصدره الشيخ رشيد فى ظل الأستاذ الشيخ محمد عبده لساناً للإصلاح الإسلامى الذى كان يدعو إليه الشيخ الإمام وعلامة على ذلك الطريق من العمل لتجديد الإسلام وفتح باب الاجتهاد والربط بين الدراسات الإسلامية وبين معالجة قضايا العالم الإسلامى السياسية .

ذلك أن الشيخ رشيد كان قد قدم من الشام فالتصق بالشيخ عبده وتتلمذ عليه وأصدر المنار فى مجال خدمة الدعوة التى يحمل لواءها المفتى ، والتى كان لها دورها الواضح بعد الثورة العرابية والاحتلال البريطانى لمصر ، وكان الإمام قد بدأ برنامجا جديدا للتجديد الإسلامى يتمثل فى تطوير اللغة العربية والدفاع عن الإسلام وتفسير القرآن تفسيرا عصريا يربط بين الإسلام وبين الحضارة

وفى خلال السنوات الست (١٨٩٩ — ١٩٠٥) التى عاشها رشيد رضا فى ظل الإمام . استطاع أن يرسم صورة لمفاهيم الفكر العربى الإسلامى فى خطواته نحو اليقظة والتجديد ، وكان الشيخ رشيد فى هذه الفترة ملتزما بمنهج الشيخ محمد عبده ، موالياً له ، معتنقاً آرائه مرتبطا بأوليائه وخصومه على السواء ، ومن هنا كان موقف الشيخ رشيد والمنار ، هو موقف الترفق بالاحتلال البريطانى ، ومس القضايا التى ترتبط به مسا خفيفا ،وكذلك كانت خصومته لمصطفى كامل والحزب الوطنى ، وخصومته أيضاً للخديو وكان هذا التيار من بعد هو بؤرة المفاهيم التى حملها لطفى السيد فى «الجريدة» وحزب الأمة .

غير أن هذه المرحلة تنتهى فى حياة الشيخ رشيد رضا بوفاة الشيخ محمد عبده لتبدأ مرحلة جديدة مع تطور الأحداث يبدو منها طابع القومية العربية مرتبطا بالإسلام فى ظل الحركة التى انبعثت فى الشام للتحرر من النفوذ العثمانى . ومن هنا وجدت المنار طريقها إلى المشاركة فى هذا القطاع والتبريز فيه ، حتى ليمكن أن يقال إن هذه هى المرحلة التالية لتطوره الفكرى ،فما أن صدر الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ وسقط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ حتى بدأ الشيخ رشيد رضا وله موقف عثمانى عربى مصرى ، هو موقف الدعاة إلى اللامركزية وأصحاب فكرة المؤتمر العربى الأول سنة ١٩١٣ الذى عقد فى باريس .

وقد انتهى به هذا الموقف إلى موالاة الثورة العربية التى أعلنها العرب بقيادة الشريف حسين ثم لم يلبث أن أصبح عضوا فى الحكومة العربية السورية الأولى التى أقامها فيصل بعد إعلان الهدنة للحرب العالمية الأولى . فلما سقطت هذه الحكومة واستولى الفرنسيون على سوريا ، عاد الشيخ رشيد إلى مصر وأعاد إصدار المنار الذى كان توقف ثمة ، حيث بدأت مرحلة جديدة من حياة الشيخ رشيد وحياة المنار . أما هذه المرحلة فتتمثل فى تعلق الآمال بالدعوة الوهابية وحكومة مكة وخلفاء الشريف حسين فى

الجزيرة العربية ، وقد امتدت هذه المرحلة إلى نهاية حياة صاحب المنار .

وكان الشيخ رشيد يجمع بين العمل فى ميدان الفكر الإسلامى والقضايا السياسية فى العالم الإسلامى ، فهو يفسر القرآن ويكمل مراحله بعد وفاة الشيخ محمد عبده ويسير على منهجه وإن خالفه فى بعض آرائه ، فهو امتداد له فى النظرة العامة من ناحية وله من ناحية أخرى طابعه الاستقلالى الواضح فى التفاصيل،ذلك أن الشيخ رشيد رضا لم يكن من خريجى الأزهر أصلا ، ولا هو مصرى الجنسية ، فهو ليس مشغولا بإصلاح الأزهر كلية ، ولا بالقضية المصرية وطنية وحدها، ثم هو إلى ذلك واضح الاهتمام بالحكومات العربية ، وقضايا العالم الإسلامى ، وله فى مجال الدراسات الإسلامية طابعه الذى يختلف عن طابع الشيخ محمد عبده ، فهو أعمق منه فى أبحاث العقائد والفقه والتشريع، ومراجعات المذاهب والأقضية ودقائق المسائل والفتاوى والعلل ، وهو فقيه أكثر منه فيلسوف ، قرأ اختلافات الأئمة والفقهاء ومساجلاتهم ووجوه النظر المختلفة بين المذاهب الأربعة وغيرها من المذاهب، ومن هنا جاءت نظرته أعمق من نظرة الشيخ محمد عبده الذى كان يعالج القضايا بنظرة كلية ويلجأ إلى المنطق والنظرة الفلسفية الشاملة باعتباره مصلحاً إسلاميا يواجه قضية أساسية : هى « إبراز قدرة الإسلام على مواجهة قضايا العصر والحضارة دون التخلف عنها » أما السيد رشيد فقد تحول عن هذه النظرية الكلية ثمة ، واغرم بدقائق المسائل ومراجعة التفصيلات .

* * *

ومن هنا بدأ الشيخ محمد عبده أوسع أفقاً ، بينما بدأ الشيخ رشيد أعمق نظرة . ويرجع هذا إلى الطابع النفسى والفكرى لكل منهما ، غير أن دعوة الشيخ محمد عبده إلى تجديد الإسلام وفتح باب الاجتهاد قد وجدت صدى بعيد المدى فى مختلف أقطار العالم الإسلامى ، ففى كل قطر من يحمل لواءها ويرفع شعاراتها ، غير أن الذى أعطى هذه الدعوة اتساعها وعمقها واستمرارها، إنما هو الشيخ رشيد ومجلة المنار التى تعتبر مدرسة هذه الدعوة وبؤرتها

وقد امتدت بالحياة والأثر بعد وفاة الشيخ محمد عبده ثلاثون عاما كاملة . ومن هنا كان للشيخ رشيد تلك المكانة المرموقة ، والتقدير الأوفى .

وليس لهذا فقط مجال تألق اسم الشيخ رشيد رضا ، وإنما كان هو فى جوهر شخصيته ، وطابع فكره ، عالما ممتازا ، موسوعيا، فقد أحاط بالتراث الإسلامى إحاطة ضخمة ، وعميقة ، مستوعبة : واستطاع أن يهضم هذا التراث ويتمثله ، وكانت له همة ضخمة ، وعزيمة حية ، وجلد لاحد له على العمل ، وصبر لا ينفذ له فى احتمال المتاعب من أجل استمرار مجلته ، فهو يستدين ، ويواجه الصدمات والعقبات ، فلا يزال يواجهها بصمود عجيب ، حتى لا يتوقف العمل ، وهو صاحب أسلوب بليغ سمح، له طابعه ودلالاته ، وله قدرة قوية على الإفاضة والتوسع وتقليب وجوه الرأى ، وتعدد الجوانب ، وعمق النظرة ، فكانت كتاباته مستفيضة ، ولم يقف نشاطه إلى حد إصدار مجلة المنار ، بل لقد حفلت الصحف اليومية بكتاباته فى مختلف المناسبات والقضايا والمواقف ، فهو حى دائما ، يخطب ويحاضر ، ويناقش خصومه ، ويفترع المساجلات ويدخل المناظرات ، وله باع واسع فى الجدل والمصاولة، وقدرة على كسب الرأى العام إلى صفه ، وله سمت أنيق رقيق ، ومواقف ، ومجاملات تخلق له جو الصداقة ، حتى كانت الصحف التى تختلف معه فى الرأى ، تكتب عنه وتجامله ، وتذكره ، وكان هو إلى طابعه الإسلامى ، العربى ، لا يتقوقع فى الآفاق الضيقة ، بل يكتب فى الأهرام ، وتهتم به صحف دار الهلال ، ويشارك فى احتفالات المقتطف ، وقد كان بين الصحف السورية فى مصر تقدير متبادل مهما اختلفت وجهات نظرها .

ومن هنا عاش رشيد رضا مرموق المكانة فى عالم الدراسات الإسلامية والقضايا العربية والإسلامية، وكانت دار المنار دوما حافلة بالأعلام والزعماء، الذين يقدمون إلى مصر من كل مكان فى عالم الإسلام .

* * *

ولقد أرخ الشيخ رشيد لنفسه ورسم مطالع حياته فقال : إنه فطر على حب الإصلاح ، وأنه كان سريع الفهم قوى الحفظ للمعانى والمقولات . وقد طلب العلم فى أول حياته بمطالعة كتب الأدب وكتب النصوص ، وكان أحبها إليه « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى .

يقول « فهو الذى طالعته وكنت أكثر مراجعة فصوله وقراءة بعض أبوابه ،عودا على بدء ، ثم صرت أقرأه للناس ، فكان له أكبر التأثير فى دينى وأخلاقى وعلمى ، وعملى ، ثم صرت أتأثر به تأثير صالح نافع فى أكثره ، ضار فى أقله ، وقد عالجت الضار منه بعد العلم به، فما كان فيه من خطأ علمى فقد رجعت عنه بالتدريج بعد اشتغالى بعلم الحديث .

كما نظم الشعر واشتهر به فى مطالع حياته ، وكانت له سليقة خصبة فى اللغة فقد تعلم على الشيخ حسين الجسر ،عالم الشام وأمامها ، والذى كان له إلمام واسع بالعلوم العصرية .

ويرى الشيخ رشيد للإمام الغزالى فضل عليه « فإنه كان قد علق بنفسى من كلامه فى شرح عجائب القلب ما ضربه من المثل للفرق بين العلم الذى يصل إلى القلب أو النفس من طريق الحواس ، والعلم الذى يتفجر منه بتطهيره من الصفات المذمومة والأفكار الرديئة حتى يكون كالمرأة الصقيلة . بأن مثل الأول كالماء الذى يجرى من السواقى المحفورة إلى حفرة أو بئر يجتمع فيه مع مايحمله فى طريقه من الغثاء والوحل ، ومثل الثانى كماء الينبوع الذى يتفجر من الصخر » .

وقد أشار الشيخ رشيد إلى أنه طلب العلم ليكون معلما ومرشدا ، وأنه من أجل ذلك لم يقصد به مال أو شهرة ، وإنما قصد إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما يعتقد أنه الحق ، وقد اهتدى إلى غايته — بعد قراءة الغزالى — بصحيفة بالعروة الوثقى وأساتذته هم : حسين الجسر ، جمال الدين الأفغانى ،محمد عبده .

ثم كان أن استقر فى نفسه العزم على لقاء جمال الدين الأفغانى «لتكميل نفسه بالحكمة والجهاد فى خدمة الملة» غير أن الأفغانى توفى عام ١٨٩٣ قبل أن يلقاه فاستقر العزم على الاتصال بالشيخ محمد عبده، والهجرة إلى مصر لما فيها من حرية العمل واللسان والقلم.

وقد حقق أمله فوصل إلى مصر عام ١٨٩٨ والتقى بالإمام فى القاهرة بعد وصوله فكان ذلك فاتحة حياته الفكرية فى انطلاقها إلى الآفاق التى كان يتطلع إليها وكان فى سن الثالثة والثلاثين، إذ ذاك.

* * *

وفى ضحوة اليوم التالى (لوصوله إلى القاهرة) ذهب لزيارة الشيخ محمد عبده فى داره بالناصرية واستشاره فى إنشاء الصحيفة التى كان يرغب فى تحريرها وذكر عدة أسماء لها فاختار الأستاذ الإمام اسم (المنار).

يقول: فكتبت فاتحة العدد الأول بالقلم الرصاص فى جامع الاسماعيلى (مارس ١٨٩٨) وعرضتها عليه فارتضى ما كتبته إلا كلمة واحدة وهى تعريف الأمة بحقوق الإمام والإمام بحقوق الأمة فقال ما معناه: أن المسلمين اليوم لا إمام لهم إلا القرآن، واقترحت عليه تفسير للقرآن، ينفخ فيه من روحه، فاعتذر، وظللت أوالى دعوتى، حتى اقتنع وبدأ دروس التفسير فى (١٠ المحرم ١٣١٧) وانتهى منه فى منتصف (المحرم ١٣٢٣) عند تفسير «وكان الله بكل شىء محيطا» الآية ٢٦ من سورة النساء»

وكان قد شرح زهاء خمسة أجزاء فى ست سنين ثم توفى الإمام، فرشح رشيد رضا نفسه فى محرم ١٣١٨ لإكمال التفسير وفى رأى بعض الباحثين أنه فاق أستاذه.

ويروى الشيخ محمد أحمد شاكر: أن الشيخ محمد عبده كان حكيما عظيما، وروحا وثابا ولكنه لم يكن مطلعا على السنة النبوية اطلاعا كافيا، ولا يكون المفسر للقرآن مفسرا حقا إلا بالتوسع فى دراسة الحديث النبوى، والتشبع منه، وقد أتم الشيخ رشيد تفسير (١٢ جزءا) من أجزاء القرآن ونشر

بعض ايات من أول الجزء الثالث عشر ، ويرى بعض الباحثين[١] : « أنه التفسير الأوحد الذى بين للناس أوجه الاهتداء بهدى القرآن ، وأن الشيخ رشيد أوتى من الاطلاع على السنة ومعرفة عللها ، وتمييز الصحيح من الضعيف مايجعله حجة وثقة فى هذا المقام ، وما أرشده إلى فهم القرآن حق فهمه ، فى الرد على الشبهات ، وأقوال الماديين ومسائل العمران والآيات الكونية » ويرى الأستاذ محمد مصطفى المراغى : أن رشيد رضا كان محيطا بعلوم القرآن وقد رزقه الله عقلا راجحا فى فهمه ، ومعرفة أسراره وحكمه، واسع الاطلاع على ألسنة وأقضية الصحابة ، وآراء العلماء ، عارفا بأحوال المجتمع والأدوار التى مر بها التاريخ الإسلامى ، وكان شديد الإحاطة بما فى العصر الذى يعيش فيه ، خبيرا بأحوال المسلمين فى الأقطار الإسلامية ، ملما بما فى العالم من بحوث جديدة ، وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الأديان . وبذلك كان أكبر المدافعين عن قواعد الإسلام ، وأشدهم غيرة عليها ، ولم يكن له مبدأ جديد فى الإسلام حتى يصح أن يقال إن له مذهبا ينسب إليه ، بل كان مبدؤه مبدأ جميع علماء السلف ، وهو التحاكم إلى الله ورسوله » .

* * *

وقد اتخذ الشيخ رشيد رضا من مجلة المنار سجلا لأحداث عصره — وهو عصر حافل — ووقائع حياته ، وهى حياة خصبة عريضة، تعرف فيها بأعلام الفكر والحكم والسياسة فى العالم العربى الإسلامى كله، وخدم قضايا الحرية فى المغرب والجزائر وسوريا والهند . وقد أتاحت له رحلاته خبرة وتجربة ، فقد رحل خمس رحلات إلى أوربا والاستانة والحجاز (مرتين) والهند ، وكتب عن هذه الرحلات صفحات تدخل فى باب دراسة الأدب وفن كتابة الرحلات ، فقد سجل انطباعاته وآرائه ومشاهداته بتوسع ويمكن أن يقال إن تراثه يتمثل فى قطاعات ثلاث :

---

(١) مجلة المقتطف : أكتوبر ١٩٣٥ — أحمد محمد شاكر .

(الأول) مؤلفاته ، وفى مقدمتها « تفسير المنار » ، والوحى المحمدى ونداء للجنس اللطيف ، وتاريخ الأستاذ الإمام ، وله مؤلفات عن الوحدة الإسلامية ، والخلافة ، والسنة والشيعة ، ومناسك الحج ، وحقيقة الربا . وله منظومة شعرية طويلة أطلق عليها « المقصورة الرشيدية » .

(الثانى) مجلة المنار : وهى ٣٣ مجلدا (١٨٩٩ — ١٩٣٥) وتضم أكثر من ١٦٠ ألف صفحة .

(الثالث) رسائله إلى أصفيائه وأصدقائه فى مختلف أنحاء العالم العربى ، وقد استطاع الدكتور أحمد الشرباصى أن يقدم منها مجموعة كبيرة فى اطروحته عن شكيب أرسلان ولديه مجموعة أخرى تضمها دراسته الضخمة عن « رشيد رضا » .

* * *

ويصور الأمير شكيب أرسلان مقدرة رشيد رضا وصبره على كتابة الرسائل فيقول : « لم أكن أرى فى عصرنا هذا أصبر على الكتابة وأجلد على الشغل وأسيل قلما وأسرع خاطرا من الشيخ رشيد فلو وزعنا ما كتبه بقلمه وبخط بنانه خلال حياته على خمسين كاتبا لأصاب كل منهم قسط يجدر أن يجعله فى صف المؤلفين العاملين ؛ وهو لا يضيع دقيقة واحدة من وقته ؛ وأنه يتلقى أكثر من ألفى مكتوب على مدار السنة فيجيب عليها كلها ؛ ويكتب زيادة عليها مائتين إلى مائتين وخمسين مقالا فى دور السنة وينشر من التأليف بضعة آلاف من الصفحات المطبوعة تأليفاً ؛ فلست إذاً لأغبط أحدا من الخلق على شأو بعيد فى الجد ولا محصول غزير من ثمرات الأقلام ؛ ولا ادعى مباراة السيد رشيد فى هذا الشأن ، فقد كان يكتب جميع ما يكتبه بخط أنامله ؛ ومما أدهشنى أن كتابه الأخير الذى كان قبل وفاته بأيام قلائل ؛ وكان يشكو إلى فيه المرض ؛ وهو أيضاً بخطه » .

من مؤلفاته وآثاره :
تفسير القرآن الكريم (١٢ مجلداً) ، تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده (٣ مجلداً) نداء الجنس الطيف ، الوحى المحمدى ، الخلافة ، الوهابيون والحجاز ، شبهات النصارى وصحيح الإسلام ، مجلة المختار ١٨٨٩ — ١٩٣٥ .

— ١٩ —

رفاعه الطهطاوى

(١٨٠١ — ١٨٧٣)

تتمثل فى حياة رفاعه الطهطاوى صورة عصر كامل ، فى ترابطه بين الأزهر وأوربا ، وبين الأدب التقليدى والترجمة ، رمز على التحول وعلامة على التطور فهو اسم بز كل الأسماء فى عصره ، وقاسم مشترك على الحركة الثقافية والنهضة الفكرية فى عصره . وصورة لفجر اليقظة ، يتمثل فى مصر كجناح من أجنحه العالم العربى ، لايماثله إلا خير الدين التونسى فى المغرب ، ولا يسبقه إلا العطار والجبرتى ولايلحق به إلا على مبارك ، ومحمود الفلكى .

وهذه مرحلة فى تاريخ النهضة تسبق قدوم جمال الدين الأفغانى إلى مصر وتمهد لها . وتفرش الطريق أمام حركة تجديدواسعة الآفاق فى فنون الأدب واللغة والصحافة ومجالات الدين والاجتماع والسياسة .

* * *

ويعطى رفاعه الطهطاوى بحياته المليئة بالعمل والحركة صورة نفسه القلقة ذات الحيوية الدافقة ، وإرادته الصلبة القادرة على شق الطريق إلى مجالات التبرز وآفاق النبوغ،فهذا الأزهرى الذى اختير إماما للبعثة يصلى بها، مايلبث أن يسبق أهلها ويصبر على دراسة لغةلم يتعلمها ثم يحلق فى آفاق الدراسة، فلايزال حتى يسبق أترابه ، ويلفت نظر أساتذته ، ويلقى بنظره هنا وهناك ، فيترجم الدستور الفرنسى ، وينظر فى معضلات الحياة الاجتماعية فى باريس، ويعقد المقارنات بين الشرق والغرب ، وبين الفكر العربى الإسلامى وبين الفكر الغربى ، ويسجل كل ماراه ، ويوسع آفاقه بالاتصال بالأساتذه

والأبحاث : فما يزال كذلك حتى يعود وقد فتح لمصر وللأدب وللفكر العربى الإسلامى آفاقا جديدة .

يقول « فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين ، وعزمت على التوجه ، أشار على بعض الأقارب ، والمحبين ، ولا سيما شيخنا العطار ، فإنه مولع بسماع عجائب الأخبار والاطلاع على غرائب الآثار ، أن أنبه على مايقع فى تلك السفره وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ، وأن أقيده ليكون نافعاً ، فى كشف القناع عن محيا هذه البقاع ، فما قصرت فى أن قيدت فى سفرى رحلة صغيره نزهتها من خلل التساهل والتسامح والتحامل ، وبرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل ، ووشحتها ببعض استطرادات نافعة ، واستظهارات ساطعة . وأنطقتها بحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانيـة والفنون والصنائع ، فإن ذلك ببلاد الافرنج أمر شائع ، والحق أحق أن يتبع ، ولعمر الله أننى مدة إقامتى بهذه البلاد فى حسرة على تمتعها بذلك ، وخلو ممالك الإسلام منه ، وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى ألا أحيد فى جميع ما أقوله عن طريق الحق ، وأن أفشى ماسمح به خاطرى عن الحكم باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها على حسب مايقتضيه الحال ، ومن المعلوم أنى لا أستحسن إلا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل السلام وأشرف التحية » .

* * *

وهكذا أبرز رفاعه دوافع غيرته على وطنه وفكره العربى الإسلامى ، حين رأى — نهضة الأوطان ويقظة أقطارها، فتمنى ذلك ، وامتلأت نفسه إحساساً بالشوق إلى أن يوصل إليها مايبعث فيها الحياة . فهو مفكر عربى إســلامى أصيل مؤمن بالقيم الأساسية فى فكر أمته لا يستحسن إلا مااستحسنه ولكنه طامع فى أن يمدها بالأساليب الجديدة والمناهج المستحدثة وأن يمتص لها من الفكر الغربى مايزيد الفكر نا العربى قوة وحياة .

وقد عاد وهو يحمل هذه الأمانة : مفكر عربى إسلامى مجدد ، ينقل

ويترجم فى مناهج التربية والتعليم وأبحاث التاريخ والسياسة ودراسات منوعة ولايتوقف فيها عند الترجمة بل يضيف إليها الفصول التى تحتاج إليه لتضطرد حلقاتها ، أو ينشيء فناً جديداً ، أو يحقق عملا ناقصا .

وقد أتاح له امتداد العمر ، ويقظة الذهن ، العمل والموالاه، فقد أمضى بعد أن عاد فى الثلاثيات من باريس بضعة وأربعين عاما وهو يعمل لم يتوقف عن العمل ، مهما تحول من التعليم إلى الصحافة أو الوظيفة . ومهما انتقل من مدرسة الألسن التى أنشأها إلى تحرير الوقائع المصرية التى عربها بعد أن كانت تركية ، إلى تدريس الفرنسية فى مدرســـة الطب فى أبى زعبل ، إلى مدرسة المدفعية فى طره .

وسواء أكان فى القاهرة أم نقل إلى الخرطوم أم عمل وكيلا للكلية الحربية بعد عودته فمديراً لها أو مديراً لمدرسة الهندسة ، أو مشرفا على قلم الترجمة فى عصر اسماعيل أو عضواً فى قومسيون المدارس ، فإن كل هذه المناصب لم تصرفه عن هدفه الأصيل ، وهو فتح نافذة من الفكر الغربى على الفكر العربى وإنشاء قنطره للثقافة ، تعبر عليها ، وإعداد جيل كامل لهذا العمل بلغ المئات من المترجمين وبلغ إنتاجه الألوف من المترجمات .

أما هو فقد ألف مايقرب من سبعة وأربعين كتاباً منها ماطبع ومازال مخطوطا . ولاشك أن عمل الترجمة عمل شاق ، وأنه يتطلب جهداً مضاعفاً عن التأليف ، أما مؤلفاته فأظهر مميزاتها أنها منوعة ، وأن هذا التنوع يتطلب مزيدا من المتابعة والبحث، والانتقال من فن إلى فن ، ليس بالأمر اليسير ، ومن خلال مؤلفاته الستة عشر تجد فنونا من الدراسات فى الحديث واللغة العربية ، والفقه ، والتراجم ، والرحلة ، وأصـــول التربية التعليم والجغرافيا والهندسة ، والقانون الفرنسى،وكلها أبحاث جديدة كل الجدة تعد كتاباته فيها من الأعمال الرائدة .

ولقد أنصفه بحق : على مبارك فى كتابه الخطط التوفيقية (جـ ٣) — حين قال عنه : كان دأبه فى مدرسة الألسن وفى اختياره للتلامذة من الكتب التى أراد ترجمتها منهم فى تأليفه وتراجمه خصوصاً ، أنه لا يقف فى ذلك فى اليوم والليلة على وقت محدود ، فكان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء أو عند ثلث الليل الأخير ، ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات واقفاً على قدميه فى درس اللغة أو فنون الإدارة والشريعة الإسلامية والقوانين الأجنبية ، وله فى الأول مجاميع لم تطبع ، وكذلك كان دأبه معهم ، فى تدريس كتب وفنون الأدب العالية بحيث أمسى جميع من فى الإنشاءات نظماً ونثراً أطروفة حصرهم ، وتحفة عصرهم ، ومع ذلك هو بشخصه لا يفتر عن الاشتغال بالترجمة والتأليف » .

وهكذا تتمثل حياة رفاعه فى أمرين عظيمين :

١ — التربية وبناء المعلمين والمترجمين .

٢ — التأليف والترجمة فى دأب متصل . وقد أعانه على ذلك إيمان وعزيمة .

وربما تخير لنفسه المواقع الصالحة لصقل النفس وتجديد الحس ، فقد كان يسكن فى وسط الحقول فى طريق شبرا ، بعيداً عن ضوضاء القاهرة ، شبه معزول عن الحياة الصاخبة .

وصف مستر لويس دبلاتر عام ١٨٥٨ عندما زاره فيه فقال : « يسكن رفاعه بك بيتاً ريفياً صغيراً على طريق شبرا يقع على مسيرة عشرة دقائق من الأزبكية ، وهو رجل قصير القامة فى نحو الخمسين من العمر ، تنبه عيناه المتوقدتان عن روحه الحية : وقد عاد عليه قصر قامته — كما يلاحظ هو فى سماحه وظرف — بالضرر أكثر من مرة فى بلد لا يقدر فيه الرجال بقيمتهم الأدبية ، بل بقيمتهم البدنية ،وربما يعنى هذا مالقى رفاعه من متاعب ومنافسات وصعاب وما لقيت آراؤه من معارضة فقد شق طريقاً جديداً

ودعا إلى تحرير المرأة تعليمها ، ودعا إلى حق الشورى ، ونافس المتصدرين فى مجالات التعليم ودوائر الدولة ، فكانت له خصوماته مع رجال الأزهر من ناحية ومن خريجى البعثات أمثال على مبارك وغيره من ناحية أخرى . وقد كان هذا طبيعيا فى هذه الفترة وبالنسبة لرجل رائد يقوم بحفريات جديدة غير مألوفة .

ولعل هذا مصدر نفيه إلى السودان ، فقد أشار غير مصدر إلى أن عباسا ، قد أزعجه ماجاء فى رحلته المسماه «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» وكان قد أعيد طبعه للمرة الثانية وقد أشار فيه إلى الدستور الفرنسى الشورى وتقييد سلطان الأمراء ، وأشار آخرون إلى أن ذلك كان نتيجة لعودة على مبارك من أوربا ومنافسته فى مكانته حتى قربه عباس وأبعد رفاعه ، فلما جاء سعيد قرب رفاعه وأبعد على مبارك إلى القرم .

وقد أشار رفاعه إلى هذا الموقف فقال إنه سافر إلى السودان بسعى من بعض الأمراء بضمير مستتر ، وفى قصيدة له كشف عن أن خصوما سعوا ضده بألسنة حداد ، غير أن رفاعه وهو الرجل الملىء بالحيوية المتطلع إلى هدفه الذى ملأ عليه حياته وفكره ، لم يستسلم للنفى ، واستأنف حياة فكرية جديدة ، فقد تفرغ لعمل ظل يؤجله سنوات طويلة ، ذلك هو ترجمة قصة تليماك التى أطلق عليها :

« مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك »

وقد أشار فى مقدمتها إلى ما كان يحسه وهو فى منفاه من ألم ممض ، فقال : « وإنما فقط لما توجهت بالقضاء والقدر إلى بلاد السودان ، ولبس بماقضاه الله مفر ، أقمت برهة خامد الهمة ، جامد القريحة ، من هذه الملة ، حتى كان يتلفنى سعير الإقليم الغائر بحره وسمومه ، ويبلغنى فيل السودان الكاسر بخرطومه ، فما تسليت إلا بتعريب تليماك وتقريب الرجا بدور الأفلاك » .

* * *

والحق أن رفاعه رائد متقدم فى مجالات متعددة أهمها :

* الترجمة
* الصحافة
* مباحث الدستور
* تعليم المرأة
* الأزهر
* التاريخ والجغرافيا
* الأدب وصحافة الأدب
* التأليف
* التعليم والتربية
* الرحاله
* مدرسة الألسن .

فأى فن من هذه الفنون أو باب من هذه الأبواب ، لابد أن تجد لرفاعه مشاركة فيه ، إن لم تكن ريادة وحفريات جديدة . ربما لم يسبق إليها ، وهو بالجملة معلم فى كل مجالات الفكر العربى المعاصر ، أتاحت له الفرصة أن يعمل فى كل هذه المجالات دون تخصص فى أيها ، على ذلك النحو الموسوعى الذى كانت تمليه الضرورة . فهو حريص على أن يتقدم فى مختلف مجالات الثقافة ، دون أن يصل فى أيها إلى الذروة ، أو الأعمال البعيدة ، وربما أوفى فى مجال الترجمة إلى الغاية، فهى العمل الذى استمر خيطه دون توقف . ويتسم مذهبه فيها بتقديم الجوانب الجديدة ، وهو فى نفس الوقت يقوم بتقديم العلوم والفنون العالية فلا يترجم — كما فعل من لحقوه — القصص المكشوف ، أو كتب الفلسفة المادية ، أو النظريات التى تثير الشكوك والريب .

وهو يعمد إلى منهج دقيق فى ترجمته كما فعل فى كتابه : «قلائد المفاخر فى عوائد الأوائل والأواخر»، إذ اتجه إلى تعريب الأسماء الأفرنجية ورتبها على حسب حروف العجم ، وضع لها اسماً مأخوذاً من اللفظ الأفرنجى بعد أن صقلها صقلا عربياً ، يقول : وقد شرحنا الكلمات الغربية التى توجد فى هذا الكتاب وعربناها بأسهل ما يمكن أن تصير على مدى الأيام دخيلة فى لغتنا كغيرها من الألفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية ، ولو صنع

نظير ذلك فى كل كتاب ترجم لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء ، ونظمها فى قاموس مستقل على سائر غريب الألفاظ المستحدثة التى ليس لها حروف أو مقابل فى لغة العرب ، وهو بهذا يرسم منهجا دقيقاً يعد من أقدم مناهج الترجمة فى الأدب العربى الحديث(١) .

* * *

وهو فى دعوته إلى تعليم المرأة وتحريرها ، يربط بين مفاهيم الفكر العربى الإسلامى وبين روح العصر : «إن المرأة من أجمل صنع الله القدير ، قرينة الرجل فى الخلقة ، والمعينة له على تدبير أمره ، والماسحة بيدها همومه وآلامه . ولكنها تمتاز عنه بجسم ألين ، وألطف شكلا . لا يؤهلها لأن تشاركه فى الأشغال الشاقة ، وبنية جسمها على الرقة واللين ، توجب كونها ألطف من الرجل طبعاً وأرق حاشية .. فإذا كانت الأنثى فى عقلها الغريزى ذات معارف كافية وطرائف شافية ، زادها عقلها كمالا على ماتعرفه ، وبما فيها من الذكاء تدرك حقائق الإشارات ودقائق الكتابات ، ورقائق التوجيهات والتلميحات ، وتؤول المعنى الذى تسمعه بأحسن التأويلات وللتعليم أثر قوى فى إسعاد بيت الزوجية ، فالتعليم يخلق التناسب والتجانس بين الزوجين ، وأن آداب الفتاة ومعارفها تؤثر كثيراً فى أخلاق أولادها ، ومن العلم يهيىء للمرأة سبيل العمل . . »

ولا شك أن عبارات رفاعه فى حديثه عن المرأة وتعليمها ودورها يكشف عن سماحة هذه الشخصية وغناها واتساع آفاقها ، هــذا الصفاء النفسى الذى هو طابع النفوس الطموحة القادرة على العمل وأصحاب العزائم ، والمجددين وبناة الفكر فى الأمم ، فصورة رفاعه من خلال مفاهيمه الاجتماعية والمتصلة بالمرأة تعطى الجانب الآخر لحياته الفكرية المثابرة على العمل من أجل اغناء الأدب العربى واثرائه .

---

(١) راجع «رفاعة الطهطاوى المترجم» فى كتابنا : تطور الترجمة فى الادب العربى المعاصر.

فهو « إنسانى » النزعة ومنهجه فى التربية والتعليم « منهج الدعاة والأئمة الذين عرفهم الفكر العربى والذين استطاعوا بقوة شخصياتهم وسماحتها وعمقها أن يجمعوا حولهم التلاميذ والأتباع من الذين شغفوا بشخصية الرائد ، وكان نتيجة هذا كله، ذلك العمل الضخم ، الذى صدر عنهم ، والذى ما كان لولا شخصية رفاعه وحبه وسماحته وإنكار ذاته ، حتى أنه كان لا يقبل أن يضع اسمه على عمل إلا بعد أن يشير إلى الذين شاركوا فيه معه وأسهموا فى جزئياته . .

وقد رسم رفاعة منهجا للتربية، قائماً على مزيج رائع من المقومات الأساسية للفكر العربى الإسلامى والحضارة العصرية ، فقال إن للنهوض بالمجتمع وسيلتان:

الأولى « معنوية » ، تقوم على تهذيب الأخلاق والتأديب بآداب الدين ، والثانية « مادية » تقوم على استغلال الثروة والعمل على رفع مستوى المعيشة . ومما قاله : أن سفور المرأة لا يجلب الفساد بطبيعته ، وإنما ينشأ الصلاح والفساد من التربية : صالحة أو خاطئة ، ويشير إلى اشتراك المرأة فى المجتمع ويرى أنه « كلما كثر إحترام النساء عند قوم كثر أدبهم وظرافتهم فعدم توفية النساء حقوقهن ، فيما ينبغى لهن الحرية فيه ، دليل على الطبيعة البربرية » كما دعا إلى محاربة الخرافات الاجتماعية وذكر أثر تربية البنات فى بناء الأسرة فقال : « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج » .

* * *

وبعد وفقد ولد رفاعه فى بلدته طهطا، ثم أتيح له أن يتم تعليمه فى الأزهر ويلتقى بأستاذه المستنير الشيخ حسن العطار الذى اختاره أماما للبعثة التى قصدت إلى فرنسا ١٨٢٦ فأمضى فى فرنسا ست سنوات ، ومنذ عاد بدأ حياته الفكرية فى مجالات العمل المختلفة «التعليم: الصحافة: الترجمة: التأليف» ولم يقع فى خلال هذه الحياة من أحداث تغير مجراها غير هجرته إلى السودان التى استمرت أربع سنوات (١٨٥١ — ١٨٥٤) وقد ظل حتى وفاته عاكفاً على أبحاثه

وترجماته التى مازال القدر الكبير منها مخطوطا لم يطبع ،وكان قد شغل فى آخر فترات حياته بالإشراف على مجلة روضة المدارس (١٨٧٠ تقريباً) وذلك قبل وفاته بثلاث سنوات . وقد اشترك فيها على مبارك وعبد الله فكرى وحسين المرصفى ومحمد قدرى ومحمود الفلكى وأحمد ندا وصالح مجدى وعبد الله أبو السعود وحسونه النواوى وعبد الهادى نجا الإبيارى وحمزة فتح الله،وهم جل الرجال المبرزين فى مجال الحياة الفكرية خلال هذه الفترة ولم يتخلف رفاعه عن ميدان من ميادين القلم حتى نظم الشعر ، فله نظم كثير ، وإن لم يكن الشعر جل همه وله فى ذلك قوله :

وما نظم القريض برأس مالى   ولا سندى إليه ولا سنادى

ولم يفت رفاعه أن يكتب فى كل القضايا التى تشغل مصر والرأى العام حتى أن له نصوصاً عن قناة السويس أكد منها حق مصر ، وقال إنها يجب أن تقوم لمنفعة مصر ، كما أن له كتابات فى مهاجمة الإقطاع والإستعمار فى الجزائر .

من مؤلفاته :

المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين ، قلائد المفاخر فى عوائد الأوائل والأواخر ، مواقع الأفلاك فى مواقع تلماك ، مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية ، تلخيص الإبريز فى تلخيص باريز .

— ٢٠ —

زين العابدين السنوسى

توفى ١٩٦٥

الحق أن زين العابدين السنوسى من أبرز كتاب المغرب العربى منذ الثلاثينيات وما قبلها ، إلتقينا به فى كتاب (الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر) الذى أصدره عام ١٩٢٧ الذى كان استهلالا لموسوعة كبيرة تهدف إلى « دارسة الأدب التونسى اليانع فى جميع الأعصر الإسلامية منذ دخول العرب إلى يومنا هذا ، تخليداً للنبوغ والعبقرية التونسية التى مانئت الدرة الميمونة فى تاريخ الآدب العربى الخالد »

وقد قسم كتابه إلى ثلاث دراسات:

- الأدب التونسى فى العصر الذهبى للعرب .
- الأدب التونسى فى العصور الوسطى .
- الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر .

ولا ندرى ماذا أنجز الأستاذ زين العابدين من موسوعته إلا ما قرأنا منها وهو الجزء الأخير من هذا الكتاب الوحيد الذى يوجد فى مكتبة معهد الدراسات العربية بالقاهرة ويحمل اسمه .

وكان قد أصدر كتابه هذا عن الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر فى جزئين .

أما الجزء الذى بين أيدينا فيضم تراجم الشعراء : محمد الشاذلى خزنة دار ، أبوالحسن بن شعبان ، حسين الجزيرى ، سعيد أبوبكر ، صالح النيفر ، محمد الفائز ، الهادى المدنى ، محمد المكى بن الحسن ، أبو القاسم الشابى ، أحمد خير الدين ، محمد مناشو ، سالم الأكودى ، على النيفر .

وقد أهدى الكتاب إلى والده « محمد السنوسى » أول صحفى عربى فى تونس وفى المغرب كله ومحرر جريدة (الرائد التونسى) التى صدرت عام ١٨٦٤ وثانية الجرائد العربية الإسلامية فى العالم ، وفى إهدائه عبارة أسى وحزن ، فقد مات والده قبل أن يراه ويعايشه يقول : إلى والدى الذى لم أرشخصه فى حياتى وأن لم يفارق بصيرتى طرفة عين، إلى الذى ألهمنى العمل بما جمعه من آداب أسلافه ومعاصريه ، فقد قضى وتركنى صبياً مرضعاً ، فلم أكبر إلا شاعراً بواجبى إيصال حلقات سلسلة الدهر ، اعترافا بقبول السير فى منهاجه وتعقب خطواته .

* * *

والحق أن زين العابدين السنوسى كان استمراراً لأبيه فى منهجه واستمراراً لأسرته التى عرفت بالعلم والفضل ، فجده أبو عبد الله السنوسى أصله من بلدة (الكاف) وهو أول من قطن فى تونس لطلب العلم، حتى كان من أعيان علمائها ، وتولى خطة قضاء (بنزرت) ثم قضاء (باردو) ثم قضاء الجامعة بتونس ، ووالده محمد السنوسى « ١٢٦٦ — ١٣١٧ هـ » ولد بحاضرة تونس وتولى فى أول صباه تدريس العلم بزاوية سيدى الهياجى ، ثم تولى تحرير جريدة الدولة الرسمية (الرائد التونسى) وقد عرف بالكرامة وصدق الوطنية ، حتى أنه فارق جريدة الرائد فى اليوم الثالث للاحتلال الفرنسى حتى لا يكتب مالا يرضاه ضميره، وقد ألف كثيراً وكتب كثيراً، وله فى الأدب (مجمع الدواوين) جمع فيه عصارة دواوين متأخرى شعراء التونسيين وهو فى عدة أسفار كما جمع ديوان الشاعر محمود قبادو ، وله تاريخ خصة بقضاة تونس وأئمة جامعها الأعظم ، أسماه «مسامرة الظريف بحسن التعريف» كما نظم الشعر فى العروض والقوافى، وله رحلتان إلى الحجاز وإلى باريس أسماهما: «الحجازية والباريسية ، ووصف قلمه «بأنه رطب اللسان يترشح لكتابه مايعن له ، فلا يتهيب أى موضوع» وقد وصفه أحد مؤرخيه بقوله : قيل (إن ما يكتبه هو من خطرات اليراع) يريد أنه لا يحتاج إلى أعمال الفكر إعلاما بقوة

عارضته ، وذلك بتعجله فى محرراته ، وله تضلع فى التاريخ ، أخبرنى أنه لما وصل إلى بيروت صادف أن جمعية دائرة المعارف كانوا قد وصلوا إلى ترجمة الأمراء الحسينيين فالتمسوا منه أن يكتب لهم تاريخهم فأملاه وأدرجوه بنصه فى دائرتهم ، وكان فصيحاً بشوشاً لين العريكة متحبباً إلى الناس وله قصيدته النونية التى سماها « الفريدة فى المخترعات الحديثة » .

فى هذا الجو المعطر بالعلم والأدب والشعر نشأ «زين العابدين السنوسى» فاقتفى أثر والده العظيم فبدأ حياته الأدبية بانشاء الصحف والمطابع وكان ذلك على أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى فتكون له مطبعة باسم « مطبعة العرب » وأصدر نشرة شهرية على طراز مجلة « البدر » فى صورة كتاب له أجزاء باسم « العرب » فلما منعت الحكومة رواجها بعد العدد الرابع ، مضى يضع على كل عدد منها اسما جديداً ثم أصدر مجلة « العالم » فى يناير ١٩٣٠ وقد وصفت بأنها كانت « رائدة النهضة الفكرية ، وسجل التطور الأدبى » فقد أولت اهتماما كبيراً للنهضة الأدبية فى المشرق والمغرب وعرفت بأحدث الكتب فى الأدبين العربى والفرنسى ، وعنيت بنشر إنتاج الشباب الجديد فى تونس ، وترجمت عشرات من القصص والدراسات .

ومن عجب أن الرجل الذى بدأ حياته على هذا النحو لم يلبث بعد ثلاثين عاما وبعد استقلال تونس أن ولى المطبعة الرسمية عام ١٩٥٦ وحل محل والده الذى أقصاه الاستعمار الفرنسى عنها فكان هو أول وطنى يديرها بعد الاستقلال .

وقد استطاع زين العابدين السنوسى أن يقدم فى هذه الفترة عشرات من المؤلفات فى مجال الأدب والتاريخ كانت هى علامات اليقظة للفكر العربى فى تونس والجزائر ومن أهمها بلاغة العرب فى الجزائر لزميل صباه عثمان الكعاك (١٩٢٧) وموجز التاريخ العام للجزائر أيضاً بقلمه وكتب أخرى فى هذا المجال .

ولا يقدر أثر هذه المؤلفات إلا من عرف كيف كان الاستعمار الفرنسى يقاوم لغة العرب وتاريخهم ويقذف فكرهم بعشرات من الدعوات والنظريات والشكوك فكان إحياء مثل هذا التراث والتعريف بهذه الآثار فى مجال الأدب والتاريخ عملا بطوليا. وجهاداً ضخما بعيد المدى خاصة بالنسبة للجزائر التى ركز عليها الاستعمار وحاول القضاء على عروبتها وقوميتها وإسلامها، ومن هنا كان خطر الكلمة المكتوبة فى مجال الأدب والتاريخ، ومن خلال عبارات (زين العابدين السنوسى) التى كان يقدم بها هذه المؤلفات تبدو صورة فكره باهرة، وقدرته على الأداء وعمق الفهم والتعبير واضحة.

* * *

فهو فى عام ١٩٢٧ يلقى نظرة على الأدب والطباعة والتاريخ تكشف عن مدى تطور عقليته وقدرته على تقريب أساليب النهضة الفكرية العصرية من التراث العربى الإسلامى على نحو لم يعرف كثيراً فى المشرق العربى فالأدب عنده « لم يعد نمارق لفظية يجمعها البليغ فى شطرتين ثم يتسلسل فى تأليف الكلم المناسب حتى إذا أتمه وجده حسنا، فالزمان قد دار وابتعد عن هذه المرتبة إبتعادا شاسعا ونبا الذوق عن تلك المعالم فأصبح الشعر حديث النفس، وأنه القلب، والأديب لا يمكنه أن يبتعد عن حالته الشخصية فى أدبه ومطارقاته وخلجات الضمير وهو وليد وسطه والبيئة التى يعيش فيها، بل إن لتربية الإنسان وإستعداد النفس أثراً هائلا حتى فى وصف المعانى وتخير ألفاظها.

ومهمة الناقد أو المترجم — عنده — هى ربط الأوليات فى الشخص المترجم مع الإعتناء بأهم المصادفات التى اعترضته، فالاستهواءات التى استمالته يقول: «هم يظنون أن ترجمة الشاعر أو الناثر يكفى فيها الإتيان بتحقيقات دقيقة عن مولده ومقره وأشباه ذلك متناسين أن كل تلك الأوساط التاريخية بعموميتها وخصوصيتها قد تكتنف التوأمين فينشئان على طرفى نقيض أخلاقا وأدبا، إذن فتلك الأوليات إنما هى مادة الترجمة لا روحها ..»

وعنده أن طبع كتاب يستدعى شيئين هما « المادة والذوق »، المادة المتعلقة

بالورق — والغلاف ، والذوق فى إتقان الترتيب الطباعى والتنظيم،وعنده إن الطباعة هى الكنف الحصين للأفكار .

* * *

وفى مجال البحث التاريخى يبدو نضج فكره وفهمه حين يقول : « إن عقلية الأمم لم تعد تشرئب إلى معرفة الأسباب النفسية للإنقلابات التاريخية فحسب ، بل أصبحت تستنقص كتب التاريخ التى لا ترى فيها الوثائق الكافية والمرافق الكاملة للاستيعاب بالنظر البسيط والمراجعة الصغيرة ، فلابد للمؤرخ اليوم من الجداول الواضحة والخرائط لمختلف الاعصر ولا يكون كتابه مستوفى إذا كان خلوا من الرسوم والمناظر الصريحة ، على أن تجديد التاريخ وسبكه على العقلية العصرية ليس من الأعمال الهينه البسيطة ، بل يمكن أن ينسبك قبل بضعة عشرات سنين يمضيها المجددون فى الملاحظة والنقد والتعبير . يقول هذا عام ١٩٢٧ ويعرض لتاريخ الجزائر وما يحتاج إليه من دراسة ليكون وسيلة إيقاظ أمة فيقول : « إن تاريخ أفريقية وبالأخص تاريخ الأمة العربية الجزائرية لا يزال بكرا ، بل أنه مسبوك على عكس ما يجب أن يطلبه ابن البلاد من أمته ، فان كثيرين من علماء الأمة المحتلة عملوا على تشويه وتجسيم النواحى السود منه وإظهاره ككتلة مربعة من السواد الفاجع المحزن لتنفير الناشئة من ماضى آبائهم حتى يزوروا عنه أمام المحتلين الذين قضوا مائة سنة أو أكثر فى تذويق تاريخهم وتنميقه، ليس بالمعقولات فقط ومظاهر المدنية بل حتى بالخرافات والأساطير وقد برعوا فى تناسى مالا يعجبهم من ماضى آبائهم ».

* * *

ولا ينسى زين العابدين السنوسى أن يعاتب الكتاب الذين كتبوا عن الأدب العربى — وأغضوا عن المغرب وتونس،وأشار إلى أحمد ضيف وطه حسين ولكنه عاد فاعتذر عنهم فقال : « الظاهر أن التغافل أثر من آثار

التشتت السياسي الذى أوجدته الطوارىء الاستعمارية فى القرن الأخير ، وإلا فليست نسبتنا للعربية أبعدمن نسبة الأندلس أو مصر ، ولا أن علاقتنا بالشرق العربى أضعف من علاقة أى مقاطعة من مقاطعات بلاد العرب اليوم سواء من جهة التاريخ أو الاجتماع ، وقد بلغ التشتت والتناكر بأبناء العربية أن أصبحت الصحافة العربية لا تكاد تهتم بنا اهتمامها بمملكة الحبشة ولا تتطلع لأخبارنا تطلعها لحفلات السباق والزحلقة على الثلوج سويسرا والنرويج . وأشار إلى أن هناك أغلاطا فاحشة فى كتابات المصريين عن تونس حتى أن أحدهم ذكر مدينة « بنزرت » فى كتابه النخبة الأزهـــرية (بزرطه) وهى أكبر مراسى المملكة التونسية ، وقال إن ذلك نتيجة حتمية لاعتمادهم على المؤلفات الأجنبية التى لا يدونها الأجانب لا بأقلام الغرباء التى لا تكاد تخلو من الغرض الاستعمارى المتمثل فى روح الاستنقاص ، وعندهم إن تعميم الاحساس بالالتماس التاريخى والوحدة اللغوية هو أضمن طريق يسار به إلى التكافل المنشود ريثما يتيح الزمان لهذا الشرق نفض الكابوس عنه وإعلان رغبته الصريحة فى الوحدة والسلام .

* * *

هذه صورة (زين العابدين السنوسى) فى الثلاثينات ، كاتب متفتح ، ومصنف ومؤرخ وناشر مؤمن بوطنه وفكر أمته ، وإذا كانت المصادر والمراجع لا تعطينا تطورات فكره بعد ذلك ، فاننا لا تلبث أن نلتقى به فى مجلات (الندوة) و (الثريا) و (الفكر) عام ١٩٥٠ وما بعدها فى فصول مفرقة متعددة ، برز فيها وقد تعمقت آراؤه وتنوعت دراساته وتكشفت خبرته فى مجال الفكر والأدب والتاريخ .

وأبرز من أولاهم اهتمامه (محمود قبادو) وقد أشار فى دراسة مطولة إلى أهم أعماله و(أبو القاسم الشابى) وقد تعرف به على أثر تخرجه عام ١٩٢٧ يقول: رأيت منه ما أعجبت به وأكبرته واخترت له صفحات كبيرة فى الجزء الأول

من كتاب الأدب التونسى فى القرن ١٤ وقد قلت فيه لسنتها أنه أنبغ من رأيت من شبابنا .

وقد أغنى (السنوسى) مجلة الثريا — أبرز مجلات الأدب فى تونس — بمقالات متعددة عن أعلام الأدب التونسى سواء عن الشخصيات القديمة فى القرنين الثالث والرابع الهجرى (تميم الفاطمى — الندوة ١٩٥٣) أوضحايا النبوغ الباكر : محمد العيد الجبارى ، محمد العربى ، على الدوعاجى ، سعيد أبو بكر ، وقدم بعض الأعلام المتوفين من الأدباء : محمد بوشربية ، عبدالرازق كرباكة ، مصطفى أغه ، ولطالما أورد ذكرياته وأحاديثه مع زملاء صباه : عثمان الكعاك وحسن حسنى عبد الوهاب ومحمد الفاضل بن عاشور .

وفى « مجلة الفكر » قدم مجموعة من المؤلفات عام ١٩٦١ لكتاب المغرب وتونس والجزائر وترجم شعرا فرنسيا لمالك حداد إلى اللغة العربية ،يقول: « كان من الطرافة والعمق بحيث لم أتمالك أن وجدتنى أردد نصا عربيا موزونا وغير منزوع المعالم الفرنسية التى تطبعه » .

أنا لا تلمنى يا أخى إن لم يرقك معانيه
لم أقصد التطريب فيما جئته وأغانيه
لو كان حرا موطنى ماشعشعت أحزانيه
لو حزت حرا منطق عربتها أوزانيه

* * *

ومن طرائف آثاره الأدبية أنه استقصى كلمة : (البترول) فى الأدب التونسى كله،وقال إن شعراءهم فى القرن ١١ ،١٢ الميلاد قد أصبحوا يلهجون بذكر (النفط) فى كثير من شعرهم حتى ليخيل إلى أن (النفط) أصبح من قصائد شعرائنا فى شعر المهدية ونهضتها الصنهاجيه كناية القوة وكناية العزة وهو فى الوقت نفسه كناية الصفاء والشفافة والحرارة ، وقد تناول هذه المعانى : عمر الزكرى وعبد الجبار بن حمدين .

* * *

وله دراسة للشعر العربي في تونس حتى العصر الحديث نشرها في مجلة الفكر ١٩٦١ تعرض فيها لمذهب الشاذلي خزنة دار ، ومصطفى أغه ، وصالح السويسي القيرواني ، والطاهر الحداد ، (شاعر تحرير المرأة والعمال التونسيين) وله اختيارات رائعة لوقائع قديمة في التاريخ الإسلامي عرضها بأسلوبه الحلو الطريف كما فعل بقصة « جبلة بن الأيهم » آخر ملوك بني حسان فقد عرض موقفه مع عمر بن الخطاب ثم قال معلقا : ويمكننا أن نرى من ذلك مبلغ تفنن الأدب العربي في تصوير مجد الديمقراطية التي وضعتها النهضة الإسلامية ، وله شعر رائع منه قصيدته التي كتبها عام ١٩٤٠ ونشرها عام ١٩٦١ يناجي فيها زوجته المتوفاه :

ثم يقول بعد أبيات :

أما وقد مر الزمان بها وأفقدني رواها
لاالعطر ينعشني ولا أرجو عبيرا من سواها
إلا عبير إبني الصغير تضمه يدي الحنونة
فأشم رأسه مغمضا جفني وتعروني السكينة

وقد تحدث عن زوجته في بعض ذكرياته فوصفها بأنها كانت تتلطف مع من يزوره من الأدباء وتعنى بهم وترسل إلى مجلسهم اللطائف ، وإن كانت لا تشاركهم الحديث ، وأنها قد أولت أبا القاسم الشابي تلطفا أكثر عند ما زاره في بيته إذ خرجت إليه من حجابها تؤانسه وتطعمه .

* * *

وبعد فان الحديث عن مؤرخ الادب العربي التونسي (زين العابدين السنوسي) يطول ، وإذا كان لنا أن نرجو ، فانما نرجو أن يطبع كتابه المخطوط الذي أشار إليه كثيرا في كتاباته والذي يقع في ٢٥ مجلدا وكان قد نشر منه مجلدين باسم (الادب التونسي في القرن الرابع عشر) عام ١٩٢٧

ولزين العابدين آثار أخرى منثورة في بطون الصحف ومنها مجموعة

من القصص قرأنا منها قصة فاطمة فى مجلة الندوة ١٩٥٦ وله دراسات متعددة ، وله التقويم الاجتماعى فى عدد من المجلدات ، فضلا عن آثاره المنشورة فى مجلتيه (العرب) و (العالم الأدبى)، وهما مما لم يتح لنا الاطلاع عليهما ، والحق أن زين العابدين السنوسى كمؤرخ للأدب التونسى قد ساير الحياة الأدبية أكثر من خمسين عاما وآثاره جديرة بالابراز والتجديد والأحياء .

من آثاره
مقدمات الكتب المطبوعة فى مطبعة العرب ، مجلات العرب والعالم الأدبى .

— ٢١ —

سليم حسن

توفى ١٩٦١

أعلام ثلاثة فى تاريخ الآثار الحديث : أحمد كمال ، وعلى بهجت ، وسليم حسن . وعلم الآثار فن حديث فى الثقافة العربية ، حمل لواءه الباحثون الغربيون ، منذ أيام الحملة الفرنسية واكتشاف حجر رشيد وقراءة حروفه، ولأحمد كمال (باشا) دور الرائد، فهو العربى المصرى الأول الذى تلقى هذا العلم من أثريى الغرب وعربّه وأقام له فلسفة واضحة ، وعنه تلقى كل من العاملين فى هذا الحقل من بعد ، وكان سليم حسن أحد تلامذته الأبرار ، وقد أتيح له أن يعمق هذه الدراسات ويوسعها ، وأن يبرز فى ميدان الكشف العلمى ، وأن يصل فى مجال الكتابة إلى إنشاء موسوعة للتاريخ المصرى القديم ، وقد بدأ اسمه يلمع فى العشرينات وهو يطوف متاحف أوربا فى صحبة أستاذه أحمد كمال،حتى توفى فى أوائل الستينات وهو عاكف على البحث والدراسة . بعد أن منحته الكشوف المتوالية خبرة وشهرة ووضعته بين أعلام الأثريين العرب .

يقول : سر نجاحى : ذكاء متوسط وإرادة قوية ، لقد كانت إرادتى من حديد ، كنت دائماً أقرر شيئاً ، ولا تمنعنى أية قوة عن تنفيذه مهما كانت .

والحق أن إلقاء نظرة على سليم حسن فى مظهره الريفى ، ضخامة جسمه وارتفاع طوله، تكشف ملامح الأصرار البادية على ملامح وجهه السمح فلا عجب إذ قال إنه بدأ حياته فلاحا فى أرض قرية ميت ناجى مركز ميت غمر، وأنه تعلم فى الريف وحفظ القرآن واستوعبه كله ، ثم تخرج معلما فى مدرسة

المعلمين العليا ، وتولى تدريس التاريخ فى طنطا وأسيوط ، حيث شارك فى ثورة ١٩١٩ وكاد يقع فى قبضة البوليس ، وكان يمكن أن يظل مدرساً للتاريخ إلى آخر حياته ، لولا أنه التقى بأحمد كمال أمين العاديات فى المتحف المصرى » إذ ذاك كما كانوا يطلقون عليه ، هنالك ترك نظريات التاريخ إلى حفريات الآثار . والتحق بالمتحف أميناً ، ثم ذهب فى بعثة إلى باريس حيث التحق بمعهد الآثار وفيه تعلم اللغة المصرية القديمة والقبطية والسريانية والعبرية وأحرز من جامعة السربون دبلوما فى الديانات القديمة وعاد متخصصا فى المصريات القديمة .

وفى عام ١٩٢٩ بدأ اكتشافاته الأثرية واشتغل فى نفس الوقت أستاذاً فى كلية الآداب لتدريس علوم الآثار . وفى مجال الحفريات عمل مع «ينكر» ، وبدأ كشوفه فى منطقة أهرام الجيزة فاكتشف لأول مرة أكبر مقبرة فى الدولة القديمة وهى مقبرة «رع ور» الكاهن الأكبر للوجهين البحرى والقبلى ، وترجع إلى خمسة آلاف سنة ، ثم اكتشف الهرم الرابع للجيزة وصاحبته هى الملكة خنت كاوس : أول مصرية حملت لقب الملوكية وهنالك لمع اسم سليم حسن لمعانا خاطفاً واقتعدمكان أستاذه وتوالت أبحاثه واكتشافاته . وقد حقق كشف هاتين المقبرتين الحصول على مخلفات فرعونية هامة تميط اللثام عن التقاليد المصرية القديمة وتمكن الباحثين من رسم صورة صحيحة للطقوس الدينية حسب عصورها .

* * *

وقد صورمنهجه فى الكشف فى عديد من كتاباته وأحاديثه ، يقول: طريقتى التى أسير عليها فى اكتشافاتى ، هى الطريقة التى غايتها أن أصل إلى الشيء من أساسه ، بأن أقوم بتنظيف كل شىء ، وهذا التنظيف على ثلاثه أدوار : إزالة طبقة الرمل الأولى ، ثم طبقة الأحجار الصغيرة ، ثم تنظيف المبانى القديمة ، والكشف ليس مسألة تخمين أو مصادفة ، بل

هى مسألة يقينية مبنية على المعلومات الصحيحة التى تتعلق بالمكان الذى نقوم فيه بالحفر والتنقيب .

ولو أمكن استيعاب الاكتشافات الفرعونية فى جميع الأماكن الأثرية لأمكن تصحيح كثير من الأغلاط التاريخية ، ولو وقفنا على ما نجهله فى تاريخ قدماء المصريين لعرفنا جميع أنظمتهم وسياستهم وتقاليدهم وطقوسهم الدينية وملوكهم ورؤسائهم وكهنتهم . إن مصر لديها من تراث آبائها مايجب أن يكون مثلها الأعلى ، ومحل فخارها . إن رقى الأمم عدوى تستفيدها الأمم من الأمثلة حتى حولها .

وعندما أردنا البدء فى التنقيب كان أمامنا الطريق العمومى الموصل ما بين الهرم الثانى ومعبد الوادى بجوار أبى الهـول ، وكان الكونت دى جلازرا قد كشف مقبرة أم الملك خفرع التى تقع فى الجهة اليمنى للسائر من معبد الوادى نحو الهرم الثانى . وكان قد كشفها عفوا بينما كان يبحث عن كنز ، فكانت نظريتى أن المقبرة الملاصقة لهذه هى من غير شك لفرد من رجالات مصر ، وتحت تأثير هذا الاعتقاد بدأنا العمل ، وفى اليوم الثالث عشر عثرنا على باب مقبرة منقوش على جانبيه اسم صاحبه « رع ور » .

وأرى أن الطريقة المثلى للكشف عن الآثار المصرية القديمة يجب أن تكون بريئة من الجرى وراء العثور على الكنوز من ذهب وتماثيل ما إليها ، بل يكون غرضها الأسمى ، إماطة اللثام عن الفجوات الناقصة فى التاريخ المصرى القديم ، وإظهار ما كان لبلادنا من حضـارة وفن وثقافة .

ولقد عرف المصريون منذ أبعد عصورهم التاريخية معدن الذهب وقيمته فاستعملوه فى صوغ الحلى والزينة ، وصنعوا منه الآنية ، وكان فى بادىء الأمر نادراً ولكن لما كان المصرى يعتقد أنه سيحيا حياة أخرى

فانه يضعه معه فى مقره الأخير ، هذا الأمر كان موضع تقدير الباحث عن قبره ، فقد حصر همه طوال مدة حياته فى جمع ما تيسر له من أثاث ثمين ، وحلى وهكذا تكونت عناصر البحث العلمى عن الآثار المصرية شيئاً فشيئاً ، وبخاصة بعد أن مضى علماء البصريات يحلون رموز اللغة المصرية القديمة ، مقتفين أثر شامبليون حيث أخذوا يدرسون ما نقش على كل أثر من الرسوم، وقيمة كل منها سواء أكان من الذهب أم من الحجر. وحينذاك بدأ الباحثون عن الآثار لا يعنون بالذهب وحده ، بل اتجهت عنايتهم إلى كل شىء يجذب النظر لحسن صنعه أو جماله الفنى ، ذلك بأن العلماء كانوا قد بدأوا يفهمون اللغة المصرية القديمة ويتذوقوا جمال الفن المصرى.

والطريقة العلمية كما وضعها «فلندر بيترى» الذى يعد بحق أول من نظم أعمال الحفر فى مصر بالطرق العلمية المتخصصة عام ١٨٨١ ، هى رسم طريقة تخطيط الأماكن التى حفرها ، وبين موقعها بالنسبة للمكان الذى وجدت فيه ، مع استخدام التصوير الشمسى فى رسم الأشياء المكشوفة فى مكانها ، وتسجيل كل قطعة أثرية يعثر عليها ويصفها وصفاً دقيقاً ، ويذكر المكان الذى وجدت فيه ويدون كل هذا فى سجل خاص .

ولقد كانت منطقة أهرام الجيزة أهم ميدان للعمل والتنافس بين الألمان والأمريكيين والطليان ، فقسموها إلى ثلاثة مناطق ، اختص الأمريكيين بالجزء الواقع خلف هرم خوفو ، ثم اقتسم الألمان نصيبهم مع النمسويين وتخلى الإيطاليون بعد سنة ١٩١٤ ، ولم يستمر فى الحفر خلال الحرب العظمى سوى الأمريكيين أما الجامعة المصرية فقد دخلت مجال البحث عام ١٩٢٩ .

* * *

هذه صورة فكر « سليم حسن » كاشف الآثار ، الذى أصبح من بعد

من أكبر مؤرخي الآثار فاستطاع أن يؤلف ٤٥ كتاباً في مختلف فنون الآثار المصرية القديمة وتاريخ الشرق الأوسط القديم، وأبرزها موسوعته في ١٦ مجلداً .

ويرى سليم حسن أن عمله هذا محاولة جريئة تجمع في مؤلف واحد تاريخ شعب عريق قديم ، له عقيدته وفلسفته في الحياة، وله ثقافته ونظمه، وطرائق معيشته يقول :

لم أتخذ من تاريخ الفرعون نموذجاً لتاريخ شعبه ، ولم أجعل حياته وعاداته وعظمته وثروته ومعتقداته ، مقياسا للحكم على أحوال رعيته ، فقد يكون الفرق بينهما كبيراً ، بل جعلت الشعب أساساً لما كتبت ، وفي ذلك ما يقربنا من الحقيقة .

وقال : إننا نبني تاريخنا من المادة التي وجدناها مبعثرة في مقابر الدولة القديمة ومعابدها ، كان ذلك من غير شك أساساً متيناً ودعامة قوية لدرس كل مدنيات العالم ، إذ أن مصر هي المنبع الأول الذي ظهرت لنا منه كتابات مدونة في الوقت الذي كانت فيه كل ممالك العالم تقريباً تهيم على وجوهها في الغابات .

ويقول : هناك موضوعات جديدة حاولنا سبكها على غير مثال سابق بل لم يطرق الكثير منها من قبل ، لقلة المصادر وغموضها ، فأطلقنا للخيال بعض الحرية لينسج من العناصر التاريخية القليلة التي وجدناها عن هذه الموضوعات ثوبا قشيبا تظهر به بين أترابها في الموضوعات التاريخية الأخرى .

وقد سد هذا العمل فراغاً كبيراً في مجال دراسات تاريخ مصر القديمة، وأن توفي سليم حسن قبل أن يتمه ، وقد سار في هذا المجال نابهون ، حفظوا أمانة العلم ولم ينحرفوا بها ، ولم تستطع أهواء الشهوة وبوارق المطامع أن تجذبهم عن مجال الجهاد في مجال دائرة العلم والكشف واحتمال

مشاقه ومتاعبه ومن هؤلاء : أحمد خيرى ، ومحرم كمال ، وأحمد عزت عبد الكريم .

* * *

ولا شك كان لرحلات سليم حسن وزياراته لمتاحف الآثار فى أوربا أثره فى إنماء تلك الحصيلة التى استطاع بها كتابة التاريخ ، فقد زادت دراسته عمقاً وأفسحت له معرفة النماذج المصرية الضائعة التى تزخر بها هذه المتاحف، يقول : «لا يكاد متحف من متاحف الآثار فى أوربا وأمريكا يخلو من مجموعة من الآثار المصرية الثمينة النادرة ، ويرجع تاريخ نهب الآثار المصرية إلى عهد قديم جداً . أما الآثار المصرية الموجودة فى متاحف أوربا وأمريكا فشىء كثير لا يتسع المجال لحصره ووصفه ، وفى المتحف البريطانى مئات من القطع النادرة التى لا مثيل لها فى المتحف المصرى وكذلك متحف اللوفر بفرنسا ومتحف برلين ، الذى يضم أحسن آثار تل العمارنه ومنها تمثال رأس الملكة نفرتيتى » .

وعرض سليم حسن إلى وسائل هجرة الآثار المصرية وأشار إلى ما كتبه السير والسن بادج أمين القسم المصرى بالمتحف البريطانى فى كتابه « على ضفاف الفرات والنيل » شارحا الألاعيب والحيل التى كانوا يلجأون إليها، وفيها ورقة (آنى) البردية التى تعتبر من أهم المراجع فى تاريخ الفراعنة لأنها تحتوى على وثائق كتاب الموتى ، وقد تمكن سيربادج من احياء الورقه و نقلها إلى انجلترا حيث تعتبر من أهم وأنفس الآثار بالمتحف البريطانى .

توفى ١٩٦١/٩/٢٩

مؤلفاته وأبحاثه :

تاريخ مصر القديمة :

يضم ١٣ ألف صفحة غير الصور والخرائط فى ١٦ جزء ، واصل عمله من (١٩٤٠ – ١٩٦٢) ، الأدب المصرى القديم أو آداب الفراعنة ١٩٤٥ ، أحاديثه فى الهلال والبلاغ ١٩٣٤ و ١٩٣٦ .

— ٢٢ —

شبلى شميل

(١٨٥٣ — ١٩١٧)

فى لحظة التقاء الشرق بالغرب ، وفى لحظة تصادم القديم والجديد ، تبرز صورة نموذجية لعالم يحمل المعول ، ويضرب ، ولكنه فى أعماق نفسه شرقى فى كل شمائله، عربى فى انطباعات روحه،.. هذا واحد من الذين نزحوا من الشام إلى مصر لم يتصدر الزعامة الفكرية أول الأمر فى القاهرة، ولكنه قصد (طنطا) فأقام فيها سنوات « طبيباً » ، هكذا كانت مهنته ، أتم دراسته بالجامعة الأمريكية عام ١٨٧١ فهو زميل الدكتور يعقوب صروف ومن الدفعة الأولى فى الكلية ، ثم سافر إلى فرنسا فأتم دراسة الطب ،وقصد إلى كفر عشما مسقط رأسه،ومسقط رأس نصيف اليازجى الذى كان يتغنى به،ثم جاء إلى مصر ، وأقام فى طنطا حتى عام ١٧٩٥ وعندما انتقل إلى القاهرة نشرت الهلال أنه أفتتح عيادة فى الغورية بالقاهرة والفقراء يعالجون مجاناً .

ولكنه فى خلال عزلته فى طنطا كان دائب الكتابة فى المقتطف ، فقد أفسح له زميلة صروف أن يكتب ، وإن كان على خلاف معه ، ولم يلبث شميل أن أصدر « فلسفة دارون » فى كتاب ضخم أثار ضجة كبرى ، وقد تابعه بأبحاث أخرى عن : أصل الأنواع وفلسفة النشوء والإرتقاء .

ويعد شبلى شميل رائد الدعوة إلى الفكر المادى فى الشرق والعالم العربى، وأستاذ المدرسة التى سارت فى نفس الطريق من بعد : ، فرح أنطون ، إسماعيل مظهر، سلامة موسى .

وقد عرف شبلى شميل بحدة الذكاء وسرعة الخاطر .

كما عرف بالصراحة والأريحية وسماحة النفس .

ولم تكن دراسته أساساً هى دراسة العلوم الطبيعية ، ولكنه درس الطب فلما سافر إلى أوربا تحولت نفسيته تحولا خطيراً ، ووقع الحادث الذى غير مجرى حياته كلها . فقد التقى هناك بأحد علماء المادية ، ذلك الذى استطاع أن يدفعه فى عنف نحو ذلك الطريق الذى جرى فيه ، والذى كان فيه جريئا غاية الجرأة وحذراً غاية الحذر ، فهو قد استطاع فى هذا الوقت المبكر أن يصادم عقائد الجماهير وأن يقول ما يخالف معتقداتهم ، ومع ذلك لم يقع الصدام بينه وبينهم ، لأن خلافه فى الأساس كان قائما مع معتقداته فى مجال الفكر المسيحى الغربى،فاذا ما اتصل الأمر بالفكر العربى الإسلامى كانت له آراء غاية فى الاعتدال والسماحة والإنصاف .

وقد تحدث الدكتور شبلى شميل إلى بعض خاصته بأنه كان فى نشأته الأولى متدينا مبالغا فى التدين ، ولم تطرأ عليه فكرة المادية الخالصة إلا بعد سفره إلى أوربا حيث لقى أحد العلماء ، فقال له كلمة هدمت معتقداته هدما . وصرفته إلى الوجهة التى أعجب بها وآثر أن يوليها قلبه وعقله .

* * *

وتعطى آثار الدكتور شميل صورة نفسه ، أنه رجل عاطفة يسبغ على آرائه صورة العقل ، فهو أساساً يريد أن يكون حراً فى أن يقول ما يشاء ، لاتحول أى قوة دون هذه الحرية ، ولذلك فهو منصرف عن دنيا الناس وغاياتهم وعظائمهم ، لأنه لا يريد أن يكون مستعبداً على أى صورة من الصور : « أن طبعى يأبى التقرب من كل كبير ، إذا كان لهذا التقرب أقل ضغط على حريتى ، فلا يسعنى أن أجلس مختارا مجلس الخانع الصاغر لما يفتخر به عباد السلطة ، وهو بالحقيقة إمتهان للنفس وخداع للغير ، والتأدب الصحيح هو إعطاء جليسك حقه من الاعتبار مع رجولة تحفظ كرامتك فلا تجعل كلامك تأمينا على كل ما يقال ، ولا تجعل نفسك

كالظل تتبع به حركات جليسك العظيم ، فى كل شىء ، فتبتسم إذا ابتسم . وتقوم إذا قام ، ولا تنصرف إلا إذا شاء صرفك ، لذلك لم أسع كل أيام حياتى فى التقرب من أى رجل عليه مسحة من أولئك ، المتمسكين بهذه الآداب الكاذبة التى كلها رياء ونفاق وخداع » .

ومن هنا كان عزوفه على مطالب العظمة والظهور ، وتطلعه إلى التبرز والشهرة وأحداث الدوى عن طريق آخر ، ولك هو الرأى الجرىء ، فى الدعوة إلى « مادية الحياة » ، والإعلاء من قدر العلم ، إعلاء القرن التاسع عشر له ، فالفلسفة عنده ستصبح مبتذلة فى مستقبل الأيام ، والعالم الرياضى عنده أقصر كلاما وأفصح بيانا وأبسط أسلوبا من العالم اللغوى أو العالم اللاهوتى .

وعنده أن علوم اللغة صارت مما حكات لا طائل تحتها لا كلاما وضع للتعبير عن الفكر ، والشعر أغرابا لا إبداعا فى وصف الحقائق وعلوم المحاماة مخرقة وتفننا فى المشاغبات دليلا يرشد إلى الحق ويقول عن نفسه : « تقلبت فى مقالب التردد فى الأديان من اليقين إلى الشك فالنفى ووقفت عندها منكراً نافيا » .

* * *

وقد واجه الدكتور يعقوب صروف مفاهيم الدكتور شلبى شميل بالمعارضة وقال : إن هذا ليس مجاله الحقيق وأنه لم يدرس هذه العلوم كما درسها صروف الذى يرى أن مثل هذه المسائل يجب أن تؤخذ بالحذر ، كل أمر بما يستحقه من الاحتمال أو الترجيح وأن دراسة العلوم الرياضية هى التى رسمت لصروف هذه الوجهة ، « أما الدكتور شميل فهو لم يدرس العلوم الرياضية وكان حاد الذهن سريع التصور فبادر إلى المجاهرة بما يعتقده صوابا ولو خالف المألوف وإن لم تقم أدلة قاطعة على تأييده ، وقال صروف أن شميل وصف منهجه فى قوله : « أن آفتى إذا كان ذلك يعد آفة ، أنه متى بدت لى حقيقة تستهوينى ، لا أعود أحفظ نفسى من ابدائها » ، ويعترض صروف

على شميل بأنه ، أى شميل ، لم يكن على هذه الجرأة التى اصطنعها فى أبحاث المادة ، فى ميدان تخصصه الأصلى فى أبحاثه الطبية ، » بل كان يجرى معالجة مرضاه حسب القواعد المقررة ، ولا يأخذ بالمحتملات فلم يبادر مثلا إلى المعالجة بماء البحر أو بالسلفرسان . أو الأخذ بالظواهر ، ومن هنا كان من مشاهير الأطباء فى التشخيص الطبى . . . وظل الدكتور صروف يردد هذا المعنى ويصر عليه «كنا على خلاف مع الدكتور شميل فإننا فضلنا أن نجرى فى العلم مجراه هو فى التطبيب ، وادخال الآراء الجديدة أصعب لأن الأدمغة محشوة بآراء قديمة يجب استئصالها أولا » .

وقال صروف : « أن خطته هى نشر الآراء الحديثة رويداً رويداً .

وكذلك عارض جرجى زيدان إتجاه الدكتور شميل حين أشار إلى حملته على النظم الاجتماعية فى مقدمة كتابه (شرح بخنر على دارون) الذى أصدره عام ١٨٨٤ ودعوته إلى إقامة فلسفة الاجتماع على القوانين الطبيعية . وقوله بذهاب الرئاسات فى الدين والسياسة وتساوى الناس فى مستقبل الأيام بتوحد اللغات وتوحد الأمم . وقال زيدان : أنها نظريات لاتخرج إلى حيز العمل لأن الإنسان مفطور على التدين ، ولا يعرف إلا متديناً فهو لايتخلى عن دين إلا ليعتنق ديناً آخر ، وأن شميل أغرق فى المادية ، وأصبح لا يكترث بغير المحسوسات ولا يرى للعلوم الأدبية كالتاريخ والأدب واللغة والشعر فائدة كبرى . .

* * *

ولكن هذا الوجه المتجهم للدكتور شبلى شميل الذى كان قصيراً غير وسيم ، إلى الحد الذى جعل الكثيرون يقارنون بينه وبين ماينسب إلى دارون من أن أصل الإنسان من فصيلة القرود ، هذا الرجل كان إنساناً سمحا على قدر كبير من دماثة الخلق .

وقد تعددت المصادر فى تأكيد هذا المعنى، يقول صروف: أن كتابات شميل تجعله مادياً من غلاة الماديين ، ولكنه فى الحقيقة من غلاة الروحانيين حتى كان يعتقد بالسعد والنحس وحاول أن يوجد قانونا للصدفة .

وأنه كان أنيس المحضر فكه الحديث ، ومع أنه فى أيامه الأخيرة اشتد عليه الربو ، إلا أنه كان إلى ذلك يحتقر المال . . ، وأنه لم يتخذ من العلم ذريعة لكسب المال أو الجاه ، بل أنه لم يدخر مالا ، ومات فقيراً .

ومما يروى أنه زار منزل الكاتبة «مى» حيث كان والدها « زيادة » من أصدقائه،فلما رأته«مى»أجفلت وقالت له:أنى أخاف منك لأنك تكره المرأة وأنت عالم مادى ، وأنا شاعرة روحية الميول . . فانبرى شميل للدفاع عن نفسه ولم يلبث أن أرسل لها قصيدة من شعره يصور فيها حقيقة مشاعره :

إلى من رابها منى مقالى ... فجاءت وهى تنفر كالغزال
تقول « أخاف منك على خيال ... أرى فى أيه كل الجمال »
كأن حقائقى ليست جمالا ... وآن خيالها منها لخال
ومن أنباك عن أنى عدو ... لجنس كان مرآه الرجال
وإنى ليس لى فيه خيال ... وثوب فى الأدانى والأعالى
كأنى ليس لى قلب خفوق ... محط الوحى أو هدف النبال
إذا ما قمت أطرى الحب يوما ... ألاتدرين أنك فى خيالى

* * *

وقد تردد القول فى التناقض بين عقل الدكتور شميل وبين عاطفته ، وكيف أنه وهو القائل بالمادية الصرفة يكون على هذا القدر من المروءة ، يعالج المرضى مجانا، ويشترى لهم الدواء أحيانا،هذا فضلا عن قوله فى الإسلام والقرآن ومحمد آية الانصاف ، فهو يكتب إلى رشيد رضا فيقول : « أنت تنظر إلى محمد كنبى ، وتجعله عظيما ، وأنا أنظر إليه كرجل وأجعله أعظم ، ومن قوله : لا يوجد دين اجتماعى يتفق مع مصالح البشر والمدنية

إلا دين القرآن ، ويقول رشيد رضا أنه عرض عليه فكرة ترمى إلى جمع ما فى القرآن من الآيات الواردة فى المسائل الإجتماعية والادبية ، وشرحها ، وذلك للتوفيق بين الإسلام والحضارة .

ومن أبحاثه : بحثه عن القرآن والعمران الذى رد به على اتهامات لورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » الذى قال إن الإسلام معوق عن النهضة . ومن خلال شعر له أورده رشيد رضا فى رثائه يصف محمد الرسول بعبارات الانصاف « رب الفصاحة، رجل الحجا، رجل السياسة والدهاء ، وهو الذى فاق جميع أبطال البشر وعظمائهم وكبار الأنبياء والساسة وقادة الحروب » وهو يوالى رأى الباحثين فى أن مصدر الخلق أساساهو : التربية الأساسية فى بيئة دينية، وعنده أن هذه الجذور تظل حية فى نفس الإنسان ما عاش ،ولا صلة لها بتحول الفكر من رأى إلى رأى ويقول مؤرخوه: أن الكلمات التى سمعها فى فرنسا وهدمت عقيدته لم تهدم تأثير التربية الدينية فى نفسه ، وأن فكرة التحرر الفكرى المادى لم تنزع ما فى أعماقه من قيم الأخلاق .

* * *

وقد سجلت مذكرات شبلى شميل « ملامح نفسيته » التى تتمثل فيها الجرأة فى قول ما يعتقد أنه الحق . . يقول : علمت أن واضع قانون المطبوعات المعروف عام ١٨٨٠ والذى كان نقمة على الصحافة ومكبلا لحريتها ، رجل فرنسى طريد الحرية فى بلاده يدعى (بورلى) فكتبت إليه كتابا باللغة الفرنسية وقلت له : «إنى لأعجب كيف أن رجلا نظيرك طريد الحرية يقبل أن يضع بنود مثل هذا القانون .

وهو منصف للشرقيين فيما بلغوا إليه من أخلاق الضعف والذلة يقول: « إن الشرق قد اكتسب هذه الأخلاق الساقطة اكتسابا لا أنها عريقة فيه من يوم كان فى عزة ومدنيته، وقد اكتسبها من المظالم والمخاوف بعد سقوطه من ذرى مجده ووقوعه فى حكم دول الجهل والاستبداد ،فاضطر إلى الكذب والرياء هربا من ظلم القوى حتى صار ذلك سجية فى الطبع .

وفى مذكراته فصول عن صناعته وعلاقته بالناس مليئة بالطرائف ، وفيها أحاديث عن لقاءاته من عديد من أعلام عصره فى مقدمتهم جمال الدين الأفغانى . يقول : « لما تعارفنا أخذنا نتنقل من حديث إلى حديث إلى أن ابتدرته بالسؤال الآتى :

ما قول سيدى الشيخ فى المعبود الأول الذى اتخذه الإنسان من بين أشياء هذا الوجود ، وكأنى لحظت أنه أخذ بهذا السؤال على غره ، كأنه لم يخطر له ببال من قبل ، فتقلقل قليلا كأنه يريد أن يتمكن فى مجلسه ولم يطل به ذلك حتى دخل فى مقدمة مستفيضة أغنته عن التزام الصمت طويلا وأعانته على تصوير الحكم بما أفسحت له من الوقت ، ولا أذكر شيئاً من هذه المقدمة وإنما أذكر أنه انتهى إلى القول : أن المعبود الأول للإنسان الأول كان يقتضى أن يكون فى ثنايا الغيوم المتلبدة أو هى نفسها ، أما أنا فلم أكن من رأيه ، وكأنى نظرت إلى الإنسان نظراً أعرق فى الحيوانية ، فاعتبرت الإنسان الأول لاصقا بأرض يتخبط فيما أمامه ، وإذا كان يجهل كل شيء فاتخذ معبوده الأول من أشيائها ، ولم يرتفع بصره إلى مافوق إلا بعد ذلك بكثير وأن منشأ العبادات فى الإنسان إما تهيب عن إعجاب أو خوف عن ضعف . .

* * *

وجملة القول إن « شبلى شميل » إنما يمثل رمزاً للعوامل المؤثرة التى دفعها الفكر الغربى أمام الفكر الإسلامى والثقافة العربية فى مطالع زحفه ، فقد كان ناقوسا مدويا بالرأى الجديد على النحو البالغ فى الجرأة والذهاب إلى آخر الشوط دون توسط أو تحفظ أو مواءمة ، وكان على رأس مدرسة تختلف عن مدرسة المعتدلين أو مدرسة المحافظين ، وإن كانت آراؤه اليوم لم تعد تخيف ، فقد كانت إذ ذاك جديدة خطرة تواجه بالمعارضة ، فقد حمل على الفلسفة واللغة الفصحى وأنكر اللاهوت ، وشكك فى الدين ، ولم ينقل مذهب دارون وحده ولا كان ذلك هدفه ، وإنما كان يرمى إلى تأييد الفلسفة

المادية، بما لها من آثار اجتماعية، وهو فى ذلك ابن عصره وبيئته الفكرية، وواحد من أوائل الذين أقاموا الوسائط بين الفكرين العربى الغربى وقد دعا إلى مذهب سبنسر فى التطور ثم ظهرت من بعد معارضات لدارون وسبنسر ولمذاهب المادية والانتخاب الطبيعى .

ولم يعدهناك من تلاميذه من يؤمن بأن الحياة تولدت ذاتيا على الأرض، أو استحالة التوالد الذاتى ، وقد عارضه الدكتور صروف بوصفه متخصصا دونه فى هذا العلم وعارضه اسماعيل مظهر بعد ثلاثين عاما من وفاته، وكان قد قرأ كتابه عام ١٩١٠ (فلسفة النشوء والارتقاء) وتابعه طويلا ثم اختلف معه ، والواقع أن العلم لم يتوقف، وأنه ليس هناك حقائق ثابتة فى هذا المجال الفلسفى البعيد عن تجريب المعامل ، وإنما هى نظريات تدحض إحداها الأخرى، ولا ريب كانت كتابات شبلى شميل ذات دوى وصدى ، فقد كان معتنقا كل رأى جديد فى الغرب وكان فى ذلك متطلعاً إلى تحرير نفسه وتأكيد ذاته .

وهو كما قال عن نفسه : لا يستطيع أن يحفظ نفسه من إبداء رأى استهواه ، وأنه متقلب بين الأديان من اليقين إلى الشك ثم بلغ النفى فوقف عنده ، ولذلك فهو ليس من دعاة التدرج أو اختيار الأصلح ، أو إعطاء الشرق من فكر الغرب ما يصلح لبعثه ودفعه إلى الأمام ، ولقد كان للفكر العربى سابقة فى نظرية النشوء جهر بها ابن مسكويه واخوان الصفا ، وكان له دائما قدرة على الالتقاء بالنهضات والحضارات ودون أن ينفصل عن قاعدته التى تربط المادة بالروح ، والدين بالدنيا ، والعقل بالقلب .

* * *

ولعل من طرائف ما سجلته مجلة الهلال ١٨٩٥ هذا البيان :

« عيادة الدكتور شبلى شميل فى الغورية ، ملك الأوقاف »

« لا يخفى ما لحضرة العالم النطاسى الدكتور شبلى شميل من الشهرة الطائرة

فى التطبيب الباطنى والجراحة ويسرنا أن ننشر أهالى الغورية وما جاورها أنه أنشأ محلا للعيادة يطبب فيه كل الأمراض باطنية وجراحية وأمراض العيون مع المساعدين اللازمين للعمليات الجراحية والحق به إحـــدى الحكيمات لمعالجة أمراض النساء والفقراء يعالجون مجانا .

وكان فى هذه الفترة قد نزح من طنطا بعد أن بدأت أرائه تثير عليه العامة هناك .

من مؤلفاته:

فلسفة النشوء والارتقاء ١٩١٠ ، آراء الدكتور شميل ١٩١٤ ، شرح بختر على مذهب دارون ١٩١٩ ، مجلة الشفاء (١٨٨٦ – ١٨٩١) . مقالات فى المقتطف سنة ١٨٧٥ وما بعدها ومذكرات فى مجلة سركيس ١٩٠٦ ، ومذكرات فى الهلال سنة ١٩٢٢ ومجلة قناة الشرق م ١١ .
راجع أحاديثه مع جمال الدين الأفغانى فى كتابنا (الشرق فى فجر اليقظة)

-٢٣-

طاهر الجزائرى

(١٨٥٢ — ١٩٢٠)

من أبرز النوابغ فى العالم العربى فى العصر الحديث أولئك الذين جردوا أنفسهم على العمل فى أبحاث الكتب والمخطوطات والتراث. ذلك فن رفيع وجد رعاية فى مطالع هذا القرن فى ظل اتجاه الحرص على بقاء كنوز الفكر العربى الإسلامى فى أرضها وحمايتها من التلف والضياع والهجرة وبعثها من جديد بحسبانها عاملا هاما من عوامل اليقظة وتأصيل النهضة . وعلى رأس هذا الفريق : على مبارك وطاهر الجزائرى وأحمد زكى الملقب بشيخ العروبة وأحمد تيمور وكرد على والكرملى .

وإذا كان على مبارك فى مصر قد ضم المكتبات القديمة المنثورة هنا وهناك فى دار الكتب التى أقيمت فى باب الخلق وكان يطلق عليها «الكتبخانة» فإن طاهر الجزائرى فى دمشق قد قام بنفس هذا العمل . غير أن الجزائرى كان (كتبيا) أصيلا عريق المعرفة فى فنون الكتب ، جيد المعرفة لها ، فقد أغرم منذ مطالع شبابه بالمخطوطات ، وأخذ يبتاع الدشوت والرسائل المخطوطة ويكدسها ، ويقرأها ، ويعلق عليها ، إلى أن استقامت له مكتبة ضخمة . حتى[1] «قل أن يدانيه أحد فى علم الكتب ووصفها ومؤلفيها وأماكن وجودها وما عرض لها ، وأن المخطوطات التى طالعها ولخصها فى كنانيشه وجذاذاته تعد بالمئات ، ولطالما رحل من بلد إلى بلد بعيد ليطلع على مخطوط حفظ فى بعض الخزائن الخاصة .

---

(١) محمد كرد على ـ « كنوز الأجداد » .

وقدباع قسماً عظيما من مكتبته قبل أن يهجر دمشق إلى القاهرة عام ١٩٠٧ وباع القسم الآخـــر فى القاهرة إلى دار الكتب و إلى الخزانتين التيمورية والزكية . وبقى نحو خمسة عشر عاما فى أواخـــر عمره يعيش من كتبه ، ويرفض قبول الرواتب والمناصب وربما باع هذه الكتب بأسعار زهيدة إلى من يحفظها فى مصر والعالم العربى وامتنع كلية عن قبول الأسعار العالية التى قدمت إليه من طلاب تصديرها إلى جامعات أوربا ومكاتبها .

وكانت مجالسه مع أحمد زكى وأحمد تيمور فى مصر ، مجالس مذاكرات للكتب والمخطوطات، وكثيراً ما يذكر لمجالسيه «أن الكتاب الفلانى طبع فى المحل الفلانى فى العام الفلانى» ، فإذا ذكر أحدهم كتابا نادراً بادر بسؤاله: هل رأيته بعينيك أم سمعت عنه ، وقد ساح فى طلب الكتب فقصد إلى أوربا والأستانة وجزيرة العرب .

ويروى عيسى اســـكندر المعلوف أن المستشرقين فاوضوه فى أمر المخطوطات ، ومظانها يقول : فكأنه من معارفه الكثيرة ومؤلفاته العديدة ، قد اختص بفن المؤلفات ومعرفة المفيد منها ، وتمييز نفائسها ، ونوادرها ، فكان آية فى هذا الفن الذى اهتم به الأفرنج وسموه « علم وصف الكتب » .
"Bibliographic"

وكان غيوراً على مشاريع احياء الكتب العربية ، وقد اهتز لمشروع زكى باشا الذى حققه عن طريق أحمد حشمت ناظر المعارف باعتماد عشرة آلاف جنيه لطبع بعض المخطوطات ، فلمامضت السنين ولم يخرج زكى باشا شيئاً ألغى الاعتماد باستقالة حشمت ، قال له الشيخ الجزائرى : لقد أسأت إلى الأمة العربية بابطائك الخطا فى إخراج الكتب للناس، وإذا أدعيت أنك تقصد نشرها سالمة من الخطأ مشفوعة كلها باختلاف النسخ والتعاليق فالتأنق لاحد له ويكفى أن ينتفع الناس بالموجود .

ولم يكن لطاهر الجزائرى مؤلفات ذات بال ، فقد كان معلما يؤلف الرجال ، وهو أستاذ ذلك الجيل العريق الذى ظهر من الشام وأثر فى الفكر

العربي الإسلامي كله أبعد الأثر : عبد القادر المغربي ومحب الدين الخطيب وكرد علي .

وكان أبرز أعماله : تلك الكناشات والجذاذات التي لخص فيها قراءاته في المخطوطات وتعد بالمئات وهذه لم تطبع ، وله زهاء أربعين مصنفا ورسالة وكتاب في العلوم المختلفة. فقد أحيا من كتب القدماء عشرات، ويرى بعض أقرانه أمثال السيد الآلوسي أنه ماكان يجب أن يضع تآليف مستقلة ينسبها لنفسه وما كان يجب أن يدون آراءه وأفكاره العلمية ، وإنما كان يفضل أن يختار للقارىء أحسن وأنفع ما في كتب العلم والتاريخ من المسائل والمباحث شأنه في ذلك شأن كثير من علماء السلف ، وكان يحب أن يترك كنانيش أودعها أحسن ما وقع عليه نظره مدة خمسين سنة من عمره بحيث لو جمعت هذه الكنانيش وطبعت لبلغت بضعة عشر مجلداً .

* * *

أما المجال الحق للعلامة طاهر الجزائري فقد كان مجال التربية والتعليم وبناء المثقفين الأعلام ، ويعزى إليه الفضل في ظهور كثير من الأدباء « فهو الذي (١) ربى فيهم روح الاقدام والشجاعة الأدبية اللتين تبنى عليهما صروح الأعمال » وكان يوصي تلاميذه بقراءة مؤلفات تناسب ثقافاتهم ، ونفسياتهم ، فقد أوصى « محي الدين رضا » بقراءة كتاب « الذريعة إلى مكارم الشريعة » يقول : فلما قرأته استفدت منه كثيراً ، وهو من أهم الكتب المؤثرة في الأخلاق وآداب السلوك فضلا عن عبارته الطيبة .

وكانت نصيحة طاهر الجزائري : « الإقلال من القراءة في أيام العطله والإكثار من الرياضة والتنقل في الحدائق، ذلك أن الإنعكاف على الكتب يحبب الوحشة والإنعزال عن الناس ، فتصبح نفورا من كل جليس ، وبذلك تسوء أخلاقك ويقل اعتمادك على أفكارك،ولتكن قراءاتك أشبه بمحادثة

---

(١) المقتطف — فبراير ١٩٢٠ .

بينك وبين من تقرأ ، فلا تتخذ كل قضية بالتسليم التام ، لأنك إن لم تعلل فكرك فيما تقرأ لا يلبث أن يذهب كل ما يمر أمام عينيك من الصور الجميلة».

وكان يعلم الناس على نحو من الرفق والأناة ، وحرصه إنما كان يهدف أساساً إلى تنقية الفكر العربى الإسلامى من الزيوف ، والكشف عن جوهره ، وإزالة مالصق به من جمود ومبتدعات وزيوف ، وكان من أجل ذلك يستنسخ المؤلفات التى تتناول هذه الحقائق ، ويرسلها إلى أسواق الوراقين حتى تقع فى أيدى المثقفين ، فتحول أفكارهم ، دون أن يصطدم بهم . وكانت له آفاق واسعة فى البحث والدراسة ، ومناقشات عريضة ، فقد جمع حوله أهل جيله من مختلف ألوان الدراسات والمذاهب والمفاهيم فى رحابة صدر ، دون أن يصادمهم فى معتقداتهم ، ولكنه كان يثير فى نفوسهم المعانى الرصينة والأمثال العالية والقيم الايجابية المستمدة من جوهر الفكر العربى الإسلامى فيزحزحهم عن معتقداتهم ، وكان إلى ذلك يكره من علماء المسلمين إيراد ما يضيق السبل ، إذ يصرف الناس عن الدنيا ، أو يومىء باليأس أو الزهد ، معلنا دائما أن فى الفكر العربى الإسلامى قوة وحركة وإيجابية وحياة. وكان فى خلال تفتيشه للمدارس يعلم المتعلم ولا يشعره أنه يعلمه ، بل يوهمه أنه يذاكره فى مسائل التربية والتعليم أو أنه يحاول أن يتعلم منه .[1] وقد أعانه على ذلك ثقافة واسعة عميقة وإلمام تام باللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية والسريانية والعبرانية والحبشية . وقد قرأ بها جميعاً فأصبح كما وصفه تلميذه كرد على أشبه بعلمه (انسكلوبيديا) سيارة . او خزانة علم متنقلة . .

وكان عصرى الفكر يلم بالموسيقى والتمثيل والفنون ، ويصلى فى الحدائق العامة ، يحب السباحة والعوم ، ويهوى السير على الأقدام ، وكان أحيانا يجلس فى ظل شجرة يقرأ ، ويحمل فى جيوبه كافة حاجاته : الدفاتر والرسائل والأقلام والدواة .

---

(١) كرد على — كنوز الأجداد .

وكان إلى ذلك عف النفس ، عالى الهمة ، يرتفع على الدنايا ، ويستعلى على أن يطلب من أحد شيئا،عزوفا عن مواقف الذل . ويروى تلميذه السيد محب الدين الخطيب: أن أحمد تيمور والسيد على يوسف إتفقا على إقرار راتب له من خزينة الخديو فلما علم غضب غضبا لم أعهده فيه من قبل ، وقال لى: من ذا الذى يضمن لى أن لا أقف من الخديو موقفا إذا صدر منه مالا أستحسنه ، وقال السيد محب الدين أنه عاش فى فترة هجرته على بيع كتبه وعلى ما كان فيه من ضيق يده لم يغير ما فطر عليه من الأباء وعزة النفس ، ولم يغير ما اعتاده من التصدق على الفقراء والبذل فى سبيل الخير .

* * *

وهو جزائرى الأصل ، وفد والده مع الأمير عبد القادر الجزائرى إلى دمشق ، وولد هو بها ، وقد أتم دراسته وثقف نفسه ثقافة شاملة ، فدرس العلوم الإسلامية ، ثم تولى التعليم فى المدرسة الظاهرية ، والجمعية الخيرية وعمل فى ديوان المعارف مفتشا عاما فى عهد مدحت باشا والى سوريا وأنشأ المكتبة الظاهرية فى دمشق وجمع فيها ما تفرق من المخطوطات فى عشر مدارس تحت قبة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، عام ١٩٢٦،ولقى فى سبيل ذلك مقاومة شديدة ،كما أنشأ فى القدس المكتبة الخالدية وأولع منذ صباه بكتب شيخ الإسلام « ابن تيميه » وكان الفقهاء فى عصره يكرهونه ، فنشر كثيرا من مؤلفاته ، وهو فى هذا الجانب يشترك مع الشيخ محمد عبده فى دعوته إلى التوحيد الخالص،والعودة إلى منابع الإسلام السمحة، وقد جمع فى مفاهيمه بين الرواية والدراية ، وأخذ من أصل الشريعة باجتهاده الخاص .

ثم هاجر من دمشق عام ١٩٠٧ إلى مصر فأقام بها إلى ١٩٢٠ ، ولم يهزه نشر القانون الأساسى فى المملكة العثمانية عام١٩٠٨ ولذلك عول على البقاء فى القاهرة حتى عاد إلى دمشق قريبا من وفاته بأشهر قليلة . وقد عاش حياته فى مصر على مؤلفاته وإثارة يبيعها بالتدريج خلال نحو أربعة عشر سنة مرتفعا عن أى عطاء .

* * *

وتتكشف عصارة فلسفة « طاهر الجزائرى » ومفاهيمه من خلال كلماته الموحية المضيئة :

« إن أفضل الطرق فى انهاض شعب ، تثقيفه بثقافة العصر وثقافة الدين وهذه طريق طويلة ولكنها أمينة الفائدة ، لا تخرج عن طريقة النشوء الطبيعى ، أما القبول بالتوارث وطرق العنف فقد تنجح ونجاحها قليل وليست مضمونة » .

« إذا أردتم النجاح فلا تلقوا بآذانكم لما يقال فيكم من مدح وقدح ، وسيروا إلى الهدف بقدم ثابتة ، تفلحوا وتوقوا إضاعة الوقت بالقال والقيل » .

« إياكم أن تخطوا فى رسائلكم إلى إخوانكم مالا تريدون أن تلقوه جهره ، فكل ما يكتب لا يؤمن نشره ، يفتضح به صاحبه فيؤذيه ولا ينفعه »

« تعلم كل يوم مسألة وأخرج للنزهة ، ولا تتعب نفسك كثيرا ، فلا خير للمرء باكراهه على معاطاة أمر تضيق به نفسه » :

« تعلموا ما تيسر لكم تعلمه ، ولو لغة مالطة ، فقد يجىء زمن تحتاجون إليها وإياكم أن تقولوا : إنها لا تدخل فى نطاق اختصاصنا ، فالعلم كله نافع والمرء يتعلم ماحسنت به الحياة »

« فروا من الموتورين والسوداويين فراركم من الوحش ، فهذا أحسن علاج لهم ، ولا تضيعوا أوقاتكم فى استصلاح من لم يرزق الاستعداد الكافى لقبوله ، فمن الناس من خلقوا للسكة والفدان ، ومنهم من تهيأت نفوسهم لمجالس العلم والأدب ، والجلوس فى مقاعد دور الندوة ودواوين السياسة »

« تعلموا العلم لله ، ولفائدة العلم ولذته ، وليكن لكل واحد منكم صناعة أو تجارة أو زراعة تعيشون منها أحرارا حتى لا تحتاجوا إلى قرع أبواب الملوك والحكومات ، فاذا احتاجوكم نادوكم ، وإلا فانتم بما لكم من أسباب المعايش لا تحتاجوهم »

«لو بلغنى أن أهل البلد كلهم راضون عنى ، ليس لى منهم عدو ، لعددت نفسى ساقطا ، لأن من يرضى عنه كل الناس لا يكون إلا خداعا منافقا ، يظهر لكل واحد بما يرضيه ، والمصلح لا يخلو من أعداء وأصحاب »

« قدر قول خصمك ، وراع الصراحة التامة ، واترك السباب جانبا وإن وجدت فى نفسك ضعفا فى الحجة ، فالجأ إلى العواطف الوطنية والدينية بطريقة الشعريات »

« إن الاتقان لاحد له والأغلاط تصحح من الزمن »

« إن الاقتباس عن الأمم المترقية دليل النباهة ، لا كما يظن البله من أن فى الاقتباس غضاضة . ونريد بالاقتباس ما يشعر به هذا اللفظ من تلقى الأمور النافعة »

***

وإذا كان طاهر الجزائرى مرجعا فى المخطوطات لا يبارى ، ومعلما يصنع الرجال ، وإذا كانت آثاره المطبوعة قليلة ، فقد كانت له رسائل بعث بها إلى أصدقائه وتلاميذه تمثل منهجا عاما للمثل الأعلى ، والتربية والثقافة للعاملين فى مجال الدراسات والمعلمين والقادة ، وقد كانت أماليه فى مجالسه أيضاً غاية فى العمق والفهم للحياة والمجتمع .

ولا شك كان لظروف العصر الذى عاشه واضطرابه أبعد الأثر فى بقاء آثاره غير مطبوعة ، أو إيثاره الكلمة المكتوبة ، وكذلك كان جمال الدين الأفغانى الذى لم يؤثر عنه كثيراً من المؤلفات ، وإن جمع له السيد المخزومى كثيراً من خواطره وأفكاره .

ولعل تجربة الجزائرى مع تلميذه « كرد على » مثل لعمقه فى مفاهيم بناء الشخصية عن طريق التوجيه الشفوى أو الرسالة المكتوبة وهو فن جدير بالدراسة فى هذه المرحلة من تاريخنا .

فقد أبرز ما يعلق عليه الأمل فى بناء الأمة : « الثقافة والخلق »

يقول فى خطاب إلى «كرد على» الأقوم من أرباب الاخلاص وأعظم ما نحتاج إليه هو أمر الأخلاق وما يتعلق بها : أن الأمة فى احتياج شديد إلى من ينير لها الطريق بها ، ومعرفة الأمور العمرانية على وجه لا يكون فيه اخلال بمعالى الأمور .

أما التربية فإن مفهومه لها غاية فى التقدمية والإيجابية معاً فهو يرى :

« ادخال التربية العلمية فى المدرسة ، وبذلك يتعود التلميذ على الصدق، وأن لا يتكلم فى شىء إلا بعد أن يختبره ، فإن الشرقى اعتاد أن يدعى كل شىء،وأن لا يقول فى شىء لاأعلم ، وعلى ذلك يعودالتلميذ على أن لا يتكلم بما لا يعلم ، وأن يتفكر قليلا إذا سئل عن شىء لم يسبق له به اختبار »

ويرسم منهج البحث العلمى حين يقول: من أراد وصف كتاب ينبغى له أن ينظر فيما قاله مؤلفه فى مقدمته أو فى خاتمته ، أو فيهما معاً ويأخذ خلاصة ذلك ، مع بيان موضوع الكتاب والداعى إلى تأليفه » .

وهو على وعى تام فى هذه الفترة الباكرة بدعوة التغريب :يقول :

عجيب لمن يسعون فى أن نهجر التاريخ الهجرى،ويفاتحوننا فى ذلك ، كأنما لا يعلمون إنا نعلم ما يرمون إليه عن بعد .لكل أمة شعار إذا ماتركته طمع فيها، واستضعف جانبها،وربما صارت بعد مدمجة فى غيرها،وقد سعى أناس منذ عهد بعيد فى أن يضعفوا مايقوى أمراً لإسلام عموما ، والعرب خصوصاً ، فنجحوا فى ذلك بعض النجاح فطمعوا فى أن يقضوا ليه ، فلم يجدوا أقرب إلى ذلك من اضعاف أمر اللغة العربية والسعى فى تبديل خطتها والتزهيد فى الكتب التى كتبت بها ، حتى أثروا فى كثير من أبناء جلدتنا الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء والوقوف على أسرار الأمم، فكان ماكان مما هو معروف » .

* * *

وقد عاش طاهر الجزائرى مؤمنا بدعوته إلى تربية جيل وبناء قادة ، على نحو يربط بين الإسلام والعروبة،ويستقبل الحضارة والفكر الإنسانى على قاعدة مقومات فكرنا العربى الإسلامى ، ويواجه خصوم اللغة والفكر العربى فيكشف شبهاتهم ويحافظ على التراث العربى ، وينميه .

وقد كشف فى رسائله عن نجاح خطته هـــذه فقال : كان كثير من الحشوية يلوموننى فى تنبية المؤلفين والطابعين على مايلزمهم ، ويقولون إن هذا لا يفيد غير العداوة ، وأنت تضرب فى حديد بارد ، وما دروا إنى ممن يقول بأن العداوة فى محلها أجدى عندى من كسب المحبة على غير وجهها ، ... غير أن الزمان أبان لى أن كل نصيحة لاتخلو من تأثير ، ولو بعد حين ، فإن كثيراً ممن لحقتهم صدمة منا ومن أخواننا الذين أعطوا عهداً أن لا يغشوا الأمة قد صاروا يراجعون . .

توفى بدمشق ٥ كانون الثانى

(يناير) سنة ١٩٢٠

مصادر البحث
مجلة المجمع العلمى العربى سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٥
مقدمة كتاب كنور الأجداد(محمد كرد على)

من مؤلفاته :

١ — المطبوعة : إرشاد الالبا إلى طريق بقلم الف با ، تستهل المجاز إلى فنى المعمى والالغاز ، التعريب لأصول التعريب ، الفوائد الجسام فى معرفة خواص الأجسام ، مراقى علم الأدب .

٢ — المخطوطة : مقدمة معجم اللغة الذى ألفه ولم يطبع، الرسائل والكتب والمقالات والتعليقات ، مذكراته البالغة عشرات من المجلدات فى وصف الرسائل والكتب المطبوعة والمخطوطة .

— ٢٤ —

طلعت حرب

(١٨٧٦ — ١٩٤١)

« إنها دنيا جهاد، دنيا تمر وتحلوا مرارا وتقبل أحياناً ، وتدبر أحيانا ، فلا تطمعوا إذا احلوت . واشكروا الله على كل حال ، ولكل شيء قيمة ، للإخفاق درسه وعظته وللنجاح حلاوته وبشراه ، فأحسنوا ما يوكل إليكم من جهد الطاقة واتقنوه قدر الاستطاعة » .

* * *

هذه هي الكلمات المضيئة التي ختم بها طلعت حياته بعد أن اعتزل العمل في المصرف الذي أنشأه . وأذاب فيه عصارة عمره . تعطي صورة نفسه ، صورة الرجل المجرب العميق التجربه ، الذي عرف الحياة . والرجل الذي بدأ عمله صغيراً ثم بلغ القمة وفتح لمصر بابا من أبواب النهضة والمجد، لم يسبقه إليه سابق فهو رائد الاقتصاد المصري الخالص لاشك فيه ذلك ولا ريب ، وأن كل من جاءوا بعده تلاميذ له وأتباع . أما هو فقد كان تلميذا لحفني ناصف الذي علم الأعلام . اشتغل بالصحافة حيناً ، وكتب في الجريدة وعارض قاسم أمين في دعوته إلى تحرير المرأة بكتاب كامل ؛ قال فيه إنه يؤمن بتربية المرأة وتعليمها ، ولكنه لا يوافق على خروجها إلى مجتمعات الرجال . وكان صديق الأدباء والمفكرين ، له روابط صادقة مع أحمد شوقي ، ومصطفى كامل ومحمد فريد ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، وعمر لطفي وله مكتبه ضخمة جمعت كل فن . كان شغوفا بالموسيقى والفن والمسرح . بل لقد كان أعز آماله أن يجمع اثار حفني ناصف ويذيعها في الناس وقد كتب لتراث حفني ناصف « مقدمة» لاتزال موجودة عند بعض الأدباء .

أسلوبه الإنشائى يجمع بين واقعية رجل الاقتصاد واشراقة رجل الادب. وقد كانت تقاريره الاقتصادية تحمل روح الأدب العالى والكتابة البليغة .

أحب الطراز العربى فى البناء وعممه فى مبانى (بنك مصر) .

وفى ميدان الكتابة والبحث أصدر أكثر من مؤلف تمثل اتجاهاته الفكرية : أصدر كتاب تربية المرأة والحجاب عام ١٨٩٩ أنكر فيه مساواة المرأة بالرجل — ولعله تحول عنه من بعد — وقال إن المرأة أقل من الرجل إدراكا وحسا ومن عباراته فى ذلك قوله :

« اجتمعت الشرائع المنزلة على ما سلم به الطبع والعقل من أن المرأة أضعف من الرجل وأقل فى سائر الحيثيات جسما وإدراكا. وعلى أن الرجال قوامون على النساء دون العكس . لهم عليهن فيهم حسن المعاملة والرفق والمحبة والاحترام ، حيث أن الرجل لا يمكنه أن يعيش بدون المرأة ولا المرأة بدون الرجل لأنه يترتب على تآلفهما عمران الكون وتحسين النوع الإنسانى وتكثيره وسعادة العالم المؤلف من عائلات وأفراد بسعادتهم يسعد وبشقائهم يشقى . . »

وفى عام ١٩٠٥ أصدر كتاب : (تاريخ دول العرب والإسلام) اشتمل على تاريخ العرب وما كانوا عليه قبل الإسلام حتى نهاية دولة الخلفاء الراشدين، وفى عام ١٩١٠ أصدر كتاباً عن قناة السويس هو من خير ما كتب فى هذا الموضوع ، وقيمة هذا الكتاب التاريخية أنه كتب فى وقت كان أمر تجديد عقد الشركة أربعين سنة أخرى مطروحا على الجمعية التشريعية ، وكان طلعت حرب يعارض تجديد هذا الامتياز ومن ذلك قوله :

« قد ظهر من الأرقام مقدار غبن الأمة المصرية إذا هى نفذت هذا المشروع وظهر كذلك أن مبلغ الغرم هذا يقرب نفس السنوات العجاف التى قاسى فيها » .

ومن قوله : « أننا ورثنا طبيعة العبيد نتيجة الاستعمار . كل ناجح نحاول أن نحطمه ولو أن معاولنا كانت فى البناء لـكان لنا فى كل قرية هرم أو مصنع »

* * *

وقد شغل نفسه بفـكرة إنشاء (مصرف وطنى) لفترة لاتقل عن خمسة عشر عاماً قبل إنشائه فعلا سنة ١٩٢٠ ، وقبل أن يصبح المصرف حقيقة واقعة ، ولعل اشتغاله بالعمل فى محيط الفلاحين والزراعة هو الذى دفعه إلى التفكير فى هذا العمل،ولقد لقى الفلاح من الأزمة عنتا كبيراً ، وقد وافقت دعوته نفس الأيام التى كان (عمر لطفى) يدعوا فيها إلى (التعاون) كحل لبعض مشاكل الفلاح، ولعل عمله بالدائرة السنية وفى بعض أبعاديات الإقطاعيين هو الذى كون فى أعماقه مشاعر العمل لحماية المزارعين من الإقطاعيين والمرابين والبنوك الأجنبية ووضع حداً لتسلط هذه القوى كلها.

وفى سبيل هذا الاتجاه الذى آمن به أصدر عام ١٩٠٧ كتاباً كشف فيه حاجة البلاد إلى (بنك وطنى) بمال المصريين تعمل فيه أيد مصرية وتستخدم فيه اللغة العربية ونبه الأذهان إلى الأموال الوفيرة المعطلة ، والتى يستثمرها الأجانب فى غير صالح مصر والمصريين والتى يمكن توجيهها لصالح الأقتصاد القومى وتعزيزه ، ومما قال فى كتابه: « دخل فى يد كثير من المصريين أموال عديدة فى هذه السنوات الأخيرة ففيم استعملوها ؟ استعملوا معظمها من نوع الاستثمار الذى ألفوه فى شراء الطين ، فتهافتوا حتى أغلوا ثمنه وأصبحنا نسمع بأن ثمن الفدان قد بلغ ٧٠٠ جنيه . ولـكن إذا نظرنا إلى مجموع الأمة هل نجد ايرادها قد زاد بانتقال الفدان من يد لأخرى . ؟

وأشار (طلعت حرب) إلى أن الذى لفت نظره إلى إنشاء المصرف الوطنى هو « تسرب الأموال الفائضة عن حاجة المصريين إلى خارج البلاد » .

وأنها حين تستثمر لتنفع الغير ليس ذلك بالشيء القليل فقد تجاوزت مائة وخمسين مليوناً من الجنيهات .

وقد كان التفات (طلعت حرب) إلى هذا المعنى فى ذلك الوقت الباكر ايذانا بتحديد موقفه من العمل العظيم الذى حققه بعد ذلك بأكثر من ثلاثة عشر عاما ، وقد ظل طلعت حرب هذه الفترة مواليا نشر دعوته يبشر بها فى أوساط الأثرياء ، لايعتوره اليأس ولا ترده المصاعب ، يناقش ويحاول ويقنع ويرد على كلمات التثبيط والشك والمغالطة التى يذيعها أعوان الاستعمار وصنائعه ، حتى حانت الفرصة المواتية التى طالما ترقبها ،كانت هذه الفرصة الذهبية هى (ثورة ١٩١٩) وما تلاها من اتجاه وطنى إلى مقاطعة البضائع الأجنبية وارتفاع المد الثورى وزيادة الوعى الوطنى وتطلع الجميع إلى وسيلة فعالة لمقاومة الإنجليز ، هنالك ظهر طلعت حرب بمشروعة محولا حماسة الشعب وعاطفيته إلى عمل إيجابى واضح المعالم .

وكانت مغامرة جريئة منه، عندما افتتح مصرفه الوطنى فى مايو ١٩٢٠ برأس مال صغير وجعل كل أعماله باللغة العربية . ولكنه أنفذ مشروعه دون أن يعبأ بسخرية الساخرين ومعارضة المتشائمين أو المثبطين . وكان رأس مال البنك ٨٠٫٠٧٥جنيه ، وبه حقق طلعت حرب خطته التى رسمها من قبل فى كتابه، وهى إنشاء «مصرف مصرى حقيق» يعمل بجانب المصارف الأجنبية الموجودة فى مصر،ويمد يد المساعدة للمصريين ويحثهم على الدخول فى أبواب الصناعة والتجارة ، ويحرصهم على الاستفادة من الأعمال المالية التى تزداد يوماً بعد يوم .

وأعلن طلعت حرب للمؤسسين يوم افتتاح البنك: «أن البنك لم يقم فى فى مصر إلا ليسد النقص الظاهر فى مرافق البلاد الاقتصادية . وليقيم بناء الصناعات وأنه سيعتمد فيها على ثقة المصريين فى البنك وستتجلى هذه الثقة فيما يودعون فيه من مالهم الفائض» .

وقد دفعت حركة المقاطعة المصرف المصرى إلى الإمام فانتقلت إليه الأموال من البنوك الأجنبية ، واستطاع طلعت حرب أن يمضى فى تنفيذ خطته الواسعة بخطى ثابته وفى حذر ولباقة حتى استطاع بعد سنوات قليلة أن يركز اسم مصر فى الميدان .

* * *

وكان طلعت حرب أول من حرر مصر من خديعة بريطانيا والإستعمار الأوربى التى تقول إننا بلاد زراعية خالصة ، وذلك حين دخل الميدان الصناعى بقوة وحقق فيه انتصارات ضخمة ، كانت من قبل أحلاما تمر بالخاطر ولا تجد سبيلا إلى تحقيقها . كما حمى الثروة العقارية والزراعية من الانهيار ووقف إلى جوار البيوتات القديمة الكريمة المتعثرة فى وقت المحنة ، فحفظ لها ثروتها وأثبت بالدليل القاطع كذب ما ذهب إليه الأجانب من اتهام لكفاية المصريين والعرب وعجزهم عن مباشرة الأعمال المصرفية وكان يكتشف الشباب المصرى من الذين أتموا تعليمهم فى أوربا فيدعوهم للعمل معه ، وبدأ بعد خمس سنوات لم يحصل خلالها على أى مرتب أو مكافأة شخصية — فى إنشاء الشركات ، ولولا أن حملة الأسهم ألحوا عليه أن تكون له مكافأة عن هذا الجهد الشاق الذى يبذله ، لما قبله أخيراً ، ولكنه رفض أن يحصل على مليم واحد عن السنوات الماضية .

* * *

ودعا (طلعت حرب) إلى إنشاء الصناعات فى مصر وحماية الثروة الزراعية والتخلص من ديوننا الأجنبية . وعندما رأى الأزمة تستحكم وتحصد دخول الناس واقواتهم مد فى أجال القروض ، وخفف الفوائد ، وامتنع عن تصفية الحسابات ، واحتال على فتح حسابات جديدة واجراء التأمين لدائنيه لدى الشركات الكبرى .

وكان أضخم أعماله فى ميدان التصنيع : إنشاء مصانع القطن فى المحلة الكبرى على مساحة قدرها ٢٢٥ فدانا ، فأفزع مصانع لانكشير وراد فورد ، ولكنه ظل يحمى مشروعاته بكثير من اللباقة والمرونة حتى تحقق

لها النجاح . قد دعاه هذا إلى أن يزور مراكز الصناعات فى انجلترا رغبة فى حراسة مشروعه وحمايته. فقد كان يخشى أن تتآمر بريطانيا على مشروعه كما فعلت المصانع النمسوية بعد إنشاء مصنع الطربوش . وكانت مصانع القطن فى بريطانيا قد اتفقت على أقامة شركة لها فى مصر تناهض الشركة المصرية ، وبعد دراسة وبحث تم الاتفاق بينه وبين هذه الشركة على قصر عمل الشركة الإنجليزية على طباعة وصباغة الغزل والنسيج الرفيع من القطن المصرى ولم يلبث طلعت حرب أن أوغل وتعمق ميدان العمل . وقفز من القطن إلى الحرير والكتان والأسماك والرخام والطيران والسينما والتأمين والحج. واستغل رأس المال المصرى والأيدى المصرية التى أعدها لهذه الأعمال وأرسلها فى بعثات دراسية . وزار أوربا منقبا وباحثا ودارسا. زار البنوك فى بروكسل ، ومراكز الصناعات فى نورتيرية، وبنوك إنجلترا ، وسوق القطن فى لفربول ومانشستر وزار بنوك برلين ، ومعرض الصناعات فى ليبزج ، وميناء هامبورج ، وميناء كوبنهاجن ، ومصانع كروب . ولم يدع مكانا صناعيا دون أن يشاهده ويستعلم عن احصائيته وعماله .

ويتجه إلى دعم الروابط بين العرب ، وحاول توحيدها اقتصاديا ، قبل انشاء جامعة الدول العربية ، فانشأ مصارف مصر فى سوريا ولبنان والحجاز واحتفل بأول طيار مصرى وصل من أوربا وهو (محمد صدقى) .

ثم اتجه إلى الميدان العربى فربطه بالمصارف والمؤسسات وكانت له جولة سنوية فى جميع مديريات ومراكز وقرى مصر يكررها سنويا للتعرف على أحوال عماله وتطورات حياتهم وأعمالهم . وكان يعرف أزماتهم ومراكزهم كما يعرفونها هم تماما . وفى كل خطوة كان طلعت حرب يقطع الصخر من طريق الاقتصاد المصرى والعربى .

وقد وقف منه كلا من الملك فؤاد وسعد زغلول موقفا سلبياً ، فقد كان الملك على هوى الإستعمار والإقطاع لا يريد لمصر أن تتحرر اقتصاديا حتى يستمر نفوذه ونفوذ أسرته ، وكان سعد زغلول حزبياً صارخا، يريد البنك لفئة دون فئة

ولذلك شق طلعت حرب طريقة بالحكمة والمرونة والحزم حتى أصبح البنك قوة كبيرة لا يستطيع أحد أن يتجاهلها .

* * *

كان طلعت حرب صادق الوطنية المصرية وصادق العروبة عميق الإيمان بالقيم العربية الإسلامية حنيا بها طامعا فى تحرير الشخصية العربية من عوامل التدمير التى يحشدها له المستعمر فى كل ميدان . ومن ذلك قوله : « لقد اعتاد بعض الغربيين من بلاد أوربا أن يصفوا الشرق بأنه لا تبهره إلا القوة المادية ، وقوة الجيوش ، أو قوة الأساطيل والذهب الرنان ، ولو أنصفوا لعلموا أن فى الشرق روحا تحن إلى العدل والإنصاف ولو أنصفوا لرأوا كيف يعترف لسان حال المصرى بالجميل أمام مظهر القوة الأدبية ، وهكذا كلما وجدت بين الشرق والغرب روابط المودة والتقارب المجردة من الغايات زاد السلم فى ربوع العالم ، والتقى الشرق بالغرب فى أفق واحد من الحرية والإخاء والإنسانية . »

وهو يؤمن بروح الشرق والإسلام فى كل ما يقول ، إذ كانت ماديات الغرب قد بدأت تتغلغل فى حياة الشرق وفى حياة مصر ، وكان يخشى من أن تجتاح الفضائل الفردية التى يمتاز بها الشرق فيدعو إلى أن نتذكر من تقاليدنا ما كان يقوم به بيت المال من أداء الحقوق المفروضة للضعفاء من المرضى واليتامى والمصابين والمعوزين ويقول « علينا أن نذكر بجوار ماديات الغرب الجافة المبادىء السامية الأخرى التى ينادى بها المصلحون من تضامن اجتماعى واجب وإسعاف منظم » .

وهو يرى أن النجاح ليس بالعمل الذى يتولاه المرء بل بالشخصية وجوهرها يقول : ليس النجاح معلقا على وظيفة ينالها الشاب فى الحكومة بل النجاح معلق قبل كل شىء على الصفات التى تتحلى بها النفوس والاشخاص.

فإذا كانت هذه الصفات من شأنها تكوين شخصيات مستقلة معتمدة

على ذاتها ، قوية فى إرادتها ، كان النجاح مضمونا واستقلال الشعوب لا يكون حقيقيا إلا يوم يكثر استقلال الأفراد .

* * *

فإذا عدنا إلى شخصية « طلعت حرب » وجدناه إنسانا ممتازاً له خلق ، وشخصية واضحة المعالم ، أبرز ما فيه نشاطه وتواضعه . وقد عرف بالوفاء وطيبة النفس . وكان إلى جانب ذلك قوى الإيمان بالله حريصا على التقاليد ، قوى الذاكرة حاضر البديهة ، له صبر وجلد فى العمل لا يبارى ، يؤمن بأن التواضع سعادة ، وإن كان طلعت حرب من رجال الاقتصاد فانه كان أيضا من الحالمين ، شأن العباقرة ، الذين جددوا حياة الإنسانية ، بدأ حياته مصلحا إجتماعيا ثم تحول إلى رجل اقتصاد يحمل طبيعة البناء الواسع الأمل الذى لا يتقيد كثيراً بنظم الاقتصاد ، ولكنه يؤمن بالحلم الوطنى الكبير الذى كان يعيش فى أعماقه . وهو أن يحقق لمصر وللأمة العربية أملا كبيراً ، أن يحطم قيود الإستعمار الضخمة التى أحاطها بها ، وكان بذلك يعمل على إنقاذ الفلاحين وتحرير الأرض وتشغيل الأيدى العاملة وبناء الصناعة وخلق جيل من الشباب المصرى المثقف للعمل المصرفى والشركات .

وقد ظل طلعت حرب قويا لامعا حتى جاءت أزمة ١٩٣٩ حين تألبت عليه السياسة الحزبية والإستعمار جميعاً فأخرج من المصرف الذى أنشأه وهو فى أوج قوته حتى أنه كان يقول :

(لقد مت ولم أدفن) وكان أمله الذى مات دون أن يحققه هو حصر سندات الدين المصرى فى أيدى المصريين حتى تتحرر البلاد وقد تحقق أمله بعد وفاته .

من كلماته التى تمثل صورة نفسه ومفاهيمه : من دخل من باب السياسة خرج من باب البنك ، أن البنك وشركاته لا تؤلف عدة مشروعات ولكنها

مشروع واحد ، سنستغل الإئتمان فى الإنشاء ، وسنستعين على تنفيذ مشروعاتنا بالودائع .

* * *

إن ركب الحضارة الصناعية قد فاتنا طويلا ، وليس هناك من سبيل للحاق به إلا السرعة ، السرعة ، السرعة ، ونحن نعلم أننا لن نسلم فى هذا السبيل من أخطار السرعة ، ولكن حسناتها أعظم من أخطائنا ألف مرة فإذا أخطأنا فليس هذا عيباً .

* * *

الرجل الذى يقامر مستعد لأن يلعب بآخر ورقة فى يده ، ولو كانت هذه الورقة هى شرفه ، وقرأ اسم أحد كبار موظفيه وهو فى أوربا فى كشوف سباق الخيل فأرسل إليه برقية تقول :

بيعوا جيادكم أو قدموا استقالتكم

(توفى ١٩ يناير ١٩٤١)

من مؤلفاته :

تربية المرأة والحجاب ، البراهين البينات على تعلم البنات ، تاريخ دول العرب والإسلام ، علاج مصر الاقتصادى ، كلمة حق على الدولة العلية ، فصل الخطاب فى المرأة والحجاب ، خطب طلعت حرب (٣ أجزاء) .

— ٢٥ —

عبد الحميد سعيد

(توفى ١٩٤٠)

كان النوابغ فى مطالع هذا القرن يجمعون فى العمل بين مختلف ميادينه، بين القلم والسيف ، وبين الخطابة والكتابة ، بين العمل فى مجال الوطنية والعمل فى مجال الثقافة ، بين الاشتراك فى الهيئات السياسية والإسلامية والاجتماعية . وقد كان عبد الحميد سعيد « وطنيا » متطرفا ، عاش حياته كلها بعيداً عن مغريات حكم الأحزاب السياسية وصراعها . مرتفعاً فوق مطامعها وأهوائها . وكان فى دعوته إلى الجلاء ، ووحدة وادى النيل يبدو مغرقا فى الخيال ، بعيدا عن الواقعية ، ولكنه ظل يقاوم تلك الأوضاع مؤمنا بأن دستور سنة ١٩٢٣ ولد مشوها ناقص الخلق ، لا يحقق آمال البلاد ولا ينص على وحدة وادى النيل. اشتغل بالحركتين العربية والإسلامية، وكان لامعا، طوالا ضخما، وخطيبا جهيرا، درس الحقوق فى جامعة باريس، هجر وطنه بعد الليسانس وقال إن هذا الوطن يتحكم فى شأنه غير أهله ، وأن واجبه أن يكون جنديا لبلاده وقاطع روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة فى الحفل الرسمى، وأثار عليه ثائرة الفرنسيين . وكان روزفلت قد زار مصر سنة ١٩٠٩ وألقى خطابا فى الجامعة المصرية قال فيه : إن مصر لم تصل بعد إلى المكانة التى تؤهلها لأن تحكم نفسها بنفسها ، ولا أن تدير أمورها وتستقل بشئونها ، وأحدث الخطاب ضجة عاصفة بين الطلبة فى الخارج ، فلما عرج روزفلت على باريس ، احتفلت به حكومة فرنسا وأعدت له ندبا فى قاعة جامعة السربون الكبرى ، وكان عبد الحميد طالبا فى الجامعة ، فاتفق مع اخوانه المصريين على حضور هذا الحفل ، واستماع روزفلت صوت مصر الذى لم يسمعه فى القاهرة ، واتخذ كل منهم مكانه فى الصفوف الأمامية

وتوزعوا على جوانب القاعة ، فأفسدوا عليه خطابه تلك الليلة ، وأثاروا الضجة فلم يسمعه أحد ، ولم يجد ماكان يطمع فيه من متعة الحديث فى ذلك الندى الضخم .

وقال عبد الحميد سعيد : إنما فعلت هذا لأن روزفلت قد طعن على بلادى وهو ضيف بها ورماها بالانحطاط والتأخر وزعم أنها ليست أهلا للاستقلال .

* * *

وماكادت دراسته تنتهى، حتى اندلعت حرب البلقان سنة ١٩١٢ فسارع إلى الاشتراك فيها متطوعا ضد جيوش البلقان ، وكانت دول البلقان قد ثارت على الدولة العثمانية . وقدم نفسه فى تركيا إلى الصدر الأعظم مختار باشا ، صديق والده وأظهر له الرغبة فى التطوع لمساعدة الأتراك .

قال مختار باشا : أنك كشاب متعلم تعلما عاليا أضن بك عن الاشتراك فى هذه المجزرة البشرية ، وعرض عليه وظيفة بمرتب خمسين جنيها ، حتى لا يلقى بنفسه فى ميدان الحرب الذى تحصد كل يوم الآلاف ، ولكن عبد الحميد سعيد رفض وصمم على أن يشترك فى الحرب ، فسمح له بالتمرن على الحركات العسكرية ، فترة ، ثم ألحق بفرقة المتطوعين الألبانية وذات ليلة ،كان الجيش التركى رابضا وقد هطل المطر غزيرا فتراكمت الأوحال ، وتوعرت الأرض ، وإذا بالجيش البلغارى ، يحيط به من كل جانب فيمعن فيه تقتيلا وتجريحاً . ودوى نفير الجيش صيحة خاصة لم يتنبه لها الدكتور ولم يمر بعدها إلا القليل من الوقت حتى وجد نفسه منفرداً . فأسرع واختبأ فى وسط عيدان من البوص، وأبصر جندياً من البلغار مقبلا عليه ،وهو يمر على الجرحى من الجيش التركى فيقضى عليهم بسيفه ذبحا وإذا به يقترب من البوص ، فلم يمهله عبد الحميد حتى طعنه بسنجة بندقيته فى صدره طعنة نجلاء ، نفذت من صدره وطرحته إلى الأرض ولكن الجندى البلغارى، بالرغم

من إصابته سحب بندقيته وأطلق عبد الحميد طلقتين ناريتين أصاب أحدهما كتفه والآخر ساقه ، ثم إنقض على الجندى وقضى عليه ، وبعدها خارت قوى عبد الحميد وبدأ ينزف فارتمى على الأوحال ، ثم تقدمت شرزمة أخرى من جنود البلغار ، وسرعان ما أسعفته قريحته أن يصطنع الموت فحبس أنفاسه ولزم السكينة فلما مر الجنود به قلبوه فلم يجدوا فيه علامات الحياة فجردوه من سلاحه وأخذوا ما معه من نقود بعد ساعة هى من أقسى ساعات عمره ، ثم جاءت فصيلة من الجنود الأتراك فحملوه .. وكانت جمعية الصليب الأحمر الإنجليزية ، تترك الجرحى وتهمل شأنهم حتى تتعفن جراحهم فيموتون ، وكذلك فعلوا معه ، ثم طلبوا منه الانتقال إلى سرير كان قدمات عليه جريح بحمى التيفوس ، فأبى ، فهدده مدير المستشفى بأنه إذا لم يقبل فسوف يضربه بالرصاص ، فتناول قلة كانت بجواره فضرب بها مدير المستشفى وفر منه ، .. تلك صورة مطالع حياة الطبيب : عبد الحميد سعيد ، الذى تعلم الطب ، ثم شارك فى الحرب البلقانية ليتعلم كيف يحارب الإنجليز فى بلاده ، ويتدرب على أعمال المقاومة التى كان يطمع فى أن تتخذها مصر سبيلا لمقاومة الاحتلال البريطانى .

* * *

غير أن عبد الحميد سعيد ، لم يقف عند هذا الحد بل شارك فى مجال السياسة العامة ، وعمل قومسييرا للدولة العثمانية فى بلاد الحجاز ، وتدور رحى الحرب العامة فينخرط فى جندها عدوا لبريطانيا ، التى تحتل بلاده ، وينتقل من ميدان إلى ميدان ، فهو تارة مع أحمد جمال فى الشام ، يعمل فى حملة تركيا على قناة السويس ، ثم إذا به فى قلب الجزيرة العربية يجرى المحادثات بين السعوديين وابن الرشيد محاولا يؤلف بينهما أو جامعا للقبائل والجنود والمتطوعين ضد بريطانيا ومع خصومها أو مشاركا فى حصار الشريف حسن للجيوش العثمانية فى المدينة ، وقد استطاع أن يقوم بفك الحصار عن المدينة وجلب المؤن لها من الكويت ، فلما بدأت الثورة العربية فى الجزيرة خرج

قاصداً العراق ، فقبض عليه أسيرا ، وهربته أعرابية فقصد قبيلة بنى حرب وأقام فى جزيرة العرب حتى عام ١٩١٨ فلما وضعت الحرب أوزارها ، وأعلنت الهدنة سافر إلى الآستانة . ومنها استقل القطار مع زملائه : عبد العزيز جاويش وعبد الملك حمزة ، ومحمد فريد والدكتور أحمد فؤاد .

ولم يكن فى موافقة هذه إلا صاحب الصوت المرتفع لتحرير مصر . والمخاصم لبريطانيا ، المحارب لها ، المعارض لسياستها ، المنكس لأعلامها أينما ذهب ، ولم تكن صداقته للعثمانيين إلا خصومة لمحتلى وطنه .

* * *

فلما انتهت الحرب العالمية الأولى وعاد المهاجرون إلى أوطانهم ، عاد عبد الحميد سعيد إلى مصر ، ليبدأ صفحة كفاح جديدة فى وطنه ، فكان من أقوى الأصوات فى مجلس النواب فى سبيل الجلاء والحرية والوطنية ، فلم يكن مواليا لسياسة الأحزاب الحاكمة بل كان معارضا لها ، وكان من أقوى خصوم معاهدة ١٩٣٦ والحاملين على نصوصها ، والمهاجمين لها .

وكان فى مجال العمل للاصلاح الاجتماعى صوتا عاليا من أجل التعليم الدينى فى المدارس ومحاربة نزعات السيطرة الاستعمارية على الفكر والتربية ومهاجمة الأبحاث ، والكتب المنحرفة التى تدرس فى الجامعات والمدارس والتى تحمل على مصر والفكر العربى الإسلامى وله مواقف مشهودة فى مقاومة آراء بعض دعاة الولاء للفكر الغربى ، ولم يتوقف يوما عن معالجة القضايا العربية الإسلامية ، وشارك فى الدفاع عن الحبشة وأفريقيا .

وكانت دعوته قوية إلى التعليم الإجبارى . ونشر التعليم الصناعى ، وإنشاء المصانع للخريجين كما طالب بأن تكون الثقافة الدينية عنصراً أساسياً من عناصر التعليم وفروعه المختلفة ، ودعا إلى أن يحافظ الأزهر على صبغته التى عرف بها وأن يأخذ فى العلوم الحديثة . ورفض الدعوة إلى لباس القبعة ، وقال هل تجعلنا أوربيين دما ولحما ومعنى ، وهل نصير أوربيين فى تفكيرنا ،

وهل يحترمنا الأوربيون ويعتبرونا جــزءاً منهم ، ويرحبون بنا كأنداد متساوين وأكفاء حقيقيين ، اللهم لا »

* * *

وقد تحدث الدكتور عبد الحميد سعيد عن تأثرات تربيته الأولى فى إجابة عن سؤال : ماذا علمنى والدى ؟

قال : كان والدى إذا اقتنع بفكرة ضحى فى سبيلها بكل شىء ، فيضحى براحته وماله ووقته وهو مغتبط ، وكان قد اقتنع بالفكرة الوطنية وشارك فيها ،وانتخب على أثر نفى سعد رئيساً للجنة الوفد المركزية فى القاهرةفأشرف عليها ، وحفظها وتولى إعداد مظاهراتها والسعى لتدبير المال اللازم ، وكان دار « ابراهيم سعيد » خلف بيت الأمة ، كعبة الوطنيين والطلبة ، وكان إذا اقتنع بفكرة واعتنق مذهبها خاصم كل من يخالفها ، وجاهره بالعداء ، وكان على شعراوى وعبد العزيز فهمى ولطفى السيد وعبد اللطيف المكباتى من أصدقاء والدى ، فما كادوا يعلنون خروجهم عن مبادىء الوفد حتى ناصلهم والدى ، وكان إلى ذلك لايحتمل أن يمس أحد كرامته بحال من الأحوال ، وكان لايداهن ولا يرائى ، فإذا عتب عليك لأمر من الأمور واجهك فى صراحه »

ولا شك تعطى هذه الشمائل آثارها الواضحة فى حياة عبد الحميد سعيد فالولد سر أبيه

* * *

ولقد ظل الدكتور عبد الحميد سعيد وفيا لمبادىء الحزب الوطنى ، مؤمنا بمبادئه ، حتى عام ١٩٣٦ حين انصرف إلى العمل فى المجال الإسلامى العام ، وكان قد اختير رئيساً لجماعة الشبان المسلمين منذ انشائها عام ١٩٢٧ وكان السيد محب الدين الخطيب مؤسس الجمعية قد اختارة لرئاستها بعد أن اعتذر عن هذا المنصب العلامة : أحمد تيمور ، وكانت الجمعية قد انبعثت فى ظروف حرجة ، ظهرت خلالها كثير من الحملات على الإسلام واللغة العربية ومصر والعروبة . فأجمع فريق من الغيورين على مواجهة هذه

الحملات بالدعوة إلى التذكير بأمجاد هذه الأمة ، والكشف عن دورها فى الحضارة ، وأثرها فى النهضة الحديثة .

وقد شارك عبد الحميد فى قضايا تحرير الوطن الإسلامى ، وكانت قضية فلسطين فى مقدمتها ، وكان لجمعية الشبان المسلمين ومجلتها ومجلة الفتح التى كان يحررها السيد محب الدين الخطيب أثر بعيد فى مقاومة حركات الاستعمار والنفوذ الأجنبى فى طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش وكانت مصر تستقبل المجاهدين من هذه الأقطار ، وتفسح جمعية الشبان لهم منابرها للكشف عن حقائق النفوذ الأجنبى ، فى هذه الأقطار .

وفى عام ١٩٣٦ كانت قضية فلسطين قد بلغت مرحلة حاسمة فى تاريخها عندما اندلعت الثورة فى أركانها ، وقام الفلسطينيون بحركة المقاطعة المشهورة ، هنالك رأى الدكتور عبد الحميد سعيد أن يتفرغ للعمل فى مجال القضايا العربية الإسلامية السياسية ، هنالك كتب يقول :

« تجمعت على المسلمين فى السنين الأخيرة آلام كبيرة يجب أن تتضافر القوى وتقصر الجهود على تحقيقها وأرى من الحق أن أهب وقتى كله لهذا الجهاد الشامل الذى يتناول مطالب المسلمين من تهذيب دينى وخلق إلى إصلاح اجتماعى إلى حرية سياسية »

وفى نفس الوقت توجه بالدعوة إلى دعم الثقافة الدينية فى برامج التربيه والتعليم ننشر دراسة طويلة ، فى هذه القضية : وقال :

إن سياسة القضاء على تحفيظ القرآن وتعليم الدين وآدابه ، إنما هى سياسة مدمرة مخربة لم يستطع الاحتلال فى عهد سلطانه الكبير ، وعهد مستشاريه الإنجليز أن يقررها أو يقدم عليها ، أن برامج وزارة المعارف وأنظمتها الخاصة بالدين ، إذا نفذت كانت قاضية على الروح الدينية فى مدارس الحكومة ، ودور التعليم ، بل فى الأمة جميعاً ، مؤدية إلى حرمان المسلمين من حفظ القرآن الكريم ، فقد أغلقت وزارة المعارف كتاتيب

الإعانة ، وهى التى كانت مخصصة لتعليم القرآن بحجة أنها غير مستوفية لشروط الصحة . أما المدارس الإبتدائية فإن تحفيظ القرآن وتعليم الدين يكاد يكون فيها معدوما بالمرة، إذ كثيراً ماتستعمل حصص القرآن وحصص الديانة لعلوم أخرى،لأن الطلب لايؤدى امتحانا فى المواد الدينية والقرآن، أما فى المدارس الثانوية فإن تعليم الدين لايكاد يذكر وكذلك فى الجامعة .

أن الطالب فى مصر ينتقل فى كل أدوار التعليم فلا يجد من ذلك الغذاء الدينى ما يحي فيه الرجولة الكاملة او الأخلاق الفاضلة .

إن الذى لايهتم بالدين كمن يجرد الجندى من سلاحه . فالطالب الخلو من التعاليم الدينية والذى لم تجتل بآثارها نفسه ، إنما يدخل وسط الزوبعة الهوجاء فى معترك الحياة أعزل من السلاح ، فلا يجد ما يدفع به عن نفسه، بل هو يلاقى كل أبواب الشرور والفساد والفسوق مفتحه أمامه ، وهى خطة دفعت بالكثير من شبابنا فى المدارس إلى اللادينية ، ويرجع ذلك إلى وزارة المعارف العمومية لعدم عنايتها بالدين ولإهمالها شأنه . لعلكم تعلمون أن التعليم الدينى أصبح فى إيطاليا وألمانيا إجباريا فى جميع المدارس على اختلاف أنواعها وفى كل أدوار التعليم ، وكذلك سوريا جعلت التعليم الدينى إجباريا . . الخ

وكانت مفاهيمه الوطنية والدينية مندمجة مداخلة: «أن ترك الدين فى نظرى هو مقدمة الإستعمار، ولو أننا كنا نحافظ على ديننا ونعمل بأوامره وتنتهى بنواهيه لما رضينا أن تكون بلادنا فى قبضة المستعمرين ، إذ أن الإسلام لايرضى الذل ولايعرف الخنوع ولايقبل الخضوع لغير الله الواحد القهار».

آثاره وكتاباته :

مجلة الشبان المسلمين (١٩٢٩ — ١٩٤١) ، والمصحف ١٩٢٦ ، ١٩٣٢ فى خطبه وبياناته فى البرلمان .

مراجعه :

السياسة سبتمبر ١٩٢٦ ، كل شىء مايو ١٩٣٣ ويونية ١٩٣٣ والمصور يوليو ١٩٤٠ والبلاغ أكتوبر ١٩٢٧ والشبان المسلمين ديسمبر ٢٧ ويوليو ١٩٢٧ .

— ٢٦ —

عبد الرحمن الجبرتى

(١٧٥٤ — ١٨٢٢)

لا يذكر «الجبرتى» إلا مرتبطاً بالأمانة العلمية التى كانت مصدر اضطهاده ومتاعبه وشقوة شيخوخته . وهو الثرى الغنى عن احتمال الأذى ، لولا عقيدة ثابتة فى أعماقه يصدر عنها فى أن يعتنق كلمة الحق . ويؤمن بشرف القلم . وقد أشار إلى ذلك صراحة فى مقدمة كتابه «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» حين قال : إنه لم يقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير . أو طاعة وزير أو أمير ولم يداهن فيه دولة بنفاق ، أمدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسانى أو عرض جسمانى» وقد التزم الأمانة العلمية فى هذا الوقت الباكر واتخذ المنهج العلمى قبل مستهل القرن التاسع عشر وقبل أن تصل إلينا مناهج أوربا والفكر الغربى

ويرسم اتجاهه للعمل فى مجال البحث التاريخى فى عبارات مضيئة تدل على إيمانه بشرف الكلمة : يقول :

«واعلم أن التاريخ علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم آثارهم وعاداتهم وصنائعهم واكسابهم ووفياتهم . وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم ، والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هى ، وكيف كانت ، وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحذر العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السابقين ويستجلب خيار أفعالهم ويجتنب سوء أقوالهم ويزهد فى الفانى ويجتهد فى طلب الباقى :

«ولما كان علم التاريخ علما شريفا فيه العظمة والاعتبار وبه يقيس العاقل

نفسه على ما مضى من أمثاله فى هذه الدار ، ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنسانى تعتنى بتدوينه سلفا عن سلف ، وخلفا عن خلف ، إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه ، عدوه من شغل البطالين وقالوا أساطير الأولين ولعمرى أنهم لمعذورون . .

«وفن التاريخ علم تندرج فيه علوم كثيرة لولاه ما ثبتت أصولها ولا تشعبت فروعها ، منها طبقات القراء والمفسرين والمحدثين وسير الصحابة والتابعين وطبقات المجتهدين ... وأخبار المغازى وحكايات الصالحين . .

* * *

« ولما عزمت على جمع ما كنت سودته أردت أن أومن بشىء قبله فلم أجد بعد البحث والتفتيش إلا بعض كراريس سودها بعض العامة من الأخبار ركيكة التركيب ، مختلة التهذيب والترتيب » .

وقد بدأ الجبرتى الكتابة التاريخية حين كلفه أستاذه « السيد أبو الفيض مرتضى الزبيدى » أن يكتب « جذاذات » عن تاريخ أعلام المائة الماضية أى القرن الثانى عشر الهجرى من المصريين ـ لعلمه بأن له — أى الجبرتى — صلات برجالات مصر من أمراء وكبراء ومشايخ وأعيان . وقد رسم له الطريق الذى اختطه الجبرتى وسار فيه وعمقه من بعد حين ، قال له : عليك بالتخير والتحرز ، واعلم أنه ليس كل من نبه ذكره ، عظم فضله ، وقد يثبت الفضل فى الصدور الوضيعة ، وتغمر الدنيا أصحابه فيجب التنقيب عنه وذوو الفضل أقران فيه ، لكنهم يتفاوتون فى درجاته ومراميه . فإياك والإسراف ، وعليك القصد لا تتعجل الأمر ولا تتباطأ فيه ، ففى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة وأوصيك بالالتفات إلى الأعلام المشهورين وأذكر من أحبك فى الله وأحببته ، واستفدت منه شيئاً ، أو كاتبك أو كاتبته ، أو بلوت منه معروفا وكرما ، ياحبيبنا ، أنت تعلم أن همنا لا يعدو خدمة العلم والعلماء ، ولما كان المرء قليلا بنفسه كثيراً باخوانه ، رأيت أنه ليس أوكد صلحا بى منك لتكون لى عونا على تحقيق أمر ذى بال . . »

وعلى ضوء هذه القاعدة بدأ الجبرتي يكتب، غير أنه لم يقف عند هذا العمل، بل تعداه، إلى كتابه تاريخ كامل، وبعد «الجبرتي» هذا الاتجاه الذى وجهه إليه الزبيدى نقطة تحول فى حياته، فلم تكن كتابة التاريخ هوايته، وكان غرامه أكبر بالدراسات الفلكية والحسابية والهندسية، وهو قد تلقى فى الأزهر علوم الفقه وبرع فيها، ولكنه أولع بهذه العلوم الرياضية وبلغ فيها مبلغاً مكنه من تحرير القبلة لمسجد أبى هريرة بالجيزة، غير أن فكرة أستاذه قد دفعته إلى طريق جديد خلد اسمه وكتبه بين علماء التاريخ العربى الإسلامى الحديث، فقد بدأ يقرأ كتب التاريخ كالطبرى وابن الأثير وابن إياس، ثم حاول الكتابة التاريخية على طريقة وصف الحوادث وكتابة اليوميات، وقد دون (طيارات) عن الأحداث والملاحظات التى صادفته حتى صح منه العزم وهو على أبواب الخمسين على أن يضع تاريخا جامعاً لهذه الفترة فجمع كراساته وأوراقه وبدأ يدونها حتى جاءت على النحو الذى تراه الآن فى كتابه الضخم الذى يعد مرجعاً هاما لهذه المرحلة من تاريخ مصر.

* * *

يقول فى مقدمة كتابه عجائب الآثار «أنى قد سودت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثانى عشر وما يليه وأوائل القرن الثالث عشر الذى نحن فيه، جمعت بعض وقائع إجمالية وأخرى محققة وغالبها مما أدركناها، وأمور شاهدناها، واستطردت فى ضمن ذلك سوابق سمعتها ومن أفواه المشايخ تلقيتها وبعض تراجم الأعيان المشهورين من العلماء الأمراء المعتبرين مع من لمع من أخبارهم وأحوالهم».

وقد أشار مؤرخوه إلى أنه كان يدون الأحداث إجمالا ثم يعود إليها بالشرح والتفصيل، ويسجل فى مذكراته الحوادث اليومية ثم يتوسع فيها. وقد سجل حوادث السنين الأولى رواية عن شيوخه وأصدقائه الذين شهدوها أو سمعوها، ورجع فى ذلك أيضاً إلى سجلات الدولة من دفاتر الكتبة وغيرهم كما درس نقوش أحجار المدافن، وصكوك دفاتر المحاكم، والحجج حيث

تدون أسماء الناس وأعمارهم وحرص أن يشاهد بنفسه أحداث عصره وأن يتقصاه . وكان غيورا على آثاره ، ينقلها من مكان إلى مكان خشية الضياع ،أو الوقوع فى يد خصومه .

* * *

وقد أثر عنه كتابان هامان :

* عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

* مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس .

وقد خص كتابه الثانى بيوميات الحملة الفرنسية ، أما كتابه الأول فقد صور فيه المجتمع المصرى تصويراً دقيقا صادقا ، وقد نزه قلمه عن أن يقول غير مارآه وما آمن بأنه الحق ، فقد كان ثريا ميسورا غنى النفس زاهداً فى المطامع ، معروفا بالشجاعة والصدق ، فجاء كتابه صورة صادقة لعصره ، بعيداً عن التعقيد أو التلفيق أو التزييف ، والموجود الآن من كتاب الجبرتى أربعة أجزاء ، أما الجزء الخامس الذى صور فيه عصر محمد على فالمتواتر أنه سرق أو أعدم .

وقد أخذ عليه الباحثون أن كان فى خلال فترة حكم محمد على كان يختصر الرأى ويوجزه .

وقد شهد له محمود الشرقاوى وغيره من الدارسين أنه كان فى أغلب مواضع كتابه حر الفكر سافى العقيدة ، كثير النقد للبدع ، ومدعى الولاية ،كما نقد الحكام الذين أسرفوا فى أموال المسلمين والذين أنفقوا النفقات الضخمة فى سبيل الأبهة والرفاهية ... والتفاخر .

* * *

وقد نقد بعض الباحثين منهجه فى التاريخ محاولين مقارنته بالمنهج الحديث لكتابة التاريخ ، من حيث التحليل والتعليق ، وليس على الجبرتى من ضير فى أن لايلمس منهجا لم يعرفه ،ويكفينا منه الأمانة والدقة ، مهما قيل أن كتابه كان أشبه بجريدة يومية أو أسبوعية تسجل الحوادث الواقعة .

ويقتضينا الانصاف أن نقول إن كتابه شمل «الأحداث والأعلام» معاً وهما جانبي الدراسة التاريخية وأنه لم يدع أميراً ولا شيخا من الأزهر ولا واليا ولا عالما ولا تاجراً ولا شاعراً إلا أرخ له ، وقد أولى الاهتمام بأسعار الغلال والسمن واللحم واللبن ، وسجل عمارات المساجد والبيوت.

* * *

وكان فى عامة عمله متواضعا شأن العلماء لا يستطيل ولا يدعى أنه حقق كل شىء ، وعباراته فى ذلك واضحة الدلالة فهو يقول : إنى لا أخترع شيئا من تلقاء نفسى ، والله المطلع على أمرى وحدسى ، ولا أكتب حادثه حتى أحقق صحتها بالتواتر. ويقول: هذا مع اعترافى بقصور الباع وفتور الطباع فى قوانين المعانى العربية ودواوين المثانى الأدبية» ولاشك ترجع قيمة تاريخ الجبرتى وصيرورته مكان الثقة وترجمته إلى اللغات الأوربية واعتماد الباحثين عليه إلى هذه الأمانة العلمية وتحرى الحق والصدق .

وفى تقدير المؤرخين أن الجبرتى هو واضع الحجر الأول فى صرح الرواية[1] فى مصر الحديثة وأن كتاباته قد اتسمت بدقة الملاحظة وقوة البحث وبساطة التعبير ونزاهة التقدير . وأن خفة روحه تبدو واضحة ، حين يتحدث عن الحرافيش والجعيدين ومواليهم ومعتقداتهم وأناشيدهم .

* * *

ولقد كان الجبرتى إنسانا كريم السجايا ، محبوبا ، وكان حفيا بأخواته وتلاميذه ، فيه سماحة العلماء وعمقهم ، له قدره على وزن الأحداث وتحقيقها بنفسه والذهاب إلى مواقعها ؛ وقد كان فى خلال تاريخه كله واضح الشخصية ، خصما للمماليك والفرنسيين ولمحمد على حين تحول إلى الظلم ، وكان إلى ذلك يكتب تاريخ الشعب والناس لا تاريخ الملوك والأمراء ، وقد

(١) أبتدأ الجبرتى تاريخه بحوادث سنة ١١٠٠ ﻫ وانتهى ١٢٣٦ ﻫ (١٨٢١ م)

أفاده فى مجال الاهتمام بالمجتمع المؤرخ المقريزى، وكان له اهتمامه بالبطولة والأعلام ، منصفا ، جريئا ، أبرز ما فى عمله أنه لم يوطئه لحاكم أو عظيم أو يضعه فى خدمة أى من الزعماء ولذلك كان قادرا على النقد وإعلان كلمة الحق ، وقد احتمل فى ذلك ما كلفه حياته نفسها وكلفه فلذة كبده .

ذلك أن الجبرتى قد سجل فى تاريخه عبارة عن محمد على قال فيها : فلو وفقه الله لشىء من العدالة على فيه من العزم ، لـكان أعجوبة زمانه ، وقد أثارت هذه العبارة — بالإضافة إلى ماسجله فى الجزء الخامس الذى صودر وأعدم — محمدعلى، وكان الجبرتى قد ارتفع به السن وضعف بصره وكان ابنه يعمل فى وظيفة التوقيت فى قصر شبرا ، فبينا هو عائد ذات مساء إذ هاجمه بعض الأشقياء وأثخنوه جراحا ثم ربطوه برجل حمار ، فلما بلغ النبأ والده المؤرخ الكبير ، فزع واضطرب وعرف أن ذلك كان انتقاما منه لحرية رأيه وإيمانه بالحق واصراره على أداء الأمانة التاريخية على وجهها . وقد كف بصره من بعد وهصرت الأحزان قلبه وبلغ الحادث من نفسه مبلغه من المرارة والألم ، ولم يلبث أن مات بعد ثلاث سنوات محزونا، وقد أشار صاحب معجم المؤلفين (كحاله) إلى أن الجبرتى نفسه هو الذى مات وهو عائد من قصر شبرا ولم يتحقق ذلك .

أما كتب الجبرتى فقد حظر تداولها وطبعها ، ثم سمح بطبع بعض أجزائها فى أواخر القرن التاسع عشر .

* * *

والحق أن الجبرتى علم من أعلام الرواد ، أعانه على التبرز والنبوغ طبع ملىء بالتواضع ، والصبر على التحقيق والبحث ، وثروة رفعت قلمه عن مطامع الأمراء ، ومشاركة فى العلم ، فقد كان يقصد إلى المجمع العلمى الذى أنشأه الفرنسيون يطالع ثمرات الحضارة ، ويتعرف بحوثهم يقول : لقد ذهبت إليهم مرارا وأطلعونى على تصاويرهم ورسوماتهم . . وآلاتهم فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على صورة النبى ومصورون به صورته

الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم ، وهو قائم على قدميه ، ناظراً إلى السماء ، وبيده اليمنى السيف ، فى اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة بايديهم السيوف ، كما رأى الالات الفلكية العجيبة وشهد التجارب الكيماوية والطبية ، وقد أعانه على البحث أنه كان عضوا فى الديوان الذى أنشأه مينو ، وقد أفاده ذلك فى دراساته التاريخية وأتاح له فرصة الاطلاع على كثير من الوثائق والمراسلات .

فإذا عيب على الجبرتى ضعف أسلوبه ، فالأمر ليس أمره وحده ولكن أمر جيله كله ، ويكفى أنه لم يغرم بالمحسنات البديعية واعتمد على طريقة الكتابة البسيطة التى تحمل فى كل كلمة معنى ومفهوم .

* * *

من مؤلفاته وأثاره :

مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيسى

عجائب الإثار فى التراجم والاخبار

دستور تقويم الكواكب السبعة

مختصر تذكرة داود الانطاكى

مراجعه :

مهرجان رفاعه (المجلس الأعلى للفنون والآداب) ، أحمد أمين ، مجلة الثقافه عدد ٢٠/٢٥/٥٣ الهلال نوفمبر ١٩٥٣ السياسة الأسبوعية مايو ١٩٢٨ المقتطف م ١٠٧ ص ٤٩٣

— ٢٧ —

عبد الرحمن الكواكبى

(١٨٤٩ — ١٩٠٢)

عاش الكواكبى عصر الاستبداد الحميدى ، وتسلط العثمانيين على العرب ، ورأى كيف يضطرم العالم الإسلامى بالمؤامرات التى فرضها النفوذ الأجنبى الذى أخذ يتسلل إلى المنطقة ويسيطر عليها حيث يسايره ظلم الأمراء وفساد الحكام واضطراب المجتمع وجمود الفكر ورجعية بعض علماء الدين ، واستطالة عبد الحميد فى يلدز ، واستشراء نفوذ أبى الهدى الصيادى الحلبى الذى انتزع نقابة الأشراف من أسرة الكواكبى — وكانت فيهم من قديم — ورسم بها نفسه .

وفى مطالع حياته سمع صوت جمال الدين الأفغانى وهو يطوف بين الهند ومصر وفرنسا وفارس، يدوى بكلمة الحق، ويدعو إلى الحرية ومقاومة الاستعمار والاستبداد ، وكما طالع فى صدر شبابه «العروة الوثقى» مع أترابه رشيد رضا وعبد القادر المغربى وتكونت لديه أفكار الحرية والمقاومة والعمل الجاد للأمة.

وكان لمولده فى الشام وبالذات فى حلب أثر كبير فى الصورة الفكرية التى كونها ، فقد لقيت الشام من عنت الاستبداد الحميدى وظلمه أضعاف مالقى العالم العربى والإسلامى ، لذلك تطلع الكواكبى إلى الأمة العربية يبحث أدواءها ويعالج مشاكلها ويحاول أن يدفعها إلى مكان القيادة، وليس غريبا أن يلتقى مع محمد عبده فى جيل واحد ، فيولد الكواكبى قبل محمد عبده بعام واحد (١٨٤٨) ويعيشان فى نفس الحياة ، حياة العمل للإسلام والحرية وأن اختلفت الأساليب باختلاف الطبائع والظروف والثقافة ثم يموت الكواكبى قبل محمد عبده بأعوام ثلاث .

وقد عاش الكواكبي حياته الفكرية من أجل هدفين كبيرين :

(الأول) إصلاح المجتمع والبحث فى أسباب تأخر العالم الإسلامى ومحاربة الاستبداد وإصلاح الحكم ودعم مبادىء الحرية .

(الثانى) تطهير الإسلام من البدع والخرافات .

وقد اتيح له أن يرسم برنامجا كاملا للإصلاح ، فدعا إلى العدالة الاجتماعية وتعليم المرأة والتسامح الدينى وإجماع المسلمين والنصارى على حب الوطن والدفاع عنه والمساواة بين الأديان فى سبيل صيانة التضامن القومى .كما هاجم الالحاد ودعوات الماديين التى تقول بأن الدين أفيون الشعوب . ودعا فى نفس الوقت إلى تحرير الدين من الخرافات والبدع ، وقال بالدين المبنى على العقل المحض ، ودعا إلى تمييز العنصر العربى وتسليمه دفة القيادة فى الدولة بإقامة خلافة عربية مركزها (مكة) وأخذ على علماء عصره إقتصارهم على العلوم الدينية وإهمال العلوم الكونية المادية التى تقدم بها الغرب .

وأنكر وقف الخلافة على العثمانيين واتهمهم بأنهم توقفوا عن مساعدة مسلمى الأندلس إبان محنتهم ، وكانوا بذلك عونا للدول الأجنبية على التنكيل بهم .

وهاجم الدجاجلة من الولاة ومن رجال الدين .

وقد وصف المصلح بأنه من يقصد إظهار الحقيقة ، لا إظهار الفصاحة . ومن يريد وجه ربه لا استمالة الناس إليه .

وكانت حياته تطبيقا عمليا لهذه النظرة فقد جرد نفسه وحررها من أجل كلمة الحق ، وعاش لها ، واحتمل فى سبيلها السجن والنفى والتشريد والجوع ، فهو واحد من هذه القلة من الأبرار الذين لم تشغلهم المادة فعاشوا حياتهم فقراء وكانوا غاية فى العزة وسمو النفس عن المطامع والأهواء .

وتلتقى دعوته مع دعوة جمال الدين ومحمد عبده وتختلف عنها :

فجمال الدين يؤمن بالإنقلاب الثورى السريع فى نطاق الجامعة الإسلامية ويراه الوسيلة الكبرى للإصلاح وإقامة المجتمع الإسلامى الموحد ويخاصم الإنجليز خاصة الاستعمار عامة .

ومحمد عبده يؤمن بالإصلاح عن طريق التربية ، أما الكواكبى فيؤمن بمقاومة الحكم العثمانى المستبد ، وإقامة خلافة عربية ومقاومة الإنجليز وكل مستعمر .

والكواكبى يلتقى مع محمده فى وسيلة التربية ويلتقى مع جمال الدين فى هدم الحكم الاستبدادى وفى خصومته للإنجليز .

* * *

وتتمثل حياة الكواكبى فى مرحلتين : حياته فى حلب وهجرته إلى القاهرة وماتبعها من رحلة إلى العالم الإسلامى .

والمرحلة الأخيرة قصيرة لم تتجاوز ثمانية أعوام .

وقدكانت حياته فى حلب هى فترة الصراع الكبير فقد عمل موظفا وقاضيا ورئيسا للبلدية . ثم عمل محاميا وقاضيا للحاجات حتى أطلق عليه لقب (أبى الضعفاء) .

ولم يتوقف فى خلال حياته فى حلب عن العمل حتى أنه اشترك فى مشروعات تجفيف المستنقعات والتنقيب عن المعادن وتولى عملية الدخان فى حلب ، وجلب مياه نهر الساجور إلى حلب ، وإنتاج الكهرباء من شلالات انطاكية ، هدفه من ذلك إقرار حياة قوامها العمل الشريف .

* * *

وكان أكبر أعماله فى هذه الفترة : المحاماة والصحافة .

أما المحاماة فقد نقلها من الدفاع عن الأفراد إلى الدفاع عن الأمة وكانت (قضية الحرية) أكبر قضاياه .

وقدكان (الكواكبى) مطبوعا على العمل للأمة وخدمة الناس ، بحكم

مركز أسرته ومنصبها العريق فى رئاسة الأشراف ، وكان عمله فى المحاماة مفتاح اتجاهه الكبير إلى مقاومة الاستبداد العثمانى ، فقد لمس خلالها مبلغ ماتعانيه الأمة من ظلم ولاة الدولة العثمانية واستبدادهم ومن فساد طغيان الإقطاعيين وجبروتهم ، ولعله أول محام كافح ظلم حلب من طغاة الأتراك عمليا فقدأقام الدعوى مراراً على جميل باشا «والى حلب» ليسترد منه أراضى اغتصبها من المزارعين وكسب هذه القضايا .

ثم رأى أنه لكى يدافع عن القضية الكبرى لابد أنه يعمل بالقلم فى الصحافة فعمل فى صحيفةالفرات وإنشاء صحيفة الاعتدال وقد أغلقت صحفه واحدة بعد أخرى . وجرى تقديمه للمحاكمة بعد المحاكمة . وزج به إلى السجن مرات على أثر تلفيقات متعددة تهدف إلى تحطيمه ، وكان أكبر هذه المؤامرات وأخطرها اتهامه بالتواطؤ مع دولة أجنبية لتسليم البلاد إليها وحكم عليه بالإعدام، غير أنه طالب بنقل المحاكمة من دائرة حلب إلى دائرة بيروت التى تبين لها زيف التهمة وتأكد القضاة أنها من تلفيق خصمه الوالى ، فبرأت المحكمة ساحته وهنالك صح عزمه على الهجرة .

وكان فى خلال تلك الفترة قد كتب مسودات كتابية (أم القرى) و (طبائع الاستبداد) وقد حملها معه إلى مصر فنشرهما بإمضاء الرحالة (كاف) .

* * *

هبط الكواكبى مصر عام١٨٩٦ فأمضى بها أعوامه الباقية حتى توفى عام ١٩٠٢ وقد انفسح أمامه المجال لنشر آرائه . وكان كتابه «طبائع الاستبداد» الذى نشر فى جريدة المؤيد منجما ، بعيد الأثر فى نفوس الأحرار فى العالم العربى والإسلامى ، وكان له صدى عميق المدى فى دوائر المابين والدولة العثمانية .

وكان جمال الدين الأفغانى إذ ذاك شبه معتقل فى الأستانة يقضى أيامه

الأخيرة ، أما محمد عبده فكان قد عاد من منفاه واتجه إلى العمل الفكرى البعيد عن السياسة .

وليس شك أن الفرصة قد واتت (الكواكبي) لنشر آرائه ، فقد ورد مصر فى وقت كان الخلاف فيه قد وقع بين الخديو والسلطان ، مما سهل له نشر فصوله فى جريدة المؤيد ، التى كانت الصحيفة الإسلامية الكبرى ذات الطابع المعروف بالميل نحو القصر ، وكان اتجاه الكواكبي إلى جانب الخديو أخف وطأة من انحيازه إلى جانب السلطة الانجليزية والحماية البريطانية لو قدر له ألا يجد مجالا لنشر آرائه إلا فى صحيفة المقطم التى كانت تحارب الدولة العثمانية. وقد صدرت إرادة السلطان بمنع دخول مؤلفات الكواكبي إلى الممالك العثمانية ، غير أن عديدا من النسخ وصلت سراً إلى سوريا وإلى كل الأقطار الإسلامية والعربية . غير أن الخلاف بين الخديو والسلطان لم يلبث أن انتهى، هنالك عرض الخديو على الكواكبي أن يسافر معه إلى الأستانة ليزيل ما بينه وبين السلطان .

كان هذا إنذاراً للكواكبي بالتوقف عن مهاجمة السلطان ، ولا شك أن رفض الكواكبي لمثل هذه الدعوة والاعتذار عنها ، كان واضح الدلالة فى اعتقاده بأنه لو ذهب فلن يعود ، وكانت صـــورة جمال الدين الأفغانى لا تزال ماثلة أمامه حين وضعه السلطان فى قفص من ذهب ، فضلا عن أن خصمه (أبا الهدى الصيادى) كان مازال مسيطرا على أقدار المابين .

ومن هنا جاءت فكرة رحلات الكواكبي إلى أطراف العالم الإسلامى ، هذه الرحلات التى أنفق فيها العامين الأخيرين من عمره (١٩٠٠ — ١٩٠١) وقد امتدت سياحته إلى سواحل أفريقية الشرقية وسواحل آسيا الغربية . كما زار بلاد العرب ، دخلها من سواحل المحيط الهندى وأوغل فيها حتى بلغ أطراف الشمال . واجتمع بالأمراء وشيوخ القبائل ودرس حياتهم وإنتاجهم وأعمالهم وزراعاتهم ومعادنهم ، وسار شرقا حتى بلغ كراجى

فى الهند ، ثم عاد إلى مسقط فطاف سواحل بلاد العرب وسواحل أفريقية الشرقية .

وهى رحلات شاقة كان من الممكن أن تكون لها نتائج هامة فى دراسة أمراض العالم الإسلامى ووسائل الإصلاح فيه ، لو أن الله كتب له مزيداً من العمر . فقد أثر عنه أنه كتب يوميات هامة عن تلك الرحلات التى أوغل فيها إلى أقصى مناطق العالم الإسلامى ، وأنه أحضر معه نماذج من المعادن والتربة فى بعض أجزاء الجزيرة العربية . وقد نعرف مدى خطر هذه الدراسات إذا عرفنا أن الكواكبى كتب فصول كتابه — « أم القرى » قبل أن رحل .

فقد نسقها فى قالب مؤتمر إسلامى عقد فى مكة وحضره مندوبون عن الهند والصين والعراق والشام ونجد واليمن ومصر وتونس ومراكش . وأجرى على لسان كل عضو ما يصدق على أحوال قطره ، وبالعبارات التى تستعمل فعلا فى إقليمه ، مما يدل على خبرة بعيدة المدى بأحوال هذه الأقطار ، وهى معلومات استطاع أن يحصل عليها وهو فى مقامه بحلب نتيجة التقائه بالعابرين من أهل تلك الأقطار مما يدل على عمق حاسته السادسة كمطلع وباحث وصحفى ، فضلا عن فنية إخراج هذه المعلومات فى صيغة محاورات ومساجلات .

ومن خلال هذه المحاورات بث (الكواكبى) أرائه فى الإصلاح وكانه كتب رحلته قبل رحلته ، فما بالك لو استطاع أن ينشر ملاحظاته وآراءه التى كونها بعد الرحلة التى وصفت بأن غيره لم يستطعها . فقد روى أنه عندما أوغل فى أواسط جزيرة العرب أقام على متون الإبل نيفا وسبعا وثلاثين يوماً قطع فيها صحراء الدهناء من اليمين إلى الشمال . ولا شك أنه بعد الرحلة قد اتسعت آفاق تفكيره ونضجت تجربته ، ولا بد أن له يوميات مكتوبه ضاعت قبل أن ترى النور ، أما كتابه (طبائع الاستبدادا ومصارع الاستعباد) الذى اشتهر به فقد كان نبوءة صادقة على نهاية عبد الحميد .

وأنه كان كما قال مؤلفه : «كلمة حق أو صيحة في واد . أن ذهبت اليوم مع الريح . ولقد تذهب غداً بالأوتاد ».

وكذلك كتب كتاب (طبائع الاستبداد) نهاية عبد الحميد قبل أن تنتهى العشرة الأولى من القرن الذى مات فيه — وبينهما سبع سنوات — فقد توفى الكواكبى (١٩٠٢) وعزل عبد الحميد (١٩٠٩) .

* * *

كان هذا الكتاب هو الصيحة التى ملأت صدور الأحرار فدفعتهم إلى تأريث الخصومة ضد الاستبداد والطغيان . وكان زاد الجماعات السرية التى عملت فى مختلف البلاد العثمانية للتخلص من عبد الحميد . ومن مصر معين الحرية فى كل زمان كانت أول صيحة .

يقول : «الاستبداد داء أشد وطأة من الوباء . أكبر هولا من الحريق ، أعظم تخريبا من السيل ، إذل للنفوس من السؤال . داء إذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادى — القضاء القضاء . .

« وكيف لا تقشعر الجلود من الاستبداد وعهده عهد أشقى الناس فيه العقلاء والأغنياء وأسعدهم بحياة الجهلاء والفقراء .

« ومن طبائع الاستبداد أن الأغبياء أعداؤه فكراً وأوتاده عملا ، فهم ربائط المستعبد يذلهم فيهنئون ويستدرجهم فيحنون ، ولهذا يرسخ الذل فى الأمم التى يكثر أغنياؤها ، أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب .

« وإذا كان كبار الأمة قد ألفوا النفاق والرياء مرضاة للمستبد فإن الناس سيألفونها أيضاً حتى يضطر أكثر أناس إلى أباحة الكذب والتخيل والنزاع والنفاق والتذلل وأماتة النفس حتى يصبح من القيم المعترف بها اعتبار التصاغر أدبا والتذلل لطفا . والتملق فصاحة ، وترك الحقوق سماحة وقبول الإهانة تواضعاً ، الرضا بالظلم طاعة ، والإقدام تهوسا والحمية حماقة

والشهامة شراسة ، وحرية القول وقاحة ، وحرية الفكر كفرا وحب الوطن جنونا .

« والواقع أن الحكام وبطانتهم من العلماء المضلين قد أفسدوا الأديان واستخدموها لتحقيق مطامعهم وأهوائهم . وهكذا يمسح الأديان ذوو المطامع ويلبسونها ثيابها ، ويخلع رجال الدين على أنفسهم حلل التقديس والتبجيل ويدعون العصمة، والسذج والعوام يهللون لهم ويكبرون » اه .

وقد سجل الكواكبي فى كتابه «طبائع الاستبداد» ملاحظات هامة فى فلسفة الإجتماع ونظم الحكم وفلسفات الإشتراكية والديمقراطية . وأشار إلى أبحاث الرومان واليونان ورسائل «فيثاغورث» ونهج البلاغة وكتاب الخراج وأبحاث الرازى والطوسى والعلائى وتحدث عن الأراضى الزراعية ورأس المال ، وقد ذاع أن الكتاب مقتبس من كتاب إيطالى عن — الاستبداد وهو كتاب الفيلسوف الإيطالى (فتوريو الفييرى) الذى ألفه ١٧٧٧ كما قيل إنه شبيه بالعقد الإجتماعى لروسو . ولا شك أن فى كتاب (طبائع الاستبداد) ملامح من كل الكتابات الغربية التى وصلت إلى علم الكواكبى أو طالع مترجمات لها . وقد تميز بصياغته وروحه ومعانيه فهى جديدة ومبتكرة وغير مسبوقة إذ صور الاستبداد مرسوما على نماذج واضحة معروفة فى عصره : مما جعل له شهرة ذائعة . وجرى نسبه إلى الشيخ محمد عبده أو رشيد رضا ، وجرى تهريبه كما هربت مقالات العروة الوثقى من قبل إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى .

والواقع أن فلسفة الكواكبى تكتمل فى كتابية (أم القرى وطبائع الاستبدادا) معا، فإن ما عجزعن إظهاره فى أحدهما تحدث عنه فى الآخر . وقد سجل الكواكبى رأيه فى العرب ودورهم فى النهضة وجعل منهم أمله فى الإصلاح يقول : « إنما العرب أعرق الأمم فى أصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئة الإجتماعية — والعرب أعرق الأمم فى أصول الشورى ، والعرب أهدى الأمم لأصول المعيشة الإشتراكية.والعرب من

أحرص الأمم على احترام الجوار شهامة . وبذل المعروف مروءة ، أنهم أحرص الأمم على الحرية والإستقلال وإباء الضيم .

ولاشك كان الكواكبي عالى الصوت فى عهد عبد الحميد بالدعوة إلى كرامة الإنسان وحريته ومن ذلك صيحته :

«ياقوم ، ماذا استفدتم من هذا الخضوع والخشوع لغير الله ، ياقوم متى تستقيم قامتكم وترتفع من الأرض إلى السماء أنظاركم فيشعر أحدكم بوجوده فى الوجود » .

ولقد كان الكواكبي نفسه تطبيقاً صادقا لآرائه ، هذا الطفل اليتيم الذى ترك حلب فى يفاعته إلى انطاكيا يعيش مع عمته ، والذى ماكاد يرفع رأسه فى حلب حتى صودرت أمواله وأملاكه وأتلفت مرافقه .

ومع ذلك فقد عاش كريما مترفعا عن المطامع والأهواء . مهاجراً فى الأرض . لا يضيره شىء إلا أن يقول كلمة الحق . فقد وصفه صفيه الشيخ كامل الغزى بأنه كان يأنف من الكذب والتدليس والغيبة والنميمة ويرى التلبس بهذه الخلال دناءه وغدرا وجوراً فى الطبع . وكانت نفسه تأبى عليه الخضوع لأهل المجد الباطل . ولا يرى شيئاً يطفىء من نار غضبه أفضل من قهرهم وإذلالهم .

* * *

وبعد فقد كان الكواكبي عصبي المزاج ، يؤمن بالحرية والكرامة ، ولو قدر له أن يعيش لترك لنا آثاراً أخرى أشد قوة وروعة ، لولا أن فاجأه الموت على أثر دعوة للغداء عند الخديو عباس فى الإسكندرية . . فلما عاد فى المساء لم يلبث أن أحس ألما فى خاصرته اليسرى ولم يطلع الصباح إلا وقد انتهى أجله ، ربما كان الطعام المسموم قد دسه له واحد من الذين عناهم بالمستبدين وكان قلبه حرباً عليهم .

وما أن علم السلطان عبد الحميد بموته حتى أرسل من ينبش أوراقة

ويحملها إليه، وقد ضاع فيها أصول كتابيه (صحائف قريش) و (العظمة لله) وديوان شعره ويوميات رحلاته الطويلة .

وقد وصف كتابه (العظمة لله) بأنه بمجموعة صيحات صادقة يدعو فيها قومه إلى عدم الخنوع أو العبودية لغير الله وينفى العظمة عن المستبدين .

وكذلك عاش الكواكبي عزيزاً كريم النفس ومات شهيد الدعوة إلى الحرية فى أمة كانت تتطلع إلى الحرية والعزة فى مطالع هذا القرن .

وقد أطلق على نفسه اسم « الشيخ الفراتى » فى بعض كتاباته .

وحرر جريدة الفرات الرسمية وعمل مديراً لمطبعة حلب .

من مؤلفاته :
طبائع الاستبداد ، صحائف قريش ، العظمة لله ، أم القرى .

— ٢٨ —

عبد السلام ذهنى

(توفى عام ١٩٤٣)

كان ذلك اليوم ، من الأيام المشهورة فى تاريخ مصر والعرب واللغة العربية ، خلال فترة طويلة من الزمن ، تبلغ الثمانية والخمسين من الأعوام، أنه يوم ١٦ أبريل ١٩٣٤ الذى اختاره الدكتور عبد السلام ذهنى المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة ليعلن أحكام دائرته لأول مرة باللغة العربية .

وكان الحدث أشبه بقنبلة اهتزت لها دوائر الاستعمار وشغلت الصحف ، وأثارت أزمة طويلة، استتبعت استجوابا فى البرلمان، وانعقادا سريعا للجمعية العمومية للمحكمة المختلطة ، واحتجاجا من الدول المشتركة فيها، إلى الحكومة المصرية إذ ذاك — كيف يحدث هذا الأمر الخطير ، إذ يجىء مستشار حديث العهد بمنصبه فى المحاكم المختلطة ليخرق التقاليد القائمة منذ أنشئت هذه المحاكم فيقدم أحكامه باللغة العربية ، أما المسيو هوربيه رئيس المحكمة فقد رفض أن يوقع الأحكام ، وأصر عبد السلام ذهنى على أن تكون الأحكام باللغة العربية ولم يقبل ردها إليه ، كما رفض صياغتها باللغة الفرنسية، وتستمر الأزمة فيمنع الدكتور ذهنى من العمل ، ولا توزع عليه القضايا ، ورئيس المحكمة يمضى فيقابل وزير الحقانية ويثير أزمة طويلة عميقة، والمستشار المصرى ثابت كالطود يقول كلاما واضحا ، صريحا ، ويدافع عن وجهة نظره بالقانون : « أن اللغة العربية هى أولى اللغات الرسمية المقررة أمام المحكمة المختلطة والمادة (١٦) من لائحة المحاكم تنص على أن اللغات القضائية التى تستعمل أمام المحاكم فى المرافعات وفى كتابة الأوراق والأحكام هى : العربية والانجليزية والفرنسية والإيطالية ومن الظلم أن تكون لغة البلاد الرسمية مقررة أمام المحاكم المختلطة منذ عام

١٨٧٦ ويهملها المستشارون المصريون ، بينما هى لغة تسعة أعشار أرباب القضايا ، فلا يصدر بها حكم عربى واحد ، ولا يكتب بها محضر جلسة واحدة بها ولا يتقدم محام مصرى واحد ليترافع بها، الأمر فى جملته تفريط فى استعمال الحق الذى المخول والقانونى لهم .

فاذا قال هوربية : أنه لا يفهم اللغة العربية ،كان الرد عليه : إذن لماذا تقبل الأحكام التى يكتبها المستشارون الإيطاليون باللغة الايطالية مع أنك لا تعرفها ونحن لا نعرفها أيضا .

ويمضى أحد عشر مستشارا من الأجانب فى إقناع عبد السلام ذهنى ، محاولين رده عن هذا الأمر دون جدوى،فلما لم يجدو إلى إقناعه سبيلا رجوه ألا يثير الصعوبات أمام زملائه ، فأصر عبد السلام ذهنى على أن اللغة العربية مقررة رسميا،وأعلن أنه متمسك بالأحكام التى كتبها بالعربية ومتمسك بالنطق بها كما هى ، وأعلن أنه لم يحاول إثارة الصعوبات أمام زملائه وقال : « لقد راعيت فى الأحكام التى كتبتها باللغة العربية أنها صادرة عن مصالح مصرية وشئون محلية يجب أن تصاغ بلغة البلاد نفسها ، وإنى أعرف أن فى أقلام الكتاب موظفين يجيدون اللغة العربية ويستطيعون إخراج نسخ الأحكام بها ، وأنه لا محل لمخالفة (المادة ١٦) فاللائحة عقد بين الحكومة المصرية والدول صاحبة الامتياز ، ولذا لا تستطيع الجمعية العمومية أن تصدر قرارا يمنع تدوين الأحكام باللغة العربية ، ولو أنها أصدرت قرارا كهذا لوقعت فى خطأ قانونى كبير . . . » وقال: إننى ثابت على موقفى أرفض كل الرفض نقل هذه الأحكام الى لغة أخرى وإن كانوا يجهلون اللغة العربية فما ذنبنا فى عدم توافر الشروط لجلوسهم على منصة الأحكام.

ولم يمض هذا الحادث دون أن يثير فى الفكر المصرى العربى هزة ضخمة فقد كان فاتحة الدعوة إلى تعريب أحكام المحاكم وخطابات البنوك وفواتير الشركات والمؤسسات ولافتات الشوارع والمحلات .

واهتز الشعر للحادث فنظمت القصائد وانهالت البرقيات من الهيئات المختلفة مؤيدة، ولم تجد الحكومة سبيلا لها إلا أن تجرى مع التيار الوطنى الشعبي القوى ، وممن نظم شعرا فى ذلك : محمد الأسمر وفايد العمروسى .

ووجه أحمد زكى باشا الملقب بشيخ العروبة خطابا مفتوحا إلى الدكتور ذهنى جاء فيه قوله : « لقد أثبت اليوم ياعبد السلام مالم يستطعه أسلافك الأولون من القضاة المصريين فى المحاكم المختلطة وأنت أنت أصغرهم سنا وأحدثهم عهدا » .

وقالت الكاتبة مى زياده : أن عبد السلام ذهنى لن ينهزم وسيظل ثابتا مكانه لا يتحرك، ولئن منعوا عنه القضايا فليس هو الذى يأبه لهذه المناورات، ولئن تعمدوا إهانته فالإهانة لا تبلغ موطىء قدمه حتى تنقلب لذكره فخارا . .

والواقع أن هذا الأمر لم يكن غريبا بالنسبة لعبد السلام ذهنى وماضيه الناصع، فقد كان واحدا من المدافعين عن اللغة العربية عام ١٩٢٢ وأحد أساتذة الحقوق الذين عهد إليهم إذ ذاك تدريس العلوم القانونية فى مدرسة الحقوق باللغة العربية بدلا من الانجليزية ، وقد عاشت معه هذه الفكرة حتى جاء الوقت الذى أتيح له فيه أن يدخل القضاء المختلط وينفذها على هذا النحو المثير . .

وقد أدته حصافته أن يبدأ على النحو الطبيعى ، فقد أمضى ثلاثة أشهر قبل أن يعلن خطوته ، فكان خلالها يكتب الأحكام باللغة الفرنسية ، على نحو أدهش زملائه بإجادتها وبراعته ، ولعله خشى أن يبدأ بإصدار أحكامه باللغة العربية، فيقال إنه إنما كتبها بعجز، فقد ترك أحكامه الأولى بالفرنسية تحقق له تهنئة رئيس المحكمة ومستشاريها ليكون ذلك مقدمة لإعلان حق مصر فى تأكيد لسانها العربى فى المحكمة المختلطة .

ولم يكن عبدالسلام ذهنى رجل قضاء وقانون بقدر ما كان أحد المفكرين العرب ، أصحاب الأثر الواضح فى مجال الدراسات العمرانية والتشريعية فقد كتب قبل ذلك أكثر من سبعة آلاف صفحة فى ثلاثة عشر مصنفا كانت مرجعاً للمحاكم الأهلية والشرعية والمختلطة فى دعم أحكامها .

وله بالفرنسية كتاب : مسئولية الحكومة باعتبارها صاحبة الولاية العامة ، وكتاب القطن المصرى وأهميته فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر ،وله بالعربية مؤلفات فى الالتزامات والأموال والتأمينات والتسجيل والقانون التجارى والرومانى .

وقد عمل عبدالسلام ذهنى فى ميادين ثلاثة : التعليم الجامعى ، والقضائى والتأليف والصحافة ، وكان منذ شبابه على صلة بالفكر والكتابة ، ففى عام ١٩٠٧ وفى صحيفة المؤيد وبين مقالات على يوسف والمنفلوطى وكرد على وعبد القادر المغربى وسليم سركيس تبدو مقالات عبد السلام ذهنى عن التضامن العمرانى واضحة الدلالة على اتجاهه الوطنى والفكرى محاولا أن يرسم للأمة خطاً واضحاً وينشىء تيارا صريحا فى مجال العمل وإزالة بعض ما علق بالنفوس من اليأس والقنوط فى السعى ، ثم هو صاحب البحث القانونى فى المؤتمر الوطنى المعقود فى نوفمبر ١٩١٠ عن التشريع والقضاء فى مصر ، وله بحوث مستفيضة عن الصحافة وعن التطور الإجتماعى والتشريعى .

أما فى الجامعة فهو واحد من الذين حملوا لواء تعريب التعليم الجامعى بعد ثورة ١٩١٩ حيث عمل مدرسا بالحقوق السلطانية (١٩٢٢ — ١٩٢٧) وتكشفت إذ ذاك شخصيته ذات الطابع المميز ، وكان له جهده وأثره فى تأسيس كلية الحقوق وتحويلها من مدرسة إلى كلية جامعية .

وفى مجال (القضاء) أصدر مئات من المبادىء القانونية ، حيث فصل فى عديد من النقط الخلافية على نحو جرىء ، فقد عرف عنه أنه إذا اقتنع برأى أظهره فى حكمه ولو خالف به أحكاما سابقة مهما علت قيمة

الدوائر القضائية التى أصدرتها مدللا على رأيه ومفنداً للأحكام السابقة بحجج علمية مبنية على أسس قانونية .

* * *

وقد ولد عبد السلام ذهنى بالأسكندرية من أسرة متوسطة فى أعقاب الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٤ تقريبا وهو من أتراب عبد الحميد بدوى وعبد الحميد أبو هيف ، وعاد من باريس عام ١٩٠٦ بعد أن نال الليسانس حيث عمل محاميا فى بنى سويف وتابع دراسته القانونيـــة حتى أحرز أجازة الدكتوراه فى السياسة والاقتصاد عام ١٩٢١ ثم عمل فى التدريس حتى عام ١٩٢٨ .عندما ولى منصب القضاء مستشارا بمحكمة الاستئناف الأهلية فالمختلطة فى أوائل ١٩٣٤ .

وقد عرف فى حياته القضائية برحابة الصدر وطول الأناة ، يرشد الجمهور إلى حقوقه وواجباته وتطول أحيانا جلساته إلى وقت متأخر من الليل ، وكان يعمد دائما إلى تصفية النزاع بين الخصوم فى الجلسة أمام الجمهور ولم تعرف جلساته المشادة بين المحاماة والقضاء .

وكان إلى ذلك مثقفا متصل الأواصر بتطور الثقافة العالمية ، واسع الاطلاع فى المسائل العامة مولعا بالرياضة ، كريم الخلق طيب النفس ، صريحا مايقول مايعتقد أنه الحق دون مواربة ويصر عليه ، لايرهب ولايخاف وقد كانت تجربته فى أعلان أحكامه باللغة العربية مثلا عاليا لهذا الخلق فى تأكيده لرأيه « إنما أريد أن تكون لغتنا القومية موجودة وهى أحق من غيرها بالشيوع والاستعمال » توفى فى عام ١٩٤٣ .

نموذج من آرائه

ان قوة الإنسان التى يكافح بها فى الميدان الحيوى مكونه من عنصرين قويين .

١ — قوة الشخصية .　　　　٢ — قوة الجماعة المتضامنة .

أن هذه القوة الكمينة فى الشخص هى القوة المكونة للقوة الثانية

وعنصر من عناصرها ، اذا سعى الإنسان فى هذه الحياة وتربى وتعلم وهو فرد واحد يكون مجموعا متعلما قوته قوة الأفراد مجتمعه ، واذا شعر الإنسان بأن له مزية فردية فى الوجود وخصيصة ملازمة منذ ولد ونشأ ودب على الأرض وعلم بأنه خلق حراً ويجب أن يعيش حراً ويجب أن يموت حراً ، وادرك شيئاً من نواميس الحياة التى يعيش فيها وعمل لها تكونت أفراد ذو قوة هائلة تخدمها الأصناف الأخرى من الدول المتغايرة .

إن هذه القوة الشخصية لو ظهرت فى الفرد وتربت بالشروط المرعية لكانت قوة كبيره فى ذاتها يعبأ بها وتقابل بالتحية والاحترام .

يجب الاعتقاد مبدئيا أن يعرف الشخص بأنه خلق ليكون لا لأنه لايكون ، وجد ليعيش لا لأن لايعيش ، فاذاكان خلق ليكون وجب عليه أن يبحث عن عوامل وجوده ، وحياته ، وبين هذه العوامل الرئيسية عوامل هى أمهاتها ينقب عنها الإنسان فى الحياة ويصرف كل مرتخص وغال فى الحصول عليها حتى ولو أصابه بعض العطب أو الضرر ، ولكن لا يلبث أن يعوضه عاجلا فآجلا

أن الفرد الذى يحترم نفسه هذا الاحترام ويحلها فى نظره هذا الإجلال يكبر أيضاً عن المعاصرين له ؛ يمكن أن يعيش فيهم عيشة راضية ، عيشة المساواه والأخاء ؛عيشة المثيل للمثيل لا العبد للسيد.هذا الشعور الجميل العالى إذا تشربت به النفس وتشربت به روح الانسان وخلاله وصفاته كان فى نفسه بمثابه أفراد أقوياء

من مؤلفاته وآثاره :

الحيل المنظور فيها والمشروع ١٩٤٦ ، لمحة خاطفة فى حقوق المؤلفين ، الحقوق فى تفاعلها وتفارقها وأطوارها ١٩٤٥ ، مجموعة رسائل فى الأنظمة الدستورية ، فى الالتزامات ١٩٣٥ ، فى الأموال ١٩٢٦ ، فى التامينات ١٩٣٦ .

مراجعه :

الصحف : قضية اللغة العربية فى المحاكم المختلطة الأهرام : ١٩٣٢ ، أبحاثه فى اللواء والعلم ١٩١٠ و ١٩١١ .

— ٢٩ —

عبد العزيز جاويش

(١٨٧٦ — ١٩٢٩)

حياة عريضة ، يمكن تلخيصها فى أنها : كتابة حرة جريئة نارية ، واعتقال ومحاكمة وغربة وجوع ونفى وكفاح دائم وصلابة فى الحق لاتلين وإيمان صادق بالحق والحق وحده ، لا سبيل إلى الإغراء أو التحول أو التنازل عن الهدف الأصيل : تحرير مصر ، وإيمان بالوحدة الشاملة ، والدفاع عن الإسلام وتقديس الحرية ومقاومة الاستعمار وأعوان الاستعمار ومهاجمة معاقل العملاء والخونة ، وصد كل مؤامرة ضد الأمة كلها .

وجاويش كاتب نارى القلم ، ومجاهد سياسى ، وخطيب مبرز ومعلم مرب له جولات وتجارب ، عاش صادق الوطنية ثائراً ، كأنما هو كتلة من الأعصاب والعاطفة ، يستمد حماسته السياسية من إيمانه الروحى .

بدأ حياته الفكرية على صفحات اللواء حيث أخذ يحمل على الاستبداد والاستعمار وأذنابه والقصر ورجاله حملات صادقة ، هاجم الخديو عندما تخلى عن مظهره الوطنى ، وهاجم كرومر ، ومستشاريه الذين كانوا يحكمون البلاد من وراء ظهر الوزراء وهاجم دنلوب وسياسته الاستعمارية فى وزارة المعارف وأرق جفون مصطفى فهمى رئيس الوزراء الذى أمضى أربعة عشر عاما فى (لاظوغلى) لا يستطيع أحد أن يزحزحه عن مركزه لأنه ربيب كرومر ، وحمل على بطرس غالى وفتحى زغلول قضاة دنشواى والهلباوى جلاد دنشواى ، وشارك مع محمد فريد فى الحملة على مشروع مد إمتياز قناة السويس ، وتميز عهده فى تحرير اللواء بالثورة العنيفة ، والجرأة الواضحة ، فما اضطر الحكومة إلى إعادة قانون المطبوعات القديم .

وعاش جاويش بين السجن وصحف الحزب الوطنى ، يخرج من السجن ليعود اليه صلب العود لا يثنيه شىء عن الإيمان بوطنه ، وقد

اختاروا أن يسجنوه كل عام فى رمضان وقد أكدت الأمة محبتها لجاويش فقدمت له «وسام الشعب»، ولما كانت بريطانيا تعمل فى هذه الفترة على تصفية الحركة الوطنية فى مصر والتخلص من رجالها واعداد البلاد لمرحلة جديدة من مراحل الحكم لها قادتها وحكامها ، فقد زاد الضغط على رجال الحزب الوطنى بالانذارات والمحاكمات والعسف وقرارات تعطيل الصحف ، حتى ضاقت بهم أرض الوطن فهاجر الكثيرون وهاجر فريد من بعده جاويش إلى تركيا حيث ظن أنه يستطيع أن يواصل كفاحه ، ولكن تركيا كانت قد تآمرت فى القبض عليه وإرساله معتقلا إلى مصر وتسليمه إلى حكومة الاحتلال وعميدها يومئذ اللورد كتشنر ،وكان جاويش قد أصدر فى تركيا مجلة الهلال العثمانى مواصلا حملته ضد بريطانيا . وقد ظل معتقلا حتى أواخر عام ١٩١٢ ، فلما أفرج عنه سافر إلى أوربا ليلحق بأصحابه وفى مقدمتهم محمد فريد وقد ظل فى مغتربه اثنى عشر عاما وقد رافق فريد حتى يوم وفاته،واشترك فى مؤتمرات جنيف وباريس وبروكسل وبرلين.

وعاد إلى مصر بعد أن أصبح زعيمها خصمه (سعد زغلول) الخصم الذى كان يهاجمه قبل الحرب ويقول عنه أنه من أدوات الاستعمار ، حيث بعث قانون المطبوعات وصدق على أحكام السجن الصادرة على فريد والغاياتى وجاويش والذى كان وزير المعارف المعارض لمشروع الجامعة والتعليم باللغة العربية والذى هاجمته اللواء بعنف ومدحه كرومر فى خطابه السياسى الأخير وتمنى له مستقبلا .

عاد جاويش سرا واختفى عند الحاج أحمد رمضان زيان ولم يلبث أن كتب من مخبئه فى الأخبار ، وكانت مصر على وشك اجراءات الانتخابات الأولى فرشح نفسه فى دائرة الجمرك بالاسكندرية . وأذهلت المفاجئة دوائر القصر والانجليز معا .

ولما وقع حادث الاعتداء على سعد زغلول اعتقل مرة أخرى وكانت المدرسة الزغلولية قد بسطت سلطانها فلم يعد هناك مجال للكفاح الوطنى

على النحو الذى آمن به ، عندئذ تحول إلى العمل الاجتماعى والدينى والتربوى فاشرف على برامج التعليم واشترك فى انشاء جمعية الشبان المسلمين وعاش يعمل صادقا حتى توفى فى ٢٥ يناير ١٩٢٩ .

* * *

ولا شك كانت حياته خصبة غاية الخصوبة، ومنذ تخرج فى دار العلوم، فقد اتيح له أن يعمل فى مجالات متعددة أهمها التعليم وجمعيات المواساة والشبان والتعاون ، وصحف الهداية والعلم واللواء ، واتيح له أن يعمل أستاذاً للغة العربية فى جامعة كمبردج ، وأن يهب نفسه لأمور ثلاثة : « التربية — والوطنية — والثقافة الإسلامية » .

وكانت مجلته « الهداية » التى أنشأها ١٩١٠ مجالا لإفهام المسلمين أسرار القرآن ومايزال بحثه (الإسلام دين الفطرة) الذى القاه فى مؤتمر المستشرقين الجزائرى سنة ١٩٠٥ محتفظا بحرارة عبارته وصدق مضمونه وله بحث آخر لا يقل عنه قوة وعمقاً هو: (أثر القرآن فى الفكر البشرى) .

أما عمله الوطنى والسياسى فى صحيفتى اللواء والعلم فقد كان مثلا رائعاً للوطنية الصادقة والإيمان بالحرية ، وقد أجمع معاصروه على أنه كان كاتباً جريئاً ولكنه كان عنيفاً بالغاً غاية العنف ويرجع ذلك إلى تكوينه العصبى والثقافى وإلى وراثياته المغربية الصلبة مما جعله عنيفاً إذا مدح أو هجا ، على السواء .

ولكنه كان على الجملة واضح الخصومة للاستعمار وأعوانه، وكان عدوا للانجليز والمحتلين وكان قلمه يقطر سماً زعافا يقذفه فى وجه العدو .

وقد اختاره محمد فريد بعد وفاة مصطفى كامل لرئاسة تحرير اللواء فترك عمله فى وزارة المعارف من أجل الصحافة .

وكان قد التقى به لأول مرة فى مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر عام ١٩٠٥ فأدهشه بقوة عارضته وبلاغة دفاعه عن اللغة العربية .

* * *

وحين بدأ جاويش الكتابة فى اللواء واستهل عمله بتخطيط لمفهومه السياسى الذى لخصه فى :

١ — الدفاع عن الأمة المصرية. ٢ — جهاد الإنجليز مابقوا محتلين للبلاد.

٣ — الحث على الفضيلة والأخلاق. ٤ — الدعوة إلى توحيد عناصر الأمة.

وكانت كتاباته النارية سببا فى إعادة قانون المطبوعات الصادر عام ١٨٨٢ فى مارس ١٩٠٩ وكان جاويش صادق الإيمان بالقلم يراه (سيفا) يعمل فى صدور خصومه أو سهماً يدحرهم به أو جواداً ينازلهم به .

يقول : «أيها القلم» لو كنت سيفاً لأغمدتك فى صدور من يحاربونك . أوسهماً لأنفذتك فى أعماق قلوبهم ولو كنت جواداً لوجدت لك فى ميادين النزال مجالا للكر والفر ، ولكن ذلك العود الذى أيسر ماينال منه عدوه أن يعالجه بالمبراه . أو الأصابع فيكسره ، فلتكن أيها القلم ماشاء وما شاءوا لك ، أما نائماً إلى حين ، أما يقظا أبد الآبدين ، فقد تركت عيوناً لا يغزوها النوم ، وقلوباً لا يكملها اليأس . وأيديا لا تخاف السلاسل والأغلال . وأرواحا تقوى بالحرية والاستقلال » .

وهو يؤمن بأن يقدم نفسه قربانا بين أيدى أهرام هذا القطر ونيله . وأن يصرف كل مرتخص وغال فى سبيل تحريره والعمل على « قطع اليد الغاصبة له جزاءاً بما كسبت » .

ودعوته : أسألك اللهم لسانا ناطقاً للصواب والحكمة ، وقلما لاوجود له فى ميادين القحة ولا علم له بمعاهد الفحش والسباب » .

فلما أقبل موعد ذكرى دنشواى ، وكان قاضيها رئيسا للوزارة لم يباله . . وهاجمه فى جرأة وأرسل عباراته النارية تحيي الذكرى وتصارع أعوان الاستعمار .

« سلام على أولئك الذين كانوا فى ديارهم آمنين مطمئنين فنزل بهم جيش الشؤم والعدوان فأزعج نفوسهم . وأحرق حصادهم ، فلما هموا بصيانة أرزاقهم قيل: أنهم مجرمون وسيقوا فى السلاسل والأغلال ، فصلبوا على مرأى ومسمع من زوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم وعيالهم وجيرانهم .

« سلام على تلك الأرواح البريئة التى انتزعها رئيس المحكمة المخصوصة من مكانها فى أجسامها وقدمها قربانا إلى ذلك الجبار الظالم والغاصب القاهر فى بلادنا بنفاقنا وتفرقنا .

سلام على أولئك الذين وقف المدعى العمومى فثار فيهم ثورات الجبارين . ثم انثنى على رقابهم فقضمها ، وعلى أجسادهم فمزقها ، وعلى دمائهم فارسلها تجرى على الأرض تلعن الظالمين ، فقام المدعى العام مقام الشهود ، وطلب من قضاة المحكمة الظالمة أن يحشر أهل دنشواى فيقدموا قرابين إلى هيكل الاحتلال ، فما لبث رئيس المحكمة وزميله قاضى دنشواى أن استهوتهما الأموال واستغوتهما المناصب ، واسترهبتهما عظمة الاحتلال فانطقتهما بذلك الحكم الجائر رغبة فى الألقاب والمناصب وعوز النفس إلى الشعور بالواجبات .

« نفذ الحكم بما جرى به القضاء المسطور والقدر المقدور وضجت الأرض شاكية إلى باسطها ظلم الإنسان . وماكان دمعا ماسال من مآقى البائسين . ولكنه ذوب القلوب من فظاعة الحكم وهول التنفيذ . ولا زفيراً ولا شهيقا تنفس المتنفسين ، وإنما كان وهج النار الملتهبه فى الصدور من الأسى والفزع . مشانق منصوبة وأرض بالدماء مخضوبة وأيد بالسلاسل مغلولة وأرجل بالاصفاد مكبولة . ودموع مرسلة . وأبناء يرون كيف تنتزع أرواح الآباء . ونسوة يخدشن الوجوه ويشققن الجيوب والدنيا كلها مأتم لمصابهن . فما هى مهمة الصحافة الوطنية فى هذه الحال، لاشك أن

من واجب الصحفي أن يذكر الحكومة بقطاعة هذا الحكم الجائر . وأن يرفع الصوت عالياً مدوياً بأن بقاءه وصمة عار ..»

وهو الذى دعا إلى مقاومة الاستعمار بالمقاطعة :

«حاربوا الأعداء بسلاح المقاطعة فلا تعاملوهم ولا تجاملوهم . أهجروا متاجرهم ، عطلوا مزارعهم . اختصموا صاغرهم وكابرهم . تعاهدوا على ألا تبتاعوا لهم سلعة . ولا تجيبوا لهم مسألة ، ولا تقضوا لهم مطلبا ولا تطيعوا لهم أمراً أونهيا . عاملوهم بالإهمال البالغ والهجر الدائم حتى تتضائل شوكتهم ، وتنمحى صولتهم ، وأصبروا وصابروا ورابطوا . ولاتهنوا ولاتحزنوا فما من يد إلا يد الله فوقها . ولا من ظالم إلا سيبلى بظالم . اثبتوا أنكم أمة السلام لا أمة الإستسلام ، وشعب الاستقلال لا الاستغلال ، مدوا أيديكم إلى شركائكم فى الإضطهاد . وأخوانكم فى الاستعباد من الأمم الشرقية .. »

وهو الذى هاجم بريطانيا فى أعماق أمجادها حين قال : إن الإنجليز لا تاريخ لهم يستحق القراءة . ولا أفكارلهم تستحق الدراسة . ولافلسفة تستحق البحث اللهم مذهب دارو بين وسبنسر والأول لا قيمة للإنسان عنده . والثانى لاقيمة عنده إلا للأشياء المادية .

وهكذا مضى عبد العزيز يوجه سنان قلمه إلى الاستعمار والإحتلال وأعوانهما ، وكانت هذه المرحلة من مايو ١٩٠٨ إلى حين أبعاده إلى تركيا ١٩١٢ من أخصب فترات عمله القلمى إذ قدم للمحاكمة خلالها ثلاث مرات فى قضية الكاملين ١٩٠٨ وفى مقال دنشواى عام ١٩٠٩ ومقال تحسين كتاب وطنيتى ١٩١٠ .

وفى كل مرة كان جاويش يدخل السجن ويخرج منه أشد عزيمة وقوة . وكانت قضيته (الكاملين) نتيجة لمقالاته عن موقف بريطانيا من ثورة (عبد القادر إمام) زعيم ناحية الكاملين بالسودان ، وقد أدعى النبوة

وتبعه خلق كبير ودارت بينه وبين بريطانيا معركة، وقد نشر الشيخ جاويش مقالات نارية تحت عنوان (دنشواى أخرى فى السودان) : « ٧٠ مشنوقاً و ١٣ سجيناً » ندد منها بالسياسة الإنجليزية وحمل حملة شديدة على فظاعة الحكم .

وكان الشيخ جاويش قد هاجم الثائرين أول الأمر ثم حمل على الأحكام التى صدرت وانتقد سياسة حكومة السودان ورماها بالإهمال الشديد الذى أدى إلى الفتنة وإراقة الدماء وكان الإنجليز هم الذين دفعوا الثائرين أولا فلما أطاعوهم حاكموهم ثم شنقوهم .

وكانت قضيته الثانية عن مقال اللواء فى ٢٨ يونية ١٩٠٩ عن ذكرى دنشواى وقد عدته النيابة طعناً فى بطرس غالى رئيس الوزراء إذ ذاك، وفتحى زغلول وكيل الحقانية وكان الأول رئيس المحكمة المخصوصة والثانى عضواً بها ، وهى المحكمة التى أصدرت أحكامها على شهداء دنشواى .

وكانت النيابة قد أحصت عليه قوله « إنهما قدما أرواحاً بريئة قربانا إلى اللورد كرومر . وإن الذى انطقهما بالحكم هو رغبتهما فى المناصب ورهبتهما من عظمة الاحتلال »

أما قضيته الثالثة فكانت عن مقدمة ديوان وطنيتى للشيخ على الغاياتى .

وكان جاويش جريئا فى الحق لا يهاب ، لا يرهب السجن ولا يجد من نفسه تقبلا لأى عرض من عروض الإغراء عملا بالعقيدة التى كان يؤمن بها مصطفى كامل ومحمد فريد وأمين الرافعى والتى تمثلها عبارة فريد :

« اننا نعرف كيف نصبر على المكاره ولكننا لانعرف التسليم فى حقوقنا أو التنازل عن مطالبنا» ولاشك أن جرأته تتمثل فى كتابة مقاله عن ذكرى دنشواى فى وقت يرأس فيه الحكومة بطرس غالى الذى كان رئيسا للمحكمة التى أصدرت أحكام دنشواى فلا يخشى أن يقول له :

« قام المدعى العمومى مقام الشهود وطلب من قضاة المحكمة الظالمة أن يحشر أهل دنشواى فيقدموا قرابين إلى هيكل الإحتلال فالبث رئيس المحكمة وزميله قاضى دنشواى أن استهوتهما الأموال واستغوتهما المناصب واسترهبتهما عظمة الإحتلال فانطقتهما بذلك الحكم الجائر . رغبة فى الألقاب والمناصب وعوز النفس إلى الشعور بالواجب » .

* * *

وكانت محاكمات الشيخ جاويش مناسبات وطنية تتجاوب فيها ألسنة المحامين والمدافعين بكلمات الوطنية الخالصة .

وخرج جاويش من السجن ليكرم عنقه « وسام الشعب » ولكن الاستعمار كان حريصا على أن يقضى على هذه القوة الوطنية وإجلائها عن مكانها فى الوطن . لذا فقد أبعد جاويش عام ١٩١٢ إلى تركيا التى سلمته إلى الانجليز فأعادوه إلى مصر حيث بقى سجينا بها ١٩١٣ حتى هاجر مرة أخرى ليجول جولة طويلة فلا يعود إلى مصر إلا عام ١٩٢٣ ولكن هل توقف جاويش فى خلال هذه الفترة عن العمل .

كان شعلة من الوطنية الصادقة والعمل ، أصدر فى تركيا صحفاً متعددة ، وتزعم مع أنصار الحزب الوطنى حملة جمع التبرعات وإرسال الذخائر والمؤن إلى المجاهدين فى طرابس لمقاومة الغزو الإيطالى .

وأنشأ الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة ١٩١٤ ووضع أساسها وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين بالقدس وسافر إلى إنجلترا حيث اتفق مع أحد أغنياء الهنود على إنشاء أسطول إسلامى .

واشترك عام ١٩١٥ فى حملة الجيش التركى لتخليص مصر من الإحتلال الإنجليزى واشترك فى عديد من المؤتمرات بين ١٩١٥ و١٩١٨ لاستخلاص حقوق مصر وفى عام ١٩١٨ غادر تركيا إلى ألمانيا بعد انتهاء الحرب عن طريق روسيا ثم سويسرا حيث اتصل بالوفد المصرى فى باريس .

وفى عام ١٩٢٢ استدعاه مصطفى كامل رئيس جمهورية تركيا واختاره رئيسا للجنة الشئون الإسلامية فى أنقره، غير أنه اختلف معه بشأن إلغاء الخلافة .

وفى خلال هده السنوات كان يعمل بقلبه ولسانه متنقلا فى هذه الأقطار مجاهدا فى سبيل مصر والإسلام، وقد أعانه على ذلك تمكنه من ناصية اللغات التركية والألمانية والإنجليزية . وقد عرضت عليه مناصب متعددة منها — منصب شيخ الإسلام فى تركيا — فرفضها حتى لا تقيد حريته، وكان فى خلال تجواله بين برلين والاستانة وغيرها يجتمع بالطلبة ويؤلف الجماعات للدعوة إلى الوطنية المصرية والإسلام .

وكانت مواقف جاويش الجريئة سببا فى أن يهيم على وجه شريدا لا يملك شيئا، ولا يترك لأسرته شيئا، حتى اضطرت أن تبيع كل ما تملك من أثاث ولكنه لم يأبه لأى أمر، ومضى يعمل ويخطب ويحمل على الاستعمار بلسان من نار وبيان من نار، ولقد (فر) من الاستانة وهو مصاب بالحمى الاسبنيولية ودرجة حرارته أربعين درجة مع رفاقه المصريين فى باخرة أقلتهم إلى روسيا ثم استقلوا من الشواطىء الروسية قطارا من قطر الحيوانات وقضوا خمسة عشر يوما فى هذه العربة بين الخنازير والروائح الكريهة وكان معه فى الرحلة محمد فريد، وعبد الحميد سعيد، والدكتور أحمد فؤاد، وفؤاد سليم . وكانوا قد اضطروا بعد أن نفذ المال منهم أن يلجأوا إلى الاحتطاب فى الغابات والجبال لولا أن أنقذهم أحد أصدقاء عبد العزيز بأن اقترض لهم مبلغا من المال .

فلما عاد إلى مصر هز دوائر الاستعمار الإنجليزى الذى حمل عليه حملات صادقة فى كل مكان ذهب إليه . وكان قد أعلن أن عداءه ليس للأمة الإنجليزية وحدها بل يمتد إلى السيطرة الأجنبية من أى أمة من الأمم على بلادنا .

وقد بدأ هذا الانزعاج فى مقال جريدة (المورننج بوست) فى ٦ يوليو ١٩٢٢ إذ أشارت إلى إحتمال ظهور الحزب الوطنى القديم من جديد بزعامة الشيخ جاويش بعد إذ عاد مختفيا إلى مصر ، وذكرت كيف أن محمد فريدلم تكن له جاذبية شخصية ، فكان الشيخ جاويش بحماسته الشديدة هو الذى يلهب عواطف الجماهير ومشاعرهم بمقالاته الوطنية ، وذكرت أنه لما نشبت الحرب قام بنشر الدعوة ضد البريطانيين على نطاق قوى . وقد وصفه « المازنى » بأنه امرؤ لو شاء أن ينعم بالثراء ويقضى حياته فى ترف ولين لكان ذلك له من أيسر المطالب ،وقال أنه عندما اتصلت أسبابه به عرف أن أكثر مايصل إليه يده يذهب فى سبيل المعوزين وأن دائرة جهاده لايحدها القطر المصرى.

وأشار إلى أنه كان فى تركيا صاحب حول وطول،وكانت له كلمة مسموعة ورأى مطاع . وكانت أمامه خزانة الدولة ينفق منها كيف يشاء، ومع ذلك رحل إلى ألمانيا وليس معه قرش واحد .وقال المازنى أن جاويشا رجل لم تكن تهده المتاعب ولا توهنه الدسائس،فكان فى تركيا ينام على ظهر جواده بين الثلوج المتراكمة فلا يكل، وكان ربما نجحت الوشاية به فيضطر أن يختفى فى بدروم البيت أياما عديدة لا يذوق فيها أكثر من اللبن،وكان فى مصر لا يفتأ ينتقل بين السجن والبيت،وقد احتفل الشعب به مرة وجر مركبته بدلا من الجياد فلما آب من تركيا للمرة الأخيرة ورشح نفسه لمجلس النواب حصبته العامة فى الاسكندرية بالحجارة ، والجأوه إلى المسجد العباسى .

ووصف المازنى كيف «أنه كان يدفع إلى مقالة وأنا فى مرتبة أبنائه قبل أن يبعث به إلى أمين بك (الرافعى) فيبدو لى وجه اعتراض أفضى به إليه فيبتسم، ويقول : صدقت ؛ إن عذرى أنى كالغريب ويمزق الورق غير آسف ، ولا مستنكف . وكان تواضعه هذا يروعنى ويسحرنى لأنه من سماحة النفس وبساطتها وسعة الروح وسماحتها، وقال أنه كان لا يكف عن التفكير فى عمل

صالح ، ولم يكن يصرفه عن ذلك إلا أنه لا يكاد يجد القوت إلا كفافا وأنه عائش لا يدرى كيف . وقال المازنى أنه سأله مرة : هل تعرف كم قرشا فى جيبك فضحك وقال : لا والله ، قلت جرب لترى ، فقال وهو يبتسم : لا تفضحنى .

وأشار المازنى إلى أنه حذره يوما من رجل سوء رآه يطمئن إليه ويأتمنه فلم يحذر لأن الاسترابة بالناس لم تكن من خلائقه ، فقلت له مشفقا من عواقب هذه البساطة :

أنك سريع التصديق وأطيب قلبا مما ينبغى وعندك أن فى نفس كل إنسان عنصرا ملائكيا وأن العطف والثقة تظهرانه . وقال المازنى : « أنه بطبيعته رجلا حالما وبإرادته رجل عمل ، وإن تعادل هاتين القوتين هو الذى يبقيه متزنا ، وقد تغلبت إرادته أحلامه فيعمل بسرعة وإحكام وقد تظفر طبيعته بإرادته فتراه انقلب أشبه شىء بالشاعر يفكر فى عطف وحنو . وقد عاش عمره موزعا بين طبيعته وإرادته وأخلاقه هى أحلام نفس شفافة حساسة تعرف الدنيا وتزهد فيها ولا ترى الفرد إلا فى الجماعة »

* * *

وهكذا تبدو هذه الشخصية ذات القلم النارى الحر من وراء النفس الإنسانية غاية فى النقاء والصفاء عبر هذه المعركة الطويلة الجبارة التى أمتدت صدر عمره منذخاض معركة الحياة . وكان قد بدأ جهاده باكرا منذ أوائل القرن فقد ولد من أسرة مغربية بالاسكندرية فى ٣١ أكتوبر ١٨٧٦ ودرس فى الأزهر ودار العلوم وسافر إلى بريطانيا أستاذاً فى جامعة كمبردج ورأس تحرير اللواء وكتب وحوكم وسجن وهاجر وهو الشاعر الذى يقول :

نح طوق الذى سلك الرقاب ... واكر الاغلال بالبيض الغضاب
خض غمار الموت والهول المشيب ... واعتصم بالصبر فى الخطب الرهيب

آثاره ومؤلفاته :
مقالاته اليومية : اللواء ، الشعب ، العلم (١٩٠٨ — ١٩١٢) مؤلفاته .

— ٣٠ —

عبد الله النديم

(١٨٤٥ — ١٨٩٦)

« إن أيام الاستعمار السوداء التى مرت بها الأمة العربية قد أخرجت أبطالا صقلهم الظلم ، وصفاهم الاستبداد ، وصهرهم العدوان ، فانشأ منهم عمالقة أبطالا قاوموا ، وكانت أقلامهم أسنة مشرعة ، وألسنتهم سنانا ذات إبر تدمى جنب العدو وتديل منه » .

* * *

هذه عبارة عبد الله النديم خطيب الثورة العربية ، والكاتب الذى حمل على استبداد الخديوى والنفوذ البريطانى .. ثم لم يلبث أن اختفى بعد فشل الثورة العرابية عشر سنوات ، فلما أتيح له أن يعود إلى الحياة هاجم الاستعمار البريطانى وبدد أمنه . أنه واحد من أولئك الأبرار الذين قدموا حياتهم فداء لفكرة الوطنية ، وضربوا عرض الأفق بكل إغراء من مال أو جاه .

« أخذت من العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة ، وأدركت ما هم فيه من جهالة ومم يتألمون وماذا يرجون . وخالطت كثيرا من متفرنجة الشرقيين . وألممت بما انطبع فى صدورهم من أشعة الغربيين ورأيت أفكار — عالية وسافلة — فيما يختص بالشرقيين . والغاية المقصودة لهم ، واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ما هم عليه من السير فى المعاملة أو السياسة ، وامتزجت بلفيف من الاجناس المتباينة جنسا ووطنا ودينا ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة واستخدمت فى الحكومة المصرية زمنا ، وأتجرت برهة ، وفلحت حينا وخدمت الأفكار والتدريس وقتا ،

وبالخطابة والجرائد أونه واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا القصد الذى وصلت إليه بعناء كسانى نحول الشيخوخة فى زمن نضا فيه الصبا ، وتوجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ، فصورتى تريك هيئة أبناء السبعين ، وحقيقتى لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين » .

* * *

هكذا رسم عبد الله النديم مطالع حياة خصبة عريضة لم تزد عن الخمسين إلا عاما واحداً (١٨٤٥ — ١٨٩٦) عاش منها عشرة أعوام فى الاختفاء وامتدت حياته فى مرحلتين قبل هزيمة عرابى وبعد الاحتلال فى نسق واحد مضطرد .

وهو تلميذ الأفغانى ولسان عرابى وأستاذ مصطفى كامل ، وهو الكاتب الصحفى الخطيب الذى جعل ميدانه الشعب نفسه ، وجعل أسلوبه السخرية والتهكم ، وجعل طريقته القصة والحكمة والمثل القديم .

عرف نفسه فى حركة جمال الدين الأفغانى التى هزت الفكر العربى المعاصر ، فانبرى يتطلع إلى الإصلاح وينقد الأوضاع ، ويدعو إلى الشورى والنظام النيابى ، ومقاومة طغيان الخديوى ، وكان واحداً من أولئك الذين كتبوا المقالات النارية أمثال أديب اسحق وابراهيم اللقانى وسليم نقاش .

وكان إلى مقدرته الكتابية خطيباً يهز أعواد المنابر ، ومعلما يغزو القلوب والعقول بآرائه الجريئة فى الإصلاح ومقاومة الغزو الأجنبى والنفوذ الذى كان إذ ذاك على أهبة السيطرة .

وقد أصدر ثلاث صحف فى مراحل حياته الثلاث « التنكيت والتبكيت » قبل الثورة . « والطائف » إبان الثورة ، « والأستاذ » بعد الاحتلال . وفى شبابه نظم أربعة آلاف بيت من الشعر ، وكتب روايتين : الوطن والعرب وأجرى قلمه فى الشعر والتمثيل والأدب واللغة والفقه والتصوف ، وعرف بالنفس الطويل فى الكتابة والخطابة ، وكتب بالسجع فى الأولى وبالترسل

بعد أن اشتغل بالصحافة التى صقلت أسلوبه ، وكتب للخاصة باللغة الفصحى وكتب للشعب بالعامية . . . وغلبت على كل كتاباته العاطفية والخطابة ولغة الحماس والتهييج والإثارة .

وقد عمل فى ميادين ثلاثة :

١ — كشف ادعاءات الغرب ، وأكاذيب الاستعمار فى أنه يحمل منار الحضارة ولواء التمدن وكان دعوته لأهل الشرق إلى النظر فى عظمة أمتهم وأمجاد تاريخهم وخصب تراثهم ليروا منهم أنهم أمة عريقة لها ماض عظيم .

٢ — الإصلاح الاجتماعى والكشف عن العيوب المتفشية فى المجتمع ، ومحاربة الخرافات وانتقاد العادات وإصلاح الطرق الصوفية ، والحملة على المبشرين الاوربيين الذين انبثوا فى مصر والبلاد العربية .

٣ — غيرته على اللغة العربية ، وفى هـــذا يقول « بم تستبدل لغتك ومالها من مثيل وإلى من تتركها وأنت لها كفيل . . وما الذى استحسنت فى غيرها واستقبحت مقابله فيها ، وأى شيئاً طلبته ولم تجد له اسماً » .

ولاشك كان لوجوده فى هذه الفترة الدقيقة من تاريخ مصر والأمة العربية « ما قبل وما بعد الاحتلال البريطانى لمصر » أبعد الأثر فى أرهاصات تفكيره . فقد عاش فترة الإسراف والبذخ وسقوط مصر فى هاوية الديون الباهظة ، ودعوة اسماعيل إلى نزع مصر من الشرق ودفعها فى أحضان الغرب المادى اللاهى ، لا الغرب الجاد القوى . وكان يطلق على هذه الموجة (الداء الأفرنجى) هذا بالإضافة إلى أعمال المرابين الذين كانوا يعصرون الفلاحين .

كل هذا دفعه إلى التبكيت والتنكيت ، كما أسمى صحيفته ، فنادى بقبح الجهالة وذم الخرافات فى لغة بسيطة بعيدة عن الزخرف والبلاغة على نحو أحاديث السمر ، ومضى فى النقد والتعميم عن طريق القصص ، وعمل على تكوين الرأى العام الذى يحس الظلم والفساد بالتدخل الأجنبى .

وقد كانت حركة عرابى ثمرة من ثمار الجذوة التى أشعلها جمال الدين ، فقد بدأت بالمطالبة بحق الضباط المصريين أمام الأتراك والجركس ، ثم تطورت إلى المطالبة بتغيير نظام الحكم وامتدت من محيط الجند والضباط إلى محيط الشعب . هنالك فى وسط هذه المعركة الفكرية السياسية الجديدة الفاصلة بدا (عبد الله النديم) يصدر مجلة الطائف ينقد تصرفات الخديوى ، ويندد بالسخرة التى يلقاها الفلاحون ويدعو إلى الشورى والحكم النيابى .

وفى هذه الفترة ألف رواية « الوطن » وكشف فيها عن الظلم والفساد ورسم صورة لمفاخر والآباء ومآثر الأجداد ، وقابل بين السيادة السابقة العبودية اللاحقة .

كل هذا دفع عبد الله النديم إلى أن يتصل بالشعب ويتحدث إليه يقول :

« وأخذت أتنقل فى البلاد تنقل السائح ، وأخطب أهلها بالشارد والسانح ، وفى هذه الشهرة وانتشار الأفكار الحرة ، كنت أجد فى أغلب الطباع جبنا ، وعند الأمراء والوجهاء غبنا ، وكان قد سبقنى إلى تشجيع الناس السيد جمال الدين (الأفغانى) فإنه ألف حزبا من الشبان وجمع إليه بعضا من الأعيان وبث فيهم روح الغيرة الوطنية ، وملأ أذانهم بالمفاخر الشرقية ، ومع ما اعترى جمال الدين من النحوس ، وأنه كان يستعمل وجهة خصوصية ويؤمل رفعة ذاتية ، وأنه فرح بالاعتقاد ما وجه إليه من الانتقاد حين عدل بهم عن أنديته الأدبية إلى المحافل الماسونية ، ثم اشتهر بعض تلامذته بفساد العقيدة ومعارضة الدين الشديدة ، فإنه أثر فى كثير من النفوس » .

وحملت (الطائف) دعوة عرابى ورأيه ، ومضت تنتقد النفوذ الأجنبى واستبداد الخديوى ثم صدرت من معسكر عرابى خلال فترة المعارك ثم اختفى عبد الله النديم عشر سنوات بعد الثورة ١٨٨٢ — ١٨٩٢ ، ثم ظهر ليعاود جهاده

وجلاده ضد الاستعمار والخديوى عباس الذى كان يحاول فى هذه الفترة أن يتخذ من العمل الوطنى سلاحا يحقق آماله لدى الانجليز .

وأصدر عبد الله النديم مجلة الأستاذ — ٢٣ أغسطس ١٨٩٢ — ووجه اهتمامه الأكبر للنقد الاجتماعى فقد لاحظ استشراء الفساد واتساع الانحلال الخلقى بعد الاحتلال فقد تحولت كلمة الحرية إلى حرية اللذات والغرائز ، ومضى الأجانب فى ظل الاحتلال يعصرون المواطنين ويبتزون أموالهم ، ومضى المصريون فى التقليد الأعمى للأوربيين . وكان لرأيه الجرىء أثره فى إيقاظ الأمة الغافية ، وفى صحوة الشعب الذى انطوى بعد الاحتلال وقد غلبه اليأس ، كانت كلمات عبد الله النديم قبل مصطفى كامل بلسما لكثير من الجراح .

مضى عبد الله النديم يهاجم الاحتلال وينتقد الأزهر والأزهريين الذين انزووا عن الدنيا ودعا إلى إصلاح الطرق الصوفية . وحمل حملات عنيفة على التبشير الذى كان قد استشرى ، وهاجمته صحف بريطانيا وتبعتها المقطم والوطن ورموه بالتعصب وتقبيح أعمال الأوربيين ، ثم نفاه كرومر إلى يافا .

وليس أدل على يقظته الفكرية فى هذه الفترة من أنه كشف خدعة الاستعمار الذى أدعى أنه يحمل رسالة المدنية والحضارة للشعوب الضعيفة وكان فى ذلك مبكراً ، مبكرا جداً بالنسبة لمن اكتشفوا هذه الحقيقة من بعد .

أن صورة تفكير عبد الله النديم تدل على أنه لم يكن زجالا أو (أدباتياً) كما كانت تحاول صحف الاستعمار فى مصر أن تصوره ، وإنما كان مفكرا فيلسوفا بعيد النظرة عميق الفكرة .

وهو القائل (ماخلقت الرجال إلا لمصارعة الأهوال) وكانت حياته كلها أهوالا ، فقد ظل مختفيا عشر سنين يبدل كل يوم زيا واسما وبلدا .

وعندما دعى إلى الاستانة اصطدم بأبى الهدى الصيادى الذى كان يومها ألمع شخصيات الخلافة العثمانية أكبر رجال السلطان عبدالحميد ، فوضع كتابا فى هجائه أسماه (السامير) .

وقال للخليفة بعد أن قلده وسام الافتخار : لقد قلد مولانا السلطان (أبا الضلال) وسام الافتخار فلألبسنه وسام العار يلازمه فى حياته ويصحبه إلى قبره بعد مماته .

وهكذا كانت له فى كل بلد معركة وفى كل عصر حركة ، نازل الخديو توفيق واللورد كرومر وأبا الهدى الصيادى وكان جريئاً فى محاربة الظلم قوى الحجة فى المناظرة وكانت دعوته أنصع الدعوات : لم تكن مصر عنده لتركيا ولا للانجليز ، وخالف بذلك الدعوتين القائمتين إذ ذاك ، وقد عاش حياة متصلة الكفاح ولم يؤخذ على تاريخه الناصع إلاخطأ واحداً أنه قبل العمل مديرا للمطبوعات فى الأستانة فى ظل عبد الحميد .

لله ما طولها تلك السنوات التسع وأشقاها على (الشيخ مصباح) وقد قضاها مختفيا . ينتقل من بلد إلى بلد . ويختفى وراء كل مظهر عجيب . واسم غريب . يتوقع فى كل لحظة أن يعتقل أو يقذف به فى السجن، هذا الخاطر المخيف كان يصاحبه إذا اصبح وإذا أمسى وله فى كل مكان لباس وفى كل قرية لغة ، وفى كل بلد صناعة ، لقد ذهب أعوانه وانفض سامرهم .

وحوكم عرابى وفهمى البارودى وطلبه وحملتهم الباخرة إلى المنفى البعيد وذهب إلى أعماق السجون ألوف من الذين هزهم شعره ، ودفعتهم بلاغته إلى العمل تحت إمرة عرابى والكفاح فى سبيل مصر . أما هو فقد كتب عليه أن يمضى شريدا وحيدا ، يطوى الليل على أمل أن يطلع الصبح بجديد والدولة لا تتوقف عن البحث عنه والترصدله . وتغزى بألف جنيه من يأتيها به ، أو يرشد عنه . ولطالما عرفه الأمناء والفضلاء من أصحاب النفوس

الكريمة فى ريف مصر . ورغم الإغراء والوعيد آووه وحرسوه ولم يفرطوا فيه.

حماه الفلاح الأمى «أحمد جودة» طويلا، وقاسمه الطعام، وهو حلاق بسيط، كما لقى من عطف الناس ما أذهله. وظل كذلك حتى قبض عليه فى أكتوبر ١٧٩٢ ، وكانت آثار (ثورة عرابى) قد هدأت فى النفوس . فنفى إلى يافا ثم جرى العفو عنه وسمح له بالعودة إلى مصر واتجه النديم إلى عمله الأصيل فاصدر مجلته (الأستاذ) وحاول أن يبدأ حياته من جديد، غير أن كرومر تصدى له وأبعده مرة أخرى إلى يافا، ومنها قصد إلى الاستانة والتقى بجمال الدين مرة أخرى . .

ولم يطل بقاؤه بها فقد أشتد عليه مرض السل فمات فى ١١ أكتوبر ١٨٩٦ ودفن بمقبرة بشكطاش . وقد وصفه جمال الدين بقوله : مارأيت مثل النديم طوال حياتى من حيث توقد الذهن وصفاء النفس وشدة العارضة . ووضوح الدليل . وصياغة الألفاظ ورصفها رصفا محكما بازاء معانيها . إذا خطب أو كتب »

وكان مصطفى كامل قد التقى به وسمع منه قصة الثورة العرابية وعرف أخطائها وتلمس خططها ، وكان مصطفى يعلن فى كل مناسبة أن النديم أستاذه .

وقد عرف ببراعة العبارة، وروح الجرأة، وتغليب الفكاهة والعامية ومزج الجديد بالهزل، ومما مكنه من احتلال ناصية البيان والخطابة صحبته للبارودى والساعاتى واللقانى وعلى أبو النصر حتى قيل أنه خطب فى اجتماع واحد خمس مرات، كانت تتخلله خطب الآخرين، كما عرف بصلابته فإنه لم يتنكر للثورة العرابية كما تنكر لها الكثيرون ، ولم يحاول أن يتخذ طريق النفاق والزلفى ، كما فعل غيره ، وإنما اتخذ الطريق الأقسى والأشق واختفى عن الأنظار .

يقول : « خرجت من مصر مختفيا فدرت فى البلاد متنكرا ، أدخل كل بلد بلباس مخصوص وأتكلم فى كل قرية بلسان يوافق دعواى التى أدعيها ، من تركى إلى مغربى أو يمنى أو مدنى أو فيومى أو شرقاوى أو نجدى . واصطلح للحيتى اصطلاحا يوافق الدعوة فأطيلها فى كل مكان عن ذوى المشيخة وأقصرها عن ذوى السياحة — مثلا — وأبيضها فى بلد وأحمرها فى قرية وأسودها فى عزبة .

وقد وصف مشاعره فى إحدى رسائله :

«إن سألت عنى فانا بخير وعافية وحالة صافية ، أشغل فكرى بما يأتى به الليل إذا كنت بالنهار . ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب.ولا أتألم من طول المدة ووقع الشدة لاعتقادى أن لكل شدة مدة متى انتهت خفت الأهوال وحسن الحال ، فترانى فكرى كليمى وقلبى نديمى .

تارة أشتغل فى كتابة فصول فى علم الأصول،وأجمع عقائد أهل السنة مما يعظم الله به المنه ، وحينا أشتغل بنظم فرائدفى صورة قصائد،ووقتاا كتب رسائل مؤتلفة فى فنون وأونة فى أخرى . وقدتم لى عشرون مؤلفا من صغير وكبير » .

وقد وصفه أحمد تيمور بأنه كان شهى العبارة ، حلو الفكاهه ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز،يقول : لقيته فى أواخر إقامته فى مصرفرأيت رجلا فى ذكاء أياس وفصاحة سحبان وقبح الجاحظ ، أما شعره فاقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا . . . »

* * *

أصدر عبد الله نديم صحف : التنكيت والتبكيت : (٦ يونيو ١٨٨١)

الطائف : ١٨٨٢ الاستاذ : ظهرت فى أغسطس ١٨٩٢ وتوقفت فى ١٣ يونيو ١٨٩٣

وقد قدم جريدة التنكيت والتبكيت بمقدمة جاء فيها :

مجلة وطنية أسبوعية، أدبية هزلية ، هجومها تنكيت، ومدحها تبكيت، لا تلجئك إلى قاموس الفيروز بادى ، ولا تلزمك مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطرك لترجمان يعبر لك عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر لك معانيها ، هى صحيفة أدبية تهذيبية، تتلو عليك حكما وأدابا ومواعظ وفوائد ومضحكات بعبارة سهلة ، لا يحتقرها العالم ولا يحتاج معها الجاهل إلى تفسير .

توفى فى ١١ اكتوبر ١٨٩٦ فى الاستانة ودفن فى مقبره باشكطاش .

مؤلفاته واثاره

مقالات النديم (جمعها محمد بن منتصر ١٩٠٩

المسامير (فى هجاء الشيخ ابوالهدى الصيادى)

سلافة النديم فى منتخبات السيد عبدالله نديم — ١٩١٧

— ٣١ —

عبد الوهاب النجار

(١٨٦٢ — ١٩٤١)

يمثل عبد الوهاب النجار نموذجا لذلك الرعيل الذى التقى بالأستاذ الإمام محمد عبده أول الشباب فتأثر خطاه ، وسار على نهجه ، وحاول متابعته فى التجديد الاصلاح والاجتهاد فى مجال الفكر والدين واللغة .

وقد كان من أبناء تلك المدرسة الوسطى : دار العلوم فتخرج فيها ١٨٩٧ ثم تقلب فى مجالات مختلفة ، اشتغل بالمحاماه الشرعية ، ثم مدرساً للآداب والشريعة فى كلية الخرطوم، وتولى التدريس فى مدرسة البوليس بالقاهرة ، فاستاذاً للتاريخ الإسلامى فى الجامعة المصرية القديمة ، فأستاذاً فى دار العلوم . ولاشك كان لهذه الأعمال المختلفة أثرها فى تكوين شخصيته الخصبة الثرية بالتجربة والفهم لقضايا الفكر العربى الإسلامى .

وكان اتصاله منذ اليوم الأول بجمعية الشبان المسلمين وتوليه الإشراف الثقافى والروحى فيها ، عاملا من العوامل البعيدة المدى فى الانتفاع بتجربته وثقافته . فقد كان [1] — يأنس به الشبان ويستفتونه فى قضايا الإسلام ، والشبهات التى تترامى على عقولهم فى فترة الانتقال ، واحتكاك العقل الشرقى بالعقل الغربى ، وهو يفتيهم ويدحض ما يجول فى صدورهم من الشبهات ويردلهم اليقين وقوة العقيدة ، وقد ساعده على الأقتراب من قلوبهم ، والدخول إلى عقولهم ، اتصاله بنصيب وافر من العلوم العصرية التى كان يلم بها مماجعله ابن زمانه ، وربيب عصره ، لارجلا متخلفا عن

---

(١) عبد المنعم خلاف : مجله الشبان المسلمين سنه ١٩٤١

ملاحقة سير الحياة بالأحياء وسرعة نمو هذه المدنية العجيبة التى تتفتح فيها أسرار الطبيعة للعقول تمتحا متلاحقا يحير الألباب ويثير الدهشة ، فقد كان يعلم من مباحث علوم الطبيعة والكيمياء والكهرباء ، وفنون الصناعات والآليات ما كان يثير اعجاب من يسمعونها ، وهو شيخ معمم تقدمت به السن ، وكان مؤرخا واعياً وقصاصا بملوء الحافظة بحوادث التاريخ ونوادر الرجال ، ومجالسه عامرة بأعذب القصص أوطراف الحكايات فضلا عن ضلاعة إطلاعه على الأديان الأخرى وحفظه كثيراً من نصوص التوراة بالعربية والعبرية ، التى كان يحذقها والأناجيل التى كان يلم بأقوال شراحها واستخلاصه من كل أولئك ما يؤيد رسالة الإسلام ، مماملأ أيدى الدعاة إلى الإسلام بالحجج الدامغة عن دينهم فى مجال البحث والمساجلة» .

هذا هو الجانب اللامع من حياة عبد الوهاب النجار وهو العمل فى مجال الكلمة وبناء المثقفين وتصحيح المفاهيم، وهذا مالم يكتب فيه مؤلفاً ، ولكنه كان مادة خصبة لأحاديثه ، كمرشد أو داعية أومصلح يلتقى بطلاب المعرفة والراغبين فى الثقافة .

وقد تأثر عبد الوهاب النجار بدراسة مقدمةابن خلدون ، وكان الشيخ عبده يلقى منها محاضرات فى السنوات الأولى لإنشاء دار العلوم ، بعد أن كانت منسكورة مهجورة فى دارسات الأزهر القديم ، يقول النجار : «ابن خلدون رجل عشقت كتابته ، فاصلح ذلك العشق من كتابتى وقوم أسلوبى حين أغرمت بمحاكاته ، ذلك فى حين الحداثة وعنفوان الشباب ، وجلت كتابته فى التاريخ قراءة التاريخ ، حتى صار نهمة النفس وغذاء الروح وسلوتى فى خلوتى ، فقد حبب إلى نقد عبارات المؤرخين ووزن الحوادث بالبصيرة ، كل حسنة عندى من التاريخ من عنده ، كان أستاذنا محمد عبده قبل نفيه إلى بلده محلة روح مدرساً بدار العلوم ، وكان يكلف الطلبة بدراسة المقدمة ، وكان يكتب هومعهم مع مراعاة تغيرالأزمان واختلاف

الأحوال والملابسات بين الزمنين ، فتكون من كتابة أستاذنا جزء عظيم من الموضوعات التى تناولها ابن خلدون فى مقدمته » .

ولقد كانت ثقافة الأستاذ النجار فى مجال التاريخ أغلب من مختلف المجالات الأخرى كاللغة والتشريع ، وهى التى أعطته سعة الأفق ، ورحابة النظرة ، فقدضم تجارب الأمم وخبرات النوابغ إلى خبرته، وقد عرفت له مكتبة ضخمة وصفت بأنها جمعت مالا يدخل تحت حصر من المراجع . فإذا أضيف إلى هذا رحلاته ، إلى فلسطين وسوريا ولبنان وتركيا ، ورحلته الطويلة إلى الهند مع البعثة الأزهرية ، واشتغاله بالقضايا السياسية الإسلامية ومشاركته فى أول مؤتمر إسلامى ، وهو مؤتمر القدس ١٩٣١ عرف إلى أى حد توسعت آفاقه وأمتدت جوانب فكره .

* * *

ويبدو ذلك غاية فى الوضوح فى كتاباته وإجاباته على القضايا والمعضلات:

ففى التساؤل عن : هل العلم والدين يتناقضان ، يقول :

« أن حقائق الوجود واحدة لا تتغير ، وأن الإنسان قد يصل إليها عن طريق العلم أو عن طريق الدين ، وليس بين العلم الصحيح والدين خلاف ، وبقطع النظر عن تطور العلم فإن دائرة العلم غير دائرة الدين ، والدين وسيلته البصيرة والعلم أداته العقل ، والبصيرة أنفذ إلى كنه الأشياء من العقل ، والقرآن يحض الناس على استعمال عقولهم ويطالبهم بعدم تعطيل ملكاتهم ، والحضارة الإسلامية العربية لم تحارب الاشتغال بالعلم بها شجعت البحث العلمى » .

وقد صور عبد الوهاب النجار مطالع شبابه فى ضوء المرحلة التى بدأت فيها اليقظة وكيف بدأت دار العلوم تخلق طابعاً جديداً لتطور اللغة والأدب يختلف عن الطابع التليقدى القديم ، يقول: « نشأت فى بلدتنا القرشية وكنت فى أول ماوعيت أسمع والدى وأصحابه يدنون ويعيدون فى المجالس

المختلفة ماكان يتفاصح به المرحوم خلف الله باشا مفتش السنطة والهياتم .
ومما أثرعنه أنه مر بمزرعة أحمد باشا المنشاوى فرأى قطعة من المزرعة قد زرعت حشيشاً وكانت الحكومة قد حرمت زرعه ، فأرسل إليه رقعة يطلب فيها أن يأمر باقتلاع هذا الحشيش من أرضه ، وكان أحمد المنشاوى ذا عظمة وأباء لايخضع لأحد فمزق ذلك الكتاب فى عصبية، وحنق ، وعاد الرسول فأنبأه ، فكتب إلى المنشاوى يقول : يا زارع الحشيش ، يا أبوعقل مافيش ، تأكل دشيش ، تشرمط جواب التفتيش .

هذا ضرب من الإنشاء مماكان يتفاصح به المتفاصحون ، وكان المرحوم على مبارك قدتنبه لأحوال الدواوين والكتابة والإصلاح بتعلم اللغة العربية فانشأ مدرسة دار العلوم وإخراج معلمين يجيدون الكتابة

ومن ذلك أن أحد المدرسين المصريين الذين درسوا فى أوربا ، وعادوا إلى مصر ، عين مدرسا للكيمياء ، فاراد أن يترجم كتابا فى علم الكيمياء ، من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ولما كان ضعيفا فى اللغة العربية فقد طلب من نظارة المعارف أن تعهد إلى أحد مدرسى العربية أن يصوغ مايترجمه فى قالب عربى ، فعهدت النظارة بهذا إلى أحد مدرس اللغة العربية ، ولما وصل المترجم إلى غاز الأوكسجين قال : والأوكسجين : هو غاز لالون له فقال الشيخ هذا غلط ، ولكن نقول (الأوكسيجين : غاز لالون له)

وقال أن مدرسى اللغة العربية كانوا يختارون من علماء الازهر ، وكان كثير منهم يرى أن القول بكروية الأرض كفر صريح ، والقول بأن الأرض تدور حول الشمس زندقة لايسترها ساتر ، ودراسة علم الطبيعة الذى هو علم خواص الإنسان مروق من الدين . ولقد كان أول

مايبدر من أفواه بعض المشايخ فى تكفير من يدرس علم الطبعية (علم خواص الأجسام) قول صاحب الجوهرة :

ومن يقل بالطبع أو بالعله فذاك كفر عند أهل الملة

ومن جهه أخرى ، رأى (الشيخ محمد عبده) رجال الإرساليات الذين درسوا فى أوربا ، يرمون المشايخ بالجهل ، فاراد أن ينشىء دار العلوم ويخرج للتعليم رجالا لا يكفرون المثقفين فى أوربا ولايكفرون العلم، فكان ما اراد وارتقى تعلم العربية فى المدارس ، حتى كان الشيخ محمد عبده فى تقاريره يقول :

« إنى رأيت اللغة العربية تموت فى كل مكان ولكنها تحيا فى دار العلوم . »

هذه الصورة التى عاشت فى أعماق عبد الوهاب النجار عن مطالع حياته وكيف بدأ ذلك الجيل الجديد ، يؤمن بأمته ووطنه ويعمل فى مجال الثقافة العربية الإسلامية . وهو يصور أثر محمد عبده الذى كان يريد احياء اللغة العربية عن طريق دار العلوم ، وهى حلقة بدأت وانتهت بانتهاء الثورة العرابية وكان لها أثرها الفعال فى تحرير الكتابة العربية من لغة الدواوين وقد تولى الشيخ عبده رئاسة تحرير الوقائع» وكانت مهمته على حد قول عبدالوهاب النجار : إصلاح لغة الدواوين .

* * *

وتمثل فى عبد الوهاب النجار إيمان أستاذه محمد عبده بالعمل من أجل بناء الثقافة العربية الإسلامية ، فى أسلوب عربى مشرق الطابع ، بعيدا عن التقليد ، وقد أعانه على ذلك إيمان وكرامة واستعلاء على الأحداث ، ورجولة واضحة فى كل المواقف، حتى أنه حين أحس بأنه سينقل إلى أسوان أبعادا له ، إستقال من عمله فى وزارة المعارف ثم اشتغل بالمحاماة الشرعية ،

فلما اختير مدرسا بكلية غردون بالسودان وانتهت مدته عاد إلى الاشتغال بالمحاماة إلى أن طلب للتدريس، وكان حفيا بأن يعمل فى الصحافة ١٩١١ ، وكان الشيخ على يوسف قد رغب إليه أن يتولى تحرير المؤيد، بعد أن اختير لمشيخة السادة البكرية غير أنهم عجزوا أن يحصلوا له على الضمان الكافى لتقاضى راتبه فى مقابل تخليه عن وظيفته .

وجيل عبد الوهاب النجار ، من تلاميذه الشيخ محمد عبده يتمثل فيه ذلك الخلق ، والإيمان ، والكرامة ، : أمثال عبد العزيز جاويش ، وحسن منصور ، وأحمد إبراهيم .

* * *

ومن أبرز أعماله كتابة يوميات ثورة ١٩١٩ التى أطلق عليها : « الأيام الحمراء » وقد نشرتها جريدة البلاغ (مارس ١٩٣٤) وقال فى دواعى كتابتها :

كنت فى بادىء الأمر أظن أن الأمر سينتهى عند حد المظاهرات ولكن معارضة السلطة والبوليس لذلك الشعور الفياض أكسب القضية عطفا عاما وقد لاح لى الأمل عندما أريق أول دم فى سبيل المطالبة بحرية البلد ، وكنت أرى المظاهرات تفرق من قبل برش الماء على المتظاهرين

مؤلفاته وأثاره .

مذكراته عن ثورة ١٩١٩ (البلاغ ١٧ مايو ١٧٣٣)

تقرير رحلته إلى الشام وتركيا

تقرير رحلته إلى الهند (الرحلة بدات ١٣ يونيه ١٩٣٦ ونشرت فى التاريخ يوليو ١٩٣٦

زهرة التاريخ « كتاب »

تاريخ الإسلام (١٦ اجزاء) طبع فيه ٢ جزء

قصص الأنبياء ٢ تاريخ الخلفاء الراشدين

-٣٢-

عبد الوهاب عزام

(توفى فى — ١٩٥٩)

تعتلى حياة (عبد الوهاب عزام) صورة من صور الكرامة والعزة والخلق فى مجال حياتنا الفكرية والعملية، هذا الرجل العالم المؤمن بالله، العامل فى حقل الجامعة والسفارة الدبلوماسية والرحلة ودراسة أعلام النهضة والذى تتسع نظرته إلى الايمان بالأمة العربية والإسلام وتتوثق فى الربط بين أجزاء العالم الإسلامى فهو القادر على أن يقرأ ويبحث فى العربية والفارسية والتركية وهو المسافر القاصد إلى أقصى أجزاء كراتشى واستانبول ومكة وبغداد ودمشق، وإلى كل مكان يستطيع أن يستعيد تاريخ العرب والمسلمين .

وإذا كنت قد عايشت أمثال هذه الشخصيات وسايرتها فى حياتها طويلا فانى دائما أذكره حين أذكر مصطفى عبد الرازق فى الحياء والكرامة والأريحية وحين أذكر أمين الرافعى فى الخلق والإيمان والنبوغ ، وحين أذكر عبد العزيز الثعالبى فى الرحلة والجولان فى العالم الإسلامى ، وحين أذكر عبد الحميد العبادى فى سمت العلماء المترفعين عن الصيحات الداوية

وهو واحد من طائفة قليلة عاشت فى محيط الجامعة المصرية فى أبان معركتها بين القيم الأصيلة والقيم الوافدة ، وقد استطاعت هذه الطائفة أن تثبت على إيمانها وهو شبيه فى نفسى بصورة (رفاعة رافع الطهطاوى) أمام البعثة المصرية الأولى إلى أوربا، ذهب معها مؤذنا وإماما فسبقها واستطاع اسمه أن يلمع فوق كل لمعان ، وكذلك كان عبد الوهاب عزام حين ذهب إلى لندن إماماً للصلاة فى السفارة المصرية فاستطاع بجده وإيمانه أن يدرس وأن يتصل بالجامعة وأن يصل فيها إلى أرقى الدرجات ، وهو ابن الأزهر أولا ومدرسة القضاء الشرعى ثانيا ، غير أنه استطاع أن يشق

طريقه إلى الدراسات العليا وأن يجيد الانجليزية والفرنسية والتركية والفارسية .

ولم يكن عبد الوهاب قبل ذلك فى بلده الشوبك الغربى من مديرية الجيزة إلا واحدا من أهل القرية المجاهدين الذين قاوموا الاستعمار البريطانى أشد مقاومة ، وكانت قريتهم ضحية من ضحاياه ، حيث لقيت من الاضطهاد والتحريق والإبادة ما جعلها تفخر على التاريخ بأنها كانت قوة ضخمة فى وجه الغاصب .

ومن هذه القرية ، وفى هذا المجال ، تكون عبد الوهاب عزام واستطاع أن يصبح علما من أعلام الفكر والأدب ، وأن يشق طريقه فى جامعة القاهرة عميداً لكلية الآداب، ثم وزيرا مفوضا فسفيرا لمصر فى السعودية وفى الباكستان وأول مدير لجامعة الرياض . وهو منذ ١٩٢٠ عندما تخرج فى القضاء الشرعى حتى توفى فى ١٨ يناير ١٩٥٩ وفى خلال أربعين عاما قدم للفكر العربى الإسلامى وللأمة العربية والعالم الإسلامى نموذجا حيا من الإنسان المثقف الذى يجمع بين الخلق والعلم ، وبين النبوغ ونبالة الشمائل وكان خلقه هو الضوء الكاشف الذى يثير أوهج حول شخصيته أينما ذهب، فهو متصوف زاهد فى لذات الدنيا لا يكاد يوليها إهتماما ، وهو عالم قادر فى كل ما يتعلق بالتراث العربى الإسلامى فى آداب الفرس والترك ، وهو الذى كان يدعو من خلال فلسفة واضحة المعالم إلى إعادة المزج بين العروبة والإسلام بعد أن اتخذ التغريب منها «قضية» لتمزيق الوحدة بين الأمة العربية والعالم الإسلامى . وكان حريصا على أن يقضى على دعوات الشعوبيين فى النظرة إلى التفاخر وبالأجناس ومن ذلك عبارته : « ينبغى الاحتراس من أن يفسر بالعداوة ما أثر من تنافس وتفاخر ومهاجاة بين قبيلتين فى أمة أو أمتين متجاورتين أو متشاركتين فى جامعة من الدين وإن أدى هـذا التناظر والتنافس إلى العداوة والحرب » .

وقد اتخذ عبد الوهاب عزام من داره مجلسا للعلم والأدب ، يؤمه صفوة من الأعلام فيسمرون فى حديث طلى يربط بين الرحلة والتاريخ والأدب ، وتتخلله صورة صوفية فى أناشيد جلال الدين الرومى أو محمد إقبال وكان عزام يحبهما حبا لاحد له . وله إلى ذلك دراسات عن شاعر الإسلام التركى محمد عاكف . ولقد كانت فرصة إقامته فى باكستان سبيلا إلى ترجمة شعر إقبال وكتابة سيرته . والارتباط معه برباط الروح والفكر . ولقد كان حديثه شيقا ، سواء فى بيته بين أصحابه ، أو فى مدرج الجامعة وكان إلى ذلك رقيق الحاشية جم التواضع .

* * *

وكان إطروحته فى الدكتوراه عن الشاهنامة الفارسية ، فقد أحيا منظومة الفردوسى وكانت قد ترجمت أيام المماليك إلى اللغة العربية ثم أهملت، فأتم مابها من نقص وصحح الترجمة القديمة وجعلها ملائمة للأصل الفارسى . وهو أول أستاذ للغة الفارسية فى الجامعة المصرية وأول مصرى علّم هذه اللغة فى مصر فى العصر الحديث ، وكان إلمامه بالتركية قويا ، فلما قصد إلى باكستان استطاع أن يحذق اللغة الأوردية ويترجم منها شعر إقبال إلى اللغة العربية .

وقد نقل إلى العربية روائع الثقافات التركية والفارسية والأوردية وهى كلها ذات مصدر واحد هو الفكر الإسلامى .

وله دراسات عن فريد الدين العطار ، وعن «مثنوى» جلال الدين الرومى، وقد عنى بدراسة المتنبى بمناسبة مرور ألف عام على ذكراه، فنشر ديوانه مع دراسة وافية . وله دراسة عن كليلة ودمنه ومجالس السلطان الغورى وله بحث عن تركستان ،هذه الولاية التى لم يكن يذكرها الباحثون من قبل ، وفيها أبان عن أصالتها فى الثقافة الإسلامية .

وكان إلى ذلك عضوا فى المجامع العلمية المختلفة فى مصر وسوريا والعراق وإيران وكان ابن بطوطة العصر ، له رحلات عديدة مبكرة فى العالم العربى وآسيا وأوربا كان يرسل خلالها رسائل إلى إحدى كريماته[1] فيحدثها عن الرحلة والطريق ويقدم لها جانبا من التاريخ والثقافة .

ولقد تابعت آثار عبد الوهاب عزام خارج مؤلفاته المطبوعة ، فوجدت حشداً ضخما من الآثار المنثورة فى المجلات وأهمها الرسالة والثقافة . ولعل أبرزها بحثه عن «أخلاق القرآن» . ودراسته (أمم حائرة) فى أربعة عشر فصلا نشرها فى الرسالة (مجلد ١٩٤٩) تناول فيها الأسرة والمدرسة والمرأة والإيمان بالله والعدل والحضارة الغربية . والمادة والروح وعرض فيها الحيرة الإنسان الحديث وردها إلى مصدر واحد هو ضلال الانسانية عن الدين .

وهذه نظرته وفلسفته :

« إن هذا الصخب المحيط بنا ، وهذا القلق المستكن فى أنفسنا ، والظاهر فى كثير من معايشنا ونظمنا وشرائعنا وأمورنا . وهذه الحيرة الدائرة بالناس على غير طريق إلى غير غاية ، كل ذلك مرده إلى فقد السلام فى النفس الواحدة وبين الأنفس المتعددة ، ولا سبيل إلى السلام إلا بالعدل ، يجمع الناس على شرائع من الحق ، وسنن من الخير ، والبر ، ومرجع العقل هو الإيمان بالله ، الإيمان الذى يعظم النفس ، ورفعها عن الدنايا وسفساف الأمور وعن الأهواء ، نحن فى عالم تتصادم آراؤه لأنها لا ترجع إلى أصل يوحد بينهما . ولا نجاة من التصادم ، إلا بالسمو عن الأهواء إلى الحق ، وعن الظلم إلى العدل» .

وهو يرى أننا نعيش اليوم « فى مدينة عجيبة لم يعرفها تاريخ العالم من قبل ، هى مدينة تسيطر على الآلات الدائرة ، هذه الأعاجيب من الآلات السائرة والطائرة ، يسخرها الإنسان وتذهب بكثير من سعادته وسلامه » .

(١) اقرأ بعض رسائله فى كتابنا (الشرق فى فجر اليقظة) .

ويحاول من خلال بحثه المطول العميق الوصول إلى نتائج هامة فيقول :

« إن علينا أن نسيطر على الخليقة ونسخرها كما نشاء جهد طاقتنا ، وأن علينا أن نسير الحياة بعقولنا وعلومنا ، أن الحر يفكر ويقول ويفعل ، كأن إرادته من قضاء الله وجهاده من قدرة الله مسخرا لسلطان الزمان والمكان، ليخلق تاريخا وينشىء جيلا ويغير الزمان والمكان ، وهل خلد فى تاريخ البشر إلا من تصدى للباطل يدفعه بالحق وللشر يقلبه بالخير، وهل دعا نبي أو نادى مصلح إلا لصد التيار الجارى ، ورد الأحداث السائرة ، وتغيير السيرة الفاسدة ، أن الذى يريح نفسه وعقله من تكاليف الاصلاح ومشقة الجهاد يساير الزمان ويحتج بالمكان ، ويمضى مع الماء والريح ولكن لله خلقا يحملون كل عبء ، ويعانون كل مشقة ، ويستصغرون كل هول ، ليثبتوا بالحق وفى الحق ، على مضى الأيام والساعات والدقائق والثوانى ، كالطود فى مجرى السبيل والحق فى معترك الأباطيل ، وسيمضى الأحرار لا العبيد ، يقولون ويفعلون ويجاهدون حتى يبلغوا غايتهم أو يقضوا نحبهم على السبيل قاصدين».

ولا شك تعطى هذه المعانى جوهر (عبد الوهاب عزام) ليس أديبا ولا باحثا فحسب ، إنما رجل دعـــوه واصلاح يؤمن بأمته وقيمها وفكرها ويحمل لواء الدعوة إلى التجديد والنهضة والعمل من أجل إبلاغها مكانها الحق .

وهو من أجل هذا يدعو إلى العمل الخالص المجرد لوجه الحق وحده. يقول للكاتبين « أريد أن يؤدى الكاتب أمانته ويبين عقيدته ، غير حاسب حساب السوق ، أريد أن يعلو الكاتب ما مكنه طبعه ، وأن يدق ما شاء له فنه ، لا يعنيه إلا أن يؤدى واجبه على الوجه الأكمل ، لا أدعو أن يصير الأدباء فنا واحدا فى البيان وأسلوبا عاليا فى الكتابة ، ولكن أخشى أن تذهب السرعة بالاتقان ويمتحن الكاتب حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن » .

وفى بحثه عن أخلاق القرآن يصور منزلة القرآن من نفسه ومن الحياة فيقول « القرآن الكريم كنز من الأخلاق لا يفنى ومنبع من الفضائل لا ينضب فليت المسلمين يرجعون إليه ليتبينوا سننه ، ويتخلقوا بأخلاقه ، ويتأدبوا بأدبه ، ليكون لهم به عصمة فى هذا العصر المفتون ، وقبسا وعزا من هذا الذل ، واجتماعا من هذه الفرقة ، وعلما من هذه الجهالات ، إلا أن كتاب الله الكريم لا يدعو إلى أخلاق الصوامع ، ولكن يدعو إلى أخلاق تسعد الناس فى معارك الحياة » .

وهكذا تبدو صورة (عبد الوهاب عزام) من خلال إثارة ، يمتزج فيها العلم بالخلق والنبل بالفكر ، فهو نموذج رفيع من نماذج العلماء الأبرار الذين تخلقوا باخلاق القرآن ومفاهيم الإسلام واستطاعوا أن يكتبوا صفحة من صفحات البحث العلمى والخلق الإنسانى .

* * *

وإذا ذهبت أتعمق هذا المعنى استطعت أن أصل فيه إلى كثير ، فقد طبق عبد الوهاب عزام خلقه فى بيته وأسرته ، وكون كريماته على ذلك ، فأسس بذلك نماذج من المرأة العربية المسلمة فى ثقافتها وإيمانها وخلقها أسعدت كل من أتصل به وأنتجت نماذج جديدة من الشباب . وهذا هو الفرق بين العلم على أطراف اللسان ، والعلم فى أعماق القلب ، عندما يتحول إلى خلق وحياة وصدقت السيدة عائشة حينما أرادت أن تصور الرسول فقالت : (كان خلقه القرآن) .

لا ننسى فى ختام القول أن نذكر « ندوة قبة الغورى » التى كان يديرها عبد الوهاب عزام ويجتمع فيها صفوة من أهل العلم والفضل ، ولقد صوره الدكتور طه حسين فى صورة رائعة حين قال « لم أعرف أحدا كان أخف منه روحا ولا أسمح نفسا ولا أسجح خلقا ولا أرجح حلما ، حديثة

طريف كله حين يمزح وحين يجد ، كان يؤمن بأن وطنه هو أرض العرب كلها ، ليس مصريا فقط ، وهو مخلص مسلم سمح مؤمن بأن كل بلاد الإسلام وطن له ، ولقد كانت حياته متصلة بين أصدقائه فكاهة ودعابة حلوة ، حلو الروح ، عذب الحديث ، مشرق اللفظ ، محبب إلى النفس » .

* * *

آثاره ومراجعه :

مؤلفاته : النفحات ١٩٥٣ ، المعتمد بن عباد ١٩٥٩ ، التصوف وفريد العطار ١٩٤٥ ، ذكرى أبي الطيب ١٩٣٦ رحلات ١٩٣٩ الأوابد ١٩٤٢

مقالاته : الرسالة ١٩٣٢ — ١٩٤٠

— ٣٣ —

الدكتور عثمان غالب

(١٨٤٥ — ١٩٢٠)

هذا عالم عربى إستطاع فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أن يشارك علماء أوربا مسئولية البحث العلمى، ويقدم لهم ضوءاً كاشفا، لاتزال خيوطه حتى الآن تشهد له بالسبق والأولوية، حيث كانت الحملات التى يشنها النفوذ الأجنبى تحاول أن تصور العقلية العربيـــة بالقصور والعجز الضعف عن الابتكار والسبق فى مجالات العلم بالذات.

هذا العمل الذى بهر به الدكتور عثمان غالب أقرانه، هو مصدر الخصومة التى حملته على أن يفارق وطنه وأن يعيش مغتربا مهاجرا حتى ينتهى أجله، وإن لم يتخل عن أمانته لوطنه، بل ظل مدافعا عنه، مجاهدا فى سبيله.

والدكتور عثمان غالب واحد من ذلك الرعيل الأول الذى تكون فى ظل الحركة الوطنية المصرية التى حمل لواءها مصطفى كامل، والتى كان أبرز مفاهيمها مقاومة النفوذ الاستعمارى والأجنبى فى كل مجالاته، وبناء هذا الوطن فى كل ميادينه.

وكان الدكتور عثمان غالب قد تخرج فى مدرسة الطب بقصر العينى، وأمضى بها ثلاث سنوات، سافر بعدها إلى فرنسا، فاتجه نحو العلوم الطبيعية، وأحرز أجازة الدكتوراه ١٨٧٨ عن البيضة فى السلالة الحيوانية وأمضى خمس سنوات فى درس . . الديدان والحشرات، وكان قد عنى منذ وصل إلى فرنسا بدراسة آراء « باستور » التى كانت جديدة فى ذلك الوقت، فى مجال الطفيليات والميكروبات، فاتجه إلى هذه الجوانب، وعنى بدراسة الطفيليات التى تعيش على حساب غيرها فى الكائنات الحية فى جسم الحشرات ولم يتوقف عند ذلك بل واصل عمله عدة سنين فى جامعه « مونبلييه »

وقد استطاع الدكتور عثمان غالب أن يكتشف أربعين طفيليا جديدا. وكان فى مقدوره أن يطلق على كل واحد منها اسما جديدا يخلد فى التاريخ العلمى ويخلد معه اسم المكتشف ولكن أمانته العلمية عزفت به عن ذلك .

وقد حضر « ويصاً واصف » سنوات على العلامة بيرلى الذى كان من الأعلام فى فنه ، وقرأ بحث الدكتور عثمان وقال أن البابين اللذين خصصهما لطبائع هذه الحيوانات الطفيلية قد أثارا انتباه كثير من العلماء ، إلى حد أن هذا العلامة كان يوجه كثيرا من تلاميذه إليه، ويقول: إن كنت لا تستطيع أن تحضر مبحثك فى معملى فحضره فى معمل الدكتور غالب فانه فى صف أحسن علمائنا وكان يردد دائما قوله : أنه منذ رأس لجنة الدكتوراه فى العلوم لم ير مبحثا أدق وأجدر بالاعجاب من مبحث الدكتور غالب .

* * *

وعاد الدكتور غالب إلى مصر بعد ذلك فاقام بها حتى ١٩٠٦ فى الأغلب حيث هجر مصر نهائيا . وفى هذه الفترة واصل أبحاثه . وقد اكتشف دودة القطن سنة ١٨٧٩ — ووصف طرق ابادتها ، وانصرف إلى علم النبات فاكتشف « فسيلة نباتية » كان العلماء يقولون بفنائها واضمحلالها بعد حملة نابليون . كما اختير لتوليد أنواع الدخان والتنباك فى مصر مع زميله يعقوب افندى .

وأخذ منذ عام ١٨٧٩ وهو فى الأغلب عام عودته إلى مصر بنشر أبحاثه فى طفيليات الحشرات وقد اكتشف أربعين نوعا منها واختص بدراسة خمسة وعشرين منها ولم يكن يعرف قبل بحثه منها سوى ثلاثة أنواع .

وهو أول من اكتشف فى علم البكتريا أن من الميكروبات مالا يضر إلا إذا مر من جسم إلى جسم آخر .

ومنذ عاد الدكتور غالب إلى مصر أسند إليه تدريس التاريخ الطبيعى بمدرسة الطب ، ثم عمل وكيلا ونائبا ، غير أن « دنلوب » لم يقبل ترقيته إلى

نظارة المدرسة وعين أستاذا إنجليزيا مكانه أوكل إليه أعمال المدرسة ونظارتها، فلم يطق الدكتور غالب هذا التصرف ، ورفع استقالته من منصبه وترك مصر كلها .

وقد كان إيمانه بوطنه واعتداده بكرامته هما مصدر هذه الخصومة ، وهذا الاضطهاد الذى لقيه ، والذى حمله على أن يهجر وطنه كلية .

ولقد جرت المحاولات بعد ذلك على تجهيل فضله وانكار آثاره فى مقاومة دودة القطن وغيرها .

وإن كان قد أخرج فى خلال إقامته فى مصر عددا من الكتب والأبحاث بالعربية والفرنسية كما شارك فى مجلة كان يصدرها بعض علماء أوربا فإنه لايوجد باسمه فى دار الكتب المصرية بباب الخلق غير مؤلفات ثلاث :

« علم الحيوانات اللافقرية — ١٨٨٦ .

« مختصر تركيب أعضاء النبات ووظائفها (١٣٠٤ هـ)

« مجموعة اللوائح الخاصة بالمواد النباتية ١٨٩٢ .

وقد أحصى له الدكتور محمود عزمى ثبتا فيه أكثر من خمسة عشر مؤلفا بالعربية والفرنسية[1] وهذا نموذج من أسلوبه العلمى يدل على العمق والقدرة على تيسير المعلومات .

« من يمعن النظر فى حالة الأجسام العضوية وغير العضوية يجد أن أول فرق يمكن إدراكه هو الحركات الحيوية المتمتعة بها الأولى التى يمكنها بذلك أن تحفظ شخصيتها قهرا عن المتنوعات العديدة التى يكابدها شكلها العام وأجزاؤها المختلفة وعن التبادل المادى المستديم بين الأجزاء المكونة لها والداخلة فى تركيب الوسط العائشة فيه بخلاف الثانية فان الاجسام الداخلة تحتها تكون دائما فى حالة عدم تحرك كامل تقريبا الخ »

---

(١) مجلد ١٩٢٧ السياسة الأسبوعية (١ كتوبر ١٩٢٧)

هذا النص أوردناه من كتابه « علم الحيوانات اللافقرية الذى يقع فى ٧٧٥ صفحة ، المطبوع على مطابع الحجر فى القاهرة ١٨٨٦ م وقد ذيله بقاموس مرتب على حسب حروف المعجم يشتمل على تعريب مافى الكتاب من كلمات أجنبية » كى يسهل مناولته ويكون القارىء على بصيرة مما يراه ، إذ لا يخفى أن الحيوانات العديمة الفقرة حديثة العهد ، وأنه لا يوجد لها أدنى اصطلاحات فى اللغة العربية .

* * *

ويغلب أن الدكتور غالب ترك مصر قبل عام ١٩٠٧ حيث تشير الأخبار إلى أنه كان يلتقى بمصطفى كامل كلما جاء إلى باريس ومنذ ١٩٠٧ توالت رسائله إلى صحيفة اللواء المصرية تكشف عن مفاهيمه الوطنية ومواقفه من النفوذ الأجنبى والاستعمار من التعليم والبعثات . وقــد تحدث عن الإرساليات المصرية القديمة فى فرنسا مقارنا إياها بالبعثات إلى انجلترا يقول :

فسد نظام التعليم منذ الاحتلال البريطانى وكان قبله يانعا ناضج الثمر مزدهرا أيما ازدهار ، ومنتجا النوابغ فى كل علم وكل فن .

فماذا فعل الانجليز بالإرساليات منذ عام ١٨٨٥ ، رمى الإنجليز فى سياستهم إلى انضاب ذلك المعين حتى يتسنى لهم حشر الجهلاء من أمتهم الذين لا عمل لهم ، حشروهم حشرا بغير نظر إلى كفاءتهم فيما ولوه من الأعمال . رموا إلى انضاب هذا المعين الذى يخرج النوابغ والعلماء من المصريين ، كانت لا تمر سنة دون أن ترسل مصر إلى فرنسا عددا كبيرا من الشبان المصريين ، يسافرون وهم على معرفة تامة بلغتهم الأهلية وعلى إدراك كامل بواجباتهم الوطنية ، يتلقون ما يتلقونه من العلم غير ناظرين إلى زخرف المدنية الغربية ، إنما ينظرون إلى وطنهم على الدوام ، ويتطلعون إليه من وراء البحار ، وينتظرون بمزيد تلهف الساعة التى يتمون فيها دروسهم ليعودوا

إلى وطنهم ويخدموه . أراد الإنجليز منذ احتلالهم هذه الديار أن يقضوا مرة واحدة على الإرسالية المصرية فى فرنسا . وكان أرتين باشا على رأس المعارف المصرية فتعهد لهم بانجاز هذه المهمة .

وعلى هذا تألفت الإرسالية الجديدة من أولاد الأجانب المقيمين فى مصر ، ولم يكن للمصرى فيها غير الشكل ، ثم أنهم لا يختاروهم من صفوف طلبة المدارس العالية بل من الأطفال بين الثامنة والثانية عشرة ، من الذين لم يعرفوا لغة البلاد جيدا ولا درسوا شيئاً من آدابها ولا قويت فيهم العواطف الوطنية . هذا النوع من التربية قد دلت البراهين على فساده ، هذا الفساد وهذا الشقاق هما السلاح الذى يتسلح به الإنجليز لدوام وضع يدهم على بلادنا .

مضى على الاحتلال فى بلادنا خمس وعشرون سنة ، أرسلوا إلى إنكلترا كثيرا من الطلبة المصريين ، ماذا كانت النتيجة . وما الذى استفادته مصر ، كانت النتيجة انقراض الأساتذة المصريين فى المدارس الثانوية والعالية واختفاء كبار المهندسين والأطباء وعلماء الجراحة والرياضة والفلك والجغرافية ، وخلفهم قوم من شبان الإنجليز غير أكفاء ، إن الطلبة المصريين فى انكلترا لم تستفد مصر منهم شيئا ، وذلك لأن انكلترا ليست البلد الذى يجب أن تؤمه الشعوب لترقية شؤونها بالعلم » .

هكذا كانت نظرة الدكتور عثمان غالب إلى التحول فى نظم التعليم بعد الاحتلال البريطانى لمصر وما تحقق عنه من نتائج .

* * *

ولم يكن الدكتور غالب فى مهجره ، إلا عالما يعمل ويواصل أبحاثه ، له معمله الخاص ، واتصالاته بالعلماء ، ونتاجه الذى كان موضع تقدير الباحثين الغربيين ، وكان إلى ذلك يوالى اهتمامه بالطلبة المصريين وينشر المقالات فى الصحف الفرنسية ويعنى بتطورات العالم .

يقول الدكتور محمود عزمى : إنه كان حلو الحديث ، فكه العبارة ، وكان تلاميذه يهرعون إلى مسكنه ويتسلقون درجات سلم المنزل إلى دوره السادس الذى كان يقطنه ، كما كانوا يتابعونه فى السير مسافات طويلة على الأقدام قاصدين إلى مطعم دونال المركزى .

ولم يتوقف من مهاجمة النفوذ البريطانى ، فقد أدلى إلى جريدة (تسيرا ون) فى منتصف ديسمبر ١٩٠٨ من مدينة بودابست عاصمة المجر بحديث قال فيه أن جهادنا فى مصر لأجل الدستور ليس حديث العهد كما يتوهم الأجانب ، وإنما يرجع إلى ١٨٨٠ إذ ثار الجيش ونالت الأمة دستورا بالقوة . إلا أن أنصار القديم خافوا عاقبة النظامات الدستورية فأحدثوا مشاكل عدة وخلقوا أسبابا لتدخل الإنجليز فكان الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ .

وتحدث عن عمله فى مصر : فقال : لقد كنت فى عهد الاحتلال الأول ذا منصب فى الحكومة المصرية ، ولازلت أذكر اليوم المشئوم الذى دخل فيه الجيش الإنجليزى الهندى مدينة القاهرة يوم ١٤ سبتمبر ١٨٩٢ وقد دعينا يومئذ إلى قصر الخديوى حيث ألقى علينا قائد جيش الاحتلال اللورد (ولزلى) خطبة رسمية ، قال فيها أن انجلترا إنما دخلت مصر صديقة ، لا فاتحة ، ووعد وعدا صريحا باسم الحكومة البريطانية بأن جيش الاحتلال لن يبقى فى مصر إلا بضعة أشهر ريثما يستتب النظام فى أنحاء القطر ، وها قد مضى على هذا الوعد الصريح ستة وعشرون عاما وقد حالت سلامة نياتنا بيننا وبين سوء الظن . ولا تزال انجلترا محتلة وطننا ولا يخطر ببالها أن تتخلى عنه . وفوق هذا فإن الانجليز قد وضعوا على رأس كل مصلحة من المصالح المصرية موظفا إنجليزيا وقـــد اضطررت أنا لترك منصبى الانجليزى ، وقد قضى الإنجليز على التعليم وأصبحت النابتة المصرية محرومة من حرية التعليم فى وطنها .

ويمكن أن تتصور ازدياد العداء الذى يشعر به الشعب المصرى يوما

فيوما نحو الإنجليز فإننا لم ننجح إلا فى دعوة رجل ملتهب مثل مصطفى كامل الذى جمع سائر العقول الراقية والنفوس المهذبة تحت لواء حزب وطنى قوى ، وقد كنت من أقرب الأصدقاء لقائدنا الذى توفى فى عنفوان الشباب . ثم ابتدأ جهادنا من أجل الدستور منذ سنين ولا يزال مستمرا بزعامة صديق «محمد فريد» أما أنا فقائم بأعباء نشر الحركة فى أوربا(١).

* * *

وترسم هذه الكلمات صورة المرحلة التى عاشها عثمان غالب فى أوربا بعد هجرته ، وهى تغرى بالسؤال : إلى أى حد كانت تستفيد مصر من جهود عالم مكتشف مثل هذا . لو أنه عاش بين ظهرانيها يقدم لها خدمات فى مجال العلم من أجل ترقية الزراعة والصحة . ولكن عثمان غالب لم يتوقف عن العمل من أجل الإنسانية حتى شارك فى اكتشاف جرثومة السرطان واضطرت جريدة الأهرام فى مصر يوم ٢١ أغسطس سنة ١٩١٣ أن تنشر مقالا افتتاحيا تحت هذا العنوان :

اكتشاف خطير يكتشفه عالم مصرى وينتقل متدرجا بين أيدى علماء أوربا : «وقالت : «منذ ثلاثين سنة (١٨٨٣) نشر العالم المصرى الفاضل عثمان باشا غالب فصلا فى مجلة مبحث فرنسا العلمى ، كان قاعدة لاكتشافات علمية خطيرة ، بل هو فى ذاته اكتشافاً علميا جليلا خطيرا تناوله البحاث المدققون والمعنون المحققون ، وكدوا فيه أذهانهم وقرائحهم حتى توصلوا إلى اكتشاف جرثومة داء السرطان ، وهى الجرثومة التى استعصت معرفة أصلها وكيفية توالدها على الأطباء والباحثين فلم يتركوا قاعدة من قواعد العلم الطبيعى ، إلا اتخذوها أساسا فلم يهتدوا إلا بتلك القاعدة التى قررها الطالب المصرى عثمان غالب منذ ٣٠ سنة فشرف باكتشافه اسم مصر وقد تحدثت معاهد العلم والطب فى أوربا ومجدت ذلك الذى خدم العلم

(١) ١٩٠٩/١/١٧ اللواء

والطب خدمة لا يعرف قدرها إلا العلماء الذين يعرفون أن داء السرطان داء وبيل ، لم يعرف ميكروبه ليكتشف دواءه .

وكان عثمان غالب قد اكتشف عام ١٨٩٣ أنواعا من الجرجس — الدورة الصغيرة — القريبة من نوع اللحميات لا يتم نموها إلا إذا هي صورت طورا من أطوار حياتها فى جسم نوع آخر من فصيلة الخنفس ، فهذا الاكتشاف كان قاعدة جليلة نافعة للباحثين ، بواسطتها توصل الدكتور « فيفبيجر » الدنمركى إلى كشف الغطاء الكثيف عن أصل داء السرطان الذى أعيا الطب والأطباء وقد كتب الدكتور بورنه فى ٥ أغسطس ١٩١٣ فى الجورنال الباريزية فصلا عن هذا الاكتشاف وقال بعد أن شرح تفاصيله أن طالبا مصريا منذ ٣٠ عاما (عثمان غالب) أثبت أن ديدانا صغيرة قريبه من فصائل الحلميات لا يتم نموها إلا إذا صرفت طورا من أطوار حياتها فى جسم حشرة معروفة .. الخ .

* * *

ومن الطبيعى أن مصر التى تعرف الدكتور عثمان غالب قد اهتزت للنبأ ولكنها لم يكن فى مقدورها أن تعيد المغترب المقيم فى أوربا ، وبقى فى دوره السادس فى باريس يتسلقه الطلاب ويتابعونه فى السير على الأقدام مسافات طويلة ، حتى توفى فى سويسرا (١٩٢٢) ودفن ببلدة (ترنيب) فأقيم له حفل تكريم فى مصر ثم لم يعد اسمه بعد ذلك يذكر إلا حين يراجع كتاب له فى أبحاث الحيوان أو النبات .

ولقد كان علامتنا إلى ذلك مصورا بارعا رسم لوحات فنية وصفت بأنها بلغت حد الإعجاز ، وكانت له طريقة بارعه فى التدريس ذلك أنه كان يعيد فى أول كل درس خلاصة ما ألقاه من قبل .

وقد وصفه الدكتور منصور فهمى فقال أنه كان يؤمن إيمان العالم ويعتقد أن النظر فى جمال الموجودات وأحكامها يهدى إلى الشعور بالقوة

المبدعة العظيمة التى يسوق الإيمان بها إلى الرشد والهدى .

* * *

والدكتوز عثمان غالب بن محمد حسن الخر بوطلى ولد فى احدى قرى الجيزة من أبوين فلاحين ، من ناحية الطالبية ، المجاورة للأهرام ، والحق بمدرسة أركان الحرب ، ثم رشح بمدرسة الطب بالقصر العينى والتحق بها ١٨٦٨ وقد ذكره توفيق أسكاروس فقال أنه كان من النوابغ وأنه كان واحدا من نجباء التجهيزية فى اللغة العربية فاحرز عام (١٢٨٢هـ—١٨٧٥م) نسخة مجلدة من مقدمة ابن خلدون لتفوقه فى اللغة العربية ،وكان نابها فى اللغة العربيةوالتاريخ وأنه سبق الجميع ،كما ذكره العلامة كردعلى فى مذكراته فقال : أن أصحاب الشيخ المفتى (محمد عبده) كانوا أخلاطا وكان المتخرجون من دار العلوم تعقد اجتماعاتهم كل مساء فى قهوة متاتيا أمام حديقة الأزبكية وهم المهدى ، والسكندرى ، والخضرى ، وشاويش ، وحسن توفيق العدل ، وسلطان محمد ، وحفنى ناصف ، وإبراهيم إبراهيم ، ومحمد عبد المطلب ، وكلهم تلاميذ دار العلوم وأكثرهم منها ، وكان يرأسنا الدكتور عثمان غالب مدير القصر العينى وهو عالم بالطب والمواليد الثلاثة .

وقد أشار إليه أحمد شفيق باشا فى مذكراته (ص ٤٠ ج ٢) فقال : «فى يوليه ١٨٩٢ تلقيت من الدكتور عثمان غالب وكان بلندره رسالة مستفيضة ضمنها حديثا سياسيا دار بينه وبين المسيو هابو تتشيف رئيس الحزب الراد يكالى فى البرلمان الإنجليزى ، جاء فيه : كنت أرتاض يوما على نهر التاميز ،وإذنى أمام قصر مشيد تحف به حديقة جميلة ،فسألت عن صاحب القصر فاذا هو رئيس الحزب الراد يكالى فى البرلمان الإنجليزى ، فذكرت أن هذا الرجل رفع صوته مرات مطالبا الحكومة الإنجليزية بالجلاء عن مصر وكان هذا دافعا لى على أن أزوره فكتبت رسالة صغيرة ذكرت فيها إننى مصرى وأنا أقيم الآن على مقربة منه بالبلدة التى هو فيها وأن اسمه المعروف والمحبوب لدى

المصريين هو الذى يحملنى على طلب التشرف بمعرفته فبعث إلى رسالة وضرب لى ميعادا ودارت بيننا أحاديث فى المسألة المصرية .

* * *

هذه صورة الدكتور عثمان غالب من خلال الأوراق والدوريات على قدر ما استطعنا الاحاطة بها . ولاشك كان عالما عظيما ووطنيا مخلصا . ومجاهـــدا عاش أكثر من ثلاثة عشر عاما مغتربا فى سبيل كلمة الحق التى آمن بها .

من مؤلفاته :

علم الحيوانات (١٨٨٦ م — ١٣٠٣ هـ) موجود بدار الكتب ومطبوع على الحجر ، علم الحيوانات اللافقرية (١٨٨٦) ، مختصر تركيب أعضاء النباتات ووظائفها (١٣٠٤هـ) ، علم الديدان ، قاموس الألفاظ الإصطلاحية العلمية المأخوذ من اللغات اللاتينية واليونانية .

— ٣٤ —

الدكتور على إبراهيم

(١٨٨٠ — ١٩٤٧)

إن تاريخنا المعاصر حافل بأعلام قدموا أرواحهم فداء فنهم ، فكتبوا للأجيال صفحة من صفحات المجد والفخار . وتركوا من ورائهم أسماء لامعة . وذكرى رائعة . ومن حق هؤلاء الأعلام أن نذكرهم لهذا الجيل ونضع قصة حياتهم نبراسا للعاملين فى سبيل بناء مجد الأمة العربية وتخليد أعلامها وبطولتها .

وقد كان الجراح على إبراهيم واحدا من هؤلاء ، حتى قيل إن مشرطه كان آية من الآيات . وأن حبه لفنه بلغ منه درجة التقديس والعبادة ، وكان جهاده الواضح فى احلال العبقرية المصرية مكانها فى زمن غلب فيه تقدير الأجنبى فى محاولة القضاء على مكانة أبناء الوطن .

كان الناس فى أوائل هذا القرن يعيشون فى ظل استعمار حاول تغيير كل مقدرات الوطن ، وكان أهم ما يدعو إلى القضاء عليه : الثقة فى المواطن العربى ، والاستهانة به وتبريز أعلام من الأجانب فى ميادين العلم المختلفة . وكان على إبراهيم حفيا بأن يقضى على هذه المحاولة ، فاستطاع أن يقنع الناس بقدرة ابن وطنهم على العمل الذى ظنوا أنه موقوف على لابسي البرانيط وحدهم ، ومن هنا كانت ريادته الواضحة فى ميدان الطب .

فهو مؤسس المدرسة الحديثة فى الطب فى وقت لم يكن الطريق فيه ممهدا ولا يسيرا فاستطاع أن يشقه بقوة وعزيمة ، فلما أسلمت إليه أمور الطب فى القصر العينى و (مدرسة الطب) مقاليدها مصرها ، وعربها وخلق للطبيب المصرى مكانة الاعتزاز والاعتداد .

وفى حياة على إبراهيم ثلاث جوانب ضخمة : هى حياته العلمية ، وأثره فى القصر العينى ومدرسة الطب وحياته الفنية .

فقد ولد عام ١٨٨٠ بالأسكندرية من أب نزح من فوة بالصعيد . وأتيح له أن ينتسب إلى مدرسة الطب عام ١٨٩٧ . وكان عدد الطلبة بها إثنى عشر طالبا وهو أقل من عدد الأساتذه وكان العلامة الدكتور عثمان غالب إذ ذاك من طلبة المدرسة يسبقه بسنوات وتربطهما صلة . فكان على إبراهيم يحمل دفاتره إلى داره ويقضى فترات سعيدة معه يتحدثان عن بعض المسائل العلمية .

وربما كانت عبقريته قد دفعته إلى الشغف بالبحث العلمى وحببته إليه ، فلما تخرج عمل مساعدا للدكتور سيمرس أستاذ علمى الأمراض والميكروبات ، وعلى العالم الإنجليزى الدكتور كيتنج تلقى طريقة البحث ووسائل التحقيق والتمريض وشغف بأسلوبه الدقيق ، وأمضى عامين فى مساعدة أستاذه أمضى منهما عاما وهو طالب والثانى بعد أن أحرز الدبلوم بتفوق . ثم عمل مساعدا لكبير الجراحين فى مستشفى قصر العينى على أثر استعفاء الدكتور على لبيب . وبدأ بدراسة التشريح من جديد والقيام بجمع عمليات (كوخر) على الجثث .

وافتتح عيادة متواضعة مع صديقه الدكتور عبد المجيد محمود إلى جوار جامع (أبى حريبة) كان دخلها متواضعا نظراً لشهرة الأطباء الأجانب ونفوذهم . وكان ذلك فى أوائل هذا القرن ، غير أن الفرصة أتيحت له بالعمل فى الأقاليم ، وهناك كسب شهرته الضخمة فى أسيوط وبنى سويف . حيث استطاع أن يدخل فى منافسة واضحة مع الأطباء الأجانب وينتصر عليهم .

وقد استطاع أن يكسب جولات بارعة رفعت اسمه بين أهل الصعيد وأحرز ثقة لاحد لها ، فلما عاد إلى القاهرة اتخذ عيادة فى شارع عابدين . جعل فيها لأول مرة أسرة لضيافة مرضاه فيها بعد إجراء العمليات لهم وكان من عادة الجراحين إجراء العمليات لمرضاهم فى عياداتهم ونقلهم مباشرة

إلى بيوتهم فكان بذلك أول من استن سنة العيادات الخاصة ثم اتخذ مستشفى فى شارع الصنافيرى . وكانت براعته الطبية قد بلغت فى نفوس الناس حد السحر وعرف بثبات يده ودقة مشرطه حتى وصفه بعضهم بقوله :

(حين يجرى عملياته تنقلب كل جارحة فيه إلى نافذة ، ويتحول حس أعصابه الدقيق إلى إبصار مع السرعة والإبداع فى التصرف وتسديد المشرط والاحتراس للطوارىء المنتظرة وغير المنتظرة)

وقال الدكتور محمد عبد الحميد : أن عنايته بالتعقيم كانت من أهم الأركان التى بنى عليها عمله . وهى من أهم أركان تقدم الجراحة فى العصر الحديث

وأنه لابد للجراح من عين النسر ، ورشاقة الحسناء ، وقلب الأسد ، وكلها توفرت فى « على إبراهيم »

وقد روى الدكتور على إبراهيم أحرج ساعة فى حياته الطبية عام ١٩٢٩ فقال : إنى أعتقد أن حياة الجراح كلها حرج متواصل ، فما دام بيده المشرط والآلات الجراحية فليس من الحق أن نقول إن مزاولته لعمله من الهنات الهينات التى تمر به أو يمر بها دون أن يعانى فيها دقة محرجة ، وعليه أن يستعمل ذكاءه وبراعته فى اجتناب ما عساه يقع من الخطر إذا غفل الانتباه مع الحرص على سلامة المريض الذى وضع حياته وديعة بين يديه واستطيع أن اقول أنه يمر تحت يدى نحو ألف عملية فى العام ، تسع وتسعون فى المائة منها حرجة ، والواحدة الباقية سهلة ، وأعنى بسهولتها انطباقها على القواعد الطبية العادية التى لا تحتاج إلى حذق ومهارة فتكون النتيجة أن عشر عمليات فى الألف يستطيع الجراح أن يثق فيها بالنجاح لسيرها حسب القانون الطبى .

وإنا من الذين يعتقدون أن الطب «فن» قبل أن يكون علما . ولا ينجح فيه إلا أصحاب الملكات الطبية الذين يميلون إلى عملهم ويعشقونه ، ولا أنكر أنى أعزو سبب نجاحى فى مهنتى إلى الرغبة التى نشأت عليها من الصغر بالتشبث

بالطب والإقبال عليه ، ولذا فأنى مهما أعانى من الحرج أشعر فى الوقت نفسه بالاغتباط والرضى بمهنتى الطبية . غير أننى إذا ذكرت لك حرج الطبيب الدائم الذى لا ينفك أن يراه فى كل ساعة ، وفى كل عملية فلا بأس من أن أذكر حادثه حرجة وقعت لى عام ١٩١٧ .

ذلك أن السيد على المرغنى شيخ الطريقة المرغنية فى السودان طرأ عليه مرض الكلى فطلب إلى حاكم السودان العام أن يستدعى له طبيبا يثق به فى مصر . فارسل إلى الحاكم بناء على رغبة السيد فى أن أحضر لمعالجته فلبيت طلبه وذهبت قاصدا السودان حتى وصلت الخرطوم ،فلما رآنى السودانيون أذاعوا فيما بينهم أن الحاكم العام استدعانى من مصر لكى أقتل السيد على المرغنى ، وراجت هذه الإشاعة فى البلاد السودانية ولا سيما بين مريديه وأهل طريقته . وسرعان ماقدموا العرائض والالتماسات يرجون فيها الحاكم العام ألا تعمل تلك العملية الجراحية للسيد لكيلا يموت فنبهنى الحاكم إلى حرج الموقف وقال لى : « إذا عملت العملية للسيد ومات متأثرا بها فأعتقد أنك لن تخرج من السودان إلا مقتولا من أنصاره ، وخير لك إذا شعرت بأن الرجل فى خطر من جراء عملك فأوعز إلى بذلك سرا حتى أدبر لك حيلة للنجاة بنفسك » .

قال الحاكم ذلك فى لهجة جدية ، وشعرت أنا فى الوقت نفسه بالخطر يتهددنى ولكنى أخبرته بأنى لا أستطيع أن أعطيه رأيى إلا إذا عاينت الرجل وكشفت عن موطن دائه . فلما رأيت أن السيد علته هينة ليس وراءها مايخاف منه أخبرت الحاكم بأنى سأجريها وأقوم بها إلى النهاية دون أن يحدث ماتسوء عاقبته . فتركنى وشأنى، عندئذ أخذت أزاول العملية وأسترد قوته ونجوت بذلك مما كانوا يبيتونه لى إذا ساءت النتيجة » .

وقد عرف على إبراهيم بمتابعته للحركة الطبية فى العالم وتطورها وقراءة كل ما يتصل بالمستحدث منها أولا بأول ؟

وفى الجانب الثانى يبدو (على إبراهيم) الوطنى المناضل فى سبيل كرامة المهنة ورفع قدر العاملين فيها ، فقد انتخب أول عميد مصرى لكلية الطب (أبريل ١٩٢٩) خلفا لمستر مادن . وكانت تقاليد المدرسة تقضى بأن يكون العميد إنجليزيا .

فسرعان ما قام بتمصير هيئة التدريس وبدأ فى إعداد المصريين لتولى شئونهم بأنفسهم ؛ وقد رأس الكلية وليس من بين أساتذتها إلا ثلاثة من المصريين وتركها وليس بين أساتذتها من الأجانب إلا أربعة .

وفتح أبواب الدراسات العليا فى كل فروع الطب وأزال قيودها وعمل إلى إبلاغ الطب العربى إلى المستوى العالى .

* * *

يقول الدكتور نجيب محفوظ « أن طريقه لم يكن ممهدا ولا سهلا ولا خاليا من العثرات والعقبات . وليس أقل من هذه العقبات شأناً ما كان يوحى إليه من الحكومات على اختلاف ألوانها السياسية من التعليمات التى يرى أنها لا تتفق ومصلحة التعليم فى كثير ولا قليل ، بل كانت تخضع لعوامل خارجة من سياسة التعليم ضارة به . وهنا تتجلى إرادته الصلبة وقوته التى لا تعرف الهوادة . ومما ساعده على بلوغ النجاح ، تلك الثورة الفكرية التى سادت البلاد منذ ثورة ١٩١٩ والنهضة المتوثبة فى نفوس المصريين ... وكم من مرة شاهدته فى حالة نفسية مرة يصادم الحوادث ويتلقى المصادمات » .

وقد تدرج على إبراهيم فى مناصب الدولة حتى بلغ أرقاها وعمل نقيبا للأطباء سنوات طويلة واحتفل عام ١٩٤٠ بالعيد الستينى له . حيث تحدث الكثيرون من الأعلام عن كفاحه فى قصر العينى جراحا ومدرسا وباحثا وأستاذاً . . . وكان الأول دائماً فى دراسته وكما عمل طوال حياته على أن يضع الطبيب المصرى فى صف الأجنبى وأن يخلق فيه روح الثقة حتى يحقق ذلك وكان بذلك رائد الطب العربى الحديث .

وقد عرف على إبراهيم بوداعة النفس وخفة الظل وطرافة الحديث ،

واتسم بهدوء عجيب لعله كان من أبرز العناصر فى تكوين شخصيته الناجحة ولم يكن حريصاً على المال أو مدفوعاً إلى العمل فى ميدان لا يحسنه .

جاءه مريض غنى فكشف عليه ثم قال له : أن علتك ليست من عملى فأغراه الرجل بمال كثير، فكرر عليه وقال: علتك لا تتصل بفنى، وأنا رجل جراح فألح الرجل فأخذ يقنعه ويقول له :

لو تلف (كالون) بيتك هل تأتى له بكالونجى أم نجار . . . أن مرضك هذا أنا لا أعرف فيه . . .

وقدكان له دور هام فى وباء عام ١٩٠٢ فقد كثرت الوفيات فى قرية موشى من أعمال أسيوط فندب لها ، وكان فتى ناشئاً فادرك بعبقريته أنها (الكوليرا) وأرسل بعض التحاليل الطبية التى أكدت صدقه بعد أن سخروا منه أول الأمر . وأبلى فى معركة الكوليرا بلاء واضحاً .

* * *

ولقد كانت له فى حياته الخاصة هوايات تدل على مدى رقة نفسه وسلامة حواسه وأعصابه فقد حذق التصوير ونال فيه جوائز ، واتصل بالوسط الموسيقى الغنائى اتصال الهواة والمعجبين وارتبط بأواصر الصداقة مع جمهرة من المهرة فى التوقيع على القانون والعود والكمان والناى .

وأحب المساجد الأثريه منذكان أستاذهم عبد اللطيف أفندى يزور معهم تلك المساجد الأثرية ويطالبهم بتصوير المناظر التى شاهدوها من الذاكرة وأن كان استعداده العلمى قد تحول بعد ، إلا أن هذا الطابع الفنى بقى قائماً فى نفسه متمثلا فى الإعجاب بالفن الشرقى الإسلامى من مشربيات ومصابيح وسجاجيد ، هـــذا الإعجاب الذى دفعه إلى أن ينفق كل ثروته فى شراء هذه التحف .

فكانت عيادته وداره متحفاً رائعاً للتماثيل والصور والنمارق والقلائد والخشب المنخور والأحجار المحفورة والمزالج والأبواب وسروج الدواب وشرفات الدور وشواهد القبور والضبب المصبرة والجرار المكسورة . . .

ولقد كان يركب فى زيارته لمشاهدة السجاجيد فرساً أو حماراً لساعات طويلة دون أن يضيق بالرحلة من أجل هوايته الغالية .

وكان إلى ذلك محباً للتاريخ الإسلامى ، دارساً له فى أزهى عصوره وله فيه أراء بناها على معلومات وحقائق، وله فى تطور الفنون نظريات ، وقد ازدحمت مكتبته بمختلف أبحاث التاريخ وكان إلى ذلك يحفظ فنونا من النثر والشعر ، وأهمها مقامات الحريرى .

ولا شك كانت هناك رابطة بين حياته الفنية وحياته الطبية ، ولابد لهذه النفس التى كانت تقف فى كل يوم مرات أمام حرج العمليات الجراحية أن تجد راحة لها فى فن رفيع كهذا الفن يشغل النفس ويملؤها .

وقدكان على إبراهيم فى مطلع شبابه رياضياً حتى كسرت ساقه فى إحدى مباريات كرة القدم فانصرف عنها .

وكان على إبراهيم من الكتاب البارعين وله محاضرات فى الطب العربى القديم ألقاها فى عديد من المؤتمرات العالمية .

فإذا احصى عليه خطأ فإنما ذلك هو إصراره على أن يظل التعليم فى كلية الطب باللغة الإنجليزية ورفضه تعريب دراسات الطب، ولعله كان يؤمن بالتدرج إذ ذاك حتى غلب رأى التعريب من بعد ، ولا شك كان للفكر الأوربى أثره فى أرائه ومفاهيمه نتيجة طول صحبته للعلماء الإنجليز ، ولكنه على كل حال كان رائداً ضخماً فى ميدانه وقد أدى لوطنه وللأمة العربية عملا رائعاً . . .

وكان على إبراهيم تلميذاً لقطبين من أقطاب الطب والعلم فى مصر الدكتور عثمان غالب ومحمد الدرى شيخ الجراحين .

من مؤلفاته وآثاره :
المضاعفات الجراحية للحمى التيفودية ، حصوات الحالب ، خراجات الكبد ، إنشاء المجلة الطبية المصرية ١٩١٧ ونشرت له أبحاثا علمية عن الحمى والحصوة .

— ٣٥ —

على بهجت

(١٨٥٨ — ١٩٢٤)

هذا واحد من رجال الآثار والأعلام ، من جيل «أحمد كمال» الذى اتجه إلى الآثار الفرعونية ، أما على بهجت فقد اتجه إلى الآثار العربية وشغل بها وحقق فى مجالها نتائج باهرة ، أبرزها دار إنشاء الآثار العربية الموجودة الآن فى باب الخلق خلف دار الكتب وكشفه الباهر لمدينة الفسطاط القديمة التى دفنت قبل ذلك بأكثر من سبعة قرون ، ولقد كان على بهجت صادق الإيمان بالتاريخ وأثره فى بناء الأمم وإيقاظها :

« لا شىء فيما أعتقد أنفع لإنجاح نهضتنا العلمية وأنجع فى تقويم أخلاقنا الإجتماعية كدرس تاريخ أسلافنا الصالحين وآبائنا المتقدمين . ولقد رأيت كتب التاريخ العربية كالبحور الزواخر ، ليس اصطياد اللآلى فيها بسهل المنال على كل طالب ، ورأيتها كلما بعدت بها الأيام تناءت عن الأفهام » .

وقد دعا كوسيلة من أنفع الوسائل لنجاح نهضتنا وضع مؤلفات جديدة على أساليب حديثه تقرب تلك الحوادث الماضية إلى طالبيها وتبين أسبابها ونتائجها .

ولقد عمد إلى هذا المجال فعمل فيه بهمة وإخراج عدداً من المؤلفات باللغتين الفرنسية والعربية كشف فيها جوانب غامضة كثيرة من التاريخ المصرى .

منها كتاب « الخراج فى مصر » ، وعقد زواج الجنرال عبد الله منو من السيدة زبيدة الرشيد ، صناعة النسيج فى القرون الوسطى ، آنيتان من النحاس بدار الآثار ومصباح ذو فيلين ومقلمة الفيلسوف الغزالى . وأوانى

النحاس ، ودار أرقم أو دار الخيزران ، والحروب الصليبية السادسة ، وتاريخ الحجرة المذنبة ، وله رسالة عن شمعدان دقيق الصنع ، وله أبحاث عن فتح دمياط والحرب الصليبية السادسة .

كما أحيا بعض المخطوطات التاريخية الهامة مثل : ديوان الرسالة لمؤلفه تاج الرئاسة أبى القاسم على بن منجب بن سليمان الشهير بابن الصيرفى من رؤساء الكتاب فى عهد الدولة الفاطمية . وكان قد عثر عليه أثناء تنقيبه فى مكتبة أكسفورد .

* * *

أما عمله الجليل الباهر فهو استكشاف مدينة الفسطاط : « أول عاصمة إسلامية فى مصر » وقد وجهته إليها قراءاته المتصلة فى تاريخ الآثار ، ويمكن القول أنها عصارة تجربته الطويلة ، وقد شرع فى صيف ١٩١٢ يعمل فى خفاء ودون ضجة ، بثلاثة عمال حفر ، واستمر طوال زمن الحرب العالمية (١٩١٤ — ١٩١٨) وسار فى هذا وفق معلومات استطاع أن يستخلصها من كتب التاريخ الإسلامى ، كما استعان بالوسائل الحديثة فى تحديد طبوغرافية مدينة الفسطاط ، حتى تأكد له الموضع الذى يعمل فيه . وكان ذلك بجوار أبى السعود ثم اتجه إلى الناحية القبلية إلى جامع عمرو ثم إلى الشرقية حتى وصل إلى أول الخيط عام ١٩١٤ حيث عثر على بقايا جدران من دور قديمة ، كانت هى الخطوة الأولى فى كشف النقاب عن حى عظيم من هذه المدينة .

وقد عاشت هذه المدينة سبعة قرون ، ثم أدركها الفناء والزوال ، إذ أندلعت فى جوانبها السنة اللهيب واستمرت النار مشبوبة شهرين كاملين والتهمت كل ما خلفه أرباب الفنون والصناعات من نماذج العمارة العربية وبدائع الفنون الإسلامية ، وقد ظلت مدينة الفسطاط مدفونة تحت أكوام وتلال من السباخ الكفرى لم يعلم الناس ما بها من كنوز وذخائر ذات قيمة بالغة

حتى وفق على بهجت للكشف عن هذا الأثر التاريخى فأضاف ثروة جديدة للعلم والتاريخ .

وقد دفعه النجاح فى العمل إلى الإستمرار فيه فاستمر حتى ١٩٢٠ فى التنقيب ، وعاش مشغولا بالمشروع حتى وفاته .

وقد وضع كتاباً نفيساً باللغة الفرنسية طبع فى باريس عن هذه التجربة وقد جاء فيه على تاريخ مدينة الفسطاط ومنظرها العام ووصف منازلها وطريقة تشييدها وتواريخها وطريقة كشفها وما حققه الكشف من نتائج واستطاع أن يحرز من المدينة المدفونة عدداً من الألواح وقطع الخزف المصرية وكمية من أوراق البردى عليها نقوش عربية بخطوط أيوبية ، ونقوش هيروغليفية . وله أبحاث أخرى باسم حفائر الفسطاط واكتشاف فرن للخزف العربى يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى .

يقول فى كتابه حفريات الفسطاط: « لقد وفقنا إلى كشف جانب كبير من الفسطاط بما فيه من دوره وحوانيته ومخازنه وحماماته ومصانعه وأظهرنا السور الذى أقامه صلاح الدين فيما بين القلعة والنيل ، وحفرنا فى سمته جملة حفر للتثبيت من وجوده ، هذا من حيث الآثار الباقية ، أما الآثار المنقولة فقد عاد الحفر على دار الآثار العربية بالخير العميم إذ ضم إلى مجموعاتها الكثير من الطرف الأثرية وأخصها مجموعة الخزف التى كانت فريدة فى بابها ، ولاشك عندنا فى أن بعض هذه المكتشفات يؤدى إلى ظهور عدة مباحث تتعلق بتخطيط المدينة وبتاريخ الفنون .

وقال: إن النتائج الأولية التى حصلنا عليها تكفى على انفرادها لأن تلقى شعاعاً من النور على أصول الفنون الإسلامية وتقـــدم لتاريخ رقيها شواهد عديدة .

وأشار إلى الطريقة التى اتبعها فى كشف الأبنية فقال : كنا نثابر على العمل حفراً كان أو ردما حتى نبلغ مستوى أرض تلك المبانى والحوارى،

ومتى وصل الحفر إلى هذ المستوى وجدنا علامات ثابته كبلاط الدور أو عتب أبوابها،هنا يتوقف العمل حتى يكشف البناء الكشف النهائى بالطرق الفنية . أما إذا تعسر الحصول على شيء من بقايا جدران الأساس فقد كنا تنزل بالحفر إلى الصخرة

ولعلى بهجت كتاب هام هو « قاموس الأمكنة والبقاع التى يرد ذكرها فى كتب الفتوح أصدره سنة ١٩١٦ » قال إنه اعتمد فيه على اربع أو خمس كتب هامة استخلص منها الأسماء ودرسها وحللها وهى : فتوح البلدان للبلاذرى ، ومعجم البلدان لياقوت ، والمسالك والممالك لابن حـوقل ، وكتاب اليعقوبى وابن رسته وغيرهم، يقول:وعقبت على تلك الأقوال بكلمات استعرتها إما من معجم البلدان التركى أو الفرنسى أو من كتاب المرآة الوضيئة أو من تاريخ الشام .

وكان أعد له خرائط تبين الأمكنة والبقاع ، لتكون خير معوان على حفظ المواقع ، تتمثل فيها الحالة التى كانت عليها البلاد الإسلامية عند ظهور الإسلام.وما آلت إليه من الامتداد على عهد الدولة الإسلامية ، غير أن هذه الخرائط فقدت منه وقد حزن عليها حزنا شديدا .

* * *

وقدبدا (على بهجت) حياته على النحو الطبيعى الذى ينتهجه المتقدمون فى هذة الفترة ، فقد تعلم فى المهندسخانة فمدرسة الألسن ، وحذق الإلمانية والفرنسية والفارسية والتركية وعمل مدرسا للتاريخ والجغرافيا فى فترة مابعد الثورة العرابية وهو إلى دراسات التاريخ أميل . وكان لاتصاله ببعض الباحثين الأجانب أثر فى اتجاهه إلى الآثار ، يقول فى مقدمته لديوان قانون الرسالة الذى حققه سنة ١٩٠٥ :

«كنت قد اشتغلت منذ شرخ الشباب بتعرف الآثار، سيما الآثار العربية منها لاتفاق اتصالى عقب خروجى من المدارس سنة ١٨٨٢ بجماعة من العلماء

الذين توفدهم الحكومة — الفرنسية للديار المصرية بغرض التنقيب عن أثارها الفرعونية والإسلامية ، وبثّ فى روح البحث فى الأطلال الدراسة ، وتربت عندى ملكة التشوق لمعرفة تواريخ بنائها ، وحياة نباتها ، وكذلك كنت كثير الشغف بالكتب الباحثة فى مثل هذه الموضوعات .

ثم تحقق له من بعد أفق أوسع وكانت دار الآثار العربية قد تأسست ١٨٦٩ باشراف المهندس النمساوى : زالسيان ثم تولاها «هرتس باشا» وقد عمل على بهجت «أمينا» بها ، وبلغ فيما بعد منصب مدير دار الآثار العربية .

وفى هذا المجال لم يقف طموح على بهجت إلى العمل فى ريادة فن الآثار العربية والإسلامية عند كتب التاريخ والآثار والعاديات ، وتكوين حكم نظرى فيها ، بل اتيحت له فرصة السفر إلى أوربا وزيارة دور الكتب والمتاحف العالمية والاجتماع بعلماء التاريخ ، فقد انتدبته الحكومة المصرية إلى مؤتمر اللغات الشرقية الذى عقد فى روما (أكتوبر ١٨٩٩) وكان رافقه فى الرحلة بعض أعلام الدراسات العربية أمثال الشيخ محمد شريف وقد قدم فى هذا المؤتمر بحثا عن كتاب « صبح الاعشى فى صناعة الإنشاء » وكان اهتمامه به سببا فى نشره عام ١٩٠٣ .

وتوالت سياحاته إلى باريس ولندن وعواصم أوربا ، وفى أكثر من رحلة رافق رائد التعاون عمر لطفى الذى يقول: كنا نجوب البلدان معا، فكان ينزل فى العاصمة من العواصم ، ويتدبر فى الانفاق غاية التدبر . فاذا رأى أن ميزانيته قد اضطربت هرب من غير أن نشعر إلى قرية من قرى الضواحى فأقام بها بضعة أسابيع حتى تتوازن ميزانيته ثم يرجع الينا وهو يحمل من مطالعته فى الخلاء والانفراد كنزا ثمينا يحلى به معلوماته الواسعة .

وفى خلال أسفاره كان يتصل بعلماء الآثار والمنقبين عنها ، ويبادلهم العلم ، ويكسب لوطنه وأمته خبرة وفهما ، وقد أصبح مرجعا رئيسيا من مراجع الآثار العربية والإسلامية لا يستطيع باحث أن يتخطاه.

أما فى دار الآثار المصرية فقد بذل جهدا ضخما من أجل دعم هذه الدار واحيائها، سواء فى فترة عمله مع هرتس باشا أو بعد أن تولى الأشراف عليها، فقد وجه همته إلى حث ذوى الميسرة والأثرياء لأهداء دار الآثار شيئا من تحفهم العربية الغالية واستطاع بشخصيته النافذة الحصول على مجموعة نفيسة لا نظير لها .

* * *

ويبدو « على بهجت » من خلال هذه الخيوط المتناثرة ، فى صورة واحد من النوابغ الذين بزغ نجمهم فى هذه الفترة بين مغرب القرن التاسع عشر ومشرق القرن العشرين ، عاشوا حياة قلقة ، قاوموا فيها النفوذ الاستعمارى بالعلم والعمل، فقد كان إصرارهم على الكشف والبحث هذا نفسه سلاحا من أقوى الأسلحة ، فى كفاح الظلام ، وإيقاد الشموع . وقد اختار على بهجت العمل فى دار الآثار على غير ميزانية ثابتة وفضله على العمل ذى المركز الثابت فى الحكومة دون أن يفكر فيما يصيبه من بعد ، فقد أحيل على المعاش بعشرة جنيهات فقط ، ولكنه كان حين ضحى منصبه فى الحكومة ، لا ينظر إلى القيمة المادية بل إلى العمل الكبير الذى يستطيع أن يحققه لوطنه ، وقد منحه الإيمان قوة كاسحة للقيام بعمل جليل مازال يرتبط باسمه ذلك هو كشف مدينة الفسطاط .

وكان على بهجت دائم البحث ، والدرس . وقد ظهرت آثار مطالعاته العديدة فى هوامش وخواتم المؤلفات التى ضمتها مكتبته الضخمة . وكان إلى تلك الخبرة فى الآثار والالمام باللغات . يتقن قراءة الخطوط من الكوفيين فما دونها سواء أكانت منقوشة على جريدة النخل أو قطع العظام أو محفورة على الأحجار .

وقد عرف الغربيون قدرة فاشركوه فى عضوية المجمع العلمى المصرى . والجمعية الجغرافية والمجمع العلمى الفرنسى . وعشرات من الجمعيات والمجامع

فى الغرب . وقد أمضى فى دار الآثار العربية ٢٣ سنه لم ينقطع فيها عن البحث والتأليف بالعربية الفرنسية وكان عضوا فى مجلس الجامعة المصرية القديمة .

وقد ذكره أحمد شفيق صاحب الحوليات، قال : لقد كانت صداقتى له صداقة متينة صقلتها الأيام والليالى . فانى عرفته منذ نيف وثلاثين سنة (ذكر ذلك سنة ١٩٢٤) وأتيحت لى الفرص فى الوقوف على شىء كثير من مواهبه . ورأيت فيه من حميد الصفات ماجذبنى إلى مودته وصداقته . ووجدت فيه عالما محبا لوطنه عاملا على إعلاء شأنه . فوق ماكان متحليا به من الصفات السامية مع التواضع والرزانة . وكان على بهجت يجد فى ترتيب تحف دار الآثار على الأصول الجديدة المتبعة فى أوربا . وقد صادفته متاعب ضخمة فى الكشف عن آثار مدينة الفسطاط وهى أول مدينة عربية بعد الفتح الإسلامى . ولم يكن باقيا من آثار مدينة العرب القديمة إلا بعض تلال محيطة بالقاهرة . وقد قام على بهجت بالحفر فى تلك التلال على سبيل التجربة . ولما ثبت مايشير بوجود آثار مهمة فيها وضعت هذه التلال فى عهدته . وكانت تلك التلال قد أصبحت محلا لاستخراج الحجر . ونقل الأسمدة من تربتها وقد استطاع بعمله حفظ مابقى من آثار مدينة الفسطاط والكشف عنها وتغلب على كافة الصعوبات باقدامه وطول أناته وعزمه» .

ولم يذكر شفيق باشا ماصادفه من مصادمات مع مستر (دنلوب) مستشار وزارة المعارف الذى كان يحارب الأكفاء: ولم يقل أن طبيعته الصريحة المستعلية عن المطامع المؤمنة بالله ، قد كانت نصيره فى مختلف أزماته ومواقفه :

فقد حدث أن كتب خطاب بإذن وكيل الوزارة وإمضاء الوزير (فخرى باشا) دون أن يمر بالمستشار (دنلوب) فغضب غضبا شديدا عندما علم بالأمر وحتم على الوزير أن يلغى إمضاءه : ولم يكن الخطاب من شأن على بهجت ولا يتصل به ؛ فاهتز لذلك وكتب فى جريدة المؤيد فصولا آثار فيها على دنلوب حربا عوانا وهاجمه هجوما عنيفا وإن لم يذكر

اسمه ؛ وقد كتب أيضا فى الصحف فصولا متعددة عن أبحاثه التاريخية كما حرر فى مجلة الموسوعات (١٨٩٨ — ١٩٠١) بإمضاء « أثرى ».

* * *

وقد عاش على بهجت فى داره الأنيقة المؤسسة على الطراز العـــربى بالمطرية وعانى الوحدة بعد فقد زوجته ؛ كما تعرض لكثير من متاعب الدس ومنافسات الأقران؛ ولكنه كان يرتفع دائما فوق الصغائر ويعزف عن مواجهة الخصوم ، وكان يعتصم بإيمان ورجولة باهرين ، باذلا مزيدا من الجهد فى عمله الذى أحبه وكرس له حياته .

* * *

وقد امتازت كتابات « على بهجت » بالوضوح والإشراق والسلاسة : فقد كان من أساتذته الشيخ حسو نه النواوى . كما عرف بصبره على البحث والتحقيق والالتقاط السريع؛ ولد «على بهجت» بن محمود بن على أغا المصرى فى قرية بلها العجور (بنى سويف) ١٨٥٩ وتوفى بالقاهرة فى ٢٧ مارس ١٩٢٤ وعاش حياة حافلة بالعمل والجهد فى ثلاث مجالات: دار الآثار العربية البحث والتنقيب عن الآثار العربية : التأليف فى هذا المجال على النحو الذى حدده إيمانه بالتاريخ كوسيلة لإنجاح نهضتنا العلمية وتقويم أخلاقنا الاجتماعية وترك عشرات من الأبحاث فى الصحف والمجلات .

توفى فى ٢٨ مارس ١٩٠٠

من مؤلفاته :

: قاموس الأمكنه والبقاع التى يرد ذكرها فى كتب الفتوح ١٩٠٦ .
: حفريات الفسطاط (صدر عن لجنة حفظ الآثار العربية ١٩٣٨) .
: جامع السلطان حسن .
: اكتشف صورة عقد القائد (جاك قرنسوامنو) أثناء زيارته لمدينة رشيد أواخر سبتمبر ١٨٩٧ . ونشرة فى مجلة الموسوعات ١٨٩٨
: المراجع » مراثى على بهجت (أدب ٤٨١٤) دار الكتب ومختلف الصحف

— ٣٦ —

الدكتور على مصطفى مشرفه

(١٨٩٨ — ١٩٥٠)

يمثل الدكتور مشرفة نموذجا فذا من نماذج العقل العربى الحديث فى تفوقه وبراعته حين يرتبط بنفس مشرقة مؤمنة ، فلا العقل العلمى يطغى على الروح ، ولا مفاهيم الإيمان والدين تنفى هذا العقل أو تحول دون قدراته وكفاياته ، وهو بهذا تطبيق أصيل لجوهر الفكر العربى الإسلامى الذى يمتزج فيه العقل والقلب ، والعلم والدين ، والروح والمادة ، على نحو يفسح للشخصية الإنسانية مجالاتها المختلفة ، دون تحيز أو انحراف .

* * *

فلقد أتيح لهذا العالم العربى أن يعمل فى مجالات العلم فى الغرب ، ويتصل بالعلماء الأفذاذ أمثال جيمس جينز وأوليفر لودج ، فاذا به مشارك فى البحث قادر على إضافة الجديد ، فى نظرية النسبية ونظرية الكم وأبحاث العلاقة بين المادة والاشعاع ، حتى قال عنه «العلامة بنلزيور» بأنه من أوائل من توقع من العلماء بانقسام الذرة ، وقد نشرت أبحاثه فى أرقى المجلات العلمية وبلغت (٢٥ بحثا) وقد تنبأ بذلك عام ١٩٣٩ قبل إعلان الحرب العالمية الثانية بعد أن تابع أسرارها ، وقد وقع ذلك بالفعل حين قام هاهن واستراسمان بفلق اليورانيوم ؛ وقال الدكتور مشرفه يؤمئذ :

«أن فلق ذرة اليورانيوم ربما كان أهم حدث فى أخبار العالم الحديث» وللدكتور مشرفة آراء فى الرياضة البحتة ، وفى الطبيعة النظرية ، اعتدبها كثير من العلماء فى أوربا ، حتى أن جيمس جينز العالم الكبير عرض لها فى كتابه « الكون الغامض » وشرح «نظرية مشرفة فى تفسير الإشعاع الضوئى الصادر من الشمس » كما وصفه سيراوين ورتشارد سون العالم الكبير فى العلوم الرياضية بأنه — أى مشرفة — من عظماء علماء الطبيعة الرياضيين

فى العالم . وقال أنه قد أضاف جديدا إلى نظرية النسبية وأبحاث الحكم وأبحاث العلاقة بين المادة والإشعاع وقد أخذ بآرائه « أوليفر لودج » فى كتابه : ما وراء الطبيعيات . وكان مؤيداً[1] أبحاثه بوضع معادلة تربط بين نشاط الالكترون وشكله ، ثم أخذ يبحث فى التغييرات التى تتأثر بها المعادلة كلما زادت السرعة بالتدريج ، حتى إذا بلغت هذه السرعة (٣٦٠ألف كيلو متر) فى الثانية ، وهى سرعة الضوء تحولت المعادلة الجزئية إلى معادلة موجية .

وكان الاستنتاج الذى استنتجه غاية فى الأهمية ، وهو « أن المادة والإشعاع شىء واحد ، وأن المادة تتحول إلى إشعاع ، وأن المادة ليست سوى نوع من الإشعاع المتجمد » .

* * *

والدكتور مشرفه هو أول مصرى أحرز درجة علمية عالية وكان عمره ستة وعشرون عاما ، وكان قد حصل قبلها بعام على درجة دكتور فى الفلسفة ، وقد حرص منذ أن وصل إلى هذه الدرجة العلمية أن يكرس عقله وحياته لوطنه، فرفض العمل فى الجامعات الغربية بالرغم من إغرائه بالأجور العالية ، وعاد إلى مصر حيث تقدم عام ١٩٢٥ ليعمل أستاذا فى كلية العلوم وسنه لا يتجاوز ٢٧ عاما ولكنه حورب فى ظل الاستعمار ورفضت الجامعة تعيينه بحجة ان سنه لم تبلغ الثلاثين بعد ،كشرط وظيفة الأستاذية ، فتقدم لمدرسة الطب فى وظيفة أستاذ لعلم الطبيعة ،وكان ناظرها صديقا له ، فصارحه بأن هذه الوظيفة منشأة خصيصا لأجنبى بصرف النظر عن المؤهلات الدراسية .

وهكذا وجد الدكتور مشرفه الأبواب كلها مغلقة فى وجهه ، حتى عين

---

(١) الاهرام ١٩٥٠/١/٢٠ سمير وهبى

أستاذا للرياضة التطبيقية بكلية العلوم، فكان أول مصرى بها ، وفى خلال هذه السنوات الخصبة مضى فى طريق البحث العلمى ، مؤلفا وباحثا ، وعالما معمليا ، كان يذهب إلى كلية العلوم بعد الظهر فيغلق المعمل على نفسه ويفرغ لتجاربه ، ثم يمضى إلى بيته فيجلس بين كتبه إلى ساعة متأخرة من الليل . وشارك فى هذه المرحلة فى عديد من المؤتمرات العلمية ، التى بلغت أكثر من ثلاثين مؤتمرا .

ولقد حاول الدكتور مشرفة أن ينشىء للثقافة العلمية فى الجامعة المصرية وفى العالم العربى وفى الفكر العربى المعاصر قطاعا حيا ناميا ، مستهدفا تعريب كلية العلوم والمعاهد العليا بأن تكون اللغة العربية أساس البحث العلمى ، فأنشأ قسما للترجمة العلمية ، يستهدف ترجمة أمهات الكتب العلمية النادرة إلى اللغة العربية ، ومضى إلى تأليف عشرات من الكتب ، يهدف بها تبسيط النظريات العلمية وتقريبها إلى الأذهان ، وحاول أن يعطى اللغة العربية مداها فى المجال العلمى ، وتحويل العلم إلى ثقافة عامة ليكون مفهوما كالأدب والتاريخ .

وقد أعطى هذه المحاولة الرائدة البعيدة المدى جهده كله ، فنشر فى مجلة العلوم أحاديث مبسطة وأذاع فى الإذاعة ، وكتب وألف ، ولم يترك منبرا يستطيع عن طريقه أن يتصل بالشعب ، وأن يبث الثقافة العلمية إلا ارتقاه ، وقد أعانه على ذلك أسلوب عربى سلس ، وإيمان صادق ، وعقل بالغ الذكاء وإرادة غلابة قادرة .

ولم يكن عمله موقوفا على الدراسة الجامعية ، أو على البحث العلمى الخالص ، ولا على نشر الثقافة العلمية وتبسيطها ، ولكن عمله كان ذلك كله ، وكان لهذا العمل منهج مرسوم ، وأساس مخطط ، يصدر عن فكرة أساسية واضحة ، مصدرها إيمانه بأمته وبالفكر العربى الإسلامى .

وبالعمل من أجل إثراء هذا الفكر وتخصيبه ، وإعادته إلى مجال قوته، فى عصره الذهبى ، وهو من أعز أنصار اللغة العربية ، العاملين على النهوض واتخاذها لغة العلم ، وكان إلى عمق فهمه فى العلم ، ومشاركته فى أحدث نظرياته ، مؤمنا بالله ، يستند فى أحاديثه إلى القرآن الكريم ، وهو فى مقدمة من دعا فى الثلاثينات إلى ربط العلوم الحديثة بجذورها من التراث العربى الإسلامى ، بعد أن حرص النفوذ الأجنبى على الفصل بين الجديد وأصوله الأولى ، يقول :

« نحن فى مصر اليوم ننقل المعرفة من غيرنا ثم نتركها عائمة لا تمت بصلة إلى ماضينا ، ولا تتصل بتربتها ، فهى بضاعة أجنبية عليها مسحة الغرابة ، غرابة فى اللفظ وغرابة فى المعنى ، فاذا ذكرت النظريات قرنت بأسماء أعجمية لا يكاد المرأ منا تبين معالمها .

وأن علينا أن ننشر الكتب العلمية التى وضعها العرب ، ونقل عنها الإفرنج ككتب الخوارزمى وابن كامل فى الجبر والحساب ، وكتب الهيثم فى الطبيعة وكتب البوزجانى والبيرونى والبنانى وغيرهم ، هذه الكتب محفوظة فى مكتبات ومتاحف فى مشارق الأرض ومغاربها ويعرف عنها الإفرنج أكثر مما نعرف » .

ودعا إلى تدوين العلوم باللغة العربية « بحيث تصبح لغتنا غنية بمؤلفاتها فى مختلف العلوم» وقال«ولا شك أننا كبيرحاجة إلى كتب عربية فى كل فرع من فروع العلم ، والأمر فى ذلك جد خطير ، فإننا إذا لم ننقل العلوم إلى لغتنا ، ولم ندونها بقينا عالة على غيرنا من الأمم ، وبقيت دائرة العلم محصورة فى النفر القليل الذين يستطيعون قراءة الكتب الأجنبية العلمية وفهمها ، كما أن لهذا العمل ارتباط بتطور اللغة العربية ،ومصطلحاتها العلمية والتأليف العلمى هو الوسيلة الطبيعية لإيجاد هذه المصطلحات فى لغتنا ، فكل لغة

حية إنما تنمو عن طريق التأليف والكتابة ، واللغة العلمية وليدة التفكير العلمى .

* * *

ولقد كان الدكتور مشرفة يحس أن المجال الذى يعمل فيه ، بالغ الخطر فى تاريخ الأمة والفكر العربى ، وهو يلق من النفوذ الاستعمارى حربا وتثبيطا ، ومن هنا كانت دعوته دائما إلى العمل دون التفات إلى الصيحات المثبطة يقول :

إن الصيحة الأولى إلى آذان من طرقوا باب البحث العلمى أن واصلوا أبحاثكم ، بالروح العلمية الصحيحة ، واصلوها ، فمواصلتها حق عليكم وللعلم ، ولأمتكم ولأنفسكم ، لايثنينكم تجشم مشقة ، ولا يلهينكم مظهر من مظاهر الحياة الخلابة ، ولا يقعدكم عدم اكتراث ، بل ليكن فى مقاومتكم لهذه القوى وتغلبكم عليها فخر آخر يضاف إلى فخر قيامكم بواجبكم ، ولنذكر أن كل اسم مصرى يضاف إلى صفوف بحاثى العالم ، وكل فصل ينشره أحد فى مجلة علمية أو ابتكار يحدثه فى فرعه الخاص ، كل واحدة من هذه بمثابة دعاية فى العالم أجمع ترفع من شأن وطننا ، ولنذكر أن الحقيقة بنت البحث وأن فى البحر أسماكا أكثر مما خرج منه ، وما كان (نيوتن) يعلم فى مقتبل عمره أن إسمه سيكون على ألسنة العالم بأسره إلى مدى الدهر ، ولعل منا من يهديه البحث إلى علم يكون فيه تخفيف من مصاعب الحياه على البشر ، أو إضافة إلى سعادة المجموع الإنسانى ، نحن فى مصر ننقل عن الغربيين ثمرات هذه الأبحاث فيعيروننا بذلك ، ويتهموننا بالتقليد الأعمى والتأخر الفكرى ، مصر التى هى أول الأمم عمرانا وأعرقها فى المدنية ، مصر التى يعرف أكثر علماء الغرب اليوم بأنها منشأ حضارات العالم بأسره ، أترضى بأن نكون تبعا يخلع عليها ولا يخلع على غيرها(١) .

* * *

---

(١) اطلق الدكتور مشرفه هذه الصيحه (١٨ ابريل ١٩٢٥) فى يوم افتتاح الجامعه المصريه الرسمية .

وتعطى هذه الكلمات فى مجموعها « طابع الإنسان » من خلال شخصية العالم. هذا الإنسان الأصيل الجذور ، السليم المقومات ، الذى استطاع أن يبنى لهذه الأمة لبنة فى مجال الفكر العربى الإسلامى ، فاضاف اسمه إلى أسماء ابن سينا والفارابى وابن الهيثم .

لقد كان أول عربى أعطى الغرب من علمه بقدر ما أخذ منه ، ولم تدفعه مكانته إلى تطلعات ذاتية ، بل كان حريصا دائما على أن يجعل فكره وعلمه وكشوفه خالصة لوطنه ، ولقد عرف الدكتور مشرفة بالآباء والكرامة وعلو النفس، وكان فقيراً نزيها ، وصريحاً أميناً ، فياض العاطفة، فيه ذكاء القادرين على اقتحام أعماق النفوس والخواطر ، شديد الإعتداد بنفسه وكرامته ، حريصا على أن لا يكون تابعا لفرد أو لحزب أو لتيار ما، على قدر كبير من الشجاعة النادرة والصراحة الصريحة مع أدب رفيع فى المناقشة ، ومع إيمان بمبادىء الخلق والفضيلة، لا يشرب الخمر ، ولا يقارف اللهو ، فيه طبيعة العلماء الأبرار ، متمثلة فى نسك المعامل وزهادة البحث العلمى ، الذى يرتفع فوق الغايات الصغيرة والرغبات القليلة .

* * *

وهو يصور نفسه من خلال الإجابة على سؤال: من هو المثقف؟ يقول: إنه شخص تتوافر فيه صفات نفسية خاصة ، فالثقافة فى نظرى مجموعة صفات تقوم بالنفس ، وليست طائفة من المظاهرات أو التصرفات التى يمكن أن تشاهدها فى المرء ، وعندى أن هذه الصفات كلها تتجمع كلها حول صفة واحدة أساسية هى ما يصح أن أسميه «الحساسية النفسية» فنفس المثقف تمتاز بحساسية عالية تجعلها — تشعر وتتأثر بطائفة من المعانى ، لا تتأثر بها النفس المصنوعة من الصلصال العادى ، وآيتها : الشعور بالحق والشعور بالتناسق . والشعور بالحق، شعور داخلى تمتاز به النفوس المثقفة، ومن ثماره أنه يجعلك تحس بوجود الحق . وبوجود الله .

أما الشعور بالتناسق ، فصفة أساسية من صفات المثقف بها يدرك ويقدر تناسق الطبيعة ويعمل على محاكاته .

والمعرفة هى الغذاء الروحى للثقافة بها تنمو وتترعرع » .

وهو من المؤمنين بالنزعة الروحية فى دراسة العلوم، والحياة عنده ليست مادة فحسب ، وهو يفرق بين العلم وبين نتائجه ، ولا يقبل بسيطرة العلم على البشرية . يقول : « إن العلم شىء من وضعنا فوضعه موضع القيادة ، وتسليمه دفة السفينة البشرية قلب للأوضاع ، إذ السفينة سفينتنا ونحن المسئولون عن قيادتها ، لابد من التمييز بين العلم وبين نتائجه ، فالعلم قدرة تمكننا من استخدام القوى الكامنة فى الطبيعة وتسخيرها لأغراضنا المختلفة ، أن استخدام العلم فى أهوال الحرب ينظر إليه بعين التشاؤم» .

* * *

وكان الدكتور مشرفة فى حياته الخاصة «مثلا أعلى» على استقامة الفكر والخلق ، وكانت نظرته الإنسانية إلى المجتمع غاية فى التفاؤل والتسامح .

ذكر أمام صديقه عبد المجيد أبو النجا قول أبى العلاء فى فساد الطبيعة الإنسانية :

وهكذا كان أهل الأرض قد فطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا

فاحتج على هذه النظرة المتشائمة ، واعترض على إساءة الظن بالبشرية ، فهو يراها بخير فى جملتها وإن أصابها سوء فى بعض أجزاءها فهى سليمة فى كيانها . يقول أحد أصفيائه « عبد المجيد أبو النجا » : كان يرى عيوب المجتمع الإنسانى وسقطاته ولكنه لا يسىء الظن بالإنسانية ، وكان يعتقد فى الخير للخير وفى العدالة لذاتها وفى الحق المطلق ، ويرى أن كل هذا غاية فى ذاته ، ليس وسيلة لغاية أخرى ، وكان يؤمن بما يعتقد ويعمل بما يؤمن به ، وكان

يتنكب الحقائق الجزئية سعيا وراء المعانى الكلية ، وكان يصطدم بالواقع المادى فيضحى به فى سبيل مثله العليا ، وهو متدين تدين العالم الحكيم ، وحتى فى فلسفة الدين لم يتخل عن مثاليته العقلية ، مثالية العالم الطبيعى الذى يرى الكون بعين العلم والعقل ويفسر ظواهره تفسيرا علميا عقليا معتقدا أن الله خلق العالم خلقاً علميا،فأقامه على أسس وقواعد دقيقة ثابتة ودبره تبعاً لنظم ومبادىء أبدية راسخة لا يستطيع لها تبديلا » .

* * *

هـذا الطابع العميق من الإيمان ، هو الذى رد عنه طابع التشاؤم والاغضاء الذى واجهه من أهل جيله ومثقفيه ،كانوا لا يحبون العبقرى أو النابغ ، وكانوا يحيطونه بعوامل التضييق والازعاج والاضطهاد ، حتى يجنح إلى صفوف الفاشلين ، قال له وزير مصرى ذهب ليهدى إليه أبحاثه : لم لم تتخصص فى علم نافع :كالجغرافيا والتاريخ .

أما هو فكان فقد يحس أحيانا بالضيق ولكنه لا يشعر باليأس،يقول: « إن قيمنا التعليميه والاجتماعية قيم زائفة، لقدكان الدافع على الحرص على الأولوية ، أن أبانا فقد ثروته ، لقد دفعت ثمن الأولوية غاليا لأن صباى خلا من كل بهيج ، لقد علمونا أن اللعب مضيعة للوقت ، علمونا التوقر والسكون فى سنى اللهو والمرح

« ومن هنا عاش فى لندن — على حد قول الدكتور عطيه مشرفة — يتصرف تصرف الرجل فى سن الخمسين ، مع أنه لم يكن قد بلغ العشرين بعد . قالت السيدة الانجليزية : ما زلت أناقشه حتى أقلع عن توقره واعتكافه ، وانصرف إلى الموسيقى ، ولعب التنس ، وركوب الدراجة ، وزراعة الزهور فى حديقتى ، وبقى مع البشر ومرح الطباع نحو عشرة أعوام بعد رجوعه من انجلترا .

ولكن الدكتور على مصطفى مشرفة كان يؤمن بأنه يرتاد ميدانا لم يسبقه

إليه إلا القليل من أمثال عثمان غالب قبل ثلاثين عاما . وكان هو أسعدمنه حظا على الأقل .

كان إيمان الدكتور مشرفة بالله ، وحفظه للقرآن ، وإتصاله بالثقافة العربية الإسلامية وبناء عمله على قاعدتها أساسا فى ذلك الجو المضطرب الملئ بعوامل الازعاج السياسى والاستعمارى ، هو الذى حماه .

ولقد تحدث كل الذين عرفوه عنه ، عن شخصيته غريبة حقا ، فى مدى عبقريتها ونبوغها، تفوقه فى اللغات الأوربية وآدابها كأحد أبنائها، ذاكرته التى وصفت دقتها بأنها تبلغ حد الإعجاز ، التمسك بالمثل العليا دون أن يعبأ بالنقد ، كونه مرتب الفكر والعادات إلى درجة لم يعهدها الناس فى غيره ، فقد كانت مذاكرته ، صلاته ، أكله ، نزهته ، كل هذه كانت بميقات لا يتغير، عطفه على العاجزين من الطلبة وتسديده مصروفاتهم من جيبه الخاصة ، حتى أن آخر ورقة وقع عليها فى الكلية (يناير ١٩٥٠) صكا من حسابه الخاص مساعده لطالب لم يتمكن من سداد مصروفاته ، رده البنك لوفاته فدفعته زوجته.

وقد تنبه الدكتور مشرفة إلى وجود معدن اليورانيوم بالقرب من سواحل البحر الأحمر وقال أنه إذا تم استخراج هذا المعدن الثمين سيكون مصدرا عظيما لثروة جديدة فى مصر .

وله إلى ذلك جانب الموسيقى وذلك الفن الذى برع فيه، فهو عازف ماهر على الكمان والبيان، وقد أسس جمعية هواة الموسيقى وجعل من أغراضها تمصير القطع العالمية وترجمتها مع الاحتفاظ بطابعها الأصلى وقد اشترك معه فى هذا العمل المرحوم كامل كيلانى الذى ترجم الأغانى العشرة ماعدا واحدة ترجمها مشرفة ، وهى لشوبرت ورمندلسون وتشايكوفسكى وكان فى هذا يجرى مع

غيرته على اللغة العربية واهتمامه بها ، وانتصارا لها فى ميدان الفن الموسيقى ، وكانت أغانى شوبرت ومندلسون تطبع فى كل بلد بلغة أهلها وتغنى بلغة أهلها ، إلا اللغة العربية ، وكانت دعواهم أن العربية قصيرة الباع ، لاتصلح للتعبير الموسيقى ، وكان على الدكتور مشرفة وزملائه حل مشكلة رئيسية فى التدوين الموسيقى ، ذلك أن الموسيقى تكتب من اليسار إلى اليمين على عكس الألفاظ ، فانتهى إلى حل يجمع بين الحرص على أصل الموسيقى ، والوفاء للغة العربية ، ذلك هو أن تصبح الكلمة وحدة ظاهرة ، فعمدوا إلى كتابة مقاطع كل كلمة سالكين فى أثبابها الطريقة العروضية .

* * *

أما فى ميدان مبحث العلمى فقد أحصى له الأستاذ أحمد عبد الرحمن سباق ثمانون موضوعا عمليا منشورا فى الصحف والمجلات أهمها : الرسالة، الجهاد ، الجديد ، المقتطف ، مجلتى ، الأهرام، الاذاعة،وذلك بالإضافة إلى مؤلفاته الهامة : نحن والعلم ، النظرية النسبية الخاصة ، الذرة والقنابل الذرية ، العلم والحياة ، مطالعات علمية .

وله دراسات عن الخوارزمى وابن الهيثم ، فضلا عن الكتب الدراسية ، كما راجع ترجمه أكثر من ٢٣ كتابا علميا ، وأحصيت مسودات أبحاثه قبل وفاته فبلغت حوالى المائتين صفحة ،كان يسهر فى إعدادها إلى الهزيع الأخير من الليل .... (توفى ١٦ يناير ١٩٥٠)

مؤلفاته وآثاره :
نحن والعلم ، النظرية النسبية الخاصة ، الذرة والقنابل الذرية ، العلم والحياة ، مطالعات علمية

مراجعه :
الدكتور مشرفه كتاب ح ١١٥٤١ (دار الكتب) وفصول فى الرساله (مارس ١٩٥٢) المقتطف م ١١٦ والمصور يناير ١٩٥٠ والهلال م ١/٤٣ .

— ٣٧ —

عمر لطفى

(١٨٦٧ — ١٩١١)

لم تكن اليقظة الوطنية فى أوائل هذا القرن وجـــدانية عاطفية ، أو قاصرة على الخطابة والكتابة الحماسية كما يحلو للبعض أن يصورها ، ولكنها حملت فى تضاعيفها مختلف بذور العمل الايجابى ، غير أن الاستعمار كان قادرا إذ ذاك على قتل هذه البذور فى تربتها حتى لا تنمو . وفى ظل هذه اليقظة ظهرت الدعوة إلى إنشاء الأندية والنقابات العمالية والجمعيات التعاونية والبنوك والمصارف الوطنية .

وفى هذا المجال ظهر (طلعت حرب) بدعوته إلى إنشاء مصرف مصرى ، و (عمر لطفى) بالدعوة إلى التعاون كوسيلة لحل الأزمة الاقتصادية التى أصابت الفلاح المصرى عام ١٩٠٧ ، فقد رأى المحامى الوطنى كيف أثرت هذه الأزمة الحـادة فأنزلت أثمان القطن ، وسائر المحصولات الزراعية ، وكيف اضطربت حياة الفلاحين ، وتعددت الآراء فى البحث عن علاج ، واقترحت وسائل مختلفة ولكنها كانت أشبه بالمسكنات الوقتية .

وخرج عمر لطفى عن كل هذه الآراء ، ونادى بحل جذرى ، قال : إن (التعاون) هو الحل الوحيد الذى يكفل للفلاحين ما يرجون من إصلاح فى نظامهم الاقتصادى لأنه يمد الفلاح بما يحتاج إليه من مال دون ربا أو شرط اضطرارى أو جبرى كشروط المرابين الذين كان الاستعمار قد أفسح لهم فغمروا كل قرية يعصرون فلاحيها بالقروض ثم ينتزعون بالمحاكم المختلطة أراضيهم وأبقارهم وماشيتهم .

وأعلن (عمر لطفى) صيحته داعيا إلى إنشاء الجمعيات التعاونية ، ومضى يجوب القرى المصرية محتملا كل متاعب التنقل ، تاركا مكتبه فى القاهرة ، من أجل الدعوة إلى التعاون كحل جذرى لمشكلات الفلاح . ولقى فى سبيل ذلك الكثير من النقد والتقريع من خصوم الوطن وأذنابهم فضلا عما لقى مشقة وجهد .

وكان قد أراد أن يعمق دعوته بالدراسة الواسعة والخبرة الكاملة فقام بعدة رحلات إلى إيطاليا حيث التقى بالتعاونى (لويجى لوتسانى) ودرس عليه نظام الجمعيات التعاونية كما درس أنظمة التعاون المطبق فى فرنسا وسويسرا وألمانيا وغيرها من بلاد أوروبا . وواصل سفره سنوات ١٩٠٦، ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ من أجل هذا المشروع الذى أعطاه كل جهده واعتبره أهم عمل كبير للأمة مجردا من الغرض الشخصى ولم تثنه كل المثبطات عن خطته .

وكانت صيحة (عمر لطفى) إلى التعاون عام ١٩٠٧ جديدة وجريئة فقد لفتت الأنظار وأخذت حكومة (مصطفى فهمى) صنيعة الاستعمار فى مقاومتها، ولكن الداعية المؤمن مضى فى طريقه، وعقد عديدا من الاجتماعات الكبرى فى نادى المدارس العليا الذى اشترك فى تأسيسه وتولى شرف رياسته وكانت دعوته على هذه الصورة :

« يعتقد بعض الناس أن تفريج الأزمة المالية لا يكون إلا بجلب رؤوس الأموال من البلاد الأجنبية وإقراضها للأهالى حتى تدور حركة الأعمال كما كانت عليه قبل سنة ١٩٠٧ وفاتهم أن الديون التى على المصريين قد أثقلت كاهلهم ، وأنه كلما كثر الدين زادت الفوائد التى تدفع سنويا لأرباب رءوس الأموال ، فالتفريج من هذا الوجه تفريج وهمى لا أساس له ونتيجته فى المستقبل ضارة وخيمة ، وفى اعتقادى أن أهم أسباب المضاربات إنما كانت من تهاطل الأموال الأجنبية على مصر ، وإقراض

بعض البنوك النقود دون الالتفات إلى وجه استعمالها ، وبعبارة أخرى لو استعملت تلك الأموال لتنمية مصادر الثورة الحقيقية فى التجارة والصناعة والزراعة لما وقعت مصر فى الأزمة المالية الحاضرة ، بل كانت حال مصر تتبدل من حسن إلى أحسن ، ولكان المصرى اليوم يرتع فى بحبوحة من السعادة والهناء . وعندى أن أساس الاستقلال والحرية فى كل أمة هو : (الاستقلال الاقتصادى) .

هكذا كان (عمر لطفى) يفهم الموقف بعمق، ويرى أن الحل الوحيد إنما يتمثل فى إنشاء النقابات الزراعية،حيث تشكل النقابة فى كل بلد ، من مجموع أهله ، ويجمعون مالا يوجه إلى تقديم الأسمدة والبذور والسلف الزراعية للفلاحين والمزارعين الصغار ، وتحصيل الأثمان بعد ظهور المحصول وبيعه .

ومن أهداف مشروعه إيجاد علاقة تجارية رئيسية بين المزارعين المصريين والمصانع الأوربية عن طريق تلك النقابات دون وساطة المرابين أو المضاربين ، ربط النقابات الزراعية المصرية بنقابة عامة تجمعها وتؤلف بينها ، وبوصفه أحد المشرعين الماهرين فقد استطاع استخلاص التكييف القانونى للجمعيات التعاونية فى مصر ومبادئها .

ومضى (عمر لطفى) يزور القرى والنجوع والدساكر يدعو دعوته ، وجاءت أول استجابة لدعوته من قرية سنتماى (ميت غمر) ونجحت بها فكرة قيام ول جمعية تعاونية ، وكان الشيخ بركة عمدة سنتماى أول رئيس للجمعية التعاونية فى قريته .

وفى قرى شبرا النملة (طنطا) وكفر الحمام ونشيل بالغربية وأولينة بالدقهلية وميت القرشى بالشرقية ونامول بالقليوبية وخربتا بالبحيرة وبشتيل وناهيا بالجيزة والنويرة ببنى سويف — تكونت جمعيات تعاونية على نفس النسق وبدأت تنفذ فكرة عمر لطفى .

كما تمكن من إنشاء شركات التعاون المالى والتعاون المنزلى ونقابة عمال المصانع، ومضى عمر لطفى يطوف القرى، صادق الإيمان بوطنه، لا يطلب أجرا، متواضعا سمحا، لا يعرف الغرور، شأن أصحاب المبادىء، طلعة مشرقة، وروح عالية، وإيمان بالله وبأمته على حد قول شوقى عنه:

تمشى إلى الأكواخ ترشــد أهلها
مشى الحواريين يهدون القرى
متواضــعا لله بين عبــاده
والله يبغض عبده المتكبرا
فى كل ناحيــة تخط نقابة
ففيهــا حياة أخى الزراعة لو درى

ولا عجب أن يقف عمر لطفى نفسه على هذا العمل، وهو ثمرة المدرسة الوطنية التى عرفتها مصر بعد الاحتلال البريطانى. وقد تتلمذ على مصطفى كامل وتخرج فى يوم واحد من مدرسة الحقوق مع محمد فريد فى مايو ١٨٨٧، وهو المحامى النابه الذى شغل منصب وكيل مدرسة الحقوق ومؤسس نادى المدارس العليا.

ولكن ماسر اتجاه عمر لطفى إلى هذا العمل الذى يدعوه لأن يترك أعماله ومؤلفاته ومكتبه الذى يدر عليه المئات ذاهبا فى طريق الكفور والنجوع.

لقد شب عمر لطفى فى هذا الجو العجيب المشحون بآثار الاستعمار البريطانى وهزيمة عرابى ونفيه، وسمع وقع خطوات (جمال الدين الأفغانى) على أديم الحياة المصرية وما كان لها من آثار، ثم قرأ مجلة «الأستاذ»

لعبد الله نديم ، وهو شاب ، ثم رأى مصطفى كامل وقاسم أمين ومحمد عبده .

ومن عصارة هذه الصيحات امتلأت روح عمر لطفى — وهو غير عمر لطفى محافظ الاسكندرية عدو الحركة الوطنية أيام الثورة العرابية — فهو يرى وطنه مهينا ، وكرومر يضغط عليه بقوة ويذيقه ألوانا من الترويع والتعذيب ، ويسوق الفلاحين إلى السخرة بالكرباج ، ويقع حادث دنشواى سنة ١٩٠٦ فيهزه هزا ، وتضطرم نفسه حزنا وألما ، ثم يمضى فيحول هذه الطاقة الوطنية إلى نافع عمل إيجابى ، ثم يهل عام ١٩٠٧ فإذا الأزمة تعصر الفلاحين عصرا ، وتأخذ برقابهم ولا بد من حل .

وفكر عمر لطفى ، وهتف ، إنه (التعاون) يحل المشكلات ،وقال لنفسه : أنه سيعمل وظل خلال هذه السنوات يعمل حتى توفى فى ١٤ نوفمبر ١٩١١ وكان قد قطع شوطا ربما كان يكون أطول لو وجد من الحكومة استجابة . ولكن الحكومة التابعة للاستعمار كانت تقاومه والصحف المعارضة كانت تعارضه .

والواقع أن حياة (عمر لطفى) كانت خصبة عريضة ، فإن له جانبا آخر سبق به دعوة التعاون وبرز فيه : هو جانب مؤلفاته وأبحاثه فى مجال القانون والشريعة الإسلامية .

ولعله من أول الباحثين الذين تحدثوا عن (حق المرأة) فى رسالة طبعت فى القاهرة (١٨٩٧) قبل صيحة أمين قاسم أمين وكانت خلاصة محاضرة باللغة الفرنسية ألقاها (فى سبتمبر ١٨٩٦) وأبان فيها حقوق المرأة فى الشريعة الإسلامية وقارن بينها وبين ما للمرأة الغربية من الحقوق . وكيف أن الجنس اللطيف — كما كانوا يسمونه — وجد من الشريعة الإسلامية حماية لم يجدها فى القوانين القائمة إذ ذاك .

وقد عنى لطفى بالتأليف فى الشريعة الإسلامية فأصدر مؤلفه الهام : (الدعوى الجنائية فى الشريعة الإسلامية) وكتابيه (حرمات المنازل) و (حق الدفاع) وكان لهذه المؤلفات صدى بعيد فى آفاق الكليات الأوربية قبل أن يسمع بها العالم الإسلامى ، وقال الكتاب الغربيون أن المؤلف عرف حاجة الشريعة معرفة النظر المنصف .

وكان قد اختار كتابه (الدعوى الجنائية فى الشريعة الإسلامية) ليقدمه لمؤتمر المستشرقين فى صيف ١٨٩٤ ، واعتمد فيه على عشرات المراجع أمثال : الميدانى والنفحة الملوكية والفخر الرازى وتاريخ الطبرى وقرة العيون لابن عابدين ، وابن خلدون ، والسيوطى ، والفوائد البهية فى تراجم الحنفية، والهداية لشيخ الإسلام برهان الدين ، وابن عابدين ، ومعين الحكام وملتقى الأبحر ، والزيلعى . والجوامع فى الساسة الإلهية لابن تيمية . والعقد الفريد وغيرها . .

ومن رأى عمر لطفى فى هذا الاتجاه : أن أول واجب على الشرقى لشريعته أن يعززها بأن ينزل بقواعدها فى مضامين التقنين الحديث ، ويرفع صوته بما تحويه من بالغ الحكم فى التشريع ، حتى يحلها مكانها من احترام العالم المتمدن ، وحتى تسقط دعوى الأوربيين الذين يرون أن الإسلام مرادف للتأخر والوحشية ..

وقد أعلن كبار رجال القانون العالمى إعجابهم بأبحاث عمر لطفى ، يقول ميومير : اسمحوا لى أن أنصح لجميع المسلمين فى شخصكم ألا يطلبوا مستقبلهم فى تقليد النظامات الأوربية ، فاطرحوا هذه النظامات وارسلوا النظر فى مشهد مانحن فيه من الفوضى الخداعة واطلبوا من دينكم الذى هو أسمح دين وأكثره مساواة مفتاح مستقبلكم ولا تفضـلوا أن تستعيروا منا إلا الاكتشافات العلمية الخاصة بإنماء سعادتكم المادية .

ويقول مسيو فرنان داجين : لقد كان الاعتقاد السائد فى فرنسا أن

احترام المسكن لا يشغل من تقنين العالم الإسلامى إلا مكانا حرجا ، على أنه إذا كانت الحوادث التى يستحق أن يؤسف عليها ، وهى لسوء الطالع كثيرة الوجود ، تثبت أن الحرص على عدم انتهاك المساكن فى البلاد الإسلامية أمر قليل الأهمية ، فأنه ليس بأقل من ذلك قربا للحق ، إن الشريعة الإسلامية تحرم مثل هذا الانتهاك تحريما مطلقا .

والمؤلف يذكر أن القرآن يحرم على كل شخص أن يدخل بيت الآخر بغير رضاه إلا فى حالات ثلاث : إذا كان مرخصا له بالدخول ، وإذا دعى إليه فإن الدعوة تساوى الإذن فى الدخول ، وفى حالة حريق أو فيضان أو ارتكاب جريمة ، إذ البيت فى هذه الحالة يكون مفتوحا للأفراد كالحانوت أو الحمام أو نحوهما . .

* * *

على هذا النحو بدأ عمر لطفى حياته الفكرية بعد تخرجه من الحقوق وانتظامه فى التدريس بها ثم تحول عام ١٨٩٣ إلى الاشتغال بالمحاماة ثم عمق مجالاته فى أبحاث الدعوى الجنائية وحق الدفاع وحرمة المساكن ، هذه الأبحاث التى لفتت النظر بقوة إلى الفكر العربى الإسلامى وقد واجهت الدوائر القانونية الأوربية هذه الأعمال بتقدير كبير .

ولا شك كان كتابه فى الامتيازات الأجنبية أول كتابى عربى فى هذا الموضوع ، غير أن عمر لطفى لم يقف عند هذا الحد، بل قصد إلى عمل أكبر ، فكان (رائد التعاون) وزميل أوين وريفيزون ولوتسانى رواد التعاون فى أوروبا، واليوم يذكر فضل هذا الرائد المبرور المتوفى فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩١١.

من مؤلفاته :
الامتيازات الأجنبية (وهو أول كتاب باللغة العربية فى موضعه) .
الوجيز فى شرح القانون الجنائى .
إنشاء شركات التعاون (بدأ مشروع النقابات الزراعية ١٩٠٧) .
الدعوى الجنائية فى شريعة الاسلام (بحث يقدم به إلى مؤتمر المشرقين فى جنيف ١٨٩٤) .
حق المرأة (رسالة بالفرنسية طبعت فى مصر ١٨٩٧) .
بحث فى التعاون : بالفرنسية قدمه إلى مؤتمر بروكسل ١٩١٠ .

— ٣٨ —

فريد وجدى

(١٨٧٨ — ١٩٥٢)

وقف (فريد وجدى) حياته على عمل واحد مدى حياته الفكرية خلال فترة تزيد عن خمسين عاما قضاها فى دنيا القلم كاتبا عريض الذكر واضح الرأى ، له سمت العلماء وطابع المفكرين بعيد عن مصارعات الصحافة ومهاترات النقد، فقدكان من أول من أعطى دراسات : «الإسلام والدين والروحية» طابع البحث العلمى القائم على المنهج الواضح الدقيق . إذ ذلل قلمه للدفاع عن هذه القضايا الثلاث فى مواجهة آراء الماديين وخصوم الدين وأعداء الاسلام . وقد شغلته قضية (المادية والروحية) شغلا عظيما فكتب فيها طويلا . ووجه إليها جهدا لا حد له . وترك فيها آثارا ما تزال حية قوية ذات أثر فعال .

* * *

وليس أمر (فريد وجدى) مع قضيته الكبرى ، التى عاش لها حياته إلا متصلا بذات نفسه فهى فى الأصل ، عقدة حياته ، ذلك بأن فريد وجدى قد واجه أزمة روحية هزت كيانه فى مطالع الشباب وكادت تجرفه ، لولا أن هدى إلى وجه الحق على نحو لا يمكن تصويره فى دقة من خلال عبارته الواضحة الدقيقة ، يقول :

«كان أهم ما واجهنى إلى البحث فى العلوم الدقيقة، حادث (الشك فى العقيدة) الذى أدى بى إلى الشك فى كل شىء، حتى الدين وعلومه ، فقد كنت فى سن السادسة عشر طالبا فى المدرسة التحضيرية ، وكان أبى (مصطفى وجدى)

موظفا فى الحكومة المصرية ، وحدث وقتئذ أن اختير وكيلا لمحافظة دمياط فكان لابد من انتقالى مع عائلتى إلى هذه المدينة التى اشتهر أهلها بدمائه الأخلاق والتفقه فى الدين . ولما نزلنا هذه البلدة مع أبى أقبل علماؤها وكبار أهلها يرحبون به ، فكان يجتمع فى بدارنا عدد كبير منهم ، وكانت تدور عدة مناقشات دينية وجدت فيها مجالا للبحث والتفكير ، غير أننى كنت إذا ناقشت أحد العلماء فى مسألة تتعلق بالكون والخلق ، أسرع إلى قفل باب المناقشة ، وأمرنى بألا أخوض فى المسائل الدينية أو أبدى فيها رأيا ، فكنت أمتعض لذلك ، وأرى فيه حجرا على العقل بلا مسوغ . وأخذت أبحث السبب الذى أدى بهم إلى هذا الجمود، وقلت فى نفسى: لابد أن يكون مايدرسونه من الكتب عقيما . . . ومن هنا تزلزلت عقيدتى ، وشرع الشك يتسرب إلى نفسى حتى صرت لاأرتاح إلى رأى واحد يتضمنه كتاب ، ولا أقتصر على فكرة معينة يجتهد بعض العلماء فى إثباتها بما أدلى من قوة الحجة وساطع البرهان .

وجعلت أتناول بالقراءة وبالدرس جميع الكتب الدينية والكونية والاجتماعية وسائر مايتعلق فيها بعلم النفس ، وأكببت على ذلك عدةسنين، فاكتسبت علما غزيرا واتسع أمامى نطاق الحياة وجال نظرى فى الكائنات جولات أفادتنى فيما أتناوله بالبحث والدرس حتى صرت لا أقتنع بفكرة دون أن اعتنى بدرسها وتمحيصها معتمدا فى ذلك على تجاربى الذهنية التى مرت بى .

وقد أفادنى هذا الشك استقلالا فى الفكر واعتمادا على النفس ، ورغبة فى استيعاب ما يقع بين يدى من الكتب على اختلاف أنواعها بصبر وجلد ، كما أفادنى دقة فى البحث حتى أزال الشك عنى ، وارتاحت نفسى إلى عقيدة ثابتة» .

ومن هذه النقطة بدأ فريد وجدى طريقه الطويل

ففي عام ١٩٠١ أصدر فريد وجدى كتابه «الإسلام فى عصر العلم» حيث عرض أسلوب العلم الحديث للدفاع عن (حقائق الإسلام) ومنذ ذلك الوقت مضت أبحاثه فى الرد على كتاب الغرب وفلاسفته المنكرين لحقوق المسلمين وفضائل الإسلام على حد تعبير العقاد.

فلما كتب مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا مقاله المشهور فى مهاجمة الإسلام تصدى الشيخ محمد عبده مفتى الديار للباحث فى المؤيد وقد وفى المقام حقه (لدرجة أصبحت الزيادة عليه من باب تحصيل الحاصل) على حد تعبير فريد وجدى الذى رأى أنه (لم تبق الا نقطة واحدة، وهى مانقله — الكاتب — من أن الإسلام يجب احترامه لأنه «أشبه بقنطرة تمر عليها الشعوب من الوثنية إلى المسيحية» وقال وجدى:

نريد أن نبرهن للواهمين فى الإسلام بأنه ليس بدين تمهيدى بل هو غاية مايصل إليه النوع الإنسانى فى مستقبل القرون ونهاية ماترمى إليه الإنسانية، ثم تحدث عن التدين كفطرة فى الإسلام، وتناول الدين من خلال القرون عارضا تطور الصراع بين العلم والدين ثم كشف عن اتجاه العقل الحديث إلى الروحية، ووصل إلى أن الإسلام هو دين الفطرة المنشود.

ثم مضى فريد وجدى فى هذا الخط — الذى بدأه — وعمقه، فترجم عن كاميل فلامريون كتابة «على أطلال المذهب المادى»

وأبدى اهتماما كبيراً بما وصل إليه العلم من كشف للجانب الروحى والإيمان به، فقال:

إن العلم فى الخمسين سنه الأخيرة — عقب اكتشافات خطيره فى قوى المادة الكامنة وفى خصائص البروتوبلاسما (أى المادة الأولى للخلية) وفى الأحياء المكروسكوبية ومن احتمال وجود أدق منها مما شوهدت آثاره، ولم يعثر على أشخاصها ومن الأشعة المعتمة وما إليها، دخل فى طور جديد من التشكك دفع بأقطابه أن يضعوا بقنياته فى الميزان من جديد فنظروا فيه

نظرات انتقاديه لم يكونوا لينظروها من قبل ، وتغيرت لهجة ممثليه فأصبحوا يكثرون من قولهم : أن الوجود مشحون بالمجاهل، حتى فيما ندعى أننا قد فرغنا من بحثه ، لقد أتى العلم على المذهب المادى من أساسه ، وظهر عهد جديد تتمثل فيه حاجة العقل وحاجة الروح إلى أسلوب علمى محض » .

ثم واصل فريد وجدى أبحاثه فى الصحف اليومية واختص جريدتى الأهرام والجهاد بعديد من أبحاثه وحرر مجلة الأزهر سنوات طويلة وظل يعمل حتى توفى فى (فبراير ١٩٥٤) لم يتوقف ثمة عن العمل فى هذا المجال ، جاعلا أكبر جهده منصبا على المواءمة بين محاسن الفكرة الاسلامية وأصول المدنية العصرية ، يقول :

« إن الفلسفة هى احدى الشموس التى تنير لنا ماحولنا من وجود ، وتكشف لنا مدى الصلة التى يربطنا بهذا الوجود السرمدى ، وإن الرجل المثقف لايستطيع أن ينقطع عن التفكير فى هذا الكون الهائل ومايحتويه من غرائب وعجائب وما يتخلله من تطور وتبدل وحياة وموت .

وقد حملنى على التعلق بدراسة الإسلام ماوجدته فى أصوله التى ذكرها القرآن وصحيح الحديث من مطابقة ومقاربة لأرقى دساتير الفلسفة العصرية من حيث أنه اندفع بأهله إلى أرقى درجات الكمال المادى والمعنوى ، فهالنى البعد بين أصول الإسلام وحالة أهله فى العصر الحاضر فأخذت على عاتقى إن أجلو بقلمى مااستطعت وماحييت هذا الظلام الحالك الذى يغشى موقف الإسلام والمسلمين» .

وأشار فريد وجدى إلى ما عناه فى رسالته التى وقف نفسه عليها من مشقة كبرى صورها حين قال : من أشد مايعانيه من يزاول « أبحاث الاجتماع » شعوره بشىء من التناقض فى موقفه ناصحا وموقفه باحثا ، فهو مضطر فى موقفه الأول إلى تجسيم الانحرافات وتضخيم المغالطات والذهاب بها إلى أقصى احتمالاتها جانحا بها نحو التشاؤم لتتمكن من التأثير فى النفوس

فتخليها عن أهوائها وتردها عن غلوائها ، ولكنه فى موقفه الثانى (موقف الباحث) يرى من واجبه حيال الحقيقة أنه ينظر فيما هو يصدده من وجهة علمية محضه كأنه يحل مسألة رياضية .

وهكذا عاش فريد وجدى فى الدفاع عما رأى أنه الحق لم يشغله عنه شاغل ، فكان فى كتاباته فى الأربعينات مثله قبل أن يهل القرن وكان كتابه (الإسلام دين المدنية) الذى طبع عام ١٨٩٨ باسم (المدنية والإسلام) على نفس الخط الذى كتب به (الإسلام دين عام خالد) عام ١٩٤٠ تقريبا ، ثم كان تفسيره للقرآن الذى ختم به حياته هو قمة العمل فى هذا المجال .

فقد حرص على أن يرد على مختلف الشبهات التى وجهت للإسلام من الكتاب الأجانب ، وكان هذا هو عمله الأول ، ثم شغل بالمسألة الروحية كجزء من إيمانه بمقاومة المذهب المادى بالترجمة والتأليف مؤمنا ببقاء الروح ومستدلا بمن كتب فى ذلك من علماء الغرب أمثال جان فينو وستيد وفارلى وسنتون موريس ووليم كروكس وكلهم من أعلام دراسات الروح ولهم فيها أبحاث ومؤلفات .

وكان قد شغل فى أول عمره بالتأليف فى مجال الدفاع عن الدين والروحية بالفرنسية حتى يقدم آراءه للناقدين فى نفس مجالهم وباللغة التى يفهمونها فى كل هذا وهو يهدف إلى غاية أساسية هى بنص عبارته :

« إقامة الحجج العلمية على أن دين الإسلام ليس بالدين الذى تعارضه العلوم العصرية والحقائق الفلسفية بل هى تزيده تثبيتا وتمكينا »

وقد كشف عن نزعة الألحاد التى عاشها العالم المعاصر فكانت بحق أزمته الأساسية ، وحاول أن يقدم لها الإسلام كحل للحيرة والضياع الذى تعانيه الإنسانية .

وقد تناول هذا الأمر فى كتاباته الأخيرة ، على نفس الطريق الذى

شقه لنفسه منذ أول الشوط على حد قوله فى كتاب المدنية والإسلام (١٨٩٨) — « نريد أن نقوم بعمل لامناص منه على كل حال ، ذلك العمل هو تفهيم الأوربيين حقيقة الدين الإسلامى وماهيته وإثبات أنه ضامن للإنسان نيل السعادتين، أماوجه كونه ضروريالامناص منه،فهوأن الغربيين قد أصبحوا بجهدهم ونشاطهم أصحاب النفوذ والسلطان على معظم العالم الإسلامى ، وماداموا جاهلين بحقيقة الإسلام ومعتقدين مايهذى به بعض كتابهم ضده فإنهم لايستطيعون طبعا أن يروا ديانة محكوميهم إلا عبئا ثقيلا على عقولهم وحملا مضنيا لمداركهم ، نقول بتمام الحرية إن الأوربيين معذورون فى تصديق الحكم ضد الإسلام والمسلمين ماداموا لايرون أمام أعينهم من مظاهر الدين إلا البدع التى اخترعها صغار العقول وقبلها العامة ، وزادوا عليها أشكالا من الأوهام والأضاليل تنفر منها الطباع البشرية وتنافى أصول المدنية »

هذا هو الخط الواضح للكاتب الذى ندر أن يوجد مثله فى تاريخنا الفكرى حيث عاش فى خط واضح منذ مطالع حياته الفكريه حتى غايتها ، غير أن فريد وجدى كانت له جوانب أخرى جديرة بالعرض والدراسة فى غير هذا المجال ، وإن كان لابد من الإشارة إليها وهى :

١ — اصداره الصحف والمجلات وفى مقدمتها جريدة الدستور التى اشترك معه فى تحريرها منذ صدورها عام ١٩٠٧ الأستاذ عباس العقاد ومجلتاه الحياه والوجديات .

٢ — اصداره دائرة معارف القرن العشرين (فى عشرين مجلدا) بدأ كتابتها فى أول سبتمبر ١٩٢٢ وانتهى منها فى مارس ١٩٢٥ ، وضمت أكثر من عشرة آلاف صفحة ، وكان قد بدأ عام ١٩١٧ فى وضع كتاب (كنز العلوم واللغة) مستهدفا « حصر خلاصة معلومات البشر فى دائرة واحده ليلم بها المطالع إلماماإجماليا فيستفيد لعقله وروحه وجسده » ثم توسع فى هذا العمل بإنشاء دائرة المعارف .

ومن العلامات البارزة لهذه الحياة العريضة تتكشف نفسية باحث إنسانى عميق الإيمان بهذه الأمة ، تطلع خلال حياته كلها إلى تقديم عصارات الفكر الإنسانى فى مختلف مجالاته إليها ، وهو فى كل مراحل حياته كان إنسانا سوى النفس والعقل ، كريم الخلق والسلوك . له سمت العلماء العازفين عن المطامع والأهواء . وقد وصفه العقاد بأنه كان قليل النظير فى نزاهته وصدقه وغيرته على المصلحة القومية واستعداده للتضحية بماله وراحته فى سبيل المبدأ الذى يرعاه ، ولا يتزحزح عنه قيد أنملة ، فقد عطل صحيفة (الدستور) وبين يديه عرض سخى من جماعة تركيا الفتاة التى أرادت أن تتخذ منها لسان حال مصر والشرق العربى باللغة العربية وباع كتبه ليؤدى حساب العمال والصفافين مليا بمليم » .

وقد عرف فريد وجدى فى حياته الخاصة بالنقاء والاعتداد ، وعاش حياة خصبة ، مدرعا بالعافية نتيجته استقامة خلقة وبعده عن الأهواء ، وكان يعمل ست عشرة ساعة فى اليوم .

* * *

وإذا كان فريد وجدى قد بدأ حياته بموسوعة فى اللغة ، وعاش مدافعا عن الدين والروحية والإسلام ، وألف دائرة معارف القرن العشرين فى العشرينات وموسوعته فى القرآن فى الأربعينات وعمل فى الصحافة السياسية اليومية والصحافه الشهرية الأدبية ، فإنه كان إلى ذلك شاعرا ينظم الشعر ومن قوله :

رمت المخاوف والمخاطر ... فرويت مالم يرو شاعر
وجمعت ما بين البدا ... وة والحضارة والمظاهر
وشهدت مالو قلته ... عدوه من عبث الخواطر
وخرجت من ذا كله ... بحقيقة تغنى المكابر
هى أن هذا الناس قد ... سحرتهم فتن سواحر

ظنوا السعادة فى التأ　　نق والتطرف والتفاخر
أما السعادة فهى فى　　أن تفتق الحجب السواتر
وتحصل الشىء الذى　　شقت لمطلبه المرائر
أن ترتقى بالروح حيـ　　ـث الحق عالى القدر سافر

إذا كان فريد وجدى قد عاش حياة الدفاع الدائب الهادىء للإسلام والعلم ، موجها فكره إلى خصوم الروحية والدين فانه لم يتردد فى ان يدخل معارك على الصعيد المحلى حين عارض قاسم أمين رأيه فى تحرير المرأة، وألف لذلك كتابا عام ١٩٠٣ فى الرد عليه ، كما واجه آراء الدكتور طه حسين فى الشعر الجاهلى بكتاب فى نقض آرائه . غير أن هناك معركة أخرى غاية فى الأهمية جرت بينه وبين رشيد رضا من ناحية ومحب الدين الخطيب من ناحية أخرى. أولت لها صحيفتا المنار والفتح أهمية كبرى، وهى معركة مفاهيم الإسلام والحضارة، وكانت مناسبتها إعلان الدوله التركية الحديثه على أنقاض دولة الخلافة والسلطنة العثمانية ، فقد أيد فريد وجدى ماذهبت إليه تركيا من مواقف بالنسبة للدين واللغة والاجتماع ودافع عنها بينما عارضه الكاتبان واتهماه بأنه تحول عن آرائه الأساسية وخاصة رأيه فى المرأة .

وهى معركة جديرة بأن تدون فى سجل معارك الفكر والأدب . فقد أثيرت فى خلالها اتهامات له بأنه انتصب مدافعا عن مصطفى كامل نتيجة اتصالة بالنسب إلى الشراكسة والأتراك ، وكان رشيد رضا قد عارضه من قبل فى بعض آرائه كتابه (الإسلام دين المدنية) متهما إياه بالتحرر فى فهم النصوص عن الأصول الأساسية للدين ، وعورض مرة ثالثة فى تأييده لترجمة القرآن ، وقد تضاعفت هذه الصيحات والخصومات فى ظل حياة عريضة خصبة غزيرة الإنتاج تبلورت فى أبحاث ما زالت آثارها حية تنفع الناس ، فى الدعوة إلى التماس بالإسلام فى منابعه الأولى وتخليصه

من الشوائب على نفس النهج الذى فتح الطريق إليه جمال الدين الأفغانى وسار فيه محمد عبده .

وقد ترك فريد وجدى تراثا علميا ضخما منثورا فى الصحف والمجلات جديرا بأن يعاد النظر فى تقديمه للناس وإذا عته من جديد[١] .

مؤلفاته وآثاره :

(١) مجله الحياه (١٨٨٩ — ١٩١٠)
(٢) مجله الأزهر ١٩٣٤ — ١٩٥٢
(٣) (دائرة معارف القرن الرابع عشر — العشرون)
(٤) الإسلام دين عام خالد

---

(١) أعد كاتب هذه السطور ترجمة كاملة لفريد وجدى (سلسلة أعلام العرب) .

— ٣٩ —

قاسم أمين

١٨٦٣ — ١٩٠٨

ارتبط اسم قاسم أمين بحركة تحرير المرأة فى العالم العربى كله على كثرة من دعوا إلى تحريرها من قبله ومن بعده ، ولعل مرجع ذلك فى الأغلب إلى أنه أول من ألف كتابا مستقلا يحمل لواء هذه الدعوة ثم ما إرتبط به عمله من ضجة فتحت أبواب الجدل والسجال والبحث ، فى أبان حياته وبعد وفاته .

ولا شك أن قاسم أمين هو أحد المصلحين فى تاريخ الأمة العربية والشرق الإسلامى حيث تصدى لأمر جديد جليل فى فترة من فترات الظلام حيث كان الجمود قائما،والشرق يقاسى مرحلة من أدق مراحل حياته ، عندما امتحن بالنفوذ الأجنبى الزاحف فى صورة الاحتلال البريطانى فى مصر والسيطرة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية على العالم الإسلامى كله .

ولذلك كانت صيحة قاسم أمين من الصيحات القليلة المثيرة التى ارتبطت بأمر من أخطر الأمور للمجتمع ، وهو المرأة ، التى كانت تعيش فى أغلال من الجهل والجمود والحجاب ، ولم يكن الرجل يراها إلا أداة فراش أو خادمة منزل ، وقد غطت ظلمات الجهل والرجعية والتقليد جميع حقوقها الأساسية التى أباحها الإسلام ، وتقهقرت مكانتها فى المجتمع حتى لم تعد شيئا مذكورا ، بعد إن كانت بارزة المكانة واضحة الأثر .

من أجل هذا كانت الدعوة إلى تحرير المرأة عند قاسم أمين تستند إلى نصوص الدين ولا تخرج عن الحق الشرعي الذي منحها الإسلام إياه .

ولقد كان قاسم أمين بارعا غاية البراعة في عرض هذه الدعوة بأسلوب جميل رائع سبق به زمنه من حيث الأداء السهل اليسير ، ومن حيث التدليل العقلي البارع ، بعيداً عن مجالات العاطفة أو حماس المؤمن برأى اعتقده ، وهو إلى هذه البراعة كان قوى الجنان في مواجهة الجماهير ، فقد قامت عليه قيامة علماء الدين ورجال الفكر والجهات الرسمية ، فواجه ذلك كله في رباطة جأش وصدق إيمان وثقة بالنفس ، وعقيدة ثابتة بما أعلنت من رأى ، فلما سكنت الضجة عاد إلى الاعتراضات التي واجهته وكشف عن حقيقتها وكتب في ذلك كتابا آخر هو (المرأة الجديدة) .

وقد وقع ذلك في السنوات القليلة الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فكان علامة من علامات الطريق إلى نهضة المجتمع وحرية المرأة . وكأنما كان القدر قد أعد قاسما لهـــذا الدور بعد تمهيد طويل . فقاسم الذي عاد من فرنسا في أغسطس ١٨٨٥ بعد أن قضى بها أربع سنوات يدرس القانون كان قد غمره شعور نفسي بحمل لواء القلم في سبيل التوجيه لقومه ، ونقد عيوب المجتمع المصري ، يملؤه الطموح في أن يحقق لوطنه صورة مما رأى في أوروبا من رقى وتقدم .

غير أن هذا الإيمان لم ينحرف به إلى الإيمان بأوروبا إيمانا كاملا على النحو الذي عرف به بعض دعاة التغريب من بعد ، فظل حفيظا على مشاعره الوطنية والدينية .

ولقد دفعه هذا الإيمان إلى أن يعمل في مجالات عدة فوق عمله في القضاء: قاضيا ومستشارا ، إذ شارك في إنشاء الجامعة وتأسيس الجمعية الخيرية

الإسلامية وحمل القلم حين هزته كتابات دوق داركور عام ١٨٩٣ فى كتابه (مصر والمصريين La Eðeypcaιn) ولسعته فى صميم عاطفته وقوميته ، فمضى يرد على الكاتب الاستعمارى بحرارة ، مدافعا عن مصر والمصريين مهاجما أوربا أعنف هجوم كاشفا عن مثالبها الاجتماعية حاملا على الاستعمار بحسباته السبب الأول والأقوى فيما وصل إليه المجتمع من عوامل الضعف والقصور التى سجلها ، ثم بين كيف أن هذه الأمة لها تاريخ عريض ونهضة واضحة الأثر غير أن النفوذ الأجنبى هو الذى قضى عليها وحطم كل قوائم النهوض بها .

وليس أدل على نفسية قاسم فى إيمانه بوطنه والدعوة له من أنه أصيب بالحمى بعد أن قرأ كتاب داركور ولزم الفراش فقد كان قاسم يتطلع إلى الإصلاح والعمل للوطن ومحاربة وجوه الضعف فيه ومن أهمها أثر الاستعمار حين صدمته هذه الآراء الحاقدة ، ولم يلبث أن صور مشاعره إزاء هذا العمل فقال :

لما قرأت كتاب المسيو داركور لزمت الفراش عشرة أيام من التأثر ، وقد صرحت بذلك لكل أصدقائى قبل أن أفكر فى الرد عليه وكنت أراه قاسيا جدا . وكنت أحقد عليه لأنه حاول أن ينتزع منى كل أمالى ، ولكن بعد قليل هدات نفسى — وتأملت مليا فى المسائل التى بحثها وحللها وحللت بحثه دون تحيز بعيدا عن الميل والهوى متبعا الحقيقة فى خطتى .

وهكذا كان كتاب داركور هو نقطة البدء فى ميدان العمل الفكرى لقاسم فلا شك أنه من أجل إعداد ردود صائبة على الكاتب الفرنسى قد قرأ كثيرا ودرس كثيرا من شئون المجتمع والإسلام والتشريع مما أعانه ليكتب بعد ذلك فصولا اضافية فى المؤيد عام ١٨٩٤ دون أن يوقعها تحت عنوان : (أسباب ونتائج) ثم تحت عنوان (حكم ومواعظ) تناول فيها شئون المجتمع من ناحية المال والتربية والوظيفة والوقت ، وقد تعرض فى هذه

المقالات إلى مختلف أدواء المجتمع وعرض حلولا واضحة وتوجيهات مضيئة . فقد دعا إلى إلغاء الوقف وفرق بين التربية وبين التعليم . ودعا إلى تربية العواطف فى نفوس الأطفال ، ودعا إلى الاتجاه لميدان العمل الحر والانصراف عن ميدان الوظائف . كما عرض لبناء الأسرة المصرية وتعرض لأثر الوراثة فى تنشئة الطفل وبين إقرار الطلاق وتعدد الزوجات.

ولا شك أن هذه الكلمات المتفرقة المبعثرة كانت هى النقاط المختلفة لصورة لم تكتمل بعد فى نفس صاحبها ، دلالة على اتجاه خفى تكشف فيما بعد حين اتجه إلى العمل فى مجال الإصلاح الاجتماعى .

وهى تعطى فى مجموعها صورة رجل ملىء القلب بالإيمان بوطنه والحماس لأمته والرغبة فى الإصلاح والعمل عن طريق القلم .

— ٢ —

غير أن قاسم أمين لم يلبث أن غيّر من رأيه فى المرأة والحجاب الذى أورده فى الرد على دق داركور ١٨٩٣ بالنسبة لما أورده فى كتاب تحرير المرأة ١٨٩٨ فهل تطور فكره فى خلال هذه الفترة كما قال بعض مؤرخيه ، أم أن رأيه الأخير كان ضرورة فرضتها الظروف عليه نتيجة لرأيه الأول وأثره عند بعض البيئات التى عرفها قاسم .

لقد تردد أن الأميرة نازلى فاضل ، وكان الانجليز قد استقدموها إلى مصر بعد الاحتلال حيث توثقت صلتها باللورد كرومر وفتحت ناديها لطائفة من نوابغ الأمة ، فلما ألف الدوق داركور كتابه وملأ صفحاته هجوما على مصر وحمل فيه على نساء مصر تصدى قاسم أمين للرد عليه مبينا فضائل المرأة المصرية ومكانة تقاليدها واستنكر — على حد تعبير « داود بركات » رئيس تحرير — الأهرام — خطـــة بعض السيدات المصريات اللائى يتشبهن بالأوربيات فاتخذها الخصوم فرصة ليوقعوا بين

تلك الطائفة التى يجمعها صالون نازلى فاضل . وأخذوا يكتبون فى إحدى الصحف ضدهم، وذات ليلة والشيخ محمد عبده فى دار الأميرة قال لها أحدهم: إن قاسم أمين الذى يؤيده إخوانه يعنيها هى وحدها بذم المصريات اللاتى يقلدن الإفرنجيات فغضبت الأميرة واضطرم غضبها ، وقالت للشيخ محمد عبده قولا شديدا كان من نتيجته أن وجه قاسم أمين إلى تصحيح خطئه بكتاب ينشره ، حتى لا يفقدوا تعضيد الأميرة ، وهكذا نتجت عن الفصل الكبير النتيجة الكبرى حيث أخرج مؤلفه تحرير المرأة .فإذا أضفنا هذا إلى ما أوردته هدى شعراوى فى خطابها فى ذكرى قاسم أمين حيث قالت : إنه لما كتب قاسم رده على الدكتور داركور مدافعا عن الحجاب ساء ذلك نخبة من رجال ذلك العصر ممن تتلمذن على يد الشيخ جمال الدين الأفغانى. وكان فى مقدمتهم الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وإبراهيم اللقانى محمد المويلحى ، واستهجنوا ظهور تلك الروح الرجعية فيه، وأجمعوا كلمتهم على أن يتباروا فى الرد عليه ولكنهم فضلوا أن يقوم الدكتور فارس نمر بهذه المهمة على صفحات (المقطم) .

فقام ينفذ ذلك الكتاب وأخذ على قاسم دفاعه عن الحجاب واستنكاره اختلاط الجنسين.وحمل عليه فى النقد حملة شعواء ، فلم يرق هذا النقد بعض القضاة من زملاء قاسم أمين ورأوا فيه مساسا بكرامة هيئتهم وفكروا فى الالتجاء إلى الأميرة نازلى لإيقاف هذه الحملة — وكانت أول مصرية تقابل الرجال — وكان الدكتور نمر من المترددين على مجالسها الحائزين لتقديرها ، فطلبوا من الشيخ عبده أن يتوسط لدى الأميره كى تطلب من الدكتور نمر الكف عن حملته على قاسم ، ورفع الشيخ عبده هذا الالتماس إليها فطلبت من الدكتور نمر أن يضع حداً لمهاجمة قاسم . فقال أحد الحاضرين : إنى لأعجب أن تطلب الأميرة ذلك والدكتور نمر فى حملته إنما يذود عن مبدئها الذى ينتقده قاسم فى كتابه ويعلن فيه نفوره من

المرأة السافرة واشمئزازه ، فغضبت الأميرة على الشيخ محمد عبده ولامت عليه طلب إسكات الدكتور نمر الذى يدافع عن مبدئها، فاعتذر الشيخ عبده بالنيابة عن قاسم، فلما هدأت ثورتها طلب منها السماح بمقابلة قاسم ليقدم اعتذاره بنفسه لسموها ، فسمحت ،فصار قاسم يتردد لزيارتها وتعرف قدر المرأة المتعلمة ولمس الفائدة العظيمة التى تعود عليه وعلى المجتمع من اختلاط الرجال بأمثالها من فضليات النساء،ثم بدأ فى تحرير كتابه (تحرير المرأة) غير أنه بذلك قد تعرض للنقد على مناقضة نفسه بنفسه . فلما ظهر كتابه قابله الرأى العام بعاصفة شديدة من السخط والاستنكار وهب عشرات الكتاب يهاجمونه فى كل ناحية .

وقد أشار فارس نمر إلى هذا الحادث فى كلمة (بمجلة الحديث يناير ١٩٣٩) فقال : أصرح بحقيقة لايكاد يعلمها إلا ندرة فى مصر ، هذه الحقيقة إن كتاب قاسم أمين الذى رد فيه على دوق داركور لم يكن فى صف النهضة النسائية،بل كان يتناول الرد على مطاعن المؤلف الفرنسى ويرفع من شأن الحجاب ويعتبره دليلا على كمال المرأة ويندد بالدعايات إلى السفور . وقد رأى فيه البعض تعريضا جارحا بالأميرة نازلى وتشاوروا فيما بينهم فى الرد عليه واتفقوا أخيرا على أن أتولى الكتابة عن المؤلف وعرض فصوله وانتقاد ما جاء فيه خاصاً بالمرأة وبدأت فى كتابة سلسلة مقالات عنه ولكن هذا التقدم لم يرق قضاة محكمة الاستئناف ورأوا فيه مساسا بهم .

ويتصل بهذا أن مصطفى فهمى رئيس الوزراء والمؤيد لسلطان كرومر كتب إلى قاسم أمين يهنئه بشجاعته الأدبية ويمتدح آراءه فى تحرير المرأة» .

* * *

ومن كل هذا تبدو لمناسبة صدور كتاب تحرير المرأة صورة جديدة حاول أن يخفيها كل الذين ترجموا لقاسم أمين وأرخوا له فى مقدمتهم الدكتور هيكل وأحمد خاكى الذى ألف عنه كتابا كاملا .

ويتصل بهذا ما أذيع من أن قاسم أمين كتب كتابه الأول عن « تحرير المرأة » تحت إشراف الشيخ محمد عبده حتى أن فقرات من الكتاب تنم عن أسلوب الشيخ عبده نفسه . وإن قاسم أمين أهدى كتابه الثانى إلى سعد زغلول وكان الثلاثة أبرز رواد صالون نازلى فاضـــل وأقربهم إلى صداقة كرومر .

ويبدو أن قاسم أمين تعجل إرضاء الأميرة فنشر بعض فصول كتابه فى المؤيد فأثار بنشرها ضجة ، كما كتب داود بركات فى الأهرام ثلاث فصول وصفها بعد بقوله: «فكأننى ألقيت حجرا فى مستنقع هادىء فسمعت المطاعن والمثالب فى الصحف والأندية» ومن جملة هذه الآراء يتبين أن حركة التغريب والغزو الثقافى التى يقودها الاستعمار البريطانى كان لها دخل كبير فى توجيه خط الدعوة لتحرير المرأة على النحو الذى ظهرت به، بالرغم من أن رأى قاسم كان غاية فى الاعتدال ومتمشيا مع روح الدين . وأن الأمر لم يكن اندفاعة طبيعية

* * *

عرض قاسم أمين فى كتابه (تحرير المرأة) إلى مسائل أربع : الحجاب والسفور — تعليم المرأة — الطلاق أمام القاضى — منع تعدد الزوجات . وقال :

هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها ، حتى إذا تجردت من كل ما كان يختلط بها من الفكر منى وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى إلى مزاياها ، وتذكرنى بالحاجة إليها ، رأيت أنه لامناص من إبرازها فى مكامن الفكر إلى فضاء الدعوى والذكر .

ولم يكن قاسم أمين فى دعوته رائدا فقدسبقه فى المطالبه بتحرير المرأة رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وعمر لطفى غير أن الدوى الذى أحدثه كتاب قاسم إنما يرجع إلى التوقيت الذى نشر فيه وإلى الظروف التى أحيطت به ، فكان أشبه بقنبلة مثيرة ، وكان نشره مرتبطاً بظروف سياسية معينة ، وقد ذكرت زوجة قاسم : أنه إنما كان ينادى بالسفور الشرعى الذى لا يزيد عن إظهار الوجة واليدين والقدمين ولا يتجاوزه إلى إظهار العورات أو إلى اختلاط المراة بالرجل على النحو الحاصل الآن (عام١٩٣٦) وقالت : واعتقد لو أن قاسما كان حيا الآن لعارض فى هذه الحال، بل لانبرى لمحاربتها ويحزننى أن أرى الكثيرين يحملون قاسما المسئولية عن هذا التطور أو ينسبونه إلى دعوته » والواقع أن قاسم أمين لم يطبق دعوته فى محيطه الخاص فلم يدفع زوجته إلى السفور وقد ظلت تلبس البرقع والحبرة شأنها شأن سيدات ذلك العصر، كما ذكرت فى حديثها، ومما يتصل بهذا ما أوردته جريدة الظاهر فى ١٨ اكتوبر ١٩٠٦ بأن قاسما غير رأيه فى تحرير المراة فى أيامه الأخيرة واعترف أنه كان مخطئا فى توقيت الدعوة قال : لقد كنت أدعو المصريين قبل الآن إلى اقتفاء أثر الترك بل الإفرنج فى تحرير نسائهم وغاليت فى هذا المعنى حتى دعوتهم إلى تمزيق ذلك الحجاب وإلى اشراك النساء فى كل أعمالهم ومآدبهم وولائمهم ، ولكن أدركت الآن خطر هذه الدعوة بما اختبرته من أخلاق الناس ،فلقد تتبعت خطوات النساء فى كثير من أحياء القاهرة والاسكندرية لأعرف درجة احترام الناس لهن ، وماذا يكون شأنهن إذا خرجن حاسرات فرأيت من فساد أخلاق الرجال بكل آسف ما حمدت الله عليه ما خذل من دعوتى واستنفر الناس إلى معارضتى ... أنه قد تصح الدعوة فى الاستانة لتحرير المرأة التركية تمام التحرير مثل نساء الإفرنج . ولكن لاتجوز الدعوة من هذا القبيل فى مصر، فلهذا كله لا أجد الوقت مناسبا للدعوة إلى تحرير المرأة بالمعنى الذى قصدته من قبل . »)

وإذا كان قاسم أمين قد دفع حقيقة إلى حمل لواء هذه الدعوة أو أن ذلك كان

عن محض رأيه وتطور فكره ، فان تحرير المرأة كان إتجاها طبيعياً . غير أن قاسم أمين قد اندفع فى مهاجمة (اللغة العربية) حين أراد اصلاحها . وجرى فى نفس الطريق الذى دعا اليه المبشرون والمستشرقون من أعداء اللغة العربية أمثال وليمور وولكوكس وخفى عليه الهدف البعيد الذى أضمره دعاة التغريب فى القضاء على اللغة كجزء من القضاء على وحدة الأمة العربية ورابطة القرآن والإسلام .

فقد دعا إلى العامية وإلى الكلمة الأجنبية وقاوم تعريب الكلمات الأجنبية ومما قال فى هذا : ما هى غاية الكتاب الذين إذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون أنفسهم فى البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الأجنبية المصطلح عليها ، كاستعمالهم مثلا كلمة السيارة بدلا من كلمة الأتومبيل ، وإذا كان القصد تقريب المعنى إلى الذهن فان الكلمة الأجنبية التى اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة فيها على وجهة أتم من الكلمة العربية ، وإذا كان مقصدهم إثبات أن اللغة العربية لاتحتاج إلى اللغات الأخرى فقد كلفوا أنفسهم مستحيلا ، إذ لم توجد ولن توجد لغة مستقلة من غيرها مكتفية بنفسها . «ومما هاجم اللغة العربية به قوله : بأنها» اللغة التى مرت عليها القرون الطويلة وهى واقفة فى مكانها لاتتقدم خطوة إلى الإمام ، بينما أخذت اللغات الأوربية تتحول وترتقى كلما تقدم أهلها فى الآداب والعلوم . »

كما دعا إلى تسكين أواخر الكلمات بحث لا تتحرك اى عامل من العوامل وقال إنها طريقة جميع اللغات الإفرنكية والتركية أيضا ودعا إلى حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاستقبال .

ولا شك كان فى دعوته هذه مندفعاً إلى بدعة لم يحاول أن يكتشف ماوراءها من غايات خطيرة .

مؤلفاته وآثاره

: أسباب ونتائج — حكم ومواعظ

: تحرير المرأة ١٣١٦ هـ ١٨٩٩

: كلمات قاسم أمين ١٩١٧

: المرأة الجديدة ١٩٠٠م / ١٣١٦ هـ

— ٤٠ —

لطفى جمعه

(١٨٨٦ — ١٩٥٣)

يمثل «لطفى جمعه» صورة نادرة من صور (المصاحفين) الذين ارتبطوا بالصحافة سنوات طويلة يكتبون فيها كل أسبوع مقالات متفرقة فى موضوعات مختلفة، تنتظم الأدب والسياسة الدولية والاجتماع والفلسفة والفن. فقد أنشأت الصحف فى الثلاثينات صفحات أدبية استمرت إلى أوائل الحرب العالمية الثانية، وشملت صحف السياسة وكوكب الشرق والبلاغ والجهاد والوادى والأهرام، وحرر فيها عشرات من المصاحفين الذين لم يكونوا محررين فعلا فى الصحف، وإنما كانوا يعملون من خارجها.

«ولطفى جمعه» محام له شهرة واسعة فى دنيا المرافعات وله جولات سريعة معروفة فى ساحات المحاكم خطيبا، ومدافعا له مدوراته ومناوراته التى كان الكثيرون يحرصون على مشاهدتها وسماعها حيث يمتعون بلون ظريف من القضايا وفن من المرفعات عرف فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى باسم: القضايا السياسية، مثل قضية الخطابات المزورة والقنابل وأخطاب وغيرها. وكان «لطفى جمعه» واحد من أبرع المحامين فى هذا المجال. له فكاهته الرائعة وسخريته اللاذعة واستطراداته المثيره، ومن ذلك قوله فى المرافعة ضد صاحب وابور طحين. إن صاحب وابور الطحين يجب أن يكون رأيه (دقيق)

وغيرها مما عرف عنه.

غير أن لطفى جمعه كان يكتب فى الصحف منذ مطالع شبابه، وقد قرأت له فصولا فى المؤيد واللواء منذ عام ١٩١١، وكان يستكمل دراسة الحقوق فى جامعة ليون، ومنها معركته مع الدكتور منصور فهمى ١٩١٤ حينما هاجم رسالته

للدكتوراه التى كان موضوعها (حالة المرأة فى التقاليد الإسلامية وتطورها).

ثم يبرز من بعد فى فصول متواليه فى مجلة البلاغ الأسبوعى عام ١٩٢٩ ، ثم يستأنف فصوله الأسبوعية فى الصحف والمجلات الأدبية من البلاغ الأسبوعى إلى البلاغ اليومى عام ١٩٣٢ ، ويستمر سنوات متوالية إلى أن ينقل فصوله إلى مجلة الرابطة العربية ١٩٣٧ ثم يتابع كتاباته فى الرسالة والثقافة وفى عديد من الصحف والمجلات إلى قريب من وفاته فى يونيه ١٩٥٣ م .

* * *

وتمثل مجموعة مقالاته التى تربو على الألف — عصارة فكر فيلسوف وعالم ومفكر ، عاصر تطور الفكر الإنسانى خلال أكثر من أربعين عاما لم يتخلف فيها عن القراءة والمراجعة والبحث لكل الإنتاج الفكرى الغربى ، فهو يلاحق الآثار الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية فيعرضها عرضا شائقا ، ويكشف عن رأيه فيها على نحو بالغ الدلالة على إيمان المفكرين فى هذه الفترة ويعرض مختلف نظريات الكتاب العالميين فى الدين والموسيقى والتاريخ والاجتماع والنفس ، والفن ، ويولى الاهتمام بما يكتب عن الشرق والعرب ومصر والإسلام ، ثم يتناول ذكرياته عن العصر منذ مطالع القرن فيصف مجالس جمال الدين الإفغانى ومحمد عبده وذكريات المسرح ورحلاته إلى أوربا ومشاهداته ومحادثاته ومقابلاته للشاعرين اقبال وشوقى وللمؤرخ الإنجليزى بلانت وللقانونى لامبير وكثير من الأعلام فى الشرق والغرب .

وهو لا يتوقف عند كتابة المقال ، فله عشرات المؤلفات . ولا يتوقف عن كتابة المقال الطويل بل يكتب المقال اليومى القصير تحت عنوان «لعل وعسى» وله فى القصة ومجال وتاريخ . — ولعل من أعجب ما عرف عنه فى هذا المجال أنه أول من ألف قصة مصرية عام ١٩٠٥ وذلك قبل أن يؤلف الدكتور هيكل قصته «زينب» التى كتبها عام ١٩١٢ وهى قصة (فى وادى الهموم)

أما قصته القصيرة التى نشرها فى البلاغ ولم تجمع فى كتاب ، فهى قصة (عايده) التى استمر فى نشرها عاما وبضع عام (يناير ٣٣ — يونيه ١٩٣٤) .

وهى ليست قصة بالمعنى المعروف ، ولكنها حلقات تكاد تكون مستقلة ، حيث يمثل كل فصل منها قطاعا فى الحياة مع الاحتفاظ بأبطالها وجوها ، ويمكن القول بأنها من ذلك النوع الفلسفى الذى كتبه برناردشو ، والتى حاول أن يعالج فيها عشرات من القضايا الاجتماعية نائرا خلالها آراءه فى الحياة والمرأة والمجتمع ، وقد صدرها بعبارة تدل على هدفه هى قوله «وقد آثر أن يضع أفكاره وفلسفته فى أساليب حلوة من الرواية وموضوعات سهلة من القصص ،حرصا عليها أن تروح مستغلقة الفهم على أذهان الجمهور، منذ كانت الرواية والقصة أسمى فروع الأدب المتحضر ، وقد أصبح فى الغرب جماع علومه وأدبه وفلسفته » .

* * *

وقد صور (لطفى جمعة) ملامح من حياته وبيئته وعصره ، ورسم صورة لتطلعاته الأولى إلى مجال الفكر والأدب والثقافة ، فأشار إلى أن أحب الدروس إليه كانت اللغات وآدابها والتاريخ «وقد أقبل على دراسة الطبيعيات لأنه كان يظن أنها سترفع له النقاب عن وجه الحقيقة وتحل لعقله ألغاز الكون »كما كشف عن اهتمامه بالصحف فى مطالع شبابه وأنه كان حفيا بتفسير تصرفات زملائه على نحو علمى .

وأشار إلى أخطر حادث فى شبابه وهو تلقى درس النحو على شيخ كنيته (أبو الشدائد) وكان (لطفى جمعه) قد سخر من أستاذه عندما تحدث عن (كان وأخواتها) فضربه بمفتاح الضبة الخشبى على كفيه الصغيرين خمسين ضربة (حتى دميت راحتاه وتخضبتا وورمتا) وكان يخادع الطفل فيضربه حينا ثم يتركه حتى يطمئن فيعود إلى ضربه وروى الطفل الحادث الذى كان سببا فى غرس بذور البغض فى قلبه نحو كل شيخ معمم .

وقد سجل لطفى جمعه أسلوب التعليم الاستعمارى فى المدارس المصرية أوائل القرن فقال :

« أننا تعلمنا فى المدارس الثانوية (وكانت الخديوية التجهيزية بدرب

الجاميز) فى أوائل هذا القرن ، وكان أستادنا فى التاريخ (مستر هيل) يعلمنا باللغة الإنجليزية ، أن اثنين من رجال أوربا أنقذا المدينة الغربية من السقوط على أيدى البرابرة والمتوحشين أولهما « تمستوكليس » اليونانى الذى هزم قورش أو (زاجزير) الفارى فى موقعة سلاميس الشهيرة .

والرجل الثانى هو « شارل مارتل » الذى هزم العرب فى موقعة بواتيه (بلاط الشهداء) الأولى حصلت فى ٤٨٠ ق.م. والثانية ٧٣٢ م أى أن بينهما ألفا ومائتين وإثنى عشر سنة يقول: وقد كتبنا هذا بأنفسنا وبأيدينا باملاء أستاذنا الإنجليزى الذى مثل لنا أمة العرب التى أنجبت مئات الألوف من رجال العلوم والفنون والآداب والذين علموا أوربا وهذبوها فى وحشية وقسوة تعادل وحشية الفرس والوثنيين قبل الميلاد بخمسة قرون ، فصدقنا هذا وآمنا به وتعلمناه وحفظناه وأدينا فيه امتحانات عسرة » .

ويكشف لطفى جمعة من مطمح جيله فى التطلع إلى النهضة والحرية فحاول أن يقارن بين نهضة أوربا ونهضة الشرق ويعلن نبوءة لم تتحقق بعد لأنه لم يأت بعد أوانها وإن كانت الأحداث تؤيدها ، يقول :

« كنت فى المدرسة متحرقا لنهضة الشرق لأنى شعرت بالذل الذى يحيق بنا بوصف كوننا أمه شرقية ، ولم يكن أساتذتنا الأجانب ليخفوا عنا هذا الاحتقار ، ولعله كان جزءا من بروجرام المعارف فى عهد دنلوب الأسود . أذكر أننى حوالى عام ١٩٠٢ أو ١٩٠٣ عندما كنت أقرأ فى إحدى كتب التاريخ الأوربى المقررة لحت فجأة أن نهضة أوربا بعد ظلام القرون الوسطى كانت فى القرن الرابع عشر المسيحى أى بعد ظهور (دين عظيم) وهو الدين المسيحى فى العالم بأربعة عشر قرناً ، وحينئذ أخذت فى الحال أقارن بين تاريخ العالم الغربى والتاريخ الشرقى ، ورأيت أننا فى بداية القرن الرابع عشر الهجرى وحينئذ أيقنت بأننا سوف ننهض ونحيا ولن يتم القرن الهجرى إلا والشرق فى قمة المجد كما كان . . . » .

وقد أشار إلى ذكريات المحاماة وتحدث عن صداقته لأربعة من كبار محامى عهده : عمر لطفى ومحمد فريد وإسماعيل زهدى وأحمد لطفى ، وأشار إلى نصيحة محمد فريد له : نصحنى فريد بك أن أدرس القضية قبل أن أقبلها وأن لا أرفض القضية الخاسرة ، وأقبل الرابحة ، بل أبذل جهدى، فى إرضاء ضميرى ، وقال أن صناعة المحاماة ليست كلها فصاحة ، بل ثلثاها علم القانون وثلثها فصاحة :

وتحدث عن ذكرياته فى (الحى اللاتينى فى القاهرة) وما كان يطلق على (قهوة افندية) فى سيدنا الحسين مقر المتصوفين والمجاذيب وبعض الدجالين وكانت قريبة من الباب الأخضر كما تحدث عن ذكريات حضوره مجالس الشيخ محمد عبده فيقول : « تعرفت إلى الشيخ بغير واسطة فكتبت إليه خطابا ثم زرته وتكررت زيارتى له مرات ، وكان مجلسه يحفل بكبراء مصر وأدبائها وبعض الأجانب كما كان بيته فى عين شمس ملجأ ذوى الحاجات وطلاب مقاصد الشريعة ومما سمعته منه ودونته قوله (لا يوجد فى العصر الحاضر رجل أشقى حظا من الرجل المتميز المتنور فى مصر إذا كان مصرى الجنس لأنه مقصوص الجناح مقلم الأظفار فى سائر النواحى التى يمكن أن يكون بها نافعا) » .

ومن أحاديثه الطريفة ما اتصل بأرباب الحرف ولغتهم وأحاديثهم : يقول « تذهب إلى (الصاغة) لتشترى قرطا أو لتصوغ خاتما فيجلس إليك الصائغ وله حذق فى صناعته فتحادثه وتسأله ويدنو منك شريكه أو سمساره، وبعد قليل يقول له « أشقور » فيتحول عنك الصايغ ويتخذ من محادثتك لهجة أخرى ، والحقيقة أنه قد أصدر حكمه عليك بأنك زبون ردىء ، فكلمة أشقور معناها زبون ردىء ويافت معناها زبون جديد ، وهذه هى اللغة السرية للصاغة وهى ما سماها العرب « الملاحن » فاذا قالوا : فلان يلحن لفلان، فانما يقصدون أنه يخاطبه بلغة لا يعرفها سواه من السامعين . ولكل

طائفة من التجار والصناع قاموس من الملاحن، والمجرمين لهم ألفاظ للدلالة على رجال الشرطة وأنواع السرقة والمسروقات » .

* * *

وهكذا تطوف كتابات لطفى جمعة المنشورة فى الصحف والمجلات بكل الذكريات والطوائف والأبحاث فترسم صور منوعة لعقل باحث قلق لا يمل عن متابعة تطور الفكر ، بالرغم من أعماله فى مجال المحاماة ، ثم هو بعد ذلك معارك ومناضل له مساجلات هاجم فيها طه حسين وزكى مبارك ورشيد رضا، ولعل ومما لا يعرف عنه أنه كان من أوائل كتاب المسرح المصرى وقد ترجم له وألف ، وكانت له صداقة عميقة بالمرحوم أحمد شوقى حتى أن أمير الشعراء كان يقرأ له رواياته المسرحية الشعرية يقول : كانت تربطنى بالمرحوم أحمد شوقى منذ حداثة سنى روابط شتى ، فكان أول من جلا صفحة ذهنى بروائع شعره وشجعنى على المضى فى سبيل الأدب هواية لا احترافا ،وجمع بينى وبين نفر من كبار الرجال فى عصره وعصرى ، وكانت الألفة بيننا محكمة الأواصر حتى ليتواضع ويسألنى فى كثير من شئونه الخاصة والعامة، وكنت من الأفراد المعدودين الذين نعموا بقراءة قصصه المسرحية المنظومة قبل نشرها فى مجلس خاص نحضره والأستاذ عبد الرحمن الجديلى والدكتور سعيد عبده ونجله حسين شوقى ، وقد أطلعنى على خواص كثيرة مما استعان به فى وثبة خياله وتقويم بنائه فى الفترة الأخيرة من عمره ،وذكر لى خواص أصدقائه فى شبابه ورجولته وكهولته . وكان فى مقدمتهم مصطفى كامل باعث روح الحياة القومية فى مصر وعثمان غالب » .

وقد ألف « لطفى جمعة » وترجم عديدا من المؤلفات فى مختلف فروع المعرفة .

« وادى الهموم (قصة) ١٩٠٥ — تحرير مصر ١٩٠٦ (مترجم) محاضرات فى التاريخ والاقتصاد ١٩١١ — الأمير ميكافيلى ١٩١٨ — الحكم المشرقية ١٩١٢ مائدة أفلاطون ١٩٢٠ الشهاب الراصد فى الرد على الشعر

الجاهلى ١٩٢٦ — تاريخ فلاسفة الإسلام ١٩٢٠ — حياة الشرق ١٩٣٢ الأسد الأفريقى ١٩٣٥ — ثورة الإسلام ١٩٤٠ .

ومما يذكر أن لطفى جمعه كان من أوائل من كتب عن النهضة النسائية وله مجموعة مقالات نشرها ١٩٢٥ بإمضاء (الخنساء) .

* * *

وجملة القول فى تراث «لطفى جمعة» أنه يمثل روح « المدرسة الوسطى » ذات الطابع المؤمن بالشرق والعرب والإسلام ومصر ، والموسوم بالمحافظة على مقومات فكرنا على أن نقتبس من الفكر الغربى مايزيد شخصيتنا قوة وفكرنا حياة ، ولذلك فقد كانت حملاته عنيفة على التغريب والشعوبية وعلى كل رأى يحاول أن يخرج هذه الأمة عن قيمها الأساسية .

وكان إلى هذا : حر الرأى ، بارع الأسلوب ، خصب الرأى ، ولاشك إن آثاره المنشورة هذه تحتاج إلى جهود أبنائه لطفى ويحيى فى تنسيقها ونشرها تحقيقا لغاية كبرى هى إعادة بعث آثار كتابنا وتقويمها من جديد ولاشك إن هذه الآثار تمثل دائرة معارف كاملة فى كل فن وعلم .

مؤلفاته وآثاره :

لا نكاد نعرف لمثل لطفى جمعة شبيها فى عديد مقالاته وآثاره المنشورة فى الصحف والمجلات فى الفترة من ١٩٢٣ إلى ١٩٥٠ تقريباً بخلاف مؤلفاته المطبوعة وأهم هذه المصادر

(١) جريدة البلاغ ١٩٣٢ — ١٩٤٠ تقريبا

(٢) مجلة العالم العربى ١٩٤٢ — ١٩٤٦

(٣) مجلة الشئون الاجتماعية والبلاغ الأسبوعى وعديد من المجلات الأخرى ويمكن القول بأن له أكثر من ألف مقال منشور فى الصحف والمجلات لم يجمع .

— ٤١ —

الدكتور محجوب ثابت

(١٨٨٤ — ١٩٤٥)

هذا نموذج لايتكرر من نماذج المجاهدين الذين حملوا لواء الدعوة إلى الوطنية والحرية ووحدة مصر والسودان والوحدة العربية . . وهو واحد من الذين عاشوا حياتهم كلها من أجل أهداف كانت يومها عسيرة تقض مضاجع المستعمر كالدعوة إلى تنظيم الحركة العمالية وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الطبقات الصغيرة ، والتدريب العسكرى لطلبة الجامعة والمدارس . ومن أجل هذه الدعوات احتمل كثيرا من المتاعب والمقالب والمؤامرات. وبقى مصرا على دعوته رغم كل العقبات أكثر من عشرين عاما فى جو مظلم مضطرب يموج بالغموض والقلق والمناورات التى يديرها المستعمر مع المستوزرين والقصر ، وهو إلى ذلك شخصية نادرة فى خلقه وثقافته ، الخطيب البارع والمحدث الفكه ، الماهر والكاتب النابه . له وقفاته التى أزعجت أمثال سيرلى ستاك حاكم السودان، وعبد الخالق ثروت يحيى إبراهيم وهو يصرخ من أجل فصل السودان عن مصر فى مواد دستور سنة ١٩٢٣ ، وله فى كل يوم حديث وضجة ومعركة ومساجلة حتى توفى فى مايو ١٩٤٥ .

* * *

برز محجوب ثابت قبل ثورة ١٩١٩ وكان له فيها دور ضخم ، فقد كان من أصدقاء مصطفى كامل ومحمد فريد منذ ١٨٩٣ وهم طلاب فى المدرسة الخديوية ومعهم صديقهم (على إبراهيم) شيخ الأطباء من بعد .

وكانت له مواقف وطنية مع مصطفى كامل الذى كان يحبه ويستشيره ، وهو الذى قدم له عبد العزيز جاويش ، حينما سأله عن كاتب يحل بدلا منه فى رئاسة تحرير اللواء أثر مرضه .

وقد عاشت مبادىء الحزب الوطنى فى نفسه طوال فترة الحرب حتى تكشفت من بعد عن عمل رائع فى ثورة ١٩١٩ .

غير أنه لم يتوقف عن الجهاد خلال الحرب ، بل عمل رئيساً لبعثة الهلال الأحمر ١٩١٢ ، وشهد اروع معركة عرفتها حرب البلقان ، وهى معركة استرداد (أدرنه) بعد إنسحاب البلغاريين منها ، وكان له فى هذه المعركة أكثر من دور . فهو الذى اتصل بالقائد البلغارى المنسحب يطلب منه باسم الإنسانية أن يبتعد عن التصرفات غير الشريفة بالنسبة للعذارى .

وهو الذى كان يعظ الجنود ويدعوهم إلى التزام أصول الحرب التى رسمها أعلام العرب والإسلام أمثال عمر وخالد وسعد بن أبى وقاص : « لاتجهزوا على جريح ، ولاتتابعوا مهزوما ، ولاتقتلوا طفلا ولا إمرأة » .

وبرز الدكتور محجوب ثابت فى ثورة ١٩١٩ ، ونفض يده من كل شىء ، حتى من عيادته التى كانت تدر عليه الكثير فى سبيل الحركة الوطنية... فما كاد يقام أول اجتماع سياسى فى منزل حمد الباسل ودعى إليه لفيف من أعلام مصر ، وخطب فيه سعد خطبته الرنانة التى طالب فيها بأن تعرف مصر مصيرها ، حتى برز الدكتور محجوب . اندفع فى تيار الوطنية راكباً عربته « الحنطور » يقودها جوادها الشهير الذى ذكره شوقى فى شعره (مسكوبى) فإذا به يخطب فى كل مكان وينزل إلى كل شارع ويحمل على كتفيه أحجار الأفاريز لينقلها من مكان إلى مكان لإقامة المتاريس مغتبطا بذلك .

فى هذه المرحلة طاف الدكتور محجوب عواصم القطر وجمع أكثر من ٨٠ ألف جنيه سلمها لزعماء الثورة . وجعل مصاريف انتقالاته من جيبه الخاص ، وكان قد اقتصد من دخله كطبيب بضع مئات من الجنيهات، سافر بها قبيل الحرب العظمى وصرفها إلى أوربا من أجل الدعاية لمصر فى جنيف والعواصم الأوربية .

وأمضى سبعة أشهر بعد ثورة ١٩١٩ يضمد جراح المصابين ويعالجهم دون مقابل وقد اقترض فى هذه الفترة أكثر من خمسمائة جنيه .

ولم ينس أحدا من الذين سجنوا فى الحركة الوطنية ، فكان دائب السؤال عنهم ، وقد حدث مرة أن ذهب مع طلبة المعهد الجنائى فى دراسة علمية إلى ليمان طره لتطبيق بعض حالات فى علم النفس فى الشذوذ العقلى على المجرمين . هناك إلتقى بالسجين (عبد الفتاح عنايت) أحد المجاهدين الذين أتهموا فى مقتل السردار وحكم عليه وعلى شقيقه بالسجن والإعدام، هناك حدثه عبدالفتاح عن اتجاهه إلى دراسة الحقوق وأنه يستعد للامتحان فلم يلبث الدكتور محجوب بالاتفاق مع الجامعة ومصلحة السجون أن هيأ له فرصة الامتحان وأمده بالكتب التى يحتاج إليها وهو فى السجن وظل يواليه حتى أحرز أجازة الحقوق .

ولعل أبرز مواقف الدكتور محجوب فى الحركة الوطنية هو عمله مع عبد الرحمن فهمى وأمين الرافعى فى سبيل مقاومة لجنة ملنر وكان له دور واضح فى هذا الصدد ، فقد اتصل بالوزراء محذراً أياهم من عاقبة إبداء أرائهم للجنة ملنر ، ودعاهم إلى أن يقولوا أنهم وزراء إدارة ، وأن الجهة السياسيه هى فى باريس حيث يقيم سعدزغلول .

وموقف آخر : أشد قوة وأبعد أثراً ، فقد ذكر اللورد كرزون وزير خارجية بريطانيا عندما اندلعت ثورة ١٩١٩ إن هذه ليست ثورة ، وإنما هى حركة صغار التلاميذ ، وأضاف: لأن الموظفين وهم أرشد عناصر الأمة لم يساهموا فيها ، وكان أبلغ فعل على كرزون أن تضامن الموظفون بتوجيه محجوب ثابت واشرافه حيث أتصل بكبارهم ونظم يوم الاضطراب ومر بهم فى بيوتهم واحداً واحداً فكان اضراب الموظفين أقسى ضربة وجهت لبريطانيا .

وكان « السودان » هو الأغنية الحلوة التى لايكف عن ترديدها ، ومن أجلها كتب ألوف الصفحات وعشرات المقالات فى الدفاع عن وحدة

الوادى ، ولم يكن عمله قاصراً على الكتابة ، بل كان يذهب إلى رؤساء الوزراء يحاججهم فى حماسة وعنف .

وعندما علم أن «نص السودان» قد حذف من دستور ١٩٢٣ أرسل إلى توفيق نسيم رئيس الوزراء خطابا شديد اللهجة : ومما قال فيه . . . أن جريمة اليوم لن يغفرها لك الوطن .

وفى لقاء له مع السير لى ستاك حاكم السودان : حدثه عن وحدة أهالى وادى النيل وقال له فى قوة : محال أن يستطيع مخلوق قطع أوصال النيل ، على الرغم من أنكم ألغيتم الجيش المصرى سنة ١٨٨٣ وأجبرتم مصر على إخلاء السودان سنة ١٨٨٤ .

ومن أجل السودان هاجم كل من تصدى للحديث عن العلاقات مشككا فيها . وقد بدأ هذه المقالات عام ١٩٢٢ فى الأهرام ظل يواصلها حتى سنة ١٩٣٢ ومن ذلك عباراته :

شعب وادى النيل شعب واحد وليس بشعبين : مصر والسودان وحدة لا يقرآن شركة ١٨٩٩[١]، وليس السودان عزبة للمصريين ولا نهبا لشركات القطن البريطانية .

وقوله : « أما المصرى فى السودان فيرسل مع ذرات النيل فى جريانها سلامة إلى اخوانه الذين يرسلون مع النسيم الجارى تحياتهم إلى أهله وذوبة .

وقوله: السودان مصرى ومن مصر .. وحدة لا تقبل التجزئة .السودان ومصر نفس واحدة » .

وكانت عبارته العربية أنيقة بليغة من ذلك قوله « نغمة وضع ألحانها المستعمرون ليخدروا بها هذه النفس الكبيرة التى يؤلف النيل أعصابها وشريانها . وبرق خاب ازكاه شرر المطامع الاستعمارية ليخدع به تلك النفس اليقظة لحقوقها الساهرة على حياتها ، ولكن هيهات أن يسرى

(١) يقصد اتفاقية ١٨٩٩ التى عقدتها بريطانيا سراً من مصر على سبيل الإكراه .

المخدر أو المرقد إلى نفس تذخر شرايينها بدم النيل أو تنخدع عن أن ترى ما يحاك خلف الأكمه من كيد وتضليل . .

ومن أجل وطنيته نفى عام ١٩٢٣ إلى الواحات الخارجية مع طائفة من رجال الحركة الوطنية وكانت السلطة العسكرية قد أغلقت بيت الأمة ، وعمدت إلى تشتيت الزعماء ، وعندما قبض عليه رفض أن يغادر المنزل قبل أن يصلى ركعتين ، وفى ثكنات قصر النيل وجد عددا من الزعماء ، نقل معهم إلى المحاريق حيث أسكنوا خياما تسفى عليها الرمال طول النهار مع لفح الهجير . فاذا جاء الليل قاسى من البرد وهبوب رياح الخماسين . ثم لم يلبث أن ذهب إلى دمشق واعتصم بها فترة . .

* * *

وعمل «محجوب» مع الحركة العمالية حيث كان رئيسا لنقابات الصناعات اليدوية التى كانت نواة لنقابات العمال .

وقد جرت محاولات كثيرة لتحويله عن الهدف الواضح دون جدوى ، وجاء مستر جريفز مدير مكتب العمل فى مصر ووعده بمنصب كبير فرفض أن يذعن له ، وطالب بتشريع للعمال يحميهم من الشركات وأصحاب رءوس الأموال ، ودعا إلى منحهم معاشا إذا تقدم بهم السن (وعفريتة) يلبسونها أثناء العمل ، وتعويضا إذا أصيب العامل بعاهة أثناء العمل ، ومن أجل هذه الآراء حيل بينه وبين دخول البرلمان الأول سنة ١٩٢٤ بعد أن أعلن أنه سيجعل نفسه ممثلا للسودان . ثم أتيح له أن يدخل برلمان سنة ١٩٢٦ ولم يلبث أن تحول رأيه عن الحزبية بعد أن رأى خصوماتها ومؤامراتها ، وقال : (ان رؤساء الأحزاب قد أضلوا فريقا من أبناء الأمة وضللوا فريقا آخر ، وهم قد سكتوا على التدخل الأجنبى فى شئوننا الداخلية البحتة ، لأن كلا منهم كان يخشى إذا هو احتج على التدخل أن تفلت منه أمانى الحكم فى المستقبل ، وقال : ولكنى لست من اليائسين ، فسأغذى طلاب الجامعة بالدروس الوطنية ولابد من أن تستعيد هذه الأمة يقظتها فى يوم آت قريب .

وهكذا اتيح للدكتور محجوب أن يعمل طبيبا بالجامعة وأن يحاول تحقيق أحلامه فى إدخال التدريب العسكرى ، وقد كان اغلب أساتذة الجامعة من ذوى الكراسى من تلاميذه ، فضلا عن الوزراء كما كان أستاذا للطب الجنائى فى بعض الكليات وأتيح له أن يمثل مصر فى عدد من المؤتمرات منها: المؤتمر الدولى للطلبة ١٩٣٧ فى ألمانيا ومؤتمر الرياضة الطبية وكان فى هذه المؤتمرات مثلا عاليا للعالم ، يحاور الأساتذة الأجانب فى مختلف الفنون ولا تقتصر معلوماته على الطب ، وإنما هو مثقف هاضم لكل جديد فى كل فن ، وقد ترك مكتبة حافلة كانت تحوى ١٨ ألف مجلد غير ما استعاره منه اصدقاؤه ولم يردوه . .

* * *

وهكذا عاش الدكتور محجوب ثابت حياة عريضة ، مليئة بالعمل ، وكان مستقبليا حالما يسبق جيله ويدعو إلى التجنيد الاجبارى ودفع ضريبة الدم وإلغاء نظام البدل ، وبناء القرية النموذجية ، وتحقيق مطالب العمال فى الأجازات والمعاشات .

وكان إلى ذلك إنسانا فكها مرحا بشوشا حلو البادرة ، له لحية جميلة تلقفتها الصحف سنوات وسنوات بالكاريكاتير والسخرية . .

ظل اسمه حديث المجالس ، حيث تروى عنه مداعبات الأصدقاء ومقالبهم التى كان يتلقاها باسما ساخرا ، وأحيانا يضيق بها فينزوى فى عيادته حتى يعود أصدقاؤه فيخرجونه منها ، يسمر دائما مع شوقى فى « صولت » ومع داود بركات فى « بار اللواء » ، يدخن الشيشة فى إسراف ويجلس لها جلسات خاصة ، كما كان لاعبا ماهرا للنرد .

يتكلم الانجليزية والفرنسية والألمانية بطلاقة ويقرأ عنها ويخطب بها ، وهو المحدث الخطيب ، خفيف الروح ، كل ذلك فى آن .

وكان طبيبا بارعا تدر عليه عيادته فى الليلة مايزيد عن خمسين جنيها ،

وكان إذا سهر دقت التليفونات دراكا تدعوه مرة ومرة من مختلف أنحاء العاصمة لعيادة مرضاه فى منازلهم ، يقول داود بركات أنه كان يعود إلينا أثناء السهرة وجيوبه منتفخة بالنقود ، فقد كان زبائنه من الأغنياء وكان كل هذا المال الذى يجمعه ينفقه بسهولة وبساطة على فقراء المرضى والعمال فلما بلغ السن وأحيل إلى المعاش كان يوزع معاشه على المحتاجين المتصلين به، وقد عاش دون ان يتزوج ، وكان يسأل فى ذلك فيقول : أن للزواج تقاليد يضيق بها قلب الرجل الحر الذى تعود أن يسير فى حياته كما يشاء .

وقد اشتهر بالمداعبات مع شوقى الذى نظم فيه الشعر أكثر من مرة وركبه بالسخرية ،فقال أنه زاره مرة فى العيادة فهاجمته كتيبة من (البراغيث) أدمت جسمه وامتصت دمه فرد عليه محجوب بأن هـذه البراغيث إنما حملها فى سيارته ونقلها فى طيات ملابسه وألقى بها فى العيادة . . . وفى ذلك يقول شوقى :

براغيث محجوب لم أنسها ولم أنس ماشربت من دمى
تشق خراطيمها جوربى وتنفذ فى اللحم والأعظم

وكانت سخرية شوقى الأخرى بعربته التى يجرها الحصان الذى اطلق عليه الشيخ عبد العزيز البشرى لقب (مسكوينى) تشبها بمستر (مسكوينى) الايرلندى محافظ كورك الذى أضرب عن الطعام شهرين احتجاجا على السلطات البريطانية .

وقد كانت عربة محجوب مشهورة ، لعبت دورا فى ثورة ١٩١٩ ، ولطالما خرج بها إلى شوارع القاهرة تحت وابل من رصاص البنادق والرشاشات الانجليزية يخطب ويجمع المـــال للثورة فإذا جن عليه الليل عرج على محل صوات الحلوانى لتمضية السهرة . . فكان الحصان يقضى ليلته رهن انتهاء السهرة بغير طعام فى انتظار الأوبه إلى الاسطبل .

ولقد وصفه شوقى فى قصيده منها قوله :

فلا والله ما كلفت مجحوبا ولا باره
فلا البرسيم يدربة ولا يعرف نواره
ولا تروى على صولت إذا نادمت سماره
أدنيا الخيل يامكسى كدنيا الناس غداره

وقد قيل فى هذه المداعيات أن الدكتور محجوب كان يدخل بعربته هذه التى يجرها الحصان مكسوبى الأزقة ، فيصفق بيديه لينبه الناس إلى خطوات الحصان .

كما داعب (حافظ إبراهيم) الدكتور محجوب وأشار إلى (قافاته) التى كان مشهورا بترديدها فى أحاديثه فقال :

رغى ويزبد بالقافات تحسبها ... قصف المدفع فى أفق البساتين
من كل قاف كان الله صورها ... من مارج النار تصوير الشياطين
لايأمن السامع المسكين وثبته ... من كردفان إلى أعلى فلسطين
بينا تراه ينادى الناس فى حلب ... إذا به يتحدى القوم فى الصين
ولم يكن ذاك عن طيش ولا خبل ... لكنها عبقريات الأساطين

٭ ٭ ٭

ولعل معركة أخرى من معارك الدكتور محجوب جديرة بالذكر ، تلك هى معركته مع أساطين اللغة كاحمد زكى باشا شيخ العروبة ومحمد مسعود ، وقد كان يقول إذا تحدث عن اللغة « فأنا من فرسانها» . وقد سأل مرة عن الجراثيم اللولبية ذات (الشراشير) وطلب اليه أن يقدم تعبيرا عربيا عنها فاطرق لحظةوعبث بلحيته وقال : نعم أنها تماما (كهداب الدمقس المفتل) وقد عرف إلى ذلك بسعة معلوماته التاريخية ولعل اهتمامه بوحدة وادى النيل وحديثة الفياض الذى شغل به الصحف عن السودان يرجع إلى أنه

ولد فى (دنقلة) وأن والده (أحمد ثابت) كان رئيس أركان حرب الجيش المصرى بالسودان مع عبد القادر حلمى .

ولعل أجمل ما يكشف عن شخصية محجوب ثابت كلمات له أراد أن يرثى بها نفسة قبل وفاته بقليل :

إن لى فى الحياة ذكريات لن يقوى التاريخ على تجاهلها، أننى ابن رجل كان رئيسا لأركان حرب عبد القادر حلمى باشا حاكم السودان . وأننى ولدت فى دنقلا يوم حاصر المهدى الخرطوم وأنى ابن سيدة خالها الأكبر السيد البدوى .

أريد أن يذكر التاريخ حرب البلقان ولا يسقط من حسابها هذا الشاب بلحيته السوداء برأس البعثة الرابعة لنقل جرحى الأتراك الذين كانوا فى الأسر ويخف إلى نجدة نساء المهاجرين ولا يطلب جزاء .

أريد أيها التاريخ لو انصفت لذكرى هذه الجنيهات الخمسمائة التى جمعها الطبيب الصغير بكده وعرق جبينه وصرفها فى أوربا لمعاونه المواطنين فى رسالتهم سنة ١٩١٠ ولرحمت لياليه الساهرة فى اعداد البحوث الاقتصادية والصحية فى مصر وحملته المتصلة على مياه الشرب فى القاهرة .

واذكر أيها التاريخ تلك العربة وذلك الجواد (مسكوينى) وما أدياه فى الحركة الوطنية من نصرة المريض أو الجريح أو القتيل ، فقد تندر الجيل بهما وتفكه بحوادثهما وهما عنوان البطولة وأولى بالذكر من كثيرين من الأبطال المغاوير .

واذكر أيها التاريخ سياحاتى الدراسية عن شئون العمال فى النمسا والمجر ، وخدماتى للطلبة فى الجامعة ومحاضراتى فى المعهد الجنائى وطلبة الهندسةوسهمى فى حياة اتحاد الجامعةونصيبى فى خلق التدريب العسكرى .

هل ستعز صفحاتك البيضاء عن سطر أو سطور لرجل عبر الدنيا ولم

يطو نفسه على غرض خاص . وصفحاتك ملأى بكل ذى غرض مريض أو برى ء

أيه أيها التاريخ : أخاف أن تكون كواطئ الأعزاء .

* * *

وبعد فقد كان الدكتور محجوب ثابت شخصية فذة لا تتكرر ، حاول أن يعمل شيئا من أجل وطنه فى جوملبد بالغيوم لم يمكنه من أداء رسالته ، نذكره لأننا اليوم نرد الفضل إلى أهله ، هؤلاء الأبرار الذين لم ينصفهم جيلهم .

مراجع :
الكتاب التاريخى عن حياة الدكتور محجوب ثابت
كتاب الأسرار السياسية وآراء الدكتور محجوب
فصول مختلفه فى المصرى ١٩٤٥ الإثنين ١٩٤٥ آخر ساعه العدد ٣٩٩ المقطم ١٩٤٥

- ٤٢ -

محمد رضا الشبيبى

(١٩٦٦)

هذا النابغة العملاق الذى كانت له على اللغة العربية وتاريخ الإسلام آثار فضل لا تنسى ، وستبقى كالمنار تهدى كل باحث ، ولقد عرفت العلامة الشبيبى منذ مطالع الشباب وقرأت له شعرا كثيرا ، وكانت صورته البارزة فى صحف مصر أنه شاعر وأنه وزير معارف العراق ثمة، غير أن الشبيبى لم يلبس أن اقترب من القاهرة واقتربت القاهرة من العالم العربى كله ، فإذا الشبيبى ليس شاعرا فحسب ،ولكنه علامة نابغة باقعة فى مجال البحث اللغوى والتحقيق الكامل التاريخى ، فإذا هو موصول بالمجمع العلمى العربى فى فى دمشق أول إنشائه وقد ورد اسمه ١٩٢٢ فى سجلاته وبدأت أبحاثه تظهر فى إعداد هذه المجلة الرصينة التى أكملت بالأمس المجلد الأربعين ، وإذا به مساهم ومشارك فى مجمع اللغة العربية فى القاهرة منذ عام ١٩٤٨ وإذا هو فى نفس العام أو قبله بقليل (١٩٤٧) يساهم فى إنشاء المجمع العلمى العراقى ويرأس أولى جلساته وإذا هو يزور القاهرة كثيرا فنلتقى به ، ونسعد بهذه الطلعة الباهرة ، والعلم العريق ، ولقد ذكرته طويلا فى دراساتى من خلال موسوعة معالم الأدب العربى المعاصر ، فى دراسة أدب العراق من كتابى « معركة المقاومة والتجمع فى الأدب العربى الحديث » وفى دراستى « الشعر العربى المعاصر » ولطالما لقيناه على مرأى الأعوام فى مؤتمر اللغة العربية وآخر لقاء كان فى أوائل هذا العام فى حفل الباقورى لأعضاء مؤتمر اللغة العربية فى سميراميس وكان يتصدر المائدة الرئيسية مهيبا رائعا .

* * *

والعلامة الشبيبى ثمرة تلك الجامعة الخالدة الضخمة ، « جامعة النجف

الأشراف، التي توازي الأزهر والقرويين والزيتونة جلال قدر ومكانة وفضل، على هذا النحو الذي يصوره الشيخ ضياء الدين الدجيلي : «يزدحم في جوامع النجف الأشراف ألوف المهاجرين لانتجاع الثقافة الإسلامية وقد امتطوا ظهور الأسفار من كل حذف وصوب في شتى الأقطار العربية ففيها العشرات من سوريا وجبل عامل وغيره والألوف في مختلف أنحاء إيران وفيها من سمرقند وبخارى وغيرها من تركستان وفيها من أذربيجان ، وفيها الكثير من الهند والأفغان وهضبة التبت ، هذا عدا من يرتادها من أطراف الحجاز ، لذلك قد شيدت في النجف الأشراف المدارس ذات الغرف المعدة لإيواء الغرباء ، حيث يكفل المجتهدون «وهم أئمة الشيعة» ضمان معاشهم .

ولقد كان حب الشخصية الإسلامية القوية الدفينة هنا هو الذي جذب العلماء إلى مجاورة المرقد الطاهر ليشيدوا قواعد هذه المدرسة ويكونوا الحلقات لرفع منار الثقافة الإسلامية .

ويتصل بهذا ، ذاك اللون الرفيع الحزين من الأدب الذي أطلق عليه «أدب الطف» : ذلك الأدب الذي يصور مأساة مقتل الامام الحسين التي كانت بعيدة الأثر في الأدب العربي الحديث وقد كان أدب الطف عاملا من عوامل نمو الشعر العربي في العراق ، كما أن الفوارق ولا أقول الخلافات — بين الشيعة والسنة — قد عادت بالنفع على الأدب والبيان في العراق .

يقول عبد الكريم الدجيلي : أن الشعر الذي رثى به الحسين بن علي ابن أبي طالب يكشف صفحة مندثرة من الأدب العربي ومنجما مليئا بغزر الشعر وأطايبه ، وأن أغلب دواوين الشعراء العراقيين المطبوعة تحفل برثاء الحسين ، وأن أدب الطف «شعر رثاء الحسين» يعد عاملا من عوامل نمو الشعر في العراق .

في ظل هذه المدرسة الإسلامية الفكرية التي لا تنفصل عن مدارس الفكر الإسلامي نشأ عشرات من الأعلام من أبرزهم (محمد رضا الشبيبي)

الذى يصور الأدب العلوى أو الحسينى بأنه « ليس هو أدب دموع الآم فقط ؛ كما يتبادر إلى الذهن ، بل هو فى جوهره أدب قوة وحماسه وأشاد بالبطولة ودعا إلى النضال ومجد الدفاع عن النفس والعقيده فى قصص ، ملاحم وقصائد تتخللها ذكر عادات العرب ومنازلهم فى بلادهم وأوصاف الحروب والسلاح وهى قصص وقصائد لا تكاد تحصى عدا» .

ويصور الشبيبى الحياة الأدبية فى العراق فيروى الرابطة الوثيقة بين الحركة الأدبية العصرية وبين النهضة السياسية العامة التى بدأت بإعلان الدستور فى بلاد الدولة العثمانية (١٩٠٨) إذ لا ينكر لهذا الإنقلاب السياسى من أثر ذلك التجديد الأدبى ، فهو إذن أولى المراحل التى قطعتها هذه الحركة ، فقد قوبل إعلان النظام الدستورى الجديد بالتهليل والتكبير فى العراق وغمرت الجمهور موجة من السرور ، لأنه دستور كفل فيما كفل لنا من الحقوق العامة وحرية الرأى وحريه القول والنشر ، فكان العراقيون من أكثر الأقوام غبطة بهذا الدستور الجديد ، وهكذا دخلت البلاد إجمالا فى دور من أدوار اليقظة الفكرية وإن انكشفت لها بعد ذلك فشل الأخذ بهذا النظام فى مرحلة التطبيق » ويشير إلى أن العراق شهدت قبل ذلك خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حركة أدبية ففيهما تكونت طبقات لا طبقة واحدة من أدباء العراق وشعرائه الفحول

ويمكن القول بأن هذه المرحلة هى مطالع حياة الشبيبى المولود عام ١٨٨٧ فهو عام ١٩٠٨ ، فوق العشرين تراه متطلعا بذكائه إلى البحث والدرس ، ومنذ ذلك اليوم وهو اسم بارز من أسماء المفكرين والباحثين والشعراء فى العراق إلى جوار الكاظمى والزهاوى والرصافى وإن كان هؤلاء أسبق فى الوجود وقد شهد تطور الحياة السياسية والفكرية فى العراق وشارك فيها وولى وزارة المعارف فى العراق بعد الاستقلال فترات متوالية ، ثم ما لبث أن انصرف إلى مجال البحث العلمى الصرف فعنى بإحياء المخطوطات النادرة ، وأتاحت له فرصة زياراته للعالم العربى القدره على التبريز فى هذا

المجال والكشف عن مخطوطات نادرة ، كانت بعيدة الأثر فى تجليه جوانب غامضة ، وأبرز هذه الأعمال (تاريخ بن الفوطى) مؤرخ العراق من مستهل العصر العباسى إلى أواخر العصر المغولى ، وقد حدثنى عنه رحمه الله فقال : إن هذه الفترة من تاريخ العراق كانت غامضة ولم يكن هناك من دراسات مفصلة فيها حتى أتيح له أن يهتدى إلى هذا الخطوط ، وأغلب الظن أن عثر عليه خلال زياراته للمغرب ، فكان نشره فتحا مبينا ، وكشفا لهذا الحانب من تاريخ العراق وقد أخرج جزئه الأول عام ١٩٥٠ والثانى عام ١٩٥٩ ، ومن أبحاثه البارعة الضخمة بحثه فى « أصول اللهجة العراقية » ودراساته عن (ادب المغاربه والأندلسيين) الذى ألقاء على طلبة معهد الدراسات العربية فى القاهرة .

وللشبيبى عشرات من الأبحاث ، لعل من أبرزها بحثه عن (أقدم مخطوط وصل إلينا عن بلاد العرب) وهو كتاب « التعريف بجزيرة العرب لأبى على الحسن المعروف بلغده » وقد سجل مشاعره إزاء هذا العمل فى مجال التحقيق التاريخى فقال « من أشرف اللذات وأبهج أدوار الحياة عندى مامضى فى الإهتمام بأثار السلف والاشتغال بحفظها من التلف وقد حصلت أثناء عامنا المنقطع داخل ذلك البيت الصغير الذى استودعوه بقايا آثار الخزانة الشريفة العلوية بعد ماتفرقت وتطرقت اليها الحوادث بما تطرقت حتى أنها لتتألف الآن من أوراق منثورة » وهو فى هذا يشير إلى مشاهداته فى مخطوطات المغرب التى استطاع أن يحصل منها على كثير من النوادر .

وإذا كان للشبيبى عشرات من الأبحاث عن المخطوطات وعشرات من الدراسات فى مجال التاريخ واللغة فانه على طبعه مقل متئد ، يعمل فى صمت ويشارك فى المجامع العلمية الثلاث فى القاهرة ودمشق وبغداد ، وفى كل مجال يقدم دراساته وأبحاثه ، على هذا النحو من إكبار العلماء للبحث وجلالهم للتراث وهو فى هذا المجال واحد من مدرسة ضخمة من أعلامها

أحمد زكى باشا شيخ العروبة وأحمد تيمور وانستاس الكرملى ورضا الشبيبى واليسوعيين وفى عصرنا الحديث الدكتور مصطفى جواد وإبراهيم الإبيارى وعبد السلام هارون وأبو الفضل إبراهيم وعبد الرحمن بدوى وعبد الله كنون وعشرات من الباحثين فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى .

* * *

وإذا كان الشبيبى قد عرف فى مجال الشعر والتحقيق اللغوى والتاريخى فانه كان من دعاة الوحدة العربية الفكرية كأساس للوحدة الشاملة : يقول « للشعوب العربية فى هذه المرحلة من مراحل يقظتها مطالب ، ومن أحوج ماتحتاج إليه هذه الشعوب ائتلاف فى الأرواح وتقارب فى المشارب والأزواق وتجاوب بين العواطف والأفكار » ويرى أن هذا الهدف لا يتحقق ولا يتيسر إلا « إذا جمعتنا من لغة العرب جامعة أدبية كبرى ، وألا إذا اعتصمنا من هذه الفصحى بحصن حصين وآوينا إلى ركن ركين ، وجدير بهذا الأدب العربى الحديث أن يرى عاملا فعالا من عوامل الإنشاء والبناء ، وخليق به أن يتغلب على غيره من العوامل المفرقة الهدامة » .

ومن هنا تبدو صورة الشبيبى علما من أعلام الوطنية والشعر واللغة والتاريخ وقد ذكر العالم العربى فى شعره منذ مطالع شبابه :

ماذا بنا وبذى الديار يراد فقدت دمشق وقبلها بغداد
بردى وأودية الفرات ودجلة والنيل غص بمائها الوراد

* * *

ولست متعرضا هنا للشبيبى الشاعر ، فقد تحدثت عنه فى كتابى عن الشعر العربى المعاصر وسبقنى فى الحديث عنه كثيرون ، وقد صدر ديوان الشبيبى عام ١٩٤٠ وفى مقدمته إنه مجموعة شعرية فى أمد ثلاثين عاما وقد نظم فى الحماسة والشعر الوطنى والحكميات والإجتماعيات والأخلاقيات والإلهيات والوجدانيات والوصفيات والرثاء .

وعندى أن الشعر الذى اشتهر به لم يكن أكبر همه ، وإن شأنه فى دلك شأن الكثيرين ، صيحات عالية فى مطالب الشباب ، ثم تتبين بعد ذلك منافذ الطريق وشعابه إلى مجالات العمل الذى لم يتوقف فى حياة هذاالعلامة بالرغم من مشاركته فى السياسة والثورة العراقية عام ١٩٢٠ وتولية عديد من المناصب الدينية والسياسية ، ومجلس النواب والأعيان وقد ولى منصب الوزارة خمس مرات ، ولكنه لم يلبث أن آثر ميدان التحقيق العلمى وعاش له .

ومحمد رضا الشبيبى واحد من أبرز أعلام هذه الأسرة التى قدمت للعالم العربى عشرات من الأعلام منها جواد الشبيبى وهى تحتل فى قواميس التراجم حيزاً كبيرا .

* * *

وقد صور العلامة رضا الشبيبى مطالع حياته فقال ولدت فى النجف الأشراف عام ١٩٠٦ ودرست فيها العلوم العربية على الطريقة المألوفة فى كتبها المعروفة ، على هذا النحو تلقيت ماتلقيته من المسائل العقلية والشرعية ، وقد ادركت أوان الطلب والتحصيل ما فى تلك الطريقة من التقليد والجمود ، فملت إلى الدرس الحر والتفكير المجرد من تأثير المعلم والمربى وأخذت نفسى بما كانت تميل إليه من درس الفلسفة ومذاهب أهلها وجاريت فطرتى فى التمرس بالفنون والآداب ودروس البلاغة خاصة ، وقد مر على أطوار كثيرة وعانيت شدائد خطيرة أثناء تقلبى فى مجاهل الأفكار وتأملى فى بدائع الآثار :

لايعرف الشوق الأمن يكابده ولا الصبابة الإمن يعانيها

ولى عدة مؤلفات لم يخرج أكثرها إلى المبيضة (هذا عام ١٩٢٨) وإنا أرى من دواعى الغبطة عدم انتشار شىء منها بالطبع : إلى الآن ، بعد أن تحققت أن أكثر ما يتعجله وينشره هذا الإنسان الجاهل المغرور إنما هو من جنس التزيد والفضول ، ولى عدا ذلك شعر قليل ومقالات

نشرت فى المجلات والصحف السيارة، وأنا اعتقد الآن أن لهذه الحياة معنى لم يتذوقه أهل هذه الأجيال الجاحدة، نعم أن الساميين وعمار الصحراء من الآدميين ولاسيما العرب هم الذين اكتشفوا ذلك السر المحجوب، وهم الذين نظروا إلى الحياة من الوجهة التى يجب أن ينظر إليها الناس فى كل زمان ومكان، أما فيما يعود إلى أسعاف الشرقيين والعرب والمسلمين وإنقاذهم مماهم فيه من الجهد والبلاء فأرى أن ذلك يتوقف على الرجوع إلى سيرة السلف الصالح فى عامة الشؤون الدينية والدنيوية بدلا من تقليد الإفرنج، أن لهذه الأمة أولوها آخر ولايصلح آخرها إلا بما صلح به أولها.

* * *

ومن هذه العبارات التى كتبها الشبيبى قبل أربعين عاما نستطيع أن نرسم فكر هذا العلامة ومفاهيمه المتمثلة فى هذه الأناة الواضحة فى دراساته وتطلعاته الفكرية وما يصحبها من تعمق ونظرة هادئه بحسبانها أقدر على بلوغ الحقيقة وهى طابع العلماء فعلا.

فإذا أضفنا إلى هذه الكلمات حديث عن تجربة الحياة نستطيع أن نرى ملامح شخصية «الإنسان» من أعماق شخصية «الباحث المفكر» يقول: (علمتنى الحياة أنها تريد أن ترى كلامنا مقداما مخاطرا بالنفس والنفيس، لايتردد فى اقتحام الأهوال كلما اقتضى ذلك، كما علمتنى أمى: أن من يهجم على المخاوف يغنم الأمل، وعلمتنى أيضاً أن البصيرة النافذة والحذر والاحتياط من أمنع المعاقل والحصون فى معتركها، وقد قدر لى أن أنال بعض أوطار النفس ومطالبها، نلتها بالترفع عنها والزهد لا بالأسفاف اليها أو التهالك عليها ...»

أما الشاعر عنده فهو من إذا كانت له جولة فى وجه من وجوه الإصلاح أو ناحية من نواحى الخير، فاذا ومضت فى فنه شعلة تثير العزائم الخامدة أو سرت نغمة نحو الرمم الباكية فقد أدى الرسالة وهى هدفه الأقصى.

* * *

وإذا كان لنا أن نتحدث عن الشبيبى فى مجال البحث العلمى قلنا إنه أينما ذهب إلى دمشق أو القاهرة ، يعكف على البحث الذى لا يشغله عنه شاغل ، وقد استطاع أن يخرج عديدا من المخطوطات النادرة كاحصاء العلوم للفارابى والأفادات والإنشادات للشاطبى وتسمية أبطال العرب وقائليها فى الإسلام وهو كتاب مختصر عن تذكرة الوزير ابن حمدون ، واشترك فى مباحث أخرى غير مباحث اللغة والأدب والتاريخ، ومن مباحثه تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها ، وكتاب فى فن المناظرة وكتاب عن فلسفة اليهود فى الإسلام .

ولا أنهى هذه الكلمة قبل أن أشير إلى قصيدته المشهورة (لامية العرب الكبرى) التى كان لها دوى وأثر كبير حين نشرها وأذاعها عام ١٩٢٤ والتى يستهلها على هذا النحو :

يساءلنى من لودرى لم يسائل
أنا الآن فى شغل عن المشاغل
ويطلب منى أن أقول ولم أشأ
لو شئت لم أترك مقـــالا لقائل

وهى قصيدة طويلة تناولت كثيرا من فنون ، وإذا كان لى كلمة اليوم فهى دعوة إلى جمع آثار الشبيبى المنثورة فى الصحف والمجلات والمكتوبة خلال خمسين عاما وتستطيع المجامع الثلاث أن تشارك فى هذا العمل تحية للعلامة الكبير الذى عاش للفكر العربى الإسلامى مجاهدا عاملا .

مراجعه :
مجلة المجمع العلمى العربى العراقى: رحلة الشبيبى إلى المغرب سنة ١٩٥٦
أبحاثه فى مجمع اللغة العربية فى مصر
أدب المشارقة والمغاربة (معهد الدراسات العربيه) ١٩٦١
مؤرخ العراق ابن الفوطى ١٩٥٠

— ٤٣ —

محمد الخضرى

(١٨٧٢ — ١٩٢٧)

نموذج من نماذج العلم والخلق ، من ذلك الرعيل الذى ظهر فى ظل اليقظة الوطنية التى لمعت بوادرها بعد الاحتلال البريطانى وتمثلت فى حركة الشيخ محمد عبده وأصحابه للإصلاح الدينى والاجتماعى والثقافى . ومن أولئك الذين ترددوا بين الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء والجامعة المصرية القديمة ، ومن أترابه عبد العزيز جاويش ، وأحمد الاسكندرى ، وعبد الوهاب النجار .

والخضرى واحد من أولئك الذين ارتادوا أبحاث الأدب والتاريخ والفقه وأقاموا على طريقها علامات ما تزال تهدى الباحثين .

وللخضرى ثلاث أعمال كبرى : تهذيب الأغانى

: تاريخ التشريع الإسلامى

: تاريخ الأمم الإسلامية

أما فى تهذيب الأغانى فقد استصفى هذا الكتاب من حشوه واضطرابه وعرضه عرضاً جديداً به علاج أوجه نقصه ، يقول : إن فى الأغانى نقص فى الأداء على ثلاثة أوجه :

١ — عدم الضبط لغريبه ،

٢ — عدم تفسيره .

٣ — تحريف فى مرويه ؛ «فقد منى هذا الكتاب بتحريف كثير حتى لا تكاد صفحة من صفحاته تخلو منه ، وأكثر ما يكون ذلك فى شعر الطبقة الأولى من عرب الجاهلية فأزلت هذا النقص بضبط الغريب وتفسير ما رأيته فى حاجة إلى التفسير ، وتصحيح المحرف بعد الرجوع إلى الأصول

وقد كان أشق عمل عرض لى فى تهذيب الأغانى وأكبر دعامة اعتمدت عليها بعد تلك الأصول وشروحها ، كتاب لسان العرب وأساس البلاغة ، وليعلم أنى لم أصلح إلا ماهو خطأ ، وأما عند اختلاف الروايات فإنى أبقيت رواية أبى الفرج .

٤ — إن أبا الفرج كان بيئة سمحت له أن يضمن كتابه كثيراً من فاحش الحكايات التى تنفيها بيئتنا ولا تسمح بذكرها فضلا عن أن تسطر فى كتاب فرأيت أن أحذف ما كان من هذا الطراز » .

وقد كلفه تهذيب الأغانى جهداً كبيرا فقد عمل فيه أكثر من خمسة عشر عاما «شرعت فى تهذيب هذا الكتاب منذ سنة ١٩٠٩ ولا يستطيلن القارىء هذه المسافة بين البدء والختام ، فقد اعترضتنى عقبات شاملة لم يذللها إلا طول الصبر والأداة » .

وقد واجه الكتاب معارضة من بعض دعاة نشر النصوص كاملة دون حذف ، وهى وجهة نظر وليست قانونا ملزما ، قد واجه الخضرى هذا الرأى فى أناة وحكمة فقال : أنه حذف الفحش ، أما النسيب والغزل فلم أو أن أحرم القارىء لذة سماعهما والتأدب بما اقتدى به العرب فيهما . أما الفحش فهو منكر من القولى وزور تمجه الأسماع وتأباه الأنفس السليمة .

* * *

وبعد ، فلماذا اجهد الخضرى نفسه فى إعداد كتاب الأغانى وتهذيبه خلال خمسة عشر عاما كاملة . ولقد وجه إليه النقد فى ذلك فأجاب :

نظرت فرأيت هذه الثروة قد ألم بها ما كاد يضيع الانتفاع منها . ذخائر مبددة الشمل ، وفرائدها قد وهى سلكها ، وتبرها قد أخفاه غبار التحريف . شعرت بهذا فكان من الواجب أن يتقدم من قومنا من يقوم بتنظيم هذه

الثروة حتى يمكنهم أن يستفيدوا منها ، فماذا صنعت ؟ ألفيت الأدب العربى مبدد الشمل فرتبته ، ووضعت كل درة بجانب أختها ، ووجدت تحريفاً كثيراً يضل الشادى ويتعب العالم ، فبذلت من الجهد ما الله به عليم فى إصلاح ذلك الفساد . وجدت نقصاً فى فاخر الشعر وجيد فأتممت ذلك النقص . وجدت نقصاً فى ضبط الغريب وتفسيره ، فاحتملت عبء ذلك كله ، وأزلت عناء كان يشعر به أمثالى من قراء الأغانى . أما ما أنقصته منه فلم يعد إحدى اثنتين : أما فحش صد عن الأغانى وجوه كثيرة من أهل الأدب ، كانوا يشكون ذلك منه وأ كثر كتب الأدب العربى ، وإنى معهم فى ذلك ، وكثيراً إذا روى شعراً يقول « تركنا بيتا أو بيتين وأ كثر أقذع فيها » فليس الامتعاض من الفحش والأقذاع مقصوراً على أهل جيلنا بل كان لنا فيه سلف صالح نريد أن نستن بسنتهم ، وأما أشياء قلت عنها أنها لا تفيد أدباء ولا ترقى فكراً . وأنا رجل خبرت الناس وعرفت مايفيد وما لايفيد ، فاستفدت بهذه الخبرة فى حذف ماحذفت ، والمتروك قليل ، ولاتكاد فائدته تساوى قرائته . . »

* * *

وفى كتابة تاريخ التشريع الإسلامى كان سمت العلماء طابعه فهو يقدمه فى تواضع ويدعو إلى « الغفران. إذا وقف القارىء على شىء من القصير ، «فإنى لم اجد» فى هذا الكتاب حذو أحد سبقنى فى هذا الموضوع ، وقد وصف العلامة عبد القادر المغربى هذا البحث بأنه رائد وإن صاحبه من أنبل علماء مصر وأنبلهم مقصداً فى كل مايؤلفه .

* * *

أما تاريخ الأمم الإسلامية فهو عمل غير مسبوق ، قدمه صاحبه فى سماحة فقال : أرجو أن أكون وفقت لتذليل صعوبة كبرى هى صعوبة

استفادة التاريخ العربى من كتبه ، يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى : «إن الشيخ أحسن فى كتابه وجاء بمادة غزيرة ورأى وسط» .

* * *

ولقد اتصل الشيخ الخضرى فى أول شبابه بالشيخ محمد عبده ، الذى بدأ عمله الثقافى من دار العلوم وكان يحضر دروسه ويشارك فى ندوته وراجع معه دراساته والكتب التى يقوم بإعدادها أو طبعها . وقد اتفق أن اجتمع حفنى ناصف والمهدى والخضرى فى عقد لابداع نهضة فى التأليف ، من خلال مدرسة القضاء الشرعى التى كانت تجمعهم فاختص الخضرى بدراسة الأصول . فألف كتابا فيه . فلما دعى إلى الجامعة ألقى دروسه عن تاريخ الأمم الإسلامية . وكان معنيا بدراسات الأدب العربى ، وبيان الفوارق والالتقاءات بين الأدب العربى فى مصر والحجاز والشام والعراق والأندلس .

وقد تحدث عنه تلاميذه ومعارفه الذين اتصلوا به ، ورسموا له صورة من صور السماحة والنبل وسمو الخلق ، يقول مصطفى صادق الرافعى : رأيته منذ بضع وثلاثين سنة فى مدرسة المنصورة ، وكان يتردد على والدى ويستفيد من مكتبته ، وكان للخضرى موضع فى كل مجلس ، وكان يداخل قوما من الخاصة يعنون بالمسائل الإسلامية وفلسفتها، وقال : إنه كان يجلس على مكتبه كل يوم ست ساعات يقرأ ويؤلف أو ينسخ ، ويتلو كل ليلة أربعة أجزاء من القرآن ، لايعتريه البرد ولا مرض من أمراضه لما اعتاد من رياضة صدره بهذه التلاوة . وله عقل جرىء تمده رواية واسعة من علوم مختلفة فتراه يبعث من عقد الحياة إلى المآسى ، حتى كأنه لم يمض ، وهو فى الجهة الأخرى على مستفيض لايقف عند حد الصحيفة أوالكتاب بل لايزال يلتمس له عقلا يمزجه .

* * *

ووصفه الدكتور زكي مبارك فقال : أنه كان يتبسط معنا فى محاضراته بالجامعة المصرية ، وكان يحلو له أن يحدثنا عن طفولته وشبابه ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يعجب من أن يستبيح أحد الطلبة نقل الأحاديث إلى الصحف والمجلات ، قد دعتنى ذات مرة الرابطة العربية لإلقاء محاضرة ، وما كدت أبدأ حتى رأيت الشيخ الخضرى بين الحاضرين فكاد ريقى يجف ، وعجبت كيف يتفضل بتشريفى الرجل الذى أهنته ومنعنى الحياء من التسليم عليه » .

ومن أطرف أحداث حياة الشيخ الخضرى مهاجمته لكتاب تحرير المرأة لقاسم أمين ثم تحوله عن رأيه بعد اتصاله بالشيخ محمد عبده . ولندع له أن تصوير هذا الموقف يقول :

عند ما ظهر الكتاب كتبت مقالا بعثت به إلى جريدة المؤيد التى رحبت به وصدرت به عددها مثنية على كاتبه ، قائلة إنه سيكون فاتحة الردود التى تنشر فى المؤيد على كتاب قاسم ، لأن ذلك المقال الذى كان خالياً من الطعن ، وقد كتبت هذا المقال ولم أكن قد قرأت كتاب قاسم ولا رأيته . وتصادف فى نفس اليوم الذى نشر فيه المقال أن وصل إلى المنصورة الشيخ محمد عبده ، وقرأ الخضرى المقال عليه منتظراً أن يسمع كلمة إعجاب ، وكان المقال غفلا من الإمضاء ، فلم أتم قراءة المقال ، وانتظرت رأى الأستاذ الإمام فيه ، فلم يجب ، ولكنه أشار إلى المقال بعبارة ازدراء ، قال الخضرى : فلما سمعت ذلك لم أجسر على أن أخبره أنى كاتب المقال ، وكانت عقيدتى فى الإمام كبيرة جداً ، فاستفدت من ذلك درساً لا أنساه ، اننى لا أكتب كلمة واحدة على شىء لم أطلع عليه ، وقرأت بعد ذلك الكتاب فأكبرت الرجل وعلمت أنه يريد الخير .

* * *

ولقد «أولى الخضرى» اهتمامه لتسجيل أحداث ثورة ١٩١٩ كما صنع قريعة عبد الوهاب النجار ، وليست مذكرات الخضرى على نسق مذكرات

النجار ، أى تسجيلا للحوادث يوما فيوما بل هى بحوث على النسق الذى يكتب به المؤرخ ، وهى تبدأ بذكر حوادث مصر منذ الاحتلال ١٨٨٢ حتى بلغ بها أحداث الثورة .

يقول : أيام الثورة من ٧ مارس ١٩١٩ إلى ٧ بريل ١٩١٩ ، لم تكن ظواهر الأمة المصرية تدل على أنها تقوم بعمل جدى ، إذ صور هؤلاء الزعماء الذين قصدوا للمطالبة باستقلال البلاد ورفع الحماية الإنجليزية عنها ، نعم لم يكن أحد يظن ذلك ، لأن المصريين قد استبعدوا طويلا ، فمهروا فى مقدرتهم على إخفاء ذات أنفسهم شأن الأمم المستعبدة ، كان الإنجليز يظنون جمهور المصريين من موظفين وفلاحين لا يخطر ببالهم أن يهموا بامتعاض ، بل الثورة عليهم ، من أجل ذلك كانوا يعتقدون أن هؤلاء الزعماء السياسيين ، إنما هم ثائرون لأغراض فى أنفسهم يرجون نيلها ، وإذا حيل بينهم وبين الأمة فقد انتهى كل شىء ، والعناصر التى لها اكبر الآثار فى هذه الثورة وامتداد لهيبها هم : (١) تلاميذ المدارس المصرية (٢) المحامون (٣) الموظفون (٤) الفلاحون ، وفى الساعة السابعة من مساء يوم البست (٨ مارس ١٩١٩) عقب خروج سعد باشا من بيته ، زرت بيته فوجدته قد امتلأ بالشبان المصريين ، آثار التهيج بادية على وجوههم ، تخرج من أفواههم الكلمة بعد الكلمة بما انطوت عليه جوانبهم من الآلام ، ذلك لسانهم المترجم بما فى أنفسهم قد قبضت عليه السلطة الإنجليزية ظلما وعدوانا . ثم توجهت فى صباح الأحد إلى المدرسة فلم أكد أمثل بين يدى الطلبة لإلقاء درس الفقه حتى رأيت منهم نفوراً من الاستماع إلى الدرس ، وشرعوا يتكلموا عن مصاب الأمس ، وكنت كلما حاولت أن أترك الموضوع ، إلى إلقاء الدرس يقولون : ليس لنا اليوم رؤس نفهم ، ويقولون : ماذا نستفيد من هذه الدروس وحياة البلد مهددة ، فكنت أحترم منهم هذا الشعور ، وأبكى على هذا الشباب الذى نشأ ملتهبا بنار الغيرة والحمية القومية

وأقول فى نفسى ما دام هؤلاء صادقين فسينالون مايرغبون . ودخلت على الطلاب فى الدرس الثالث فرأيت فكرة الأضراب قويت ، ولم أر منهم من يعارض فيها ، والخوف من أن تستفيد السلطة من هذا الإضراب ، إذا هب وانقطع ... » .

وهكذا مضى الشيخ الخضرى فى تسجيل أحداث ثورة ١٩١٩ تسجيل مشاهدمشارك إلى حد ما .

* * *

وقدكان الخضرى معنيا باليوميات والمذكرات ، ليس لثورة ١٩١٩ وحدها، بل منذمطالع حياته ، فقد كتب عن حياته فى عدة كراسات تربو على العشر ،علق فيها على كل ما رآه أو مر به ، بفسره تفسيراً نفسانيا أويعلق عليه تعليقا اجتماعيا .

* * *

بدأ الشيخ الخضرى حياته فى الأزهر ، فأقام سبع سنوات حتى ديسمبر سنة ١٨٩٠ كان والده حريصا على أن يوقظه فى السحر لصلاة الفجر فى جامع شيخون . غير أنه لم يلبث أن اتجه إلى دار العلوم ، فأكمل دراستها ، وعمل بالتدريس فيها وبمدرسة القضاء الشرعى ، وعمل قاضيا بالسودان ثلاث أعوام (١٩٠٢ — ١٩٠٤) ودرس فى كلية غردون والتقى بالشيخ محمد عبده عام ١٩٠٥ الذى وجهه إلى قراءة الموافقات للشاطبى .

* * *

وكان الخضرى من دعاة التمسك بالكبرياء الإنسانية وقد فرق بينها وبين الكبر المرذول .

وله مساجلات مع قاسم أمين عن كتاب تحرير المرأة ، وطه حسين عن الشعر الجاهلى ، وجرجى زيدان عن قصته « عذراء قريش » وله مساجلات مع الكاتبة « مى » عن جوهر حاجة مصر إلى تعليم المرأة وتنويرها ورأيه أن المرأة الشرقية فى حاجة إلى منهج خاص يتفق مع حاجتها .

وقد كانت الكاتبة« مى » من تلاميذه فى الجامعة عام ١٩١٤ وهى واحدة من هذا الرعيل الذى تثقف على يديه وأحب فيه خلقه وسمته ونبله ، وقد دونت فى مذاكراتها رأيها تجاه الشيخ الخضرى ، تقول :

« يذكر تلاميذه ما كان له من عذوبة اللفظ وجلاء المنطق ووضوح العبارة ، والبراعة فى سرد الرواية التاريخية مجردة من الاستعارات فى لهجة تقريرية بسيطة تتلاقى عندها جزالة عربية مبينة وإشراق » .

فى دروس تاريخ الأمم الإسلامية تجد الشـــيخ الخضرى فى أثوابه الفضفاضة الزاهية ، وله نظرات رقيقة ؛ نافذة وراء غشاء الإبهام المسدول على إنسان عينيه ينقل نظراته تلك من مستمع إلى مستمع ، وليس بقصد اكتناه تلك النفوس وتلمس موقع حديثه منها ، لا يحاول ذلك لأنه بتلك النفوس عليم . أما لهجته فهى لهجة من تعود معالجة الموضوعات العويصة ، لا ليسبر غورها بينه وبين نفسه ، بل ليختار أيسر السبل التى يوصلها بها إلى نفوس فتية ناضرة ، تلك لهجة لينة ترضى السمع ، وقد ركنت إلى قرار مشوق ، يدنى المعانى ، ويغرى على متابعة الحوادث .

بصوت هادىء يتكلم ، وهو فى حديثه المدرس الملقن لا الخطيب المحاضر ، بصوت خال من التهيج والدهشة والانفعال

وما تحدثت إليه مرة ، إلا وجدت فيه ذوقا كذوق إسماعيل صبرى ، وإن كان إظهار الذوق ميسوراً لشاعر غنائى ومتعذراً لشيخ عالم فى الفقه والتاريخ .

ويختل إلى أنه يوم ينبرى العالم الاجتماعى والمؤرخ الأدبى لتدوين تاريخ الجيل الذى سبق جيلنا والمقابلة بين النابهين من أبنائه ، بروح التحليل العلمى ، فسيكون فى مقدمة ما يتناوله بحثه : المقابلة بين أمثال الخضرى وأمثال المنفلوطى . يمثل الخضرى الوجه التاريخى والفقهى والشرعى . ويمثل المنفلوطى الوجه الأدبى والاجتماعى .

ذلك أن الخضرى كان ينقل أشياء ليس له أن يتصرف فيها ؛ وكل

ما يملكه أن يقدم ذلك الإرث القديم فى صورة شيقة جميلة ؛ هى طابع شخصيته . وقد فعل ذلك على خير مثال مع استعداده لتقبل المفيد من الآراء الحديثة ، ومع اقتباسه المتتابع معاً كان ينقل إلى العربية من علوم الإفرنج ظلت كناباته عربية صميمة » .

توفى ١١ إبريل ١٩٢٧

مؤلفاته وآثاره :

محاضرة فى بيان الأخطاء العلمية التى استهل عليها الشعر الجاهلى .

جرت بينه وبين طه حسين مناقشات حول كتابه مهذب الأغانى (السياسة اليومية) ١٩٢٥/١/٤ .

الغزالى تعاليمه وآراءه م ٣٤ المقتطف .

نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين .

تاريخ التشريع الإسلامى .

محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية .

تهذيب الأغانى .

— ٤٤ —

محمد فريد

(الباحث والمؤرخ)

١٨٦٨ — ١٩١٩

الحديث عن « محمد فريد » الزعيم الوطنى ورئيس الحزب الوطنى وخليفة مصطفى كامل ، مستفيض لا يحتاج إلى مزيد من الإعادة . غير أن الجانب الذى يلفت النظر فى حياته والذى لم يلق عناية تذكر من المؤرخين والباحثين هو : جانب « الكاتب ، المؤرخ ، الرحالة » . وهو جانب ثرى فى حياة هذا المجاهد وإن لم يمتد أكثر من عشرة أعوام .

والواقع أن محمد فريد كان كاتبا سياسياً طوال حياته ، وهو معروف بمنطق دقيق وأسلوب علمى مرن ، وواقعية فى العرض ، وبعد عن المحسنات اللفظية والعبارات العاطفية ، على خلاف زميله « مصطفى كامل » وبالرغم من ثقافته الفرنسية التى تتسم بالطابع العاطفى الواضح .

ولعل هذا يرجع فى الأغلب إلى هذه الفترة الدقيقة من حياة «محمد فريد» التى تمتد منذ عام ١٨٩٤ إلى عام ١٩٠٤ تقريباً فقد عنى خلالها بدراسات تاريخية ما تزال حتى الآن تنبض بالحياة . ولعله الكاتب العربى الأول فى العصر الحديث الذى التفت إلى « أفريقيا » وقضاياها ومشاكلها السياسية مع الاستعمار ، وكشف فى عديد من المقالات عن مؤامرات الاستعمار البريطانى والفرنسى على أقطار هذه القارة .

وما تزال (مجلة الموسوعات) التى أصدرها فى ١٥ نوفمبر ١٨٩٨ — والتى استمرت حتى ١٧ يوليو ١٩٠١ — حافلة بهذه الدراسات التى كان أحياناً يوقعها باسمه صراحة ومرة بإمضاء (م . ف) وأحياناً بإمضاء (باحث) .

ولعل إصداره لهذه المجلة يكشف عن ميله الأدبى والصحفى الواضح ، ويصور مدى اهتمامه بالدراسات التى تتعلق بقضايا الحرية، ولعله وهو الذى كان لا يستطيع أن يتناول بعض مشا كل الاستعمار فى مصر بحرية كاملة نظراً لقسوة تسلط كرومر ، كان يجد فى هذه الدراسات مجالا للتنفيس عن مشاعره ، وخلق رأى عام عربى حول مؤامرات بريطانيا ضد شعوب أفريقيا .

وقد بدأ (محمد فريد) اتجاهه الأدبى والتاريخى مبكراً فكتب فصولا متعددة فى مجلة (الآداب) التى كان يصدرها الشيخ على يوسف بين سنوات ١٨٧٧ — ١٨٨٨ بتوقيع (م . ف) .

وفى عام ١٨٩٤ أصدر كتاب (تاريخ الدولة العثمانية) كما أصدر عام ١٩٠٠ كتابه الثانى (تاريخ الرومان) .

وفى هـــذا الوقت الباكر من تاريخ الفكر العربى المعاصر يبدو (محمد فريد) وقد نضج نضوجا واضحا فى فهم نظرية « كتابة التاريخ » على النحو الذى يعرفه المؤرخون اليوم من أحدث مذاهبهم فى كتابة التاريخ ، فهو يرى فى مقدمة كتابة (تاريخ الرومانيين) أن مطالعة التاريخ من أهم الأمور التى تثقف العقول ، وتهذب الأخلاق وتنمى العواطف فى الشعوب . « إذ بواسطته يقف الإنسان على أسباب ارتقاء الأمم فيتبعها ، ويعلم كنه موجبات انحطاطها فيتجنبها ، ولذلك حض العقلاء على درسه درساً فلسفيا ، لا الاكتفاء بحفظ بعض تواريخ الوقائع وأسماء الملوك وسردها عن ظهر قلب ، بل بالبحث والتنقيب عن أسباب كل حادث ، والوقوف على حقيقته وربط الحوادث ببعضها » .

ويقول « يجب على كاتب التاريخ أن يراعى ذلك حتى يأتى بالغرض المقصود » .

ثم يصور : لماذا اختار تاريخ الرومانيين بالذات لينشره فى مصر

فيقول : (لما كان تاريخ الرومانيين مفعما بالحوادث الصادرة عن حب الوطن والإخلاص له والتفانى فى خدمته والتهالك على الدفاع عنه والذود عن حوضه ، كانت مطالعته واجبة على كل من يريد معرفة طرق تقدم الامم وارتقائها ، وكيف تنال الحرية والاستقلال بالدفاع عن حقوقها قبل كل معتد ظالم ، والاتحاد على ما فيه خير وطنهم وفلاحة ، وجمع كلمتهم أمام الأجنبى المهاجم والدخيل المزاحم ونبذ النفاق من بينهم ليكونوا يداً واحدة لإعلاء شأن الوطن وبنية)من أجل هذا كله ترجم فريد هذا الكتاب .

وهكذا يبدو محمد فريد من وراء دراسته لتاريخ اليونان وطنيا صادق الوطنية ومؤرخا فاهما متحرراً فى فهمه ، ليس من الذين يسردون الحوادث سرداً وإنما من أولئك الذين يكشفون عما تخفيه من أسرار ، على أن يكون التاريخ قوة فعالة فى بناء الأمة عن طريقه حيث يستطيع أن يدعو قومه إلى الوحدة وإلى مقاومة الدخيل والدفاع عن الحرية .

ولا شك كان هذا الأسلوب فى استغلال التاريخ لبناء الأمة عملا مثيرا ملفتا للنظر لم يدعه المستعمرون يمر دون أن يهاجموه فى عنف ويتهمون محمد فريد بأنه تركى الأصل .

فقد علقت مجلة المقتطف — أخت (المقطم) لسان الإنجليز — على الكتاب (أغسطس ٢ ١٩) متسائلة عما يقصده محمد فريد من عبارة (الأجنبى المهاجم والدخيل المزاحم) فى القطر المصرى وهل هو يقصد العائلة الخديوية أم الدولة العثمانية ، وقد أجاب عنه الدكتور محرم فقال : أن الأجنبى المهاجم والأجنبى الدخيل هم رعايا كل الدول الأجنبية صاحبة الامتيازات من جهة والدولة المحتلة من جهة أخرى . أما الدخلاء فهم أفراد ممن تمصر من الأجانب وعلى الأخص من الشرقيين رعايا المملكة العثمانية وباع ذمته فى خدمة المعتدى الظالم والأجنبى المهاجم — أى أمثال أصحاب المقطم والمقتطف .

ورد المقطف يقول : « إن أحداً من هؤلاء لم يهاجم مصر ولا الإنجليز انفسهم ، إنما أتوا بطلب من الخديوى السابق للمحافظة على حياته وقمع الثورة العرابية وأقاموا فى القطر برضى الباب العالى صاحب السيادة » !

* * *

وفى كتابه (تاريخ الدولة العثمانية) يكشف محمد فريد عن هدفه من كتابة التاريخ فيقول : «مضى على الشرق أجيال طوال رأى فيها أهلوه من أهوال الأحوال ما تشيب له الأطفال ، وتندك منوقعه عزائم الرجال بل شوامخ الجبال ، وما كان هذا الا بعد أن انفرط عقد بنيه وتناثر نظام أهليه وتشاغل كل بنفسه عن أخيه وذويه ، فأغار الدهر بخيله ورجله على الشرق ودوله وقلب لأبنائه ظهر المجن وقلبهم بين الأحن والمحن ، فتناسوا ما كان لهم من فخامة الاقتدار وجلال الحضارة وضخامة العمران وإصالة الأمارة وانغمسوا فى بحار الكسل والخمول ذاهلين واستكانوا إلى المذلة والهوان صاغرين » .

وهكذا يكشف « محمد فريد » مفاهيمه وإيمانه بالحرية والشرق ، إذ جعل من كتابة التاريخ سبيلا إلى خلق وعى ثقافى ناضج ، لا يقوم على الخطابة الحماسية أو المقالات العاطفية ، وإنما يقوم على أساس العلم والاقتناع واليقين وهى الأسس الحقيقية التى تخلق أجيال المثقفين الفاهمين. وكأنما أراد أن يغطى هـــذا الجانب الدقيق فى نفس الوقت الذى كان « مصطفى كامل » يعنى بالجوانب العاطفية ويهز النفوس ويدفع الشعب بالحماسة والعاطفة والكلمة الرنانة .

ويصور هـذا المعنى فى مقدمة كتابة تاريخ الدولة العثمانية فيقول « إذا قام الخلف الشاب بالواجب عليه لعصره ، واتخذ له من تجارب السلف الشيخ مصباحا استنارت سبل السعى وانفسح أمامه الأمل فيرقى فى درجات

المدنية بمقدار ما صرفه من العناء فى العمل ، لذلك وجب أن تكون الحوادث الماضية وأعمال الأقدمين فى العصور الخالية قدوة للمتأخرين فى سياستهم وعوناً لهم على أعمالهم » .

هذه عبرة العمل التاريخى الذى تصدى له (محمد فريد) وسبق به جيل المؤرخين الذين عملوا فى هذا الحقل من بعد ، أمثال :

أحمد شفيق وعبد الرحمن الرافعى وشفيق غربال وحسن الشريف وعبد الله عنان ، غير أن (محمد فريد) فى سبيل إنماء هذه الجذوة الثقافية الفكرية التى هى القوه الدافعة للوطنية — لأنها تقوم على أساس العلم والبحث والفكر — لم يتوقف عند التاريخ وعبرته . وإنما مشى إلى الحاضر فاهتم به أبلغ اهتمام ،ومقالاته فى مجلة (الموسوعات) التى أصدرها وحررها مع حافظ عوض ومحمد أبو النصر ثلاث سنوات شاهده على ذلك .

* * *

ولعله أراد أن يقرب هذه المعانى إلى الشباب عن طريق المجلات الميسورة السهلة بدلا من الكتب الضحمة ، فاختار لمجلته طابعا قريبا من طابع المقتطف والهلال .

وقد جعل اهتمامه فى سنوات (١٨٩٨ — ١٩٠١) دراسة مسائل ثلاث :

* أفريقيا والاستعمار البريطانى والفرنسى بها .

* آسيا والاحتلال الروسى لها والصراع بين روسيا ودول أوربا .

* مطامع أوربا فى الصين .

ومن مجموع مقالاته فى هذا الصدد يبدو مدى اهتمام محمد فريد المبكر إلى قضية أفريقيا ، والخطر الذى يتهددها . ومدى أهمية الصراع الأوربى الروسى حول مناطق النفوذ فى أواخر القرن التاسع عشر .

فهو يتناول « الإنجليز فى غرب أفريقيا ، والإنجليز فى الترنسفال ، وغربى أفريقيا والاستعمار الأوربى . وانجلترا وفرنسا فى أفريقيا ،المواصلات

بين اسكندرية والكاب . والشركة الإنجليزية الأفريقية الشرقية ثم يتناول سياحة الرحالة سفن هدين فى أواسط آسيا والروسيا فى آسيا والروسيا فى مملكة كوريا ومملكة الكامودج ومسألة قنـــاة نيكاراجوا ومطامع أوربا فى الصين .

وكل هذه مقالات مطولة ودراسات واسعة عميقة تحس أن الكاتب قد راجع من أجلها عشرات المراجع الأوربية إذ لم يكن لها فى هذه الفترة مراجع بالعربيـة . وهو يقظ دائما إلى الأخبار البسيطة السريعة التى تنشرها (التيمس) عن هذا الأمر أو ذلك من شئون هذه المنطقة ، فسرعان ما يعلق عليه ويتوسع فى إيراد التفاصيل الجغرافية والتاريخية الكاملة .

ويشير إلى بعض الأخطاء فى الأسماء العربية والتركية طالبا من الذين يعلمون مساعدته فى ارجاعها إلى أصلها ، فيقول: «حيث أن معولنا فى كتابة هذه الرسائل على الكتب الإفرنجية وكثيرا ما تحرف الأسماء العربية والتركية عند نقلها إلى إحدى اللغات الأوربية بكيفية يصعب معها إرجاعها إلى أصلها عند النقل عنها ثانية .. إلخ » وهو يكشف فى هذا الوقت المبكر عن تآمر فرنسا وإنجلترا على القارة البكر ، فيقول : انهما اتفقتا على تحديد دائرة نفوذ كل منهما فى أفريقيا الوسطى بناء على ما أحرزته كل منهما من النفوذ بعد الحوادث الأخيرة التى تمت فى وادى النيل (يقصد الاحتلال البريطانى) وأن الدولتان تتزاحمان على اقتسام السودان الغربى فالأوسط .

ويقول إنهما يوهمان إيطاليا بأنها ستمتلك ولاية طرابلس الغرب يوما (تم احتلال إيطاليا لطرابلس ١٩١١) .

وهو يصور كيف بدأ الأوربيون باحتلال بعض سواحل أفريقيا للاتجار فى الرقيق وسن الفيل ، ثم أخذوا فى إرسال البعثات العلمية للتداخل فى اكتشاف الطريق وأسكناه أحوال القبائل والبحث عن خيراتها ثم اتبعت البعثات العلمية بالبعثات السياسية للتودد إلى رؤساء القبائل وعقد المعاهدات

معهم إذا أمكن ، ولم تكن هذه المعاهدات الاورقة صغيرة لايعلم شيخ القبيلة من معناها شيئاً .

ويقول : واستمر الحال على ذلك إلى هذه السنين الأخيرة(يقصد من القرن ١٩)حيث نشطت أوربالتقسيم أفريقيانهائيا وتحديد دائرة نفوذ كل منها حتى فى البلاد المجهولة لاتتعدى احدى الدول على الأخرى ، فامضيت بينهما لهذه الغاية عدة معاهدة عام ١٨٩٠ لتقسيم الجهات الشرقية فيها ، وفى هاتين السنتين تم الاتفاق كذلك بين فرنسا وألمانيا على تحديد مقاطعة نفوذها ولم يبق بها تحديد الاجهات أعالى وادى النيل والمخابرة جاريه بين فرنسا وإنجلترا على أتفاق نهائى حددت فيه أملاك كل منهما »

ويصور أسلوب بريطانيا فى التوسع الاستعمارى فى أفريقيا فيقول :

« من دهاء الإنجليز احتلال كل نقطة يمكنهم الانتفاع بها فى المستقبل القريب والبعيد وبسط سلطتهم على الطرق التجارية برا وبحرا وعلى مصبات الأنهار العظيمة لتوصل بواسطتها إلى إمتلاك البلاد الواقعة على شواطئها .

وكذلك من مبادئهم إرسال الرواد أولا بدعوى اكتشاف المجهول من البلاد ثم يتبعهم التجار والمرسلون الدينيون لتمهيد الطريق . ولما تنتشر تجارتهم فى البلاد ويصبحون أصحاب منافع عظيمة يؤلفون الشركات الكبرى التى تمنحها الحكومة حق تعبئه الجيوش وضرب العملة ووضع القوانين والأحكام حتى إذا مافتحت البلاد ودوخت العباد حلت محلها الحكومة نفسها بعد التعويض على مساهمى الشركة فتملك إنكلترا بذلك بلادا واسعة لو أرادت فتحها بالقوة بادىء بدء لكلفتها الأموال الطائلة والأنفس العديدة»

ويصور كيف أن إنجلترا عهدت فى غرب أفريقيا إلى معاكسة التجار الفرنسيين والألمان حتى ابتاعت محلاتهم بأبخس الأثمان وانفردت دون

غيرها بتجارة هذه الأصقاع السحيقة . ومن ثم بدا التجار يترددون على الإمارات الإسلامية الواقعة خلف هذه الشواطىء، ثم زارها الضباط الإنجليز فى زى التجار أو المرسلين لمعرفة أحوال البلاد وبسط نفوذ دولتهم عليها عند سنوح الفرصة. وكشف عن مؤامرة الإنجليز فى الترنسفال «حيث ساعدوا رعاياهم النازلين بها على خلع الجنسية الإنجليزية وارتداء الجنسية الترنسفالية حتى يتحصلوا إلى الولوج فى مجالسها النيابية فاذا نالوا الأغلبية بها على توالى السنين قرروا ضمها إلى الحكومة الإنجليزية ».

وصور محمد فريد فى هذه الفصول أساليب الاستعمار البريطانى فى انشاء الشركات فى مثل هذه المشروعات الاستعمارية حتى إذا أتمت الشركة مهمتها تخلت عن حقوقها للحكومة الإنجليزية فتحل إذ ذاك محلها وتكسب بهذه الوسيلة مستعمرة جديدة

وقال إن بريطانيا فتحت بهذه الطريقة بلاد الهند الواسعة فى الجيل الثامن عشر وإرادت أن تمتلك بها إفريقيا فى أواخر القرن التاسع عشر بواسطة شركة النيجر غرباً والشركة الممتازة جنوباً وشركة إفريقيا الشرقية شرقا .

* * *

كما تحدث « الأصولى الفاضل » كما كانت الصحف تطلق عليه عن « الروسيا فى آسيا » وقال أن من أعظم الأعمال التى شرح فيها رجال التمدن الحديث، وستتم قريباً السكة الحديد التى ستصل بين أوربا وأطراف آسيا الشرقية وتقطع قارة آسيا بأجمعها من الشرق والغرب على امتداد نحو سبعة آلاف ميل وبذلك تقرب أوربا من الشرق الأقصى وتكون الضربة القاضية على الصين وربما تعدى أذاها إلى اليابان .

وقال : إن سياسة الروسيا الآن تطمح إلى أخذ ما أمكنها من أقاليم

الصين الشمالية . وقال إن المسائل الاستعمارية أكبر شاغل العالم فى هذه السنين التى طمحت فيها جميع الدول إلى اقتسام أقاليم الدنيا وتسابقت إلى وضع يدها على كل ماتصل إليه بدعوى نشر المدنية والعمران فى الظاهر ولاستثمارها وابتزاز أموالها والاستئثار بخيراتها فى الواقع ونفس الأمر .

وتحدث عن كيف عمدت روسيا إلى الاستيلاء على أقاليم آسيا الوسطى والتقدم تدريجيا إلى أن التصقت تخومها بتخوم الهند الانكليزية فى جبال البامير التى تفصل بين الهند والصين وتركستان.

كما تحدث عن مطامع أوربا فى الصين فأشار إلى أنه بينما الأفكار متجهة إلى جنوب إفريقيا والأنظار محولة نحو بلاد البوير تراقب ماجريات هذه الحرب العوان الدائرة رحاها بين أمة قليلة العدد عالية الفؤاد ودولة ضخمة ذات مطمع متزايد ، ونهم متجدد كلما ابتلعت لقمة استعدت لابتلاع غيرها قبل هضم الأولى (يقصد بريطانيا) ، بينما يحدث هذا إذ دوى فى العالم خبر خروج طائفة عظيمة من أهالى الصين ضد حكومتهم لاستسلامها للاجانب وضد هؤلاء الأجانب لشروعهم فى التداخل فى أحوال الصين .. »

وهكذا يبدو (محمد فريد) المؤرخ فى أهاب العالم السياسى والخبير الذى يعيش معركة المقاومة للاستعمار بقلمه وفكره ، فهو دائب البحث عن الخطوات الخفية للاستعمار مسرع إلى الكشف عنها يهيب بالأمم العربية والأفريقية والآسيوية أن تأخذ حذرها ولا تستسلم ، ولطالما أشاد بالبوير عند ما هزمت بريطانيا وعقد لها أكاليل الغار . ولم ينس فى أبحاثه عن أفريقيا أن يكشف فضل العرب والإسلام ويدحض اتهامات الغربيين الذين ينكرون هذا الجانب ويحرفونه .

* * *

ولم يقف (محمد فريد) عند هذا بل تطلع إلى «الرحلة» ليس فى أوربا وحدها ولكن فى العالم العربى والإسلامى ، ويقينى أنه لولا اتجه بكليته بعد

عام١٩٠٤ إلى القضية المصرية لزار أقطار آسيا ، كما زار أقطار أوربا وأفريقيا وكان قد ذهب إلى تونس والجزائر ومراكش وطرابلس الغرب ومالطه .

بدا أسفاره إلى أوربا عام ١٨٩٥ وظل يواصل رحلاته اليها ثم قصد عام ١٩٠١ إلى الأندلس وسواحل مراكش ثم عام ١٩٠٢ إلى تونس والجزائر وطرابلس الغرب ، ونشر رحلتين أحدهما عام ١٩٠١ — ولم نعثر عليها — والأخرى عام ١٩٠٢ وقد نشر فصولها فى المؤيد ومجلة المجلات العربية وأطلق عليها اسم « من مصر إلى مصر » ثم زار الجزائر عام ١٩٠٥ وحضر مؤتمر المستشرقين وكتب فصولا عن هذه الرحلة فى اللواء (مايو ١٩٠٥) .

وفى مختلف فصوله عن رحلاته إلى مراكش وتونس والجزائر عام ١٩٠١ ، ١٩٠٢ ، ١٩٠٥ كان صريحا وجريئا فى الحق ، فقد انتقد سياسة فرنسا فى تونس وفى الجزائر بصراحة تامه . وصور كيف قابل المسئولين الفرنسيين وناقشهم فى وجوه التضييق والكبت فى مجال التعليم والصحافة والاجتماعات .

وهو فى فصول رحلاته عالم مدقق لايفوته شىء ، يصف المدن والناس والآثار والقصور والأسواق والمساجد والكنائس، ويروى إذا دخل مدينة تاريخها القديم والحديث ثم يتحدث عن جغرافيتها وموقعها، ثم يصور مقابلاته وأحاديثه مع أهلها ومع حكامها .

فالوزير الأكبر فى تونس السيد محمد العزيز بوعقور شيخ جليل يبلغ عمره ثمانين عاما أحسن مقابلته وجلس معه ربع ساعه يكلمه فى بعض المسائل العامة « وقد لاحظت أنه يتجنب دائما التكلم فى الشئون التونسية »

أما الكاتب العام الفرنسى فقد تحدث فريد معه طويلا ، يقول « أخبرته بكل صراحة إنى انتقد على الحكومة جملة أمور ، وإن كانت حمايتهم لتونس أقل وطأة من الحكومة الجزائرية ، إلا أنى أنتقد عليهم أشد الإنتقاد فى حبس

حركة الفكر، والضغط على الجريدة التونسية الوحيدة «الحاضرة» ومراقبتها وعدم ادخال الجرائد الإسلامية الأجنبية (أى المصرية والتركية) وجاهرت بانتقادى حالة تعليم المسلمين وعدم وجود تعليم عالى أو ثانوى بتونس وعدم صلاحية التعليم الإبتدائى لأبناء المسلمين لأنه يرمى إلى نشر اللغة الفرنسية واماتة اللغة الشريفة العربية »

وقد حاول الكاتب العام الفرنسى أن يعتذر متخوفا من إطلاق حرية الصحافة واعدا بإصلاح التعليم .

وكذلك فعل « محمد فريد » بإيمانه وإخلاصه وصراحته عند مازار الجزائر فقد ناقش المسئولين الفرنسيين فيها عن أعمالهم فى محاولة جعل الجزائر فرنسية ولم يتلق ردا صريحا .

وقد واجه محمد فريد من الصحافة المصرية — الفرنسية الطابع — بعد عودته حملات شديدة ، وطعنات منكرة ، وكان من نتيجة هذا أن منع اللواء ومن دخول تونس والجزائر .

ولاشك كشفت هذه الصراحة من محمد فريد عن أصدق وطنيته وجرأته، فهو لم يمالىء الفرنسيين لكى يحمل على الإنجليز ولكنه واجه الاستعمار كله ، وهاجمه فى جرأة ولم يخش شيئا ، وكان لكتاباته فى هـــذه الفترة المبكرة وهج قوى أضاء الطريق أمام رواد الفكر والحرية والعروبة والوطنية .

* * *

هذه هى المرحلة الأولى فى حياة محمد فريد : مؤرخا وباحثا ورحاله تكشف عن الطابع الواضح لفكره فيما بعد ،فهو صاحب الأسلوب العلمى القائم على منطق العقل وتجربة التاريخ ، وهو المؤسس لهذا التيار الذى يخاطب المثقفين ، ويحول الصيحات العاطفية إلى عقائد ثابتة فى الأعمال ، ويكشف عن مؤامرات الاستعمار بصورة كاملة صريحة ، فلا يمالىء فرنسا من أجل مهاجمة بريطانيا . وهو الطلعة الكاشف للطريق فى هذه المرحلة الباكرة

على نقاط البدء فى تقسيم القارة الأفريقية والتوسع الآسيوى .

وما تزال أبحاثه عن افريقيا بكرا جديدة ، وقد صدقت رؤاه فى اتجاه الاستعمار وأهدافه ومطامعه ، وتحقق كثيرا مما توقع أن يحدث ، واتفق الاستعمار الفرنسى البريطانى بعد مضى أقل من ثلاث سنوات على كتاباته تلك ، فتم توقيع الإتفاق الودى عام ١٩٠٤ . وقسمت مناطق النفوذ بين بريطانيا وفرنسا .

* * *

ولاشك أن أسلوب محمد فريد ومفاهيمه وطريقة تفكيره كمؤرخ وعالم وباحث كان بعيد المدى فى تطوير «الحزب الوطنى» وتحريره من علاقاته مع تركيا العثمانية وفرنسا ، فقد كان «محمد فريدا» عالما مثاليا أكثر منه سياسيا متمرسا ، وكذلك عاش لايقبل أنصاف الحلول ، ولا يمالىء أو ينافق ، وإنما يخضع للحقيقة الواضحة للصريحة كما يفهمها ، وقد كلفه أسلوبه هذا شقاءاً كبيرا بل كلفه حياته ،

مؤلفاته وآثاره :

تاريخ الرومانيين (١٣١٣ — ١٣١٨ هـ)
من مصر إلى مصر ١٩٠٣
تاريخ الدول العلية العثمانية ١٨٩٦
مقالاته فى مجله الموسوعات ١٨٩٩ — ١٩٠٠

— ٤٥ —

محمد عبده

(١٨٤٩ — ١٩٠٥)

— ١ —

حياة خصبة عريضه دافقه بالحياة، موفورة بالنشاط والحيوية فى مرحلة من ادق مراحل تاريخ مصر والأمة العربية — قبل الاحتلال البريطانى وبعده — ولذلك كان لها ملامحها وصورتها يفصل بينهما خيط من النفى والاغتراب إمتد خمس سنوات ١٨٨٣ — ١٨٨٧ ولكنها فى مجموعها حياة مصلح يؤمن بالتربية ولا يؤمن بالثورة والعنف ، شهد أواخر عهد اسماعيل ورأى كيف وصلت الأحوال إلى السوء حـــين غرقت مصر فى الديون وتضاءلت القوى الوطنية واستفحل النفوذ الأجنبي ، ثم وقعت الثورة العرابية وشارك فيها — أول مرة ثم انصرف عنها .

ولم يلبث أن وقف معها فى نهايتها ، ثم كان النفى إلى دمشق فباريس حيث اشترك مع جمال الدين فى اخراج صحيفة العروة الوثقى ثم كانت عودته إلى بيروت إلى أن أعيد إلى مصر، حيث استأنف حياته على نحو جديد . كان مدرسا فى الأزهر ودار العلوم قبل منفاه فاصبح قاضيا ، وهو فى كل حلقات هذه الحياة صاحب الرأى وداعية الإصلاح، يكتب المقالات ويرد على إفتراءات أعداء الإسلام والعرب ، ويرتاد صالون نازلى فاضل ويلقى دروس التفسير فى الرواق العباسى ويتعلم الفرنسية ويجدد اللغة ويحرر الدين من التقليد ويدعو إلى فتح باب الاجتهاد ويؤلف بين الأديان ويدعو إلى إصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية ويشترك فى مجلس شورى القوانين ومجلس الأوقاف الأعلى والجمعية الخيرية ويحرر فى الوقائع والعروة الوثقى ، ويصدر الفتاوى الجريئة ويترجم رسالة الرد على الدهريين ويعمل مدرسا وقاضيا ومفتيا

ويصادق جمال الدين وبلنت كرومر، ويجادل سبنسر — وفرح أنطون وهانوتو. ويسافر إلى أوربا لتجديد النفس، ويحضر محادثات فى بريطانيا بشأن السودان . .

وهو فى كل هذه المراحل من حياته مرموق المكانة من معارفه وخصومه على السواء، يقدرونه قدره، وينتظرون رأيه، وهو دائما الجرىء الصريح الذى يقول كلمة الحق لا يهاب . .

* * *

وقد كشف محمد عبده عن هـــدفه وعمله الفكرى وتمثله فى برنامج موسع — :

١ — تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لا يخضع العقل لسلطان غير سلطان البرهان لا يتحكم فيه زعماء الدنيا ولا زعماء الأديان، وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى وهى الكتاب والسنة .

٢ — إصلاح أساليب اللغة فى التحرير سواء فى المخاطبات الرسمية أو المراسلات بين الناس وتجديد شباب اللغة .

٣ — اعتبار الدين صديقا للعلم ولا موضع لتصادمهما إذ لكل منهما وظيفة يؤديها . وهما حاجات من حاجات البشر لا غنى لأحدهما على الآخر .

٤ — «القرآن» يجب أن يكون عقدا تنتظمه المذاهب والآراء فى الدين ومحاربة الخرافات والأباطيل التى نسبت ظلما وزورا إلى الدين .

* * *

وقد عمل محمد عبده فى ميادين إصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية وكان له دور فعال فى تحويل الأزهر إلى كلية لها أنظمتها الجامعية بعد أن كان حلقا من حلقات الدرس وأدخل العلوم الحديثة إليه، كما أنشأ مدرسة القضاء الشرعى ووضع أساس إصلاح المحاكم الشرعية .

وكانت دروسه فى دار العلوم والأزهر ومدرسة الألسن جديدة فى منهجها وطريقتها إذ كان يعمد إلى بناء العقائد على أساس البراهين القطعية، ويقرأ كتبا جديدة لم تكن تدرس فى الأزهر ، منها مقدمة ابن خلدون مطبقا ما بها من نصوص وأراء عن نهوض الدول و سقوطها وشئون العمران وأصوله على امته مبنيا أسباب ضعفها وما تسترد به مجدها ، ولاتمنعه حرية رأيه من أن يعترض عـــلى بعض الآراء التى أبداها ابن خلدون وتغيرت مع الزمن .

— ٢ —

عمل محمد عبده فى ميدانى : السياسة والثقافة ولسنا نستطيع أن نفصل عمله السياسى عن عمله الثقافى . ذلك أن مفاهيم الشيخ محمد عبده كانت تتجه منذ مطالع شبابه إلى الحرية فقد شاهد وعاش حياة مصر فى أيام اسماعيل المضطربة حيث كانت الديون والنفوذ الأجنبى وبداءة الغزو الثقافى تزلزل الحياة الفكرية المصرية العربية ، وكانت الوسيلة فى نظره هى تصحيح مفاهيم الدين والثقافة وتحطيم قيود التقليد وفتح باب الاجتهاد وإصلاح لغة الكتابة والعناية بالمضمون والإتجاه إلى الحضارة وتقبل ما يتفق منها مع حاجتنا ومقومات تفكيرنا .

ولقد اتضحت هذه العالم فى نفسه واتسعت آفاقها بعد لقائه لجمال الدين الأفغانى فى القاهرة فى خلال زيارتيه الأولى القصيرة التى استمرت ٤٠ يوما والزيارة الثانية التى امتدت ثمان سنوات .

ويرى مورخه الشيخ «رشيد رضا» أن له فى حياته الفكرية ثلاثة أدوار :

١ — طلب العلم على طريقة الأزهر المعروفة فى المناقشة فى عبارات كتب المؤلفين وقراءة المتون مع الشروح والحواشى والتقارير .

٢ — طريقة جمال الدين فى العلم .

٣ — النظر فى علوم الافرنج وقراءة ما ترجم من الكتب إلى اللغة العربية ومايتصل بهذا من تعلمه اللغه الفرنسية .

ويرى (رشيد رضا) أن الدراسات الأفرنجية هى التى أعطته القوة العظيمة المدافعة عن الإسلام ، وفى زيادة البصيرة بخصومه (أى خصوم الإسلام) لأنه عرف من أين يهاجمه اعداءه وكيف يرد على هجماتهم .

وقد كانت طريقة جمال الدين التى تحول بها عن أسلوب الأزهر هى شرح معنى المسألة حتى تنجلى للأفهام ، إذ كان يقرأ عبارة الكتاب ويطبقها عليها فإذا كانت غير مستوفية كشف عما فيها من تقصير ، وقد ارتقت به هذه الطريقة إلى الحكم فى المسائل دون الرضى برأى المؤلف والسير وراءه .

كان أهم ما وجه جمال الدين إليه تلاميذه وفى مقدمتهم محمد عبده وأديب اسحق الكتابة فى الصحف وإيقاظ روح القومية والوحدة ، فبدأ محمد عبده ينشر عديدا من المقالات فى الصحف ، ويقرأ كتب الفلسفة والرياضيات والأخلاق والسياسة ، وقد أثار اتجاهه هذا عليه خصومة الأزهريين حتى أنه عندما ذهب للامتحان رأى وجوههم عابسة وقلوبهم نافرة ومن أجل اتجاهه المتحرر وقع بينه وبين الشيخ « عليش » رأس خصوم جمال الدين الأفغانى مجادلات عبر عنها محمد عبده حين قال : كان الشيخ عليش يعادينى على الغيب إتباعا لأراء من لا رشد عندهم .

من أجل هذا لم يمنحوه الدرجة الأولى فى الامتحان النهائى بالرغم من تفوقه .

وفى صحيفة الأهرام كتب محمد عبده ثم أتيح له تحرير جريدة الوقائع المصرية حيث توآفر على إصلاح اللغة العربية وأنشاء الفصول المتجهة إلى علاج مشاكل المجتمع والإصلاح الدينى والخلقى .

وقد أشار محمد عبده فى مذكراته إلى أن أهالى مصر كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ، لا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده . حتى جاء إلى هذه الديار (عام ١٢٨٦ هـ)

رجل غريب بصير فى الدين ، عارف بأحوال الأمم ، واسع الإطلاع ، جم المعارف ، جـــرىء القلب ، اشتغل بالتدريس لبعض العلوم العقلية ، فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد . وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية التى كانت لاتزال إلى هذا العهد قاصرة على مالا يهم ، فاقتصر الكثير منها على نشر ماتعمله سائر الأمم فى سيرتها السياسية والمعاشية وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدا فى الحكومة المصرية من سوء الأحوال الحالية ،وقد شارك محمد عبده أستاذه جمال الدين فى كل أرائه فى العمل للجامعة الإسلامية وفى مقاومة مظالم عهد اسماعيل فكان هذا العمل كبير الأثر فى هز الحياة السياسية فى مصر .

ثم لم يلبث جمال الدين أن أخرج من مصر وقال إنه مطمئن إلى روح النهضة ويرى أن محمد عبده سيحمل لواءها .

وكانت الثورة العرابية نتيجة طبيعية لأراء جمال الدين ودعوته ، ومع ذلك فانه محمد عبده لم يؤيد تحقيق الإصلاح عن طريق القوة العسكرية ويرى أن الإصلاح المتطور أجدى وفى ذلك قوله لعرابى (إن الأمة لو كانت مستعدة لأن تشارك الحكومة فى إدارة شئونها — لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى فما يطلب به رؤساء الجند غير مشروع لأنه لو تحقق ونالت البلاد مجلس شورى لما كان ذلك تصويرا لإستعداد الأمة ولا تحقيقا لمطالبها ، فلا يلبث أن يهدم ويزول وأخشى أن يجر هذا الشعب على البلاد إحتلالا أجنبيا)

ومن ثم أصبح واحدا من رجال الثورة ، يقول المؤيد [1] : أنه (لما استفحل أمر العرابيين داراهم إلى حد الظهور بينهم وأ كبر عمل أوخذ به معهم تولية أمر تحليف ضباط العسكرية يمينا فى قشلاق عابدين قيل أنه يقسم يمين الطاعة لعرابى والتفانى فى الدفاع عن الوطن معه) وقد حوكم وحكم عليه بالنفى وقد أمضى خمس سنوات منها بين فرنسا والشام وعاد عام ١٨٨٨

---

(١) المؤيد = ٢٣ شوال ١٣٢٤

— ٣ —

كان نفى محمد عبده عن مصر مرحلة هامة فى تاريخه وحياته ، ومقدمة لتطور عميق وتحول هام فى الفترة التالية لحياته (١٨٨٨ — ١٩٠٥) خلال سبعة عشر عاما .

وفى المنفى عاش محمد عبده بين دمشق وبيروت فى المشرق وباريس ولندن فى الغرب ، مدرسا ومعلما فى الشام ، وصحفيا وداعية فى الغرب كما سافر إلى تونس وإلى بلاد أخرى متنكراً عاملا فى الحركة التى حملت لوائها « جماعة العروة الوثقى » والتى كانت تضم المسلمين من الهند ومصر والمغرب وسوريا والتى كانت تهدف إلى جمع كلمة المسلمين وإيقاظهم وإعلامهم بالأخطار المحدقة بهم وارشادهم إلى طرق مقاومتها) وكان عمله فى تحرير « العروة الوثق » التى أصدرها مع أستاده جمال الدين الأفغانى فى باريس هاما ، إذ كان يحررها ، ويكتب فصولها ومقالاتها المختلفة فى الاجتماع والأخلاق والسياسة ، أما جمال الدين فقد اقتصر عمله على رسم الخطط وتوجيه العمل ، وقد صدر منها (١٨) عددا وتوقفت فى ١٦ اكتوبر ١٨٨٤ واشترك الرجلان معا فى العمل السياسى فاتصلا — بحكومتى فرنسا وبريطانيا بشأن المسألة المصرية ومسألة السودان . وكان رأيهما الذى أبدياه إلى زعماء بريطانيا هو ترك السودان لأهله والعدول عن فتحه ، يقول الشيخ رشيد رضا أنه (كانت لهما فى ذلك أمال ومقاصد ذات بال) ومن أجله سافر محمد عبده إلى بلاد كثيرة حيث « وثق عقود العروة السرية التى كان من أغراضها ما أشرنا إليه .

ويبدو أنه كان قد تقرر إتخاذه عمل ما « حال دون تنفيذه موت « محمد أحمد » مهدى التسودان .

وفى باريس تحول الشيخ محمد عبده إلى ما وصفه مستر بلنت (أوربيا

متفرنسا)فقد تغير زى الشيخ ومظهره ،وترك شعر رأسه ولحيته فاستطال ، وكان يرتدى الطربوش بدلا من العمامة .

وفى هذه الفترة سافر إلى انجلترا حيث لقى صديقه « بلنت » واستعان به فى لقاء بعض السياسين البريطانيين وكتابة بعض الفصول فى الصحف البريطانية وقد جرت بينه وبين السياسين والفلاسفة محادثات جريئة .

وأقام فى أوربا عامين . وفى دمشق وبيروت ، كان يلتقى بالشباب ويلقى الدروس والمحاضرات وفيها ألف رسالة التوحيد . وترجم رسالة « الرد على الدهريين » لجمال الدين إلى اللغة العربية وعهد إليه بالتدريس فى المدرسة السلطانية فى بيروت حيث ألقى دروسه التى ضمنها رسالة التوحيد.

فى هذه الفترة اتسع لمحمد عبده مجال التأمل واستعراض الأمور ، خاصة بعد أن توقفت العروة الوثقى ،وأحس أن أسلوب أستاذه جمال الدين الأفغانى لا يحقق الهدف ، ولقد فاتح أستاذه بهذا فى أوربا ، وكان هذا مفصل الأمر بين شخصيتين مختلفتين فى الوسائل والأساليب ، بل وربما فى بعض الغايات إلا الغاية الكبرى وهى (انهاض الشرق) .

ولعل محمد عبده قد اتجه إلى الإصلاح التربوى والثقافى والدينى بعد أن رأى ماوقع لجمال الدين مع توفيق الذى كان لا يلبث أن يردد :

« أنك إنت موضع أملى فى مصر أيها السيد » ثم غدر به بعد أن ولى الحكم وأصدر الأمر بنفيه غير أنه مالبث أن تبنى هذا الرأى إزاء وقوع الثورة العرابية ونفيه ولقائه لجمال الدين فى باريس . ثم عاد مرة أخرى إلى النظر اليه نتيجة لما لقى من تجارب وواجه من أحداث .

وقد أفضى محمد عبده إلى رشيد رضا بما قال للسيد فى أوربا « إن هذه السياسة لايأتى منها خير ، لأن تأسيس حكومة إسلامية عادلة مصلحة ، لايتوقف على إزالةالموانع الأجنبية فقط ، فخير لنا أن نذهب معا إلى مجهل من مجاهيل الأرض ، لاسلطان للسياسة فيه ، ونحاول تربية أفراد على مانحب فإذا تيسر لنا تربية عشرة رجال يبذلون أنفسهم لخدمة الأمة

لايعدل بهم عن ذلك الجثوم فى وطن ولا الإخلاد إلى الأهل والسكن ، بل يكون همهم الأكبر الضرب فى الأرض ، لتربية أمثالهم على ماربوا علية ، فلا يبعد أن يرى الواحد منهم عشرة ليكون لنا فى زمن قريب مائة رجل يعملون للإسلام .

ولكن جمال الدين بطبيعة مزاجه وتكوينه لم يكن يقبل هذا الأسلوب: وقال : لمحمد عبده « إنما أنت مثبط . قد شرعنا فى عمل فلا بد من المضى فيه حتى يتم أو نعجز » .

وكان هذا جوهر الإختلاف فى الاتجاه بين جمال ومحمد عبده ، وقف جمال الدين فى صورة المثالى الثائر الذى يؤمن بالحاجة إلى أحداث انقلاب سياسى لتحقيق العمل الكبير وهو قيام حكومة تتبنى مبادئه .

أما محمد عبده فقد كان يرى أن التربية هى الوسيلة الوحيدة للنهضة واليقظة ، ولعل موقفه من الثورة العرابية هو نفس موقفه من اتجاه جمال الدين وكانت قاعدته وفق سير الأمم وسنن الاجتماع ، هو القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها والزامها بالشورى وأما المساواة بين الرعية فإنما تكون من الطبقات الوسطى والدنيا ، إذا فشا فيها التعليم الصحيح ، والتربية النافعة وصار لها رأى عام وان لم يعهد فى أمة من الأمم أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم » .

وكان للهجرة أثرها البعيد المدى فى حياة محمد عبده ، مضافا إليه رحلاته المتوالية إلى سويسرا وإلى لندن عام١٩٠٢ وإلى السودان ١٩٠٥ فقدأتاحت له الاتصال ببعض الجامعات فى جنيف وتعلم اللغة الفرنسية وفتحت له باب المقارنة بين حالة الغربيين وحالة بلاده ، وكان من نتائجها فى الشرق على حد قوله «إنى عرفت حق المعرفة إن مرض المسلمين إنما نشأ من أمرين: الجهل لدينهم وابداع عالم لم يكن منه والصاقه به واختلاط ماهو من الدين بما ليس

منه حتى صار ماهم عليه دينا أجنبياً عن أصل الدين واستبداد الحكام الظالمين من المسلمين فى جميع أقطار الأرض) .

أما أسفاره فى الغرب فقد خلقت فى نفسه قوةالأمل فىاصلاح أحوال المسلمين . « فما من مرة أذهب إلى أوربا إلا ويتجدد عندى الأمل فى تغيير حال المسلمين إلى ما هو خير منها ، وذلك بإصلاح ما أفسدوا فى دينهم وتشحيذ عزائمهم إلى معرفة شئونهم وامتلاك ناصيتها بأيديهم دون أفراد . وهذه الآمال وإن كانت تضعف فى نفسى عندما أعود إلى ديارى لكثرة ماألاقى من العنت ، ولكنى متى عدت إلى أوربا ومكثت فيها شهرا أوشهرين تعود إلى تلكالآمال

ويقول رشدى رضا إنه كان يقول كلما عزم على السفر إلىأوربا : إننى ذاهب لأجدد نفسى فقد أخلقتها معاشرة الكسالى واليائسين .

وذكر صاحب المنار أنه خلال سفره إلى سويسرا تعلم القلم المسند لأنه علم أن فى بعض المكاتب الأوربية كتبا فيه . وإن الإنجليز نقلوا من حضرموت بعض ماهنالك من الآثار الحميرية ولذلك دخل فى تاريخ العرب والإسلام .

وفى أثناء زيارته للندن عام ١٩٠٢ التقى بصديقه « بلنت » وكانت هذه هى الزيارة الثانية وقد تمت الأولى عام ١٨٨٣ وقد ذهبا معاً إلى جامعة اكسفورد حيث عثر فى مكتبتها على مخطوط لأحد الفلاسفة العرب أسمه (El Sebain)وهى مراسلات إلى فردريك الأكبر .

وقد وصف زيارته لتونس والجزائر بالنسبة لمصر فقال : هما مثل النور والظلام وعندما زار السودان عام ١٩٠٥ قال : إن الحكومة هناك أحسن إدارة ونظاما منها فى مصر ، وأعجب بالدراسة فى كلية غردون . وربما كان فى رأيه هذا مجاملة الإنجليز .

* * *

— ٤ —

عاد الشيخ محمد عبده إلى مصر عام ١٨٨٨ بعد مرحلة طويلة من الغربة والنفى والرحلة والمشاهدة والتجربة . وكانت الحياة المستأنفة جديدة فى كل شىء .

من الناحية الفكرية كان محمد عبده قد تحول من مفاهيم العمل السرى الثورى السياسى إلى العمل التربوى التنويرى فى اصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية واصلاح اللغة وتنقية الدين من البدع ونقد المجتمع واصلاحه وأضيف إلى هذا إتجاه العمل للوطنية المصرية .

ومن الناحية العملية عمل محمد عبده قاضيا أهليا فمستشارا فمفتيا ، وأبعد بذلك عمدا عن ميادين التربية والثقافة، فقد خشى الخديو طريقته فى التفكير وأسلوبه فى التربية . وقال توفيق : إننى لا أحب أن يربى التلاميذ على أفكاره السياسية .

وقد تقرب محمد عبده فى هذه الفترة من كرومر وكان صديقه (بلنت) قد توسط له عندة فى العودة ، ولذلك فقد جنح إلى جانبه مؤثرا أياه عن جانب الخديو واتصل هذا بما أعلنه من لعنة السياسة وانصرافه عنها .

وكان من رأيه مسالمة الاحتلال بغرض انتفاع الأمة من المحتلين بقدر ما يستطاع ونظريته فى هذا هى « أن الدولة[1] المحتلة أقوى من مصر إلى لاسند لها من الدول الأخرى فإذا كان لامحيض من وجود المحتلين فخير للمصريين مسالمتهم للانتفاع بهم » .

وقد امتعض محمد عبده لانتقاله من العمل التربوى إلى العمل القضائى وقال : إننى لم أخلق لأكون قاضياً بل معلما ، ومع ذلك فإنه مضى فى عمله القضائى بروح جديدة ، فعكف على دراسات القانون وتوسع فى دراسة

---

(١) المؤيد ١٣ شوال ١٣٢٤ .

اللغة الفرنسية ولم يحكم بظاهر عبارة القانون بل تحرى اظهار الحق وكان يحكم باجتهاده وأعتقادة وخاصة فى مسائل الربا .

وقد جاءت هذه الفترة من حياته حافلة بالعمل لا فى القضاء وحده بل فى مجلس إدارة الأزهر مجلس شورى القوانين، ثم فى مركزه الجديد مفتيا للديار المصرية (١٨٩٩) فضلا عن تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية وتنميتها .

وكان عمله فى تحويل الأزهر إلى كلية منظمة ذات منهج عصرى أمر بعيد الأثر فقد قامت أمامه عقبات وصعوبات نتيجة لما أسماه الشيخ رضا (عقلية المشايخ ورسوخ العادات القديمة عندهم) .

ولذلك كان لابد أن يمر وقت طويل حتى يصل الإصلاح إلى هدفه ، أما تدخل الحكومة فلم يكن فى رأيه محققا للتطور ، ولم يسمح له أن يواصل إصلاحاته وأشير عليه بالتدرج .

وقد أتيحت له فرصة مكاشفة الخديو عباس بآرائه فى اصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية والأوقاف وتوصل إلى إنشاء قانون تمهيدى للاصلاح يديره مجلس مؤلف من أكابر علماء المذاهب فى مصر .

غير أن الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر إذ ذاك لم يلبث أن أوقف مشروع إصلاح التدريس فى الأزهر وإعاده إلى المنهج القديم ، ولم يقبل الشيخ عبده أن يتم الاصلاح عن طريق سن القوانين وكان يؤمن أن ذلك لا يتم إلا (برضى أهله واقتناع الأزهريين) .

ومن أجل ذلك أنشأ مدرسة القضاء الشرعى لتخريج مجموعة جديدة صالحة للعمل فى المحاكم الشرعية .

وقد أتيح له فى هذه الرحلة أن يلقى دروسه فى تفسير القرآن فى الرواق العباسى ، وكان لهذه الدروس أثر بعيد فى تحرير تفسير القرآن من الخرافات

وفتح باب الاجتهاد ، ورسم طريق جديد للازهريين فيه تطلع إلى الآفاق وفهم للحضارة الحديثة ، والاستفادة من تطورات الفكر الإنسانى والسير مع الزمن .

وقد أشار مصطفى عبد الرازق إلى هذه الفترة قال : كنت طالباً من صغار الطلاب أيام جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر ، وكان أساتذتنا عفا الله عنهم لايفتأون يذمون لنا الشيخ ، ويمثلونه خطراً على الدين وأهله .

وفى منصب الافتاء كان له ميدان فسيح استطاع جلاله أن يصدر الفتاوى التى هزت تفكير الجامدين وأثارت عليه ثارات ومتاعب جمه من من جانب الخصوم ، وأبرز هذه الفتاوى إباحة ادخار الأموال وأخذ الفوائد والأرباح عليها . وإباحة أكل ذبائح غير المسلمين . إباحة استعمال زى غير المسلمين وتعد هذه الفتاوى بدءا لطريق واسع من طرق التيسير الذى عرف به الإسلام وفتحا لباب الاجتهاد وإزالة العوائق والقيود — والكشف عن روح التسامح فى الإسلام . وعن قدرته على الملائمة بينه وبين التطور والحضارة وقد تعمقت أسباب مهمة محمد عبده الفكرية فى تنقية الإسلام من الشوائب،وتقريب المسلمين من التمدن.وتحرير القرآن من أقوال المقلدين وتفسيره بما يوافق روح العصر وقواعد العلم ونواميس العمران .

كان أبرز أعمال الشيخ محمد عبده فى هذه الفترة هو تطور الفكر الاسلامى وتجديد آرائه وخاصة حين شرع قلمه للرد على خصوم الإسلام .

وقد أشار وصفه تلميذه مصطفى عبد الرازق بأنه تأثر بالنهضة الغربية على وجه ما فى حياته العقلية ومعيشته الخاصة ، ذلك أنه تعلم اللغة الفرنسية وسافر إلى أوربا عدة مرات وعاشر الأوروبيين فى مصر وغير مصر فاكتسب أثراً ظهر فى أفكاره — وكتاباته ودعوته الاصلاحية .

وقد توثقت صلة السيد محمد عبده بالمعتمد البريطانى كرومر ومن أجل ذلك تحول عن كثير من آرائه فى الاستعمار وقطع صلته بالمحافل الماسونية ورفض وسامهم المهدى إليه ، ومما ذكر فى هذا الصدد أنه اعتذر أن يكتب عن جمال الدين فى مجلة المقتطف وعلق فرح أنطون على ذلك فقال أنه إنما فعل ذلك لتبدل فى رأيه فى أكثر ما ارتاه فيها أو مجاملة لوسط سياسى جديد . وكذلك وجرت تصريحات للشيخ عبده عن عدالة الحكم البريطانى فى المناطق المحتلة .

وقد وصفه كرومر فى عديد فى تقاريره بأنه رأس مدرسة تختلف عن مدرسة مصطفى كامل وهى «مدرسة التعقيل» التى أصبح قوامها حزب الأمة وجريدة الجريدة وفى ذلك قوله (١) .. كان الشيخ محمد عبده رجلا ذا أفكار واسعة يسلم بالمفاسد التى نتجت عن طريق الحكومة الشرعية ، ويعترف بلزوم معاونة الغربى لاصلاح مصر على أنه كان يختلف عن الفئة من المصريين المقلدين للأوربين ويقول عنهم أنهم نسخة رديئة من الأصل . وكان معاديا للخديوية والباشوات لأنه لم ير لزوما لوجود فئة الباشوات بل لأنه لم ير فيهم إلا القليلين الصالحين .

وقال كرومر أن المهمة السياسية للشيخ محمد عبده هو أنه أنشأ مدرسة فكرية فى مصر على نحو ما فعل السيد أحمد خان منشىء كلية عليكرة فى الهند ، أما غرض الفئة التى تحتفى بمدرسة الشيخ محمد عبده فهو أنه يؤيد الإسلام أمام المسلمين وهم الفئة المعتدلة فى الحركة الوطنية على أنهم ينسب إليهم شىء من الخروج عن حدود الدين . ولذلك فيصعب عليهم اقناع المحافظين المقلدين ، وفوق ذلك فهم لم يأخذوا من عوائد الغرب وأوربا ما يجعلهم قادرين على أن يؤثروا فى الفئة المصرية المقلدة للاوربيين ويمكن أن يقال عنهم أنهم أدنى إلى المسلمين) .

---

(١) الاهرام : ٦ مارس ١٩٠٨ .

ومما يتصل بتطور تفكير الشيخ محمد عبده بعد المنفى صلته بصالون الأميرة نازلى فاضل المعروفه بصداقتها للورد كرومر فقدعرف أنه أعيد إلى مصر برجائها وبعد أن أعطيت المواثيق إلى كرومر بأنه لن يشتغل بالسياسة العليا ، وذكر كرومر فى كتابه مصر الحديثة : أن العفو عنه كان بسبب الضغط البريطانى . وأثر عنه الشيخ قوله : لا يهمنا أن يبقى الانجليز سنة أو سنتين أو خمسا مادام سيشركوننا فى الأمر . وورد أنه كان يرفع تقارير إصلاح الأزهر إلى المعتمد البريطانى وليس فى هذا كله على الشيخ عبده تثريب ، ما استطاع معه اطلاق الحركة والعمل ، وتحقيق خطوات الإصلاح فذلك خير من الجمود والمقاطعة للحياة العسكرية جملة .

وإذا كان الخديو قد خاصمه ووقف لآرائه واصلاحاته بالمرصاد ، فإنه قد أختار أخف المواقف ضرراً وهى العمل مع الجانب الآخر ،ويرى الشيخ مصطفى عبد الرازق أن محمد عبده كان يجد فى قصر الأميرة نازلى فاضل ما يغذى روحه الحساس وذوقه اللطيف ويجدد نشاطه للعمل ويرفه عنه أحمال الوقار مالا يستطيع أن يرفهه إلا من كانت مثل نازلى فاضل .

وقال أن أثر الأميرة ظهر فى أسلوبه الكتابى فى العهد الأخير ميلا إلى الدعابة والخفة (ومثال ذلك فصوله فى المنار عن سياحاته) وكلامه عن الرسوم والتماثيل .

وقال الشيخ عبد الرازق : « أنه بعد اتصال الشيخ بالأميرة نازلى التى كان هواها مع انجلترا وكانت صديقة اللورد كرومر فقد تلاشت عداوة انجلترا من صدر أستاذنا وأصبح يصرح فى دروسه وكتاباته بأن بريطانيا العظمى أحسن الدول الأوربية استعمارا . وكانت له من قبل فصول ضد بريطانيا تتأجج نارا نشر أغلبها فى جريدة العروة الوثقى التى أصدرها فى باريس » .

ومما يتصل بهذا أن الشيخ دافع عن حقوق المرأة فى التعليم والحرية والكرامة وأبان ذلك فى دروسه بالأزهر ومن ذلك قوله : الواجب على الرجال بمقتضى كفالة الرئاسة أن يعلموهن ما يمكنهن من القيام بما يجب عليهن ويجعل لهن فى النفوس احتراما يعين على القيام بحقوقهن »

وربما كان هذا هو مصدر الخلاف بين الشيخ عبده ومصطفى كامل الذى كان صديقاً للخديو عدواً للانجليز فى نفس الوقت الذى كان محمدعبده عدواً للخديو صديقا لكرومر ولذلك لم يكن من الميسور أن يلتقيا فى العمل الوطنى أو الفكرى . خاصة وأن حزب الأمة وصحيفة الجريدة قد اتخذت من الشيخ عبده عميداً لمدرستها وضمنت برنامجها الكثير مما كان يدعو إليه ، يقول الشيخ رشد رضا : كان مصطفى كامل يريد الاتفاق مع الشيخ محمد عبده، ولكن الأستاذ ورجاله لم يكونوا يقيمون وزنا لما وصف باثارته وإعجابه بنفسه وكونه مسخراً للخديو بالمال . وكان سعد زغلول يقول عنه أنه مندفع أما الإمام فقال فى وصف إحدى مقالاته: أنها نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف وعلق عبد الرحمن الرافعى على هذا — وهو من تلاميذ مصطفى كامل — فقال: أن نقطة الضعف فى شخصية الشيخ عبده هو تخلفه فى الكفاح السياسى واختلافه فى هذه الناحية مع أستاذه جمال الدين،وقد بدأ انقطاعه عن العمل السياسى منذ عودته إلى مصر١٨٨٩ فترك أستاذه يعانى متاعب الكفاح وآلامه ومرارته . وكان من قبل عضده وساعده الأيمن حتى أنه لم يرث أستاذه الروحى عند موته .

— ٦ —

شرع الشيخ محمد عبده قلمه للدفاع عن الإسلام وكانت فى ذلك، واقف قوية رائعة خاصة مع المسيو هانوتو وفرح أنطون. وقد دافع عن الإسلام أشرف دفاع وهاجم الأنظمة والأفكار الغربية وقال أن أوربا تعتمد على الدين

فى سياسة الاستعمار وأن المراسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها فى أعداد الشعوب لقبول سلطانها عند سنوح الفرصة لسوقه إليها وتهيئة نفوس الأمم لاحتمال ما يقضى به ذلك السلطان متى أظلهم

وأن محاولة تعليم الناس فى مدارسهم ترمى إلى ملأ قلبهم بحب هذا البلد المستعمر والاخلاص له واعتقاد أنه محرر البشرية ومنبع النور ومخلص العالم من رق الاستعباد وأنه لا يهدف إلا إلى تمدين الأمم التى تمثلها وتنشر المعارف وتهذب العقول. ومما قاله: أن الاسلام لم يعرف فى عصر من عصوره سلطة البابا على الأمم المسيحية عند ما كان يضع القوانين . وأشار إلى اتهامات كتاب الغرب للإسلام بالجمود فقال : أن هذا الجمود مما لا يصح أن ينسب إلى الاسلام مع صفاء صورته الاسلام ونصوع بياضها وأن هذا الجمود حدث عند ما دخل على قلوب المسلمين عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام فى أفئدتهم وكان السبب فى تمكنها فى نفوسهم السياسية : تلك الشجرة الملعونة فى القرآن .

فقد نظر المسلمون إلى (فخفخة) الوثنية واستعاروا من ذلك للإسلام ما هو منه براء . وسنوا عبادة الأولياء والعلماء وانتشر بين الإسلام جيش هؤلاء المضلين واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم ، هذه السياسة هى التى أدخلت على الدين ما لا يعرفه من البدع والخرافات والجمود ، وقد جنى هذا الجمود على اللغة وأساليبها وآدابها ، وعلى النظام والاجتماع مما إنتهى إلى الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع فى الدين ، وكانت جناية الجمود على الشريعة وأهلها مما جعلها تضيق من أهلها إلى أن تناولوا غيرها . وقال إنه نتج عن ذلك أن كان كل متأخر يقصر همه على النظر فى كلام من يليه غير مبال - بسلفه الأول ولا بما كان يحف بالقول من أحوال الزمان .

وتحدث الشيخ عبده عن الإسلام فقال : إنه قام على النظر العقلى والإقناع بالحجة . وأقر قاعدة تقديم العقل على ظاهر الشرع عند

التعارض ، والتجاوب مع الزمن وتطوره والبيئات واختلافها . والشورى وعدم وجود وساطة بين الله وعباده ، وأن الحاكم ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحي وهو مطاع ما دام على الحق، ورضى المسلمون عنه . وليس الإسلام سلطان إلهي ، وأشار إلى تسامح الإسلام مع العلم والتسامح مع الطوائف الأخرى وحماية حقوقها وحرية اعتقادها وحماية مصالح الدنيا وإباحة الزينة والطيبات والمزج بين الروحية والمادية .

وقال أن ما وجهه الغرب إلى الإسلام من شبهات واتهامات واباطيل إنما يخالف منهج البحث العلمي الغربي الذي عرف به .

وخلص من ذلك إلى أن أسباب الضعف ليس مصدرها الإسلام ، فالإسلام لا يزال على نقائه وإنما سببها المسلمون أنفسهم الذين تخلفوا عن دينهم .

وتبدو حرية فكره الشيخ عبده ماثلة فى مختلف جوانب فكره فهو يرى (فى أقوال بعض المتصوفة) وتصرفاتهم اسرافا يخرج بهم عن إنسانية الإسلام واعتداله . فهم يدعون أنهم يميلون بالإسلام إلى جانب الروحية ولكنهم يبثون نظريات عجيبة تميل بهم إلى القيود والجمود ثم هم ينصرفون عن الدنيا ولا يرون فيها إلا بؤسا وشرا ويخشون أن يسوا سلطة الخالق فينزعون عن المخلوق كل قدرة على الفعل وينكرون أن يكون له أدنى حرية أو اختيار (ثم يتساءل) لماذا نعتزل الدنيا ؟ ويجيب : أن علينا أن نخالط الناس وأن نعيش فى المجتمع عاملين وأن واجب كل مسلم صحيح أن يؤدى رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

وهو حين ينظر إلى النهضة فى الشرق يرى أنه فى حاجة إلى (حاكم عادل) ويصفه بأنه يكره المتناكرين على التعارف ويلجىء الأهل إلى التراحم. ويقهر الجيران على التناصف. ويحمل الناس على رأيه فى منافعهم بالرهبة أن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه إسعادهم بالرغبة) وهو (عادل لا يخطو خطوة

إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذى يحكمه فان عرض حظ لنفسه فليقع دائما تحت النظرة الثانية فهو لهم أكثر مما هو لنفسه . يكفى لإبلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمسة عشر سنة ، وهى سن مولود يبلغ الحلم ، يولد فيها الفكر الصالح . وينمو تحت رعاية اوالى الصالح ويشتد حتى يصرع من يصارعه . حتى إذا عرفت الأفكار مجاريها بالتعريف وانصرفت إلى ما أعدت له بالتصريف . وصح الشعور بالتعليل أباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع ضعيف السن قضمة . والناقة من المرض هضمه) .

وقدجرت بين الشيخ عبده وبين أحد القسس أبحاث عن توحيد الاسلام والنصرانية على (أساس فكرة التوحيد الموجود فى الاسلام والموجود عند الكنيسة) وقد أشار الشيخ عبده إلى هذا إذ كان له صديق فارسى اسم (مرزابكر) إذ استطاع هذا الصديق من إقناعى أنا وآخرين من علماء دمشق بكتابة رسالة إلى (القس تيلور) وقد فرح القس بهذه الرسالة واستعان بها على دعواه . وكلف السلطان عبد الحميد سفيرة فى بريطانيا بمعرفة الأمر وحاق به من أجل ذلك اضطهاد الخليفة قال الشيخ عبده وقد عرفت فيما بعد سبب غضب السلطان وهو أنه خشى أن يسلم الانجليز ويدخلوا فى دين الله أفواجا فيطلبوا أن يكونوا أصحاب الدولة فى الاسلام وتكون الملكة فيكتوريا ملكة المسلمين ويذهب السلطان من السلطان وسبحان مقسم العقول

والشيخ عبده آراء رصينة فى تقدير الرجال تدل على خبرته البعيدة المدى من ذلك قوله : (إن أعظم الرجال وأفضلهم المصلحون اللذين يوجهون عزائمهم إلى رفع الأمة من الدرجة الدنيا إلى الدرجة العليا) وهو يرى أن يكون الرجل عظيما بأمرين إحداهما «فطرى» لا يأتى بالتكسب وهو الاستعداد الذى يكون له بكمال الخلقة واعتدال ـ المزاج وحسن الوراثة، وثانيهما «كسبى» وهو التربية والقوة والعلم النافع . وقد أثر عنه أنه كان قليل

الثقة بالمذاهب التقريرية المغلقة ميالا إلى الحقيقة المفتوحة، وله ثقة كبيرة بالعقل وآثاره . ويسجل له التاريخ محاوراته الفلسفية مع هربرت سبنسر فى بريطانيا وهى شبيهة بمحاورات رينان مع جمال الدين فى فرنسا . وله مساجلات مع صديقه بلنت جاره فى عين شمس . وللمؤيد مع الجريدة مساجلات بعد وفاة الشيخ محمد عبده عن آراء له كتبها عن مقترحات الدستور المصرى اشترك فيها الشيخ رشيد رضا (إقرا المؤيد والأهرام من ١٩٠٨/١/٢٥ إلى ٢٩) .

وكان من أعدائه محمد أبو شادى صاحب جريدة الظاهر الذى هاجم الشيخ فى فتاويه هجوما عنيفا . وقد سجل بلنت فى مذكراته (٨ يونيو ١٩٠٥) عند ما علم بوفاة الشيخ محمد عبده قوله : أنه ليخالجنى الشك فى سبب موته . ذلك لأن موته كان فجائيا . وكان له أعداء سياسيون كثيرون .

(توفى فى يونيه ١٩٠٥)

من مؤلفاته وآثاره

تفسير القرآن الكريم مجلة المنار ١٨٩٩ — ١٩٠٥

الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية

ساجلتان مع هانوتو الوزير الفرنسى وفرح أنطون صاحب مجله الجامعة

مقدمة وترجمة « الرد على الدهريين » لجمال الدين الأفغانى

رسالة التوحيد

خطابه فى المغرب (المنار ١٩٠٤)

مساجلاته مع سنبر وبلنت (مذكرات بلنت)

— ٤٦ —

محمد عياد الطنطاوى

(١٨١٠ — ١٨٦١)

إذ قيل أن نهضة العالم العربى فى العصر الحديث بدأت من «الأزهر»، فليس لهذا القول ماينقضه ، وله كل مايؤيده ، ففى فجر اليقظة كانت أسماء حسن العطار فى مقدمة الأسماء التى أخرجت رجلين مضى أحدهما غربا حتى بلغ باريس هو رفاعه رافع الطهطاوى ، ومضى أحدهما شرقا حتى بلغ بطرسبرج هو محمد عياد الطنطاوى ، أما « الطهطاوى » فقد عاد ليعمل ومعه فكر جديد ، يثرى به الفكر العربى الإسلامى ، أما « الطنطاوى » فقد أقام حيث بلغ يقدم علوم اللغة العربية إلى طلابها من الباحثين ، وظل هناك حتى توفى، ولما كانت هجرته عام ١٨٤٠ فقد أمضى فى بلاد المسكوف كما كان يقولون عشرون عاما .

لقد أحب الطنطاوى وهجرته فى سبيل اللغة العربية ، والفكر العربى الإسلامى،ولم يضق باقامته فى بطرسبرج،ولاشك كان للشيخ حسن العطار أثره فى اعجاب الطنطاوى بحضارة وأوربا ، فقد علم تلاميذه كيف يفكرون ويحاولون الإستفادة من العلم الغربى الحديث ليكشفوا تراث الفكر العربى بأسلحة جديدة، وليضيفوا أضواء جديدة ، ويطعموا ثقافتنا بما استحدثته الحضارة والفكر الغربى من أساليب ، حتى تكون شخصيتنا أكثر قدرة على مواجهة الحياة والتطور .

وهو من أوائل من اشتغلوا بالأدب من علماء الأزهر حين لم يكن ذلك موضع تقرير الشيوخ ، حتى ابتدع حسن العطار بدعة الأدب فيه ، فأخذ يدرس لتلاميذه مقالات الحريرى وديوان الحماسة . فلما احتاج معهد الدراسات الشرقية فى بطرسبرج إلى مدرس للغة العربية اختاره حسن

العطار كما اختار من قبل رفاعه ليرافق البعثة . فوصل إلى هناك عام ١٨٤٠ حيث ظل يعمل فى معاهدهم، وقد خلف عددا كبيرا من الأبحاث والمؤلفات والرسائل والشروح على الكتب العربية القديمة، كما تخرج على يديه عدد كبير من المستشرقين. وقد اشتهر بدراساته فى اللغة والنحو وقد عمل معه المستشرق كراتشكوفسكى ومن تلاميذه المستشرق: ولن الفنلندى الذى ساح فى الشرق باسم عبد المولى والمستشرق فالين .

وقد جرت بينه وبين صديقه رفاعه الطهطاوى رسائل متعددة لم يصل لنا منها إلا سطور قليلة كشف فيها عن غبطته بالحياة فى أوربا : يقول أنا مشغوف بكيفية معيشة الأوربيين وانبساطهم وحسن إدارتهم، وتربيتهم خصوصا ريفهم وبيوتهم المحدقة بالبساتين والأنهار إلى غير ذلك مما شاهدتم قبلى بدقة فى باريز ، إذ (بطرسبرج) لا تنقص عن باريز فى ذلك بل تفضلها فى أشياء كاتساع الطرق ، أما من قبل البرد فلم يضرنى جداً ، وإنما الزمنى ربط منديل فى العنق ، ولبس فروة إذا خرجت ، أما فى البيوت فالمداخن المثبتة معدة لادفاء الأوض (جمع أوضه وهى الحجره) .

وطالما أنشدت عند جلوسى بقرب النار :

النار فاكهة الشتاء فمن يرد   أكل الفواكه فى الشتاء فليصطل

* * *

وقد صور الطنطاوى مطالع حياته حين ذكر أنه ولد بقرب طنطا بقرية تسمى بخريد يقول فلما ترعرعت ذهبت إلى طنطا فى بيتنا هناك ، وذهبت إلى المكتب وعمرى نحو ست سنين ، فحفظت القرآن مرتين بداية وعيادة، كما هى العادة ، ثم بعد حفظى القرآن لم أخرج من المكتب ، بل حفظت فيه متونا كثيرة كمتن المنهج فى علم الفقه وهو قدر القرآن ، وكمتن ألفية ابن مالك فى النحو : ثم لما كان عمرى عشر سنين ابتدأت فى تعلم العلم وفى السنة الثالثة عشر من عمرى رحلت مع عمى إلى مصر، فكان فى مكثى فى مصر

سعادتى فحينئذ حضرت فى النحو والفقه وغيرهما ، ولاشك أن تعلم الثلاث السنين فى طنطا -- وإن كان مع اللعب أ كسبنى بعض فهم فكنت أفهم خصوصا فى النحو وغيره أ كثر من الفقه .

ثم الجأنى الدهر إلى السكسب فعاشرت بعض الأفرنج المقيمين فى مصر ، وأول من عاشرته الخواجة « فرنيل » وقد رغبنى فى اللغة الفرنساوية ، وعلمنى إلا أن قصر الزمان عاق عن التمام ، وقابلت الخواجة بيرون مدير القصر العينى الآن ، وقد قرأ معى كثيرا ، من ترجمات الأغانى و أنساب العقد ، وكنت أعلم فى مكتب الإنجليز فى مصر وذلك سنة قبل سفرى .

والواقع أن الطنطاوى لم يتم علومه فى الأزهر لوفاة والده واضطراب الظروف المالية فى أسرته مما دفعه إلى تعليم اللغة العربية للأجانب لكسب وسائل عيشه ، فلما منحه أستاذه مصطفى القناوى أجازة التدريس ١٧٢٨ استطاع أن يجلس للتدريس فى الجامع الأزهر ، وقد غلبت عليه دراسة اللغة والنحو والعروض ، وأعرض عن دراسات الفقه الذى كان أبرز علوم الأزهر إذ ذاك ، وقد كانت دراسات علوم اللغة العربية وآدابها مجاله الأول فى جامعة بطرسبرج .

ولقد كان اتصال الطنطاوى بالدوائر الأجنبية فى القاهرة وتدريسه لعدد كبير من أبناء الجالية الأوربية هو أول الخيط فى مشروع سفره إلى روسيا ، إذا كان ومن بينهم من عرف من أبناء المسكوف ،

وكان الروس قد أرسلوا يبحثون عن معلم مناسب بين علماء العرب ، فاختاره معارفه لذلك ، وكان ذلك أضخم حدث فى حياته ، وهو حدث لم لم يقع للكثيرين من أبناء العالم العربى ، فقد سافر كثيرون إلى أوربا لتعليم اللغة العربية بها : أمثال محمد شريف وحسن توفيق العدل ، عبد العزيز جاويش ، وغيرهم .

ولكن ما احد منهم أقام بقية حياته فى أوربا غير الطنطاوى .

وقد ركب الطنطاوى البحر (مارس ١٨٤٠) عن طريق أزمير فاسطنبول ثم غادر اسطنبول فى باخرة روسية ومعه الترجمان موخين، وفى هذا الطريق وبين اجراءات التنقل والحجر الصحى، بدأ الطنطاوى فى تعلم اللغة الروسية حتى وصل إلى بطرسبرج فى يونيو، حيث بدأ إلقاء محاضراته فى الكلية فى أغسطس من نفس العام (١٨٤٠)

ولقد لفت نظر الشباب المثقف بحسن خلقه وسماحته، ولقى إهتماما لاحد له فى دوائر المستشرقين حتى قال عنه تلميذه لفريغوريف: من هذا الرجل الجميل فى لباس شرقى وعمامة بيضاء وله لحية سوداء كجناح الغراب وعينان تشعان باشعاع غريب، وعلى وجهه سمة الذكاء وقد لفحت الشمس بشرته.

وقال لفريغوريف: أنه الآن أمكن تعلم اللغة العربية دون أن نغادر بطرسبرج.

وقد إلتقى الطنطاوى بعشرات من الباحثين الذين اتصلوا به هناك فى مجال الكلية أو فى مجال الجامعة بعد أن إنتقل للتدريس فيها عام ١٨٤٧ حيث كان يعلم اللغة العربية وتاريخ العرب وتاريخ الخلافة بالذات حتى عهد المغول، وفى خارج الكلية والجامعة أيضا ويهمنا ما يذكره احد تلاميذه جورج وليم، ليكشف صورة حياته فى هذه الفترة، يقول:

أن طيبة قلبه وطبعه تشبه صفات الأطفال، وذكاؤه واستقامته يستدعيان الاحترام، لم تعد علاقاتنا رسمية كما بين المعلم والتلميذ، بل أصبحت علاقات ودية، وصداقة، تبدأ عادة بشرب الشاى ثم نستريح على أريكته الكبيرة، فيشغل حديثه عن مصر المحبوبة ورواتها ومغانيها وغيرها من المسرات عزمى على السفر أكثر فأكثر، أن الطنطاوى إنسان قد تغلب على التعصب، وهذا أمر رئيسى، فهو لم يعد يعمل من عبقريته سرا، ويجيب على كل الأسئلة، وقد بدأت بقراءة الرسائل التى تصله من أصدقائه المصريين،.. لقد كان الشيخ مرحا عطوفا، ولذلك أحبه الجميع عندنا كما

أحبوه فى كل مكان ، أعجبته مدينتنا وشعبنا ومناخ بلادنا الذى وجد فيه مشابهة لمناخ بلاده .

وقد بلغ حب تلاميذه له أن رسم له (مرتينوف) صورة بديعة تصور قوة تأثير شخصية الشيخ الشرقية فى تلاميذه ، وقد أجمل الشيخ الطنطاوى حياته قبل وصوله إلى روسيا فى درآسة محفوظة فى الجامعة ، ما زالت تعتبر مرجعا لحياة الأزهريين الثقافية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وأحصى كراتشو فسكى فى دراسة له عن حياة الطنطاوى مؤلفاته التى بلغت أكثر من ٤٠ مؤلفا . وهى أعمال موجزة فى مجال دراسته فى الجامعة وليس فيها من الأعمال عملا كبيراً له أهمية تاريخية

وقد عاش الطنطاوى فى بطرسبرج مع زوجته أم حسنى ، وولده أحمد الطنطاوى الذى استوطن روسيا أما زوجته فقد ماتت قبله ١٨٦٠ وفى عام ١٨٥٧ بدأ مرضه فتخلف عن الجامعة التى فرضت له مرتبا حتى وفاته سنه ١٨٦١[١] .

توفى ٢٩ تشرين الأول ١٨٦١ فى لننجراد.

من مؤلفاته : الحكايات العامية المصرية

مسودات لتاريخ العرب

منتهى الأداب فى الجبر والميراث والحساب

أحسن النخب فى معرفة لسان العرب

---

(١) أحصى له الدكتور حسين على محفوظ م ٧ / ١٩٦٤ مجلة الاداب بغداد (٤٨ كتابا وتعليقه ومجموعه) وبلغ عدد كتبه ١٥٠ كتابا .

— ٤٧ —

محمود أبو العيون

عندما يذكر «الأزهر» وتاريخه الحافـــل بالبطولات يذكر الأعلام الأبرار الذين كانوا بعيدى الأثر فى اصلاحه، يذكر حسن العطار، ويذكر رفاعة الطهطاوى ، ويذكر محمد عبده ،الرجل الذى كان علامة على الطريق ويذكر محمود أبو العيون تلميذ محمد عبده ، نذكره لأنه الرجل الذى وقف حياته على الإصلاح ولم يذكره الذاكرون،فهو من أعلامنا الذين لم ينصفهم جيلهم ، عاش قائداً فى ثورة ١٩١٩ وسجينا من سجنائها ومصلحا دعا إلى إلغاء البغاء وحمل عليه بعنف ، وهاجم تدهور الأخلاق وحمل الحكومات فى العهد الماضى مسئولية الإنحلال الذى كان مصدره الاستسلام للإستعمار .
وكان عدوا صادق العداء للإنجليز ، هاجمهم فى أوج قوتهم على منبر الأزهر فلما خرج من سجنه كتب فصولا نارية تحت عنوان (الصحيفة السوداء) كشف فيها عن جرائم الاحتلال فى أسلوب علمى — واحصائيات دقيقة وكان ذلك عام ١٩٢١ ، لذلك حق أن نذكره .

لقد كان محمود أبو العيون ثمرة من ثمار الأزهر الذى حمل لواء الوطنية والجهاد والكفاح فى سبيل الحرية ، الأزهر الذى وقع مع الأمراء وثيقة حقوق الانسان فى ١٧٩٥ فى الوقت الذى لم تكن الثورة الفرنسية فيه قد أكملت ست سنوات،فقد استطاع علماء الأزهر ارغام إبراهيم ومراد على أن يوقعا (حجة عامة) يتعهدان فيها بأن (يتوبا عن المظالم ويرجعا إلى الحق وأن يكفا أتباعهم عن أمتداد ايديهم إلى أموال النـــاس وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة) .

وقد قرأ محمود أبو العيون هذا التاريخ الذى أرتبط بقيام جبهة المقاومة الشعبية التى قاومت الحملة الفرنسية أربع سنوات كاملة ١٧٩٧ - ١٨٠١ ، لقد كان الأزهر معقل هذه الثورة ، وكان رجاله ، وعلى رأسهم عمر مكرم

هم قادة الحركة فى كل مكان ، فلما انهزمت الحملة الفرنسية بعد أن هاجمت الأزهر واحتلته بخيلها وسلطت عليه مدافعها من جبل المقطم . ظلت هذه الجبهة قوية الأثر حتى أنها حملت خورشيد الحاكم التركى على النزول عن مكانه، بعد أن حملت عليه حملة شعواء واتهمته بأنه ظالم وان من حق الشعب أن يعزل الحاكم الظالم ، ثم كان رفاعة الطهطاوى الأزهرى هو الذى قال أن الحاكم يجب أن يحال بينه وبين الاستبداد بالأمة ونفاه عباس الأول إلى السودان ، ثم كان عرابى الأزهرى هو قائد أول ثورة مسلحة ضد استبداد أسره محمد على وهو الرجل الذى وقف أمام الخديو توفيق وقال له : (إن الله خلقنا أحرار ولم يخلقنا عبيداً ووالله الذى لا اله إلا هو أننا لن نورث بعد اليوم) .

من خلال هذا التاريخ كله تكونت لدى (محمود أبو العيون) هذه الروح المؤمنه التى — دفعته ، ولما يكمل عشر سنوات على تخرجه من الأزهر أن يشترك فى ثورة ١٩١٩ التى كان الأزهر معقلها الأول .

ولقد كان خطيبا جهير الصوت ، قوى العقيدة ، فيه رجولة وشجاعة واصرار عاش معه طوال حياته فلم يتوقف عن أن يقول كلمة الحق ، أو يجهر بالرأى الصحيح، أو يدفع الظلم دون أن يخشى ما يلحقه عزل واقصاء وسجن وتشريد .

ولم تكد تنتهى ثورة ١٩١٩ حتى كان محمود أبو العيون سجينا فى قصر النيل ومعتقلا فى رفح تحت رقم (٤) .

ولكن هل توقف نضاله ، لقد أرسل إلى قائد القوات البريطانية (٤/٢/١٩٢٠) واللورد ملنر (٥/٢/١٩٢٠) يهاجم الاستعمار .

وكان ملنر قد قدم إلى القاهرة ليرى ماذا هو موقف الأمة بعد ثورة ١٩١٩ ، وقد قاطعته مصر كلها ، ورفضت التحدث معه ، حتى الشيخ محمود

أبو العيون السجين رقم ٤ يرفع كتب إلى اللورد ملنر يقول أن المصريين لا يقبلون مساومة بطريق المزايدة ولا بدلا مها غلت قيمته — عن الحرية — ولا يفزعهم ما تكرر على مرأى منك ومسمع من قتل الأطفال وذبح الشيوخ وسجن الأحرار وهتك حرمات المعابد .

وما كاد (محمود أبو العيون) يخرج من سجنه حتى انقضى قلمه ومضى يهاجم الاستعمار البريطانى على صفحات جـــريدة الأهرام تحت عنوان (الصحيفة السوداء) بدأها فى ٦ ينـاير عام ١٩٢٢ حتى ١١ / ٢ / ١٩٢٢ فى سبع عشر حلقة فندد فيها كل جرائم الاستعمار البريطانى فى التعليم والصحة والجيش والاقتصاد والدين المصرى والسودان والاجتماع على نحو علمى مدعم بالأرقام ، مكتوب بأسلوب تلغرافى بارع ليس فيه زخرف ولا مجامل ولا تهويم إنشائى ، وإنما هى ضربات متوالية عنيفة غاية العنف ، وقد كبدت الشيخ هذه المقالات كثيرا ، فقد حقق معه وأقصى عن مكانه ، وأنزل عن مركزه ثم نقل من القاهرة وانقطع عن الكتابة .

* * *

ويصور محمود أبو العيون موقفه فى ثورة ١٩١٩ فى عديد من مذكرات وكلمات نشرها على توالى الأيام من بعد ، يقول فى مجملها :

لما كانت ثورة ١٩١٩ التى اشتركت فيها الأمة طوائف الأمة على اختلافها للمطالبة بحرية مصر من ربقة الاستعباد ورفع نير الحماية كانت الجماهير متحمسة كأنما هى جذوة . وكانت الطبقة المتعلمة فى المقدمة .

وفى ١٧ إبريل ١٩١٩ أفرج عن سعد باشا وصحبه فقامت مظاهرة كبيرة اشتركت فيها طوائف الأمة من أزهريين وموظفين ، وقد بدأت من الأزهر ومضت تخترق شوارع القاهرة وفى مقدمتها الأزهريون ، حتى وصلت سراى عابدين ، وكنت أنا ومصدانى القاياتى فى مقدمة المتظاهرين حاملين علماً واحداً ، ولما وصلنا ميدان الأوبرا وامتـــلأ بنا حتى سمعنا طلقات

الرصاص تنبعث من شبابيك سور حديقة الازبكية وتوجه نيرانها إلينا على غير انتظار، وسرعان ما رأينا الدماء تجرى ونظرت فلم أجد من إخوانى إلا الشيخ عبده مفتاح والشيخ القاياتى والرصاص يمر بيننا حتى أصابت العلم رصاصة فأحرقته وبينما نحن فى هذا الجو سمعنا من ينادينا : ياقاياتى ، ياأبو العيون إحموا الناس وأرحموا أنفسكم ولا تعرضوها للقتل ، وسرنا وراء المتظاهرين واجتزنا المكان والرصاص يدوى من خلفنا وظهورنا معرضة له ثم تشتت المظاهرة وعادت فالتمئت فى شارع عابدين بعد جامع الكخيا ..

ثم قامت السلطات باعتقالنا يوم ١٢ مايــــو ١٩١٩ وزجنا فى زنزانة بثكنات قصر النيل مع زميلى مصطفى القاياتى بتهمة التآمر على الإنجليز والتحريض على قتالهم ، ثم نقلنا الإنجليز إلى الحدود عند رفح ومعنا محمد أبو شادى ، الشيخ محمد اللبان ، القمص سرجيوس

وبعد أن أقمنا فى رفح ثلاثة أشهر عانينا فيها ضنك الحياه وشظف العيش وقسوة الاعتقال، وإهانات ذوى الوجوه الحمراء أفرج عنا. وعدنا إلى القاهرة فوجدناها تتقلب بين أمواج القلق والاضطراب أثر قدوم لجنة ملنر ، وكان الأزهر فى ذلك الوقت قد أغلق أبوابه فقررنا أن نفتح تلك الأبواب واجتمعت بالقمص سرجيون والشيخ القاياتى ومحمد أبو شـــادى، بمكتب الأخير ، واستقر رأينا أن يقوم واحد منا بفتح الأزهر وأخذت على عاتق هذه المهمة ، وحدث أن وقعت مذبحة الإسكندرية التى قتل فيها الإنجليز عدداً كبيراً من الوطنيين ومثلوا بجثثهم ، وكان اليوم يوم جمعه ، فاقتحمنا الأزهر وارتقيت المنبر وأخذت أصف المذبحة العظيمة حتى تأججت النيران العاتيه فى صدور المصلين فخرجنا من الجامع فى مظاهرة كبرى تربص بها رصاص الإنجليز ، فقتل من قتل واعتقل من اعتقل وكنت فى الآخرين ومرة أخرى وجدت نفسى فى معتقل رفح وبجانب الشيخ القاياتى. وكنا نعتبر كل من يتصل بالإنجليز خائنا ، مثال ذلك رجل قدم مذكرة للسلطات البريطانية فاعتبرناه خائنا وأصدرنا حكما بإعدام ذلك الشخص ،

فلزم بيته واحتال صديق له وأدخله منزله . فتقدم منى ووقف فى ذلة ومسكنة وأقسم أنه لم يذكر فى مذكرته إلا الاحتجاج على فظائع البريطانيين فى مصر، وقدم لى صورة منها. وتبينت الصدق فى ملامح الرجل ، فلما عدت إلى الأزهر أعلنت براءته وعفا الشعب عنه .

وكان أهم خطباء الأزهر مصطفى القاياتى ، محمود عبد الله القصرى ، محمد شكرى كريشاه ، إبراهيم عبد الهادى ، أحمد يوسف ، مرقص سرجيوس ، مصطفى عيبه ، شافعى الجيزاوى ، محمد يوسف ، زكى مبارك ، عبد ربه مفتاح ، محمد عبد اللطيف دراز ، وكانت العبارة المعروفة « الأزهر فوق الأحزاب » .

وكان عبد ربه مفتاح قد قام بأعمال وظيفة أخرى لا يمكن الإفصاح عنها الآن ولم يؤن الأوان لذكرها .

وكانت عندى عقدة منذ أن اعتقلت هو أنه لا مفر من قتلى بين السلطة العسكرية الإنجليزية ، وأننى إن عشت أياما ، فإنما هى أيام معدودة ، ولبثت أعد نفسى لذلك اليوم الذى استشهد فيه رميا بالرصاص ، أو حد السيف ، وكنت أقرأ القرآن طوال يومى وبعض الليل ، وأنا أروع الحياة هادئاً مطمئنا ، لعلمى بأنى أديت واجبى نحو دينى ووطنى . وكان طعامنا فى رفح من الخضر المطبوخ بالدهن المتعفن وبه قليل من لحم البقر المخزون فى الصناديق المثلجة(١) .

ولما بدا الحكم الدستورى سنة ١٩٢٣ استأنف الشيخ أبو العيون حملة جديدة أشد عنفاً على البغاء تحت عنوان (مذابح الأعراض) وكان فى هذه الحملة الجديدة أشد عنفاً . وكان فيها عالما أزهريا وباحثاً نفسياً وصحفياً ومفكرا . ولم يثنه زيه ولا مركزه على أن يزور مركز شيخ الدعارة (الغربى) ويصفه ويصف الجو الذى يعيش فيه ويهاجم الحكومة كل يوم وهو يكشف عن جوانب هذه

---

(١) المصور : ١٤/١٢/٥١ .

المؤامرة الاستعمارية الخسيسة ، مصورا حياة الفتيات الصغيرات اللاتى كن يخطفن تحت بصر الحكومة وحماية الاستعمار لينقلن إلى سوق الرقيق .

ثم يتجه إلى الوزراء وكبار الموظفين والمفكرين والساسة فيحدثهم وينقل تصريحاته إلى عموده بالأهرام ، ثم يواصـــل حملته على الاستعمار والحكومات الموالية له ، ثم ينتقل مرة أخرى إلى الإحصائيات وآراء الأطباء ومضار سوق الرقيق ومرضى الزهرى وانتشاره وكل هذه النواحى يتحدث فى براعة مجاهد مؤمن صادق الإيمان بوطنه لا يبالى شيئاً فى سبيل الغاية التى استطاع أن يواصل إقرار كلمة الحق فيها .

ولم يكن طريقه فى هذا الجهاد سهلا ولا يسيرا ، فقد هاجمته جريدة السياسة هجوما مريرا واتهمته بالجمود والرجعية واتهامات أخرى ، وقالت إن الدعارة مقررة بقانون الدولة وهى من حق الأمم المتمدينة وأنحت باللائمة على الشيخ الجرىء الذى يريد أن يلغى عملا من أعمال الحضارة ويرد الناس مرة أخرى إلى الرجعية ! .

وقد احتمل الشيخ هجوم الصحافة عليه مؤمناً بفكرته ، مصرا على أن يواصل على الحق ...

فكان يتوقف ثمة ثم يواصل حملته ، يحادث ويخطب ويحاضر وينتقل هنا وهناك ويقابل أعضاء اللجنة التى كلفت ببحث بقاء البغاء أو إلغائه) .

ثم لم يلبث أن قام بحملة أخرى على أزمة الأخلاق التى كانت من آثار الاستعمار تحت عنوان ، (يا ضيعة الأخلاق فى عهد الحرية) كما حمل لواء الدعوة إلى إعادة تعليم الدين فى المدارس بعد أن قضت بريطانيا عليه ورفعته من المناهج .

وهكذا شارك محمود أبو العيون فى معركة الإصلاح الإجتماعى فى حملة على البغاء ، وحملة الشواطىء وحملة الأخلاق والدعوة إلى تعليم الدين وقد اتخذت الصحف والمجلات الكاريكاتيرية منه نموذجا لعدو المرأة وحاولت

أن تصوره خلال فترة طويلة بأنه رمز على التأخر والجمود ، وكانت تحاك حوله المناورات والفكاهات والسخريات والرجل صابر مؤمن ماض فى دعوته ؟ يقول :

ولست بعدو المرأة بل على العكس أنا صديقها الذى يقدرها كل التقدير ويؤمن بأن رسالتها فى الحياة من أدق الأمور ، وأنى لأعامل زوجتى معاملة الصديق الذى يلتمس لدى صديقه النصح والإرشاد.

واذكر مرة عند ما كنت أحمل على البغاء حملة شعواء أن هاج ذلك بعض الكتاب والصحفيين وذوى النفوذ ، ولم يبق أحد ينتصر لرأيى ، فذهبت مغتما إلى زوجى ، ولما عرفت أمرى ، قلت لها أنى عزمت على التخلى عن دعوتى ، إذ ليس من المعقول أن أكون أنا على صواب وهذا الجمع كله على خطأ ، فقالت لى :

— أواثق أنت من صواب دعوتك .

قلت نعم ، قالت : إذن امض فى طريقك ولا تصدك معارضة المعارضين ومضيت . وتم إلغاء البغاء ، والفضل لزوجى .

فحاشا أن أكون عدواً للجنس اللطيف ، وإنما أنا مصلح المرأة أريد لها الخير لنفسها وأهلها ووطنها وأدعو إلى إصلاح عيوب المرأة وهى عيوب اجتماعية ، أنا عدو الإباحة ...

* * *

ومن قضاياه التى أولاها اهتمامه الدائم أن كان يوجه إلى كل وزير للمعارف بعد تسلمه منصبه خطاباً مفتوحا يطالبه بجعل الدين مادة أساسية فى المدارس.

يقول فى إحدى رسائله : إننا نريد تعليم الدين فى المدارس مادة أساسية كباقى المواد التى ينجح فيها الطالب ويرسب ، ونريد أن يكون التعليم شاملا

للعبادات والعقائد وسير أبطال الإسلام من السلف الصالح والأئمة المعروفين. حرام على أمة تركت دينها وخلقها أن ترى النور والعرفان وأن توفق إلى الفلاح والنجاح، وحرام على حكومة ترى الخير ولم تشق لأمتها طريقا إليه، أن فى وزارة المعارف عنصراً يشيح بوجهه عند سماع كلمة الدين، وأن هناك شعوراً لا أسمية موجهاً نحو الدين، وأن هذا الشعور قوى متغلب لا يستطيع مصلح كفاحه وجلاده(١) وترى شبابنا من الجنسين عميت عليهم مسالك السبل وضلوا فى وعورة الطريق وأسرفوا فى ملذاتهم وشهواتهم».

* * *

ويصور كيف كان يلقى العنت فى محاربة البغاء، يقول: وطنت النفس على محاربة البغاء، وكان ثمة أهل مروءة ونجدة يتطوعون بإرشادى إلى الأماكن الموبوءة، وأنى لأذكر أننى كنت أكتب المقال وابكى، وبينما كنت أهاجم هذا الداء الوبيل، توالت الهجمات ضدى من بعض الكتاب وفى يوم واحد نشرت أربع صحف أربع مقالات كلها طعن وتجريح للدعوة التى اهتف بها وكان أشدها إيلاما لنفسى ما نشرته جريدة السياسة بعنوان «إصبع مأجوره لا للدين ولا للفضيلة».

وقد شتمنى الكاتب بما لا مزيد عليه، وطالب مشيخة الأزهر بفصلى، وكان أن قام شباب الأزهر هذه المقالة بجمع الأعداد التى وزعت منها فى الحى الأزهرى وأحرقوها، ولم تفت الحملات فى عضــــدى وواصلت الكفاح».

وهكذا كانت حياة محمود أبو العيون حركة دائبة فى العمل للإصلاح الاجتماعى.

---

(١) — ١٩ نوفمبر ١٩٣٠ — الاهرام

ولعل أبرز معارك محمود أبو العيون للفكرية هى مقالات الصحيفة السوداء التى حمل فيها على بريطانيا بالرقم والكلمة والنص ، على نحو لم يكن معروفا فى الكتابات السياسية فى ذلك الوقت .

فقد صور كيف بدأت انجلترا أعمالها التاريخية فى مصر بإلغاء المجلس النيابى الوليد واستعاضت عنه بمجلسين : شورى القوانين والجمعية العمومية ، وقيدتهما بقيود معينة تقصيهما عن تحقيق النظام النيابى الصحيح وتشل إرادة الأمة المشخصة فى نوابها المخلصين .

وأشار إلى ماقامت به بريطانيا من إنشاء المحاكم الاستثنائية والمحاكم المخصوصة وإلى تدخل الانجليز فى الإدارة والأمن تدخلا غريبا .

وتحدث عن إهمال حكومة الاحتلال مساحات أراضى الزراعة إهمالا شائنا نشأ عنه هبوط محصول القطن بمقدار ٩٣ فى المائة . وإلى خسارة مصر بسبب إهمال الرى والصرف حوالى ٧٠ مليونا من الجنيهات ، الأمر الذى جعل ولفرد لوســون النائب البريطانى يقول فى كتابه (مصر وارهاقها) :

لقد ازداد دين مصر على يدنا إلى مائة مليون جنيه ، وشللنا تحرك المجلس النيابى ودمرنا بمنتهى القسوة أهم بلد فى القطر ، ونشرنا الفساد والدعارة فى العاصمة ، وأثقلنا كاهل الأهالى بالأموال والضرائب ، وأخمدنا شعلة الوطنية » .

وجمعت بريطانيا شباب مصر العامل وساقتهم كالأنعام حيث تسلمتهم السلطة العسكرية ووزعتهم على ميادين القتال فى الشرق والغرب حيث عملوا تحت وابل من الرصاص المنهمر (وبلغ عددهم حوالى مليونى شاب) ،

لم يرجع منهم واحد كما حصلت على ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية من الحكومة المصرية وبلغ ماصرفته بريطانيا فى السودان من ميزانية

مصر من ١٨٢٠ حتى ١٩٢٠ مبلغ ٧٩ مليون جنيه وذلك بخلاف مليون و٦٣٢ ألف جنيه انفقت على التجريدات الشكلية لفتح دنقلا ،

وأشار محمود أبو العيون إلى أثر بريطانيا فى تحطيم المجتمع فقال: أن ذلك تم عن طريق إهمال تعلم الدين فى جميع المدارس وجعله حصة إضافية ضئيلة ، وأهملت شأن الآداب العامة وسمحت بتمثيل أدوار السخرية والدعارة على مسمع ومرأى من رجال الحكومة وسمحت للتمثيل الهزلى ومسارح الصور المتحركة والروايات المخزية والأشرطة المخجلة وقال إننا لا ننكر التمثيل الهزلى ولكن ننكر أن يكون من أكبر العوامل فى إفساد أخلاق الأمة،ومن آثار بريطانيا فى تدمير المجتمع قتل روح العزة والشرف فى نفوس كثير من ضباطنا بتعليمهم الخضوع أطلق للضابط الانجليزى ، وسلب إرادة الموظفين وبذلك اتسع مجال الملق وماتت العواطف وقتلت المواهب وذاعت الدسائس والجاسوسية بين الموظفين .

وتحدث عن أثر الاستعمار البريطانى فى التعليم ومدى الانهيار الذى حل به على يد المحتل وكيف حارب لغة البلاد فى المدارس حربا عوانا وعمل على القضاء فى إضعاف اللغة والقضاء على القرآن حتى كان التعليم فى جميع المدارس العالية والثانوية باللغة الانجليزية وحتى ألغيت المجانية فى جميع مراحل التعليم .

وكان يجمل رأيه فى بريطانيا إنها : « أول أمة عرفناها فى التاريخ أتقنت فن الدس والخداع واتخذت من ذلك سلاحاً تصرع به خصومها وتنازل به أعدائها

هذه صورة موجزة للصحيفة السوداء التى كتبها محمود أبو العيون مهاجما بها الاستعمار البريطانى فى مصر فى إبان وصولته وبعد انتصاره فى الحرب العالمية الأولى .

* * *

ومحمود أبو العيون من مواليد (ديروط) وعاش حياته مجاهدا فى سبيل الإسلام والأزهر والوطنية وقد ولى منصب شيخ معاهد أسيوط والزقازيق والاسكندرية ثم أصبح سكرتيرا عاما للأزهر وكان كاتباً وخطيباً ومثلا من أمثلة الخلق والكرامة .

وهو نموذج من نماذج الأزهر القديم المتجدد الذى سيكون دائماً من الوجوه المتألقة التى يتطلع إليها الأزهر الجديد الشاب .

توفى فى ٢١ نوفمبر ١٩٥١

مؤلفاته وآثاره :

— مذكراته عن الاعتقال (المصور ١٤/١٢/١٩٥١)
— مقالات « ياضيعة الأخلاق » الأهرام ٥/١٢/١٩٣٣
— تاريخ العرب والإسلام ، الصحيفة السوداء ١٠٢٥ ، صفحة ذهبية ١٩٢٨ مذابح الأغراض ١٩٢٦ مشكلة البناء الرسمى ١٩٣٣ .

(٤٨)

محمود رشاد

(١٨٥٤ – ١٩٣٥)

فى خلال حياتنا المضطربة الماضية ، كان هناك أعلام أفذاذ يظهرون بين حين وحين ليقفوا موقفا مشرفا ، يستمدونه من أعماق إيمانهم بأمتهم ووطنهم ، لايبالون فى سبيله مايلاقيهم من محنة أو هوان يصدرون فيه عن الحق الذى يعتقدنه ولا تستطيع القيود والسلاسل التى تكبل الوطن كله أن تحول بينهم وبين الجهر بالحق ، من هؤلاء القاضى محمود رشاد الذى حكم ببرئة (عبد العزيز جاويش) من قضية ضخمة ، دبرها له الانجليز وقدموه بها إلى المحاكمة ، حتى يسكتوا صوته إذ كان قلمه النارى مرير المذاق ، وقاسيا فى مهاجمتهم ، وقد دبروا أمرهم إثر نشر مقاله عماسمى قضية الكاملين فى السودان وهاجم حكمهم فيها وفق البيانات التى كانت رددتها وكالات الأنباء عن عدد المحكوم عليهم بالاعدام والسجن ، فاضطربوا لذلك أيما اضطراب عندما وصفها أنها (دنشواى أخرى) مذكرا بحادث دنشواى الذى وقع عام ١٩٠٦ فى مصر أى بخمس سنوات وقد نجحت إرادة القصر والانجليز على التخلص من قلم عبد العزيز جاويش – هذا القلم النارى بتقديمه للمحاكمة ، ولم تلبث أن أعدت كل المستندات المزيفة التى تدينه ولا تسمح ببراءته غير أن محمود رشاد زيف كل هذه الوثائق وأعلن براءة الشيخ جاويش . . واضطر الانجليز إزاء ذلك إلى سحب قضايا محاكمات الصحف من المحاكم المدنية ، وإنشاء قوانين جديدة من شأنها أن تحاكم الصحفيين عن طريق السلطة الإدارية التى يملكونها .

ولعل محمود رشاد فى قضية عبد العزيز جاويش لم يكن يواجه هذا الأمر لأول مرة ، ولكنه كان قد صمد أمام النفوذ البريطانى فى أكثر من موقف حتى ازعج البريطانيين ازعاجا شديداً ، فأقصوه ونحوه ، بعد أن وقفوا عقبة

فى سبيل ترقيته سنوات وسنوات ، فقد عقد معاشاً لابراهيم باشا فوزى القائد المصرى الذى أصيب برصاصة فى معارك السودان، فعمد الانجليز إلى رفض الحكم وعدم التصديق عليه ، واستصدر قراراً بمنع المحاكم من نظر قضايا السودان .

وعندما حوكم الشيخ جاويش ، وترافع عنه أحمد لطفى المحامى ، وقال كلاما عده المستر برونهوت نائب المستشار القضائى الانجليزى موجبا محاكمته وطلب من محمود رشاد القاضى ورئيس المحكمة إذ ذاك إحالته إلى مجلس تأديب، ورفض رشاد وقال : إن ماقاله المحامى لم يكن إلا ضربا من ضروب الدفاع التى يقولها المحامون عادة .

فقال له وبرنهوت : أنت تقف لنا دائماً فى الطريق . .

* * *

يقول محمود رشاد فى مذكراته (لما جاءت أمامى قضية الشيخ عبد العزيز جاويش فى محكمة ثانى درجة وبرأته، قامت القيامة ، على وهاج الانجليز هياجا شديدا ، واستدعانى المستر برايتون نائب المستشار القضائى وقال : سنرفع نقضا عن حكمك ، فقلت له : إفعلوا ماشئتم) .

ولم يكسب المستر برايتون القضية فى محكمة النقض التى أيدت حكمى ببراءة الشيخ .

فلما جاء دوره ليكون مستشارا فى الاستئناف شطبوا اسمه بعد أن رشح رسميا ، من أجل هذا استعفى وترك لهم كل شىء .

وكانت حيثياته التى أوردها فى قرار الحكم قانونية واعية ، دلت على صلابته فى الحق وغزارة علمه وشجاعته .

فلما استقال راجعته الحكومة ليعود إلى منصبه فأبى ، ولما ألحت عليه ركب إحدى بواخر النيل وسافر إلى أعالى الصعيد .

وأرادت الحكومة استرضاءه بالإنعام عليه بالباشوية فلما علم بذلك كتب يعتذر عن قبولها ، بل تجاوز الاعتذار إلى التهديد فقال : إذا أصرت الحكومة على الإنعام على فإننى أغادر القطر المصرى .

وكتب على طريقته الساخرة إلى داود بركات رئيس تحرير الأهرام يقول :

«كيف أقيد نفسى بهذه الرتبة واتنازل عن حريتى فلا أتمكن من ركوب الترام فى الهواء الطلق بين الناس ، واضطر إلى ركوب الدرجة الأولى التى تضيق الصدر . ثم أن الباشوية ستحرمنى أكل السمك اللطيف والطعمية اللذيذة بدكان الحاج حسين بشارع كلوت بك .

* * *

ومن قضاياه فى حماية حرية الرأى تبرئته الصحفى : أحمد حلمى صاحب جريدة القطر المصرى فى ١٣ مايو ١٩٠٩ من مقال كتبه يدافع عن طلبة الأزهر .

قال فى أسباب الحكم : حيث أن حرية الفكر لا حد لها فللانسان أن يفكر كيفما شاء ولاجناح عليه ، غير أن حرية القول محدودة كحرية الصحافة فلكل واحد الحق فى أن يبرز فكره إلى الوجود وأن يقول مايريد . .)

هذا جانب من حياة محمود رشاد لم يعرفها الكثيرون الذين قرأوا فصوله فى الأهرام والمؤيد والمحروسة عن رحلاته إلى أوربا خلال سنوات طويلة قبل ١٩٠٤ ، ولعله من أوائل الرحالة العرب الذين سبقوا لبيب البتانونى ومحمد ثابت ومحمد فريد وشكيب ارسلان .

ولم تكن رحلاته ذات هدف علمى محدد ، ولكنها كانت سياحة

منطلقة يكتشف بها العوالم ويكتب فى الصحف فصولا عنها ، تتميز بالروعه والطلاقة والقدرة . فهو لا يكتفى بأن يصور المدن والقطارات ومظاهر الحضارة ، ولكنه يرتبط ذلك كله بمشاعره، ويأتى بالغريب اللطيف ولعله العربى الأول الذى رأى الشمس فى منتصف الليل فى شمال أوربا (أغسطس ١٩٠٤) وكتب عن ذلك فصلا رائعا فى المؤيد » .

فقال : « بعد عشرين ساعة من سفرنا من ترونيم دخلنا منطقة الشمش فى منتصف الليل ، فأطلقت الباخرة مدفعا إيذانا بذلك فتجمعنا فى مقدمتها، ومنينا النفس برؤية الشمس ولكنها ضنت علينا بهذا المرام واحتجبت عنا وراء الغمام ، فاسفنا وزدنا شوقا إلى طلعتها الغراء وكأنها أحست بكدرنا وأننا جئنا من أقاصى البلاد نخطب ودها ، فرقت لحالنا وعطفت علينا إذ استجمعت كل قواها ، ووجهت أشعتها الذهبية إلى السحب الكثيفة المتراكمة فى الجوبل أرسلت عليها من شواظا من نار فبددتها . وبرزت الغزالة من خدرها فقرت بذلك أعيننا .. »

وله أسلوب رقيق فى عرض ملاحظاته عن أذواق الناس وأساليب معاملاتهم حيث يقول « إذا دخلت فى أى قهوة فى قهاويهم فاحن الرأس قليلا علامة السلام ولا تتسكع فى مشيتك أبدا ، ومتى جلست فلا تكثر من القيام والقعود ، ولا تسلم فى القهوة على من تعرفه باليد بل اكتف بالإشارة مع بشاشه فى الوجه ، ورقة ، وإذا وجدت كرسيا مائلا على ترابيزة فلا تجلس عليه ولا تحدق ببصرك فى الداخلين والخارجين » .

ويقول : إياك ياصاح أن تجازف وتقص أظافرك عند حلاق فى اكلس أو غيرهامن مدن أووبا ، وعول على مقصك ، وقلم أظافرك بنفسك فإن قص أظافر اليدين أجرته ثلاث فرنكات أى أكثر من أجرة حلق الرأس والذقن معاً : فاحمد الله على ما أنت فيه من الرخاء وادع للحلاق سيدنا الحسين وباب المزينين بطول العمر والبقاء . .

وهكـذا يمضى فيحصى ملاحظاته الدقيقة عن كل مايشاهده ، ويصف مصارعة الثيران وزيارة الحجاج للكنائس الكبرى ، وهو فى كل ذلك جريئا لا يخشى شيئا وأحيانا يسمع عن الكوليرا فى مدينة كالبندقية مثلا فيقول (ولكنى لم أعبأ بها وتوكلت على الحى الذى لا يموت وأبحرت ..)

وحيثما يذهب إلى الروسيا ، والمجر ، رومانيا ، تركيا ، النرويج ، يتحدث عن الملابس واللغة والمبانى والمحاكم والشوارع والأطعمة .

وقد هاجم الأوربيون لأنهم يأكلون الشحم فقال : إنى لفى عجب من أن الأوربيون المشهورين بحسن الذوق والتفوق فى كل شىء ، يقبلون مزج مآكلهم بهذا الشحم العسير الهضم ، الكريه ، صدقنى أن ليس فى الدنيا أكل أفخر ولا ألذ من أكل المصريين والأتراك والشوام والمغاربة وباقى الشرقيين ، والأكل الفرنساوى عندهم خير المآكل ، ولكنى أراه بعض الأكل الشرقى ، طبيخ الخضروات لاطعم له ولا لذه ، وإن كنت لا أنكر تفوقهم فى تنسيق المائدة وأدوات الأكل وحسن الخدمة ..)

فإذا تحدث عن القسطنطينية وإستانبول ، مضى يورد التاريخ ويخلطه بالواقع ، ويجرى خلال ذلك أحاديث مع القساوسة والعلماء ، فإذا مر ببوغاز سلاميس تحدث عن الواقعة البحرية المشهورة بين الفرس ولليونان وانتصار تومستوكل بطل اليونان على اكزركيس ملك العجم .

وهكذا أغنى (محمود رشاد) الأدب العربى الحديث بأحاديثه عن الرحلات وكلها ماتزال فى بطون الصحف لم يطبع منها فى كتاب إلا (رحلة روسيا) وله بحث فى دار ابن لقمان : وكتاب كنوز الذهب فى التربية والأدب

ولد ١٨٥٤ وتوفى ١٩٢٥ . دخل مدرسة المشاة البيادة فى أول عمره ثم كان من ضباط الجيش ، ولم يلبث أن تحول إلى وزارة المعارف

مفتشا واشترك فى مؤتمر المستشرقين الدولى فى فينا ، ثم عمل قاضيا بالمحاكم حتى اعتزلها على أثر الأحداث الوطنية التى كان فيها مثلا للنزاهة والشجاعة ، وشىء آخر من تاريخه لا يعرفه الكثيرون ، أنه الشقيق الأكبر لشيخ العروبة أحمد زكى باشا وهو الذى رباه وكان لا يذكره أحمد زكى إلا بقوله (الوالد الشقيق ..)

(توفى ١٩٢٥)

من مؤلفاته : كنوز الذهب فى التربية والادب .
: رحلة إلى الروصيا .
: الرسليات .
: مقالات فى جريدة الأهرام عن رحلاته ١٩٢٣ وما بعدها .

— ٤٩ —

محمود مختار

١٨٩١ — ١٩٣٤

تتمثل فى « محمود مختار » حياة فنان وصاحب قلم وشاعر . فلم يكن نحاتا يحفر الصخر بقدر ما كان فيلسوفا مفكرا ، يؤمن بفنه ويرسم له من خلاله رؤيا عبقرى ، كان الفن أداته لتصوير مشاعره والتعبير عن مفاهيمه فى الحياة والدين والاجتماع . أنه ثمرة من ثمار هذه المرحلة من حياة مصر والأمة العربية ، مرحلة الكفاح من أجل تأكيد الذات ، والتعرف على الشخصية ، واقتباس مناهج الغرب فى فكره وأدبه وفنه لاتخاذها قوالب لفكر عربى وأدب عربى وفن عربى . كذلك كان مؤمنا بقومية الفن أساساً ، وكل أعماله الضخمة المتعددة تؤكد هذا الإيمان وتدعمه .

* * *

هكذا كانت كلماته فى صبيحة عمله الضخم « تمثال نهضة مصر » :

أهم ما أطمح إليه وأعمل له إيجاد « فن مصرى » يتمشى مع روح القرن الحالى، ويكون فى الوقت نفسه مرتبطا بالتقاليد المصرية ، لأن الفن قبل كل شىء قومى، وإذا صح أن يقال إنه ليس للعلم وطن، فمن المحقق أن للفن نزعة قومية قوية ، فالفن قوة وطنية كبرى ، لأنه يرقى نفوس الشعب ويمتزج بحياته ، فى كل أدوارها وفروعها ، ويبعث فى نفوس الناس حب الوطن بتنسيق تقاليده ، والأعراب عن إرادته وأمانيه ، وتخليد تاريخه .

ومهمة الفنان المصرى من أدق المهمات وأصعبها ، لأنه ناشىء، وليس فى وسعه أن يقلد الفن المصرى القديم ، ولا أن يقلد الفن الغربى ، بل لا بد له من إيجاد فن قومى حديث .

فإن الفن المصرى القديم ، جرى على قواعد كانت لها قوتها فى ذلك

الحين ، فقد روعيت فيه العادات والعبادات مما يتنافى مع روح العصر الحديث ومقتضياته ، ومع هذا فإن الفنان إذا قلد قديما ، فإنه يخرج عن دائرة الفن ويصبح عاملا ماهرا مهما بلغ اتقانه التقليد .

وليس فى استطاعة الفنان المصرى أن يتبع الفن الغربى الحديث ، لأن لهذا الفن صبغته القومية ، ولأنه جاء نتيجة جهود طويلة بذلتها أجيال متتابعة ، وإيجاد الفن القومى فى مصر مهمة شاقة ، يتعين لها عمل كبير ، زمنا طويلا ، ومما يزيدها مشقة وصعوبة قلة التشجيع ويشجيع الفنون بين الأمم كان يجىء دائماً فى بداية نهضتها ،

إن الفن المصرى القديم لم يتأثر فى عهده بالفنون الأخرى ، لأنه كان أول فن مكمل متمم استمدت الفكرة فيه من الطبيعة ، ولأن الروح القومية فيه كانت قوية جداً ، ولذا تأثر به الفن اليونانى والرومانى والأشورى دون أن يتأثر بها ، وأخذت عنه دون أن يأخذ عنها ، ثم عمد الفنانون اليونان والرومان والأشورين إلى تكييف فنهم بعد ذلك طبق أديانهم وعاداتهم ، وكان الفن المصرى نفسه بتكيف أيضاً بحسب الظروف والعصور . وإذا رؤيت التماثيل المصرية متشابهة متماثلة فإن عين الفنان والأثرى ترى بينهما اختلافات عدة بحسب الأزمان التى نحتت فيها ، وإذا كان الفن اليونانى يسمى أبا الفنون فان الفن المصرى يسمى جدها » .

* * *

هكذا كان مفهوم محمود مختار للفن بعد أن عاش خمسة عشر عاما فى أوربا ، كانت أصالته وإيمانه لايزال قوياً لم يتزعزع ، بل ربما ازداد قوة بعد الدرس والتجربة . لقد تطلع محمود مختار منذ دخل كلية الفنون الجميلة عام ١٩٠٦ ومنذ سافر إلى باريس إلى أن يقدم لأمته شيئاً يكون فيه رائد وفنانا أصيلا وقد قدم الكثير حتى جاء اليوم الذى يصور فيه آماله وأعماله .

يقول : لا أريد التفاخر إذا قلت أن الظروف جعلتنى بحيث يمكننى ويحق لى ، بل يجب على أن أقول مايقتنعى عمله لتنمية الفنون الجميلة وترقيتها فى مصر ، فقد درست هنا بمدرسة الفنون الجميلة أربع سنوات على يد كبار الأساتذه ، ودرست عشر سنوات بمدرسة الفنون الجميلة العالية بباريس وهى من أكبر مدارس العالم ، واشتركت فى معارض الفن ومجامعة ومعاهده وتفحصت المتاحف العالمية المختلفة بعناية ، وكان ذلك كله يزيدنى إيمانا بأننى مصرى ، وإن مصر صاحبة المجد الفنى القديم العظيم ، لا أثر للفن الحديث بها ، والواقع أنه ليس فى وسع أمه أن تعيش وتنهض بدون الفنون الجميلة حتى تتمشى مع نهضة البلاد فى الفنون الأخرى » .

تلك كانت أمنيته : أن يكون هنا فن مصرى حديث .

ومن أجل ذلك عمل دؤوبا حتى أنشأ مائة وخمسين تمثالا ، وثلاث تماثيل ميدان مستلهما الفن الفرعونى دون أن يقلده .

وكان مختار قد لفت الأنظار إليه فى باريس منذ عام ١٩١٤ فقد ظهرت أول بوادر نبوغه فى تمثال (عايده) وكان أستاذه مسيو كوتان صاحب تمثال الحرية الشهير القائم فى ميناء نيويورك .

ثم كان تمثاله الذى أعطاه نصف شهرته : «نهضة مصر » الذى استوحى فيه ثورة ١٩١٩ . وكان قد ترك متحف جريفان فى باريس الذى تولى إدارته ، وتفرغ لعمل هذه الفكرة التى عاشت فى أعماق نفسيته عامين كاملين .

وقد شوهد تمثال نهضه مصر فى معرض باريس ، ولفت نظر كبار المصريين الذين قدموا إلى مؤتمر الصلح ، كما أعجب الفنانين من كل مكان ، ووجد صدى كبيراً ، هناك بدأت فى مصر حركة ترمى إلى تكبير هذا التمثال

وإنشائه على نحو ضخم ، وإقامته فى ميدان عام وحمل لواء الدعوة (أمين الرافعى) فى كلمة وجهها إلى الأمة المصرية فى ٢ أبريل ١٩٢٠ مطالبا بمساهمة الشعب فى هذا العمل ، لإقامة هذا التمثال فى مصر تقديرا لوطنية مختار وتشجيعا لنبوغه ، وقد شارك فى هذه الدعوة ويصا واصف ، وحافظ عفيفى ، وسعد زغلول ، وعمر طوسون ، وواصف غالى ، ومجد الدين حفنى ناصف ، ومنح المجمع العلمى الفرنسى مختارا شهادة الشرف وفى فبراير ١٩٢٠ قدم مختار إلى مصر وسافر إلى أسوان للبدء فى اقتطاع أحجار الجرانيت الصالحة للنحت .

ومضى مختار يعمل فى إخراج تمثاله إلى حيز الوجود حتى تم له ذلك عام ١٩٢٨ ، وقد ظل مختار يعمل بأزميله فى الصخر الصلد حتى استوى فنا يترقرق بالحياة ، إلى أن أزيح الستار عنه فى مايو سنة ١٩٢٨ فاهتزت مصر لهذا العمل ، وشاركت الصحافة فيه ، ووقف شوقى يحيى المثال مختار وكانوا يطلقون عليه من قبل لقب (الحفار) .

لقد بعث الله عهد الفنون ... وأخرجت الأرض مثالها
تعالوا نرى كيف سوى الصفاة ... فتـاة تـكلكم سربالهـا
دنت من أبى الهول مشى الرؤم ... إلى مقعـد هاج بلبالهـا
وقد جاب فى سكرات الكرى ... عروض الليالى وأطوالهـا

* * *

وقد أثار التمثال مناقشات ومساجلات ، فهو أول تمثال نحت من الجرانيت منذ عهد الفراعنة وكان الفنانون منذ العصر الرومانى قد عدلوا عن ذلك النوع من الحجر إلى غيره من المواد المرنة ، وبالرغم من ذلك فقد كان المصريون لا ينحتون تماثيلهم الكبيرة إلا من الجرانيت ، وقد اختار مختار الجرانيت الوردى للتمثال على قاعدة من الجرانيت

الأسود ، وقد نقلت الأحجار من أسوان بطريق النيل وبلغت زنة الكتلة الواحدة خمسة وأربعين طنا .

وقد وصفه أحمد لطفى السيد (وهو غير لطفى السيد باشا) فى جريدة الأهرام[1] قبل إزاحة الستار عنه على نحو يصور مفهوم (مختار) فى إنشائه : قال :

إن أبا الهول العظيم ينهض رأسه وصدره عن رمال الصحراء الأبدية وقائمتاه الأماميتان تو ترها الحركة ، وعيناه اللتان ظلتا مغمضتين أبدا يلمع فيهما إدراك الفجر ، وإلى جانب أبى الهول هيفاء جميلة رمز بها إلى الأمة المصرية وهى تزيح الخمار الذى حجب قدها عن عيون العالم المتمدن ، إزاحة المعتزم المصمم ، بوجهها إلى السماء يصيح : يامصر إلى الأمام . أما أبو الهول فقد أزاح مختار الغموض العتيق الذى صوره النحاتون الأقدمون ، وبدت دهشة الإعجاب فى ناظريه ، والمرأة رمز لمصر ،فتدل على إدارة ثابتة قوية فى المستقبل ومجموع التمثال يدل على أن صانعه جمع بين صفات الفنان والشاعر والمفكر : نهضة الأمة المصرية « ولم يجعل مختار أبا الهول تام اليقظة بل اجترأ أن يصوره وقد بدأ يستيقظ من رقاد القرون ، والمرأة قد أزاحت بيدها اليسرى قناعا قد صار كفنا من الأكفان » وتدل ذقنها على عناد فى الحق شديد ، ويداها تدل على كرم محتدها ، جذابة خلابة ، جلال موقفها ، عظمة ووقار فى محياها ، وهى تفيض على أبى الهول ذلك السبات الذى انغمس فيه أبو الهول العتيق ، عيناه تبرقان ، وكأنما تستقبلان فجر عصر جديد . . »

هذه هى الصورة التى رسمها كاتب ، أحب فن مختار ، وذهب إلى خيمته ووقف عنده طويلا وتحدث معه ، وهو يعمل أزميله فى الجرانيت الوردى

---

(١) ٢٠ مايو ١٩٢٨ ـ الأهرام

غير أن بعض الكتاب لم يعجبهم عمل مختار وحملوا عليه . . ونقدوه ، وربما كان للسياسة دخلها وفى مقدمتهم ابراهيم المازنى ، وهنا تتجلى شخصية مختار الكاتب المثقف ، صاحب النظرية العلمية الواضحة فى الفن ، فقد أخذ يكشف عن مفهومه للتمثال ويرد على اعتراضات المازنى : قال :

« أبو الهول رمز المدنية الفرعونية ، والعظمة الفرعونية تنهض ، والأمة المصرية واقفة إلى جانبه فخورة بماضيها المجيد ، بلألاء عزها الأزلى ، تنزع عن نفسها الستر وتظهر لشعوب الغرب الذى ظلت محجوبة عنها قروناعديدة ، تلك هى «نهضة مصر» ممثلة فى كل شىء فى التمثال، كل إشارة، كل وقفة، كل وضع، وإن حركة الذراعين ، وطيات الرداء ، إن ذلك كله ليساير تلك الفكرة السائدة الشاملة ويدلل عليها فكرة نهضة مصر . كل ذلك يؤلف كلا لايتجزأ عناصره كلها ، أجزاء من المجموع ، لا انفصال لها عنه ، حاولوا أن تقطعوا التمثال نصفين ، إذن تبترونهما الأثنين : المرأة وأبا الهول ولا يمكن لأحدهما أن يكتفى لنفسه ليمثل كلا متجانسا ، فى الحس وفى المعنى، وإنما التمثال فى عالم النحت وفنه ، يجب أن يكون كتلة ، ويجب أن يكون وحده ، أليس ميكل أنجلو هو القائل : كى تكون تحفة نحتية جديرة بهذا الاسم ، يجب أن تقذف بها من شاهق،تظل عناصرها المكونة لها متماسكة لاينفصل أحدهما عن الآخر ويجب أن تبقى بعد انحدارها كاملة خالصه أو أن تتحول رماداً وتذرى فى الهواء .

لماذا تسند المرأة ذراعها على رأس أبى الهول ؟

أنها إذا استندت متكئة فإنها هى تظهر مظهر التعب ، ثم إنها خضوعا منها لقوانين الأعضاء ووظائفها ، يجب أن تثنى ساقيها وهى إن اضطرت لهذا فقدت من نبلها ومن همتها ، وظهرت مظهر الليونة والتردد ، وهى فوق هذا تكون أفسدت نظام التكوين وتناسق المجموع ، إذ أن ذراعها

وقد اتكأ بكل ثقة ، يحول دون انطلاق أبى الهول فى حركاته وانسيابها ، فكأنها تمنعه على العكس من النهوض .

إن الإنسان ليس أبهى روعة منه حين يقال : « أنه قد وقف ، أنه ناهض ، أنه يبث الهيبة فى النفوس » أفليس من دلائل سمو الإنسان على الحيوان نهوضه ووقوفه . فإذا أنت أردت أن يدل التمثال الذى نقيمه فى وضع الأمر على سمو العقل وسلطانه فعليك أن تقيمه جامدا غير متحرك ، وأن تمثال أبى الهول ، ومنيرفا وبوليمى فى متحف اللوفر ، لتظهر للناس كلها ناهضة واقفة ، وأكبر تماثيل روما وفلورنس التى تحتل بلديات ايطاليا تظهر ناهضة ، واقفة أيضا ، لا متحركة ولا سائرة .

والوضع الاسمى فى النحت ، هو وضع اجماعة (المرأة والتمثال) الذى تتمثل فيه عبقرية النحات الكامنة ، وما التماثيل إلا أثر الفن الحسى وخلاصته ، وما الجماعة إلا أتم مظاهر هذا الفن ، بل أنها نهاية مايصل إليه ابتكار الفن ، وأن المثال لايستطيع ما يصل أن يحس عاطفة تذهب به إلى أبعد من هذا الحد ، وإنا إذا لاحظنا المثال فى تكوينه العقلى ، فإن موضوع عمله يجب أن يكون التمثال نفسه ، لكنا إذا سايرناه بعد ذلك فى الحياة ، وسألناه عن العمل الخطير ، الذى يجب أن توجه إليه جهود ذكائه وارادته ويده فان الجماعة هى التى تطالبه بإخراجها لنا ، إذ بالجماعة يعرب الفنى بالحس عن فكرة سامية يجسمها برموز مختلفة أو فى أشخاص متعددة يمثلونها جميعا ، ويوسعون نطاقها ، ... ويودعونها العظمة والتجلى فى حدود قوانين النحت طبعاً ، إن التحفة الفنية رمز خارجى متسق جلى لإراء يكون الغرض منها أن توقظ فى أعماقنا فكرة الفن المستمرة التى تتصل حقيقتها الداخلية بعالم الآراء وحده ، وهذا هو الذى يفسر اختلاف الأثر الذى يتركه عند الأفراد مشهد أبى هول الجيزه .

أنا أنظر إليه كنحات ، فهو عندى قد انتهى من أن يكون عمل

إنسان ، إذ عمل الفن فى تمثال الجيزة قد حل محله عمل الدهر المتوالى ، وإنما الدهر هو الذى يتم عمل النحات ، وهو قد فقد معناه الأصلى الأول ، وليست قيمته الآن إلا بما فى كتلته ولونه وهيكله .

إن الفنيين الذين أقادوا (أبو الهول) كانوا قد وضعوا بين ساقيه تمثالا واقفا لإلهة أو لكاهن وأن الأيام قد هدم هذا التمثال ولقد كان تهدم هذا التمثال من حسن الحظ حقا ، أن منظر أبى الهول بعد أن أزيحت من حوله الرمال لا يتذوقه مزاجى بل هو يتعارض فيما أرى مع الأصول الفنية ، وإنى لأفضله والرمال تسدل عليه غطاءها فتلبسه رداء يحجب عنه ما يجرح الأنظار من فقد متناسق .

أما القول: بأنه لماذا لا ينهض «أبو هول مختار» رافعا ساقيه من الخلف ، فنقول : أن لأبى الهول وهو مخلوق وهمى ، جمع بين الإنسان والحيوان أن ينهض كما يريد من الخلف أو من الأمام أو على رأسه ، والواقع أن الفن لا يصح فنا حقا ، إلا إذا هو عرف كيف ينجو من الحقيقة ليصل إلى الخيال والهوى . والواقع أنى كنت أستطيع أن أجعل أبا هولى ينهض على رأسه أو على ذيله ، وكل الحيوانات تنهض رافعة ساقيها إلى الأمام ماعدا الجمل ، هو الوحيد الذى ينقض القاعدة ، أما أبو هولى فعلى العكس من هذا لا يزيد أن يمثل قوة ساكنة حكيمة واردة هادئة رصينة .

أن أبا الهول رمز الماضى الفرعونى المجيد ، ورمز المستقبل القريب ، ينهض فى حين أن المرأة ترفع عنها الستر الكثيف الذى كان حجبها عن أمم الأرض خلال آلاف من السنين ، وأصابعها التى وضعتها بخفة فوق أبا الهول إنما تدل على تتابع الحلقات وارتباط الحاضر بالماضى وهذه الأمة المصرية بحضارتها المجيدة المبعوثة . . »

* * *

ولا ريب أن مفاهيم مختار ممثلة فى أسلوبه البارع على مدى ثقافة الفنان وفهمه لعمله وقدرته فى الدفاع عنه على نحو يضعه فى صف الكتاب والباحثين ، وهو كذلك حقا ، بدأ حياته بالكتابة ونظام الشعر .

وهو عندنا من الأعلام أصحاب الأقلام ، كما عرف بالخطابة فى إبان حركة مصطفى كامل فقد قاد مدرسة الفنون فى مظاهرة ففصل مع خمسة عشر من زملائه .

وعند ما سافر إلى باريس ، مر بأقسى تجربة ، تجربة الحزن والأسى على مفارقة الوطن وهنا قال الشعر :

أعلل نفسى بالمعالى تخيــــلا فياليت أمال الخيــــال تكون
سأرفع يوما للفنون لواءها ويبقى لذكراهـــا بمصر رنين

وقد كان مختاراً مثقفا عزيز المعرفة واسع المطالعة ، عالما بالنفس الإنسانية ، قد تعمق روح وطنه ، وكانت قريته هى رؤياه التى عاشت فى اعماقه فتمثلها من بعد ، خلال الأعوام الستة عشر التى عاشها فى الريف ، وقبل أن يهرب منه إلى القاهرة ، فقد غمرت روحه الطبيعة الجميلة فى هدوئها وصمتها وبساطتها فكانت عنصرا فعالا فى تكوين استعداده الفنى ، بالإضافة إلى ما حملته ذاكرته فى أول صباه من قصص وأساطير وروى وملاحم ، وما أدخرته روحه من شعر الربابة ، وموسيقى الساقية ، وشاطىء الترعة وشجرة الجميز فكان له من هذا الحصاد الضخم ذخيرة خصبة صبها بعد ذلك فى تماثيل رائعة ، وحولها إلى فن عظيم ، ما زال قوى الأثر فى نفوس مشاهديه .

وفى باريس أحب مختار « مارسيل » التى أسعدت روحه وكانت عاطفته عاملا من أسباب نجاحه . بعد أن عاش فى صراع بينها وبين أختها الأخرى مما سجله فى مذكراته حيث يقول :

وكنت أسكن بولفار رسباى بحى مونبارناس وأتناول طعام الغذاء عند عائلة متوسطة الحال . مكونة من سيدة كبيرة لها بنت فى العشرين وأخ وابنة أخ فى الثانية والعشرين . وكانت ابنتها جميلة المحيا حقا . أما بنت أختها فليست من الجمال فى شىء ولكنها كانت مع ذلك تنتصر فى كل مجـــال بما حباها الله به من ذكاء وخفة روح . فقد كانت ممتلئة حيوية وفطنة .

وجعلت ألاحظهما وأدرسهما كفنان وكثيراً ما وجدت جمال النفس ينتصر على جمال الجسم . وهذا مما يثبت بداهة . ما يجب على الفنان عند ما يريد تصوير إنسان : أن يتغلغل فى قرارة نفس الشخص الذى عليه تصويره أو تمثيله . فمن القواعد المعروفة والتى كانت تدرس لنا أن الشبه وحده لا يكفى للدلالة ، بل هى الروح والخلق التى يجب نزعها وإخراجها على وجه الشخص ، فلما شرعت فى عمل تمثال لكل منهما جاء عاملان فحالا دون الوصول إلى النتيجة التى كنت أنشدها . وربما كانت الخيرة فيما وقع ، وأنا الآن وقد فاتت نزعة الشباب ، ذلك لأننى كنت متحمسا فعلا للنتيجة . ولكن ترى هل كان تكوينى يومئذ يمكننى فعلا من الوصول إليها .

أما العامل الأول فهو أننى كنت قد بدأت أميل إلى التى كانت غير جميلة فجعلنى هذا الميل أراها أجمل مما هى ، وكان العامل الثانى إعلان الحرب الكبرى فنزحت العائلة عن باريس إلى مسقط رأسها فى الأقاليم » .

* * *

ولم يكن فن «مختار» مصرياً بمعنى الاستجابة للفن الفرعونى بل هو استلهم الفن الفرعونى ولم يقلده، كما استلهم الفن العربى الإسلامى كله ، فقد كان مصريا عربيا مسلما فيه ذلك المزيج من الثقافة والفن والحضارة الإسلامية وقد استولى طابع البطولة العربية على تماثيله ، فأقام تمثالا لخوله بين الازور، المرأة التى حررت نساء تبع وحمير من أسر الروم ، وتمثالا لطارق بن زياد، وتماثيل لمحمد فريد ومصطفى كامل . وتماثيل للحب وابن البلد ، وملكة سبأ، وخالد وعلى بن أبى طالب ، وطارق ، وتمثال الفلاحة ، وشاطىء النيل ، ومدخل القرية ، وحارس الحقول،وفلاح فى السوق،وشيخ البلد والفارس والحصان .

وبذلك جمع بين كل طوابع الفن لم يقتصر على اللون الفرعونى أو المصرى وحده وإن كانت مصريته أغلب بحكم فهمه أن الفن قومى أساساً .

تلك رؤاه فى خمسة عشر عاما فى باريس ، أعادت له صورة القرية ، ومصر ، وأعادت إليه تاريخ العرب والإسلام ، وقد جعل مختار الفن قدس روحه فعاش له متصوفا ، لم يكن حفيا بالمادة ، وكانت عاطفته الفنية تستغرق حواسه ، وعاش فقيراً ومات فقيراً ، وقد أفعم قلبه روح القرية فى بساطتها وهدوئها ، وعمقهـا ، وأحب الفلاح وتمثلت فى نفسه روح الفن .

* * *

عاش السنوات السبع الأخيرة من حياته مريضا ، ولم يحل مرضه دون عمله ، كان الداء يأكل جسمه ، وهو مصر على العمل حتى كفت يده وتوقفت ، وقد عاش حياة قلقة ، لم يجد من التقدير ما هو أهل له ، ولقى عنتا كبيراً ، كانت الحزبية والصراع بين الأحزاب والحكومات مصدراً لمتاعبه ، لم يحصل على مكافأته عن عمله إلا عن طريق القضايا والمحاكم،كانوا لا يفهمونه على حقيقته ، ولايجد التقدير الذى هو له أهل . لذلك كان عازفا عن الإقامة فى مصر ... يقول فى مرارة : « إننى لست موظفا ، إنمـا أنا رجل من رجال الفن استخدمتنى حركة النهضة المصرية فأردت أن أضع لها

تذكاراً تاريخياً يدون على مر الأحقاب ما جاس فى صدر المصريين جميعا ».

* * *

وكان مختار دمث الخلق حبيا ، سمحا ، وكان ضخم الصوت، وصفه أحد الظرفاء فقال : « إذا ارتفع صوته تسلخت بعض شعبه ، وإذا تحدث سواء بالعربية أو الفرنسية سمعت لفظ «مجاور» متحذلق فى تطجينة عامل من سكان الخارطة بجوار سيدى أبى السعود » .

وكان صديقه الدكتور محمد صبرى السربونى، يراه دائما عاكفا على تاريخ مصر القديم شغوفا به ، وكان إلى جانب ذلك يحب مجالس الأدب والندماء، ويغشى مجالس حافظ إبراهيم، ويهوى فكاهاته المرحة الساخرة، ويحب الطفولة والحيوان ، ويقول عن نفسه : « إننى مثل الدب أحتفظ بهدوئى وسكينتى ، ولا أعتدى على أحـــد ، ولكنى مثله أيضا أثور وأحطم عندما يعتدى على أحد » .

عاش ثمان وأربعين عاما ، ومات باكراً ، وكانت كلماته عن الفن ضوءاً مشعا لمن جاءوا بعده :

« ليس الفن ترفا ، الفن قوة قومية ، إنه من المنابع الحية للثروة والرخاء وهو ضرورة لكل شعب ، بقدر القوة المعنوية التى يبعثها ، إن الدين والتاريخ وكل خصائص الشعب تتجلى فى أبسط مظاهر الفن ، كل القوميات يتطلب من فها أن يعبر بوضوح عن مميزاتها وخصائصها ، ترى فيه النواة الضرورية لتوسعها الاقتصادى، يجب أن تكون قطعة العملة قطعة فن تتجلى فيها آثار الفن ومميزاته فهى صورة مجسمة للمثل الأعلى ، بل هى رمز بما يقصد من المعنى الأول لهذه الكلمة ، فإذا كانت الأحجار النفيسة حلية الأمراء فيجب أن تكون العملة حلية الشعب » .

وهو يردد قول رودان : « إن الفن الخفاق بالحياة لا يبعث أعمال الماضى ولكنه يستمد منها ما يكملها » .

توفى فى ٢٦ مارس ١٩٣٤

كلماته وآثاره وكتاباته فى الصحف :
الأهرام ٢٤ يونية ٢٦ ، ٢٠ مايو ١٩٢٨
الصحف ٢٧ مارس ١٩٣٤
السياسة الأسبوعية ١٩٢٧/٤/٢ ، ١٩٢٦/١١/١٣
الاهرام ١٩٣٤/٣/٣٠

— ٥٠ —

مصطفى الغلاييني

(١٨٨٦ — ١٩٤٥)

من خلال دراسة واسعة للأدب العربى المعاصر يبرز اسم (مصطفى الغلايينى) بين كتاب جيله على نحو رائع حقا يلفت النظر ويدعو إلى متابعته فى مؤلفاته وكتاباته، فهو يمزج بين الأدب والسياسة والإسلام والعروبة والنثر والشعر، وهو معلم وصحفى وشاعر وكاتب وخطيب، وهو من أهل بيروت ولكنه يرى وكأنه يعيش فى العالم العربى كله ، وهو ليس مكثرا إلى الحد الذى يلح دائما على قارئه أينما التفت ، غير أنه على الرغم من يسر كتاباته فانه يبدو من ورائها مفكرا وإنسانا ، مهموما بأمته وأزماتها ، مشاركا فى السياسة والإصلاح ، مهاجما كرومر ومصححا رأيه فى الإسلام ، مخاصما الاستعمار الفرنسى مضطهدا له ، مؤمنا بحق وطنه العربى الكبير ، مدافعا عنه ، مؤمنا بجوهر أمته ، كاشفا عن معدنها الأصيل ، متطلعا بروح المفكر الطموح إلى أمل من وراء الصورة الغامضة المبهمة، مستمسكا أشد الاستمساك بمقومات الأمة : اللغة والدين والتاريخ والتراث.

وهو فى كل مجال إمامه ، وفى كل ميدان قائده ، فهو الشاعر الرقيق العاطفة ، وهو الناظم الذى لا يتوقف عن المئات متى أراد . وهو الكاتب حلو العبارة دواما القوى العارضة متى كان فى موقف الدفاع عن الحق . وهو الخطيب الجهير ثم هو القاضى ورئيس المجلس الإسلامى وعضو المجمع العلمى . وهو صاحب مجلة (النبراس) التى مازال مجلداتها تروى قصة كفاح وإيمان فهو الداعى لأصحاب القلم إلى العمل من أجل أمتهم ، المهيب بهم أن يشرعوها كالسيوف .

وأيها الكتاب وأرباب الصحف : أين أقلامكم فاشرعوها . وأين محابركم فاملأوها ، وأين طروسكم فانشروها ، لاتخطوا سطرا إلا وأنتم واثقون كل الثقة أنه ينهض بها ولا تكتبوا فصلا حتى تعلموا أن وراءه فائدة عظمى ومنفعة جلى ، دعوا الاعتراض جانبا واطرحوا المطاعن قصيا ، فان ذلك لايزيد الأمة غير تأخر إلى الوراء واكتفوا من السياسة بلبابها وصحيحها، ومن الأخبار بقليلها وأوثقها ، وأكثروا من نافع القول ومفيد الكلام .

أيها الشعراء : دعوا الغزل والنسيب والمدح الهجو وخوضوا غمار الحماسة وغوصوا على معانى المجد وصوغوا للأمة عقودا من الإباء والشرف ،وسيوفا حـــدادا تكون لها عونا على اقتحام الغمرات واحتمال الويلات واذكوا بكلامكم الحى نار همتها واحرقوا خشب رقدتها .

أن الزمان قد استدار ، وأن الحالة اليوم تطلب رجالا غير رجال الأمس فمن قام أفلح ومن بقى قاعدا أطال قعوده ، ومن لم يزل نائما فلا يرجى له تنبه ومن ظل خاملا فلا أمل بانتباهه ولا رجاء بترقية ، فاستفق من غفلتك وتنبه من رقدتك وأعلم أنك إن لم تأخذ بأسباب العلم وتتمسك بوسائل النهوض فستبقى كما أنت الآن أقل الأمم مدنية ، وأقلهم عملا — وأقلهم علمـا .

أنك أيها الشعب العربى أولى الجميع بهذه النهضة فان الأغربة فوق أطلال مداوى بغداد ودمشق وغرناطه والقيروان وغيرها لا تزال تقرع سمعك بنعيقها وتذكرك بماكان لأمتك من سالف المجد فى ذلك العهد . . .

ولا شك أن هذه العبارات تحمل صورة الإيمان والقوة ، وترسم دفعة كاتب مجاهد، وماأعتقد إلا أننا فى حاجة اليوم إلى أن نتدبر هذه الكلمات بعد أن مر على قول قائلها أكثر من خمسين عاما ، وهى تكشف عن طابع المجاهد المتطلع إلى مجد أمته ، أكثر مما تكشف عن صورة الصحفى الذى يسجل الأحداث ويقف منها موقف الحيرة ، وإذا كانت هذه مطالع كتابات

الغلايينى فهى طابع حياته كلها من بعد ، رجل نذر نفسه لأمته وفكرها وحريتها بقلمه وعقله ، ولقى فى سبيل صدقه كل اضطهاد وسجن وتعذيب وتشريد . ولكنه بقى كالجوهر النقى مازال يحفظ له التاريخ اسما كريما مشرقا بين صفحات الأدب والفكر حتى أننا بعد عشرين عاما نعود فنذكره ، ونحس به حيا بين صفحات الأدب والفكر .

* * *

٢ — وفى مجال الشعر أصدر ديوانه سنه ١٩٢٥ مصورا مفاهيمه الشعرية: يقول : أولعت بالشعر حدثا فنظمته غلاما ، قبل أن أدرى ما النحو وما العروض ، وإنما كنت أنظمه متغنيا أنحو بغنائى فيه منحى ما كنت استظهره من الشعر فى المدرسة ، كلامية العجم ولامية العرب ولا أتطاف الشعر ولا أنظمة الالداع . وقد تمضى الأشهر لا أنظم بيتا واحدا . وقد أنظم فى الشهر مئات الأبيات . وقد اخترت قبل الحرب العامة (يقصد الأولى) مما نظمته ديوانا ينيف على الفى بيت وأضفت إليه شيئا من شعر الغلومية (الاسم من الغلام) وأتلفت ماعداه من كل شعر قلته . غير أن يد الدهر أيام الحرب سطت على هذه الأوراق فبعثرتها إلا قليلا منها .. ولما نكث الحلفاء عهودنا هاج الشعر فى نفسى فنظمت عدة قصائد فى الحماسة والسياسة الوطنية وبعد أن رجعت إلى بيروت فى آذار سنة ١٩٢٢ قنص بى الافرنسيون وأودعونى سجن الشرطة فى بيروت . ثم سجن القلعة فى جزيرة أرواد . كان الشعر يهتاج فى نفسى أيام المحنة . فنظمت فى سجنى ديوانا سميته (شعرى سجين) ولما سجنت فى المرة الثانية فى السجن العسكرى الأفرنسى فى بيروت عام ١٩٢٤ نظمت قصيـــدتين وبعد أن فك عقالى بعثت إلى فلسطين فنزلت مدينة حيفا المطل عليها جبل الكرمل . ذلك الجبل التاريخى ذو الموقع الجميل والمناظر الساحرة .

وقد نظمت فى هذه المدينة الجميلة قصائد كادت تبلغ خمس مئة [1] بيت

---

(١) هكذا كتبها وهى صحيحة .

وهكذا عايش الشعر الغلاييني . وعايشه الغلاييني . كان قطرات روحه وموضع سره . ومصدر افضائه . يسر إليه كل مايمر من أزمات ، وهكذا خلال هــــذه الفترة المضطربة التي عاشها كان الشعر رفيق وحدته وصفى سجنه . . .

وعنده أن أغراض الشعر كثيرة : حكم وموعظة وفخر وحماسة ووطنية وسياسة . وغزل ونسيب . ولكنه ما رأى أدعى إلى الشعر من (نوابض الحب وحدائق السياسة فانهما تهيجان الشعور هياجا لا يهيجه غيرهما) عند ذلك (تفيض عند ذلك نفس الشاعر أما بالبكاء لما ناب وأما بإثارة شعور الأمة الخادعة . يشرح لها الويلات والنوائب . وينذرها عاقبة الخمول والسكون ويذكرها بمآثر الأسلاف ويزرى على مثالب الأخلاف فلا يزال يهيب بها حتى تختلج فتتحرك) .

وهو الشاعر الذى آمن بالعروبة ودعا إليها :

قالوا تحب العرب قلت أحبهم	حبا يكلفنى دمى وشبابى
مهما لقيت من الأذى فى حبهم	أصبر له والمجد ملىء اهابى

* * *

٣ — وفى مجال الإيمان بالعروبة يبدو إيمانه (بالعربية الفصحى)

« ما العربية إلا أمنا التى غذتنا بلبانها ، وأفاضت علينا من جمـــالها وعبقريتها . ومن أجدر بالتكريم من الأمم . ومن عق أمه فقد عق مجده وشرفه وأضاع عز وسؤدده ، واللغة عنوان القومية وعلم مجد الأمة ورمز شرفها وما فرط قوم فى جنب لغتهم إلا ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب التاريخ . وسخط من يأتى بعدهم من الأجيال » .

وهو من أجل هذا معنى باللغة له فيها دراسات وأبحاث جمعها فى كتابه (نظرات فى اللغة والأدب) ولقنها تلاميذه فى المعاهد المختلفة .

وفى (مجال الإسلام) له دعوته ورسالته وإيمانه الصادق ، وكتابه الذى

أصدره عام ١٩٠٨ (الإسلام روح المدنية) يحمل طابعه فى النقد والسجال، فقد جاء ردا على ماوجهه اللورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة من حملة على مدنية الإسلام أورد فيه بالحجة ما ينقض رأيه ودلل بالشواهد والحجج الكثيرة — ومنها أراء الغربيين أنفسهم على — سلامة الإسلام وشموله وسماحته حتى قال : « لو عرف اللورد كرومر اللغة العربية ودرس تاريخ الإسلام درس المجرد من النزعات السياسية — والأهواء الاستعمارية لما كتب ما كتب ».

وقد بدا فى كتابه عنيفا محتدا ، وتمنى الكثيرون لو خلا كتابه من العنف ليكون أدنى إلى البحث العلمى وأبعد عن مظنة التحامل . . . .

وفى نفس الطريق نرى كتابه فى الرد على كتاب السفور والحجاب المنسوب إلى نظيره زين الدين ، هذا الكتاب الذى أثار ضجة كبرى فى الصحافة العربية وأولاه الكثيرون اهتمامهم على أنه من تأليف الموسوم باسمها ثم لم يلبث مصطفى الغلايينى أن كشف عن هذه الخدعة وأشار بأصبع إلى المؤلفين الحقيقيين للكتاب الذى أريد به خلق ضجة من نوع آخر وليست أشبه بضجة قاسم أمين وقال فى نقضه « كنت أعلم أنه اجتمع على تأليفه المسلم السنى والمسلم الشيعى والنصرانى واللادينى . . . . وأن الآنسة وأباها كانا إما مخدوعين ، وهذا ما نظنه وإما شريكين لهؤلاء الدساسين وهو ما لا نريد أن نسترسل فى تصديقه » .

* * *

٤ — وأمامنا ثبت طويل بمؤلفات الغلايينى منها غير ما ذكرناه : أريج الزهور وديوان الرصافى وعظة الناشئين ورجال المعلقات العشر . وذلك غير مقالاته المفرقة فى الصحف والمجلات والتى كان ينشر أغلبها فى مصر ؛ بالإضافة إلى كلمته فى رثاء شوقى وله لباب الخيار فى سيرة المختار .

وقد وصف محيى الخياط كتابه (أريج الزهور) بأنه كتاب أخلاق

اجتماعى أدبى حوى ما كتبه المؤلف من المقالات فى الموضوعات المختلفة ، وهو « زهرة فاضلة فاح أريجها إذ لم تدنسها أوضار الغرب ولم ينهكها ذبول الشرق فهو زهرة أخلاق وفضائل ، بل هو غيرة مجسمة ، وحماسة تريد النهوض بناشئة الشرق والإشراف بهم على مدنية الغرب شأن أصحاب النفوس الكبيرة التى تريد الصعود إلى مدارج المجد . . »

وتكشف كل آثاره بالإضافة إلى مجلته (النبراس) عن طابعه وروحه طابع المصلح المجدد الذى يمزج الإسلام بالعروبة ، ويفتح الطريق أمام أمته إلى العمل والتطور على قاعدة من مقومات فكرنا العربى الإسلامى .

وقد كان زميل الطريق الواحد لصاحب العرفان المغفور له أحمد عارف الزين وقد ربطت بينهما أواصر الصداقة والإخاء إذ كانا فى سن واحدة ، وفى مبدأ واحد على حد تعبير صاحب العرفان رضوان الله عليه ، «أنشأنا (العرفان) وهو أنشأ (النبراس) فى سنة واحدة وطبعناهما فى مطبعة واحدة هى المطبعة الأهلية للمرحوم الشهيد الشيخ أحمد حسن طبارة غير أن الغلايينى لم يستمر فى مجلته إلا عامين فقط بينما عاشت العرفان وامتد بها العمر الخصب الزاهر فى خدمة العربية والإسلام والعروبة » .

وقد عاش الغلايينى فترة من أقسى فترات الكفاح واجه فيها من الصعاب والهجرة والنفى والسجن مايطول به الحديث ولقد كان مؤمناً بوحدة العرب متنقلا بين أرضهم ، هاربا من وجه الظلم .

« ألا إن ديار العرب كلها دارى ، وأهلها أهلى ولكن الأقدار شاءت أن يعبث فى بعضها الأعجمى الغريب ، ويشرد من رجالها كل مشرد ، وما هذه الحال بدائمة ولكل أمر نهاية ولكل ليل فجر » . .

وقد واجهته المتاعب بعد الحرب العالمية حيث كان من العاملين فى حزب الاتحاد والترقى ثم حزب الائتلاف ، ثم حزب الإصلاح ، وكان خطيبا للجيش العثمانى الرابع فى الحرب العالمية الأولى ، فأزعجه الفرنسيون بعد

احتلال بيروت وقبضوا عليه فسجن مرة بعد مرة ، وترك بيروت إلى مدينة حيفا ، فلما جاءت لجنة كرين إلى دمشق هاجمها ، فلما هموا بالقبض عليه ذهب إلى دمشق ، فلما سقطت حكومة دمشق ، فى يد الفرنسيين ذهب إلى بيروت فلما أحس الشر تركها إلى عمان ثم عاد إلى بيروت فقبض عليه فسجن سبعة أشهر فى سجن القلعه فى جزيرة أرواد — مرة ثانية — ثم عاد إلى عمان ثم سافر إلى بيروت فاعتقل فى سجنها العسكرى فى حجرة ضيقة (١٧٥ × ١٦٠ س) خمسة عشر يوما بلياليها .

ثم أخرج فبعث إلى فلسطين فاختار حيفا داراً للاقامة ، فلما خفت قبضة الاستعمار عاد إلى بيروت فنصب رئيسا للمجلس الإسلامى بها وقاضيا شرعيا ومستشاراً بمحكمة الاستئناف .

وقد احتفل بيوبيله فى يوليه ١٩٣٢ بمرور ربع قرن على جهاده العلمى والقومى ، وتولى مفتى دمشق ومفتى الموصل تتويجه بالعمامة التى استوحشت له واستوحش لها منذ أيام الحرب على حد تعبير أستاذنا محب الدين الخطيب ومضى فى طريق الجهاد لا يتخلف ، كاتبا وشاعراً وخطيبا حتى توفى عام ١٩٤٥ وكان قد ولد ١٨٨٠ فى بيروت وتلقى علومه على أعلام ثلاثة ..

هم : محي الدين الخياط وعبد الباسط الفاخورى وصالح الرفاعى ثم قصد إلى القاهرة فأكمل تعليمه فى الأزهر وتلقى على الشيخ محمد عبده وسيد المرصفى وعاد مدرسا بالجامع العمرى والمكتب السلطانى والكلية العثمانية فى بيروت ، يقول « أنا مصطفى بن محمد سليم بن محي الدين بن مصطفى الغلايينى ولدت فى بيروت من أرض الشام ١٣٠٢ هـ — ١٨٨٥ م وتنتمى أسرتنا إلى الفوائد وهى قبيلة من الحويطات منازلها بين العقبة والوجه من أرض الحجاز ومنها أفخاذ تضرب فى وادى النيل » .

ويصور صاحب العرفان صفحة جهاده فيقول أنه سجن ونفى وشرد فى أوائل الاحتلال فكان من الصابرين المحسنين ولم يتزحزح عن مبدئه

العربى قيد أظفر ، وأشار إلى ولعه بعلوم اللغة فقال : أن ولعه بالعربية نشأ معه منذ الصغر فقويت فى نفسه ، وساعده على التقدم فيها ما وهبه الله من جودة الذهن وصفاء الفطرة فنشأ ذليق اللسان رشيق البيان جريئا فى القول والعمل لايبالى الصعاب وساعده هذا الولع على الاضطلاع بالعلوم العربية ولاسيما بعد أن تولى تدريسها فى المكتب السلطانى والكلية الإسلامية عدة سنين ، وأخرج حلقات من كتبه فى النحو والعروض ، وقد اجتذب إليه قلوب الطالبين فوعوا منه الوطنية الصحية والغيرة المتوقدة .

ولما أعلن الدستور العثمانى وذر قرن النهضة العربية ظهر نبوغه فى الشعر والخطابة ـ وانتقاد السياسة والساسة ، فأنشأ مجلة «النبراس» فكانت كاسمها ثم اتسع له المجال فاندفع فى الشعر والخطب وجاهد وجاهر حتى جر عليه ذلك من الدواهي وضروب الاعتقال السياسى ما شهدته السجون العسكريه فى بيروت وجزيرة أرواد وتحدثت به منابر فلسطين وعمان .

وتحدث صاحب العرفان اضطلاعه اللغوى فقال : أن كتابه (نظرات فى اللغة والأدب) يشهد له بالإحاطة وبعد الغور ، ومذهبه فى اللغة هو مذهب المصلح غير المتشدد ، فكان يرى التجديد فى اللغة على أن لاتنقطع معه الصلة بالماضى، ويقول فى ذلك: فكل ما يوافق اللغة مجازا أو اشتقاقا أو قياسا وكان مقبولا عند أهل الذوق السليم وكنا فى حاجة إليه جاز لنا استعماله وإن لم يستعمله الجدود فالمولد على هذا صحيح فصيح على شرطه .

من مؤلفاته :

لباب الخيار فى سيرة النبى المختار
الإسلام روح المدينة
نظرات فى السفور والحجاب
نظرات فى اللغة والأدب
مجلة النبراس (أصدرها فى بيروت)

— ٥١ —

منصور فهمى

(١٨٨٦ — ١٩٥٩)

شهد « جيل الرواد » فى العالم العربى مرحلة عريضة من حياة الأمة شارك فيها كتابها بعمق وقد امتدت هذه الفترة أكثر من أربعين عاما ، وكان لهم أثرها الواضح فترة ما بين الحربين ١٩١٨ — ١٩٣٩ . هذه الطلائع أتيح لها أن تبدأ خطواتها الأولى فى علم الكتابة بعد منتصف العقد الأول من هـذا القرن فى صحف المؤيد واللواء والجريدة ، ثم أتيح لطائفة منها أن تذهب إلى أوربا وتعود قبيل الحرب العالمية الأولى ومنهم من ذهب خلال الحرب وبعدها .

ومن هؤلاء الرواد الأول : منصور فهمى ومحمد حسين هيكل ومن عجب أن كانا من أبرز من تحول عن الإيمان بالغرب إلى نقد حضارته والدعوة إلى ثقافة عربية إسـلامية تستمد مصادرها وينابيعها من الفكر الإسلامى .

وقد كان الدكتور منصور من أوائل المبعوثين إلى الجامعات الأوربية منذ سافر عام ١٩٠٨ إلى باريس حيث أعد أطروحة الدكتوراه تحت اشرف أستاذه «ليفى بريل» وموضوعها : «حالة المرأة فى التقاليد الإسلامية وتطوراتها» وقد طبعت هذه الرسالة فى باريس ١٩١٢ ولم تنشر باللغة العربية ، وكان الدكتور منصور قد واجه رد فعل عنيف لهذه الرسالة التى أثيرت حولها ضجة كبرى عندما نقلت بعض نصوصها إلى الصحف المصرية إذا ذاك وتناولت جريدة المؤيد أمر هذا الكتاب فى عدد المقالات التى نشرتها خلال (يناير مارس ١٩١٤) وكان أبرز ما كتبه لطفى جمعه (وهو أحد

كتابنا الذين درسو فى أوربا) مفندا ماذهب إليه منصور فهمى من آراء وقد كان لهذا الحادث أثره فى حياة منصور ، فقد أبعده عن الجامعة فترة طويلة فآثر الاعتكاف فى الريف واكتفى بمراسلة جريدة الأهرام من قريته « شرنقاش » حيث حررها بابا — شبه يومى — منذ عام ١٩١٥ إلى عام ١٩٣٠ تحت عنوان « خطرات نفس » وجمع منها بعض الفصول فى كتاب بهذا الاسم . ولعله كان كتابه الأول والوحيد ، إلى أن صدرت له مجموعة محاضرات فى معهد الدراسات العربية عن الكاتبة مى زيادة عام ١٩٥٤ .

* * *

ولسنا بصدد الحديث عن أطروحة الدكتوراه التى أثارت الضجة حول منصور فهمى، وحالت بينه وبين منصبه فى الجامعة فقد تناولنا ذلك فى كتابنا « المعارك الأدبية » بالتفصيل ، والمعروف أن سائل الدكتوراه توضع تحت إشراف أساتذة ولا تتحقق فيها شخصية كاتبها بقدر ما تمتاز وتبرز شخصية المشرف عليها ، ولما كانت أولى أطروحات الدكتوراه لكاتب مصرى فى أوربا وكانت بالمصادفة تحت إشراف أستاذ « يهودى » له أهدافه الواضحة فى محاولة توجيه هذا العمل واتخاذ « حرية البحث » وسيلة لتوجيه بعض الاتهامات والشبهات إلى الرسول وحياته الزوجية .

غير أن منصور فهمى الذى لم يجرؤ على مراجعة أستاذه (ليفى بريل) كما فعل زكى مبارك من بعد فى معارضة آراء أستاذه (ماسينون) أقول أن منصور فهمى لم يلبث أن صحح معتقده وألقى خطابا فى الاحتفال بعيد الهجرة (١٣٦١ هـ — ١٩١٥ م) بعد عودته من أوربا تحدث فيه عن ما أطلق عليه : « أنشودة البطولة المحمدية الرائعة » وقال : « أنها تهز عواطفنا لمطلع دين جديد إنسانى سمح عظيم يذكرنا بروائع الجهاد البالغ حمل رسول الله أمانته فحملها واثقا لكى يبلغها إلى الناس كاملة » .

ثم لم يلبث صوت منصور فهمى أن ارتفع بدعوة وهبها كل فكره وروحة هى « إنشاء ثقافة عربية إسلامية » تكون خاصة بنا دون غيرنا فلا نكون عالة على الغرب ولا نقلده تقليداً أعمى ، وقد تألقت هذه الفكرة فى الثلاثينات فى نفس الوقت الذى بدأ الدكتور هيكل يكتب « حياة محمد » وكان هذا تحولا واضحاً فى مفاهيم المثقفين الذين تعلموا فى أوربا . وعندى أنها رد فعل لتلك الحملة الضارية التى كان النفوذ الأجنبى يشنها على اللغة العربية والإسلام والفكر العربى الإسلامى والتاريخ والتراث فى محاولة لتدمير القيم الأساسية لهذه الأمة ، والتشكيك وإثارة الشبهات حول المفاهيم والمقومات على النحو الذى يمكن للاستعمار ولسلطانه وحكمه .

وكانت حملات (التغريب) فى العالم العربى ومصر قد انطلقت فى ظل الحكومة الموالية للاحتلال فى صورة التبشير وصيحات الإلحاد والإباحة ، والإقليمية الضيقة كالفرعونية فى مصر والفينيقية فى لبنان .

وفى ظل هذه الظروف كشف كتاب الغرب عن هدفهم من حملة التغريب فى عدد من المؤلفات التى تأثر بها هيكل ومنصور فهمى وغيرهم ، علت هذه الصيحة الجديدة جهيرة : يقول الدكتور منصور فهمى : قد يدهش البعض أن تصدر هذه الدعوة منى أنا الذى تلقيت دراستى العالمية فى جامعات الغرب ، وعدت من أوربا أدعو إلى ثقافتها وأقوم بتدريسها فى جامعاتنا . واتخذ فلاسفة أولئك الأقوام موضوع كتاباتى ومحاضراتى . قد يكون تناقضا منى أنا الذى يصدرون اسمى بلقب دكتور إشارة إلى الأجازة التى أحملها من السربون ، أن أدعو إلى نبذ الثقافة الأوربية والرجوع لعقلنا المفكر وقلبنا الشاعر ، إلى أنفسنا وتاريخنا تنهل منه أصول ثقافتنا والصور والعناصر الأولية لمادة انتاجنا ، ولكن ستزول الدهشة إذا أدخلنا الزمن فى حسابنا . كنا منذ ثلث قرن نستقبل حياة جديدة فى كل شىء ، فى طموحها السياسى ونزعاتها الفكرية ومراميها الاجتماعية ،

وآمالها الاقتصادية فارتفعت الأصوات وتحركت الأقلام داعية إلى التجديد فى كل شىء ، وكان حقا علينا نحن شباب هذا الجيل أن نسير فى ركاب هذه النهضة المتوقبة فندعم خطاها ، ونحن الآن وقد مضت على صيحتنا القديمة سنوات طوال ، نريد أن نراجع موقفنا لكى نخرج بنتيجة دقيقة، يحسن بنا أن نطوى هذه السنوات الثلاثين التى تفصلنا عن الزمن الذى عرضنا طرفا من أنبائه ونضع صورة حاضرنا . لقد بعدنا فى كل شىء تقريبا عن الغايات التى أردناها، ولهذا حق علينا أن نتريث قليلا وأن نراجع موقفنا . أن السير فيما نحن فيه من تناقض وابتعاد عن المنهج السوى هو الإسراف والتغالى دون احتياط فى عبادة أوربا وكل ماتصدره لنا من أزياء الفكر . ولقد نسينا أنفسنا وبعدنا عن غايتنا وفقدنا الهدف الذى نسير إليه وأصبح مثلنا كمثل هذا الغراب الذى أراد أن يقلد الطاووس فى مشيته فلم يفلح ونسى مع الزمن مشيته الأولى .

فالدعوى إلى إيجاد ثقافة شرقية خالصة هى فى نهاية الأمر دعوة إلى النظر فى أنفسنا فى حاضرنا وماضينا والأخذ عنهما والبناء عليهما ، وقديما أنجبت البيئة الشرقية كل ديانات العالم وأعظم فلسفاته ، وهذا مانريده اليوم ، لانريد أن نهمل روحنا أمام وثن المادة الذى تقدمه لنا أوربا .

وهكذا مضى (منصور فهمى) يدعو إلى «المدرسة الوسطى» فى الفكر والحضارة ، فهو لايغلق النوافذ أمام الفكر الإنسانى ، ولكنه يدعونا إلى إقامة (أساس) وقاعدة من مفاهيمنا وقيمنا ومقوماتها الشرقية العربية الإسلامية ثم نبنى فوقها مانريد من بناء الفكر والحضارة وهو لايمانع فى أخذ الحضارة ، ولكنه يتريث فى قبول الفكر الغربى ويصل فى أبحاثه وكتاباته إلى ما أسماه (حدود التقليد والاقتداء) يقول « لعله من المحتوم أن نقلد الغربيين فى فترة من الزمن، وأن الكثير مما لحقنا من الغربيين واتخذناه من مكتشفاتهم واصطنعناه من مخترعاتهم كان لابد لنا من اتخاذه

واضطلاعه . لأن الخبرات التى تثمرها عقول البشر ليست وقفا على ناحية ومنذ القديم أخذت الأمم عن بعضها .. وعلى الأمة التى تريد عزتها أن تعن فى الاستشعار بمعان من العزة وذلك برغبتها الملحة فى أن تغاير غيرها من الأمم .

وهو يدعو إلى أن تعرف الأمة جوهر نفسها وذلك بأن (تتفحص تاريخها وتتأمل ظروفها المحيطة ، وبالجملة تستبطن حياتها جميعاً) ويرى أن أهم وسائل الشرق فى خدمة الإنسانية هى « أن تتوجه جهود أهله للنظر فى عالم النفوس وتهذيبها وترويض الإرادة على المعانى السامية فى مسلك الإنسان وحياته » .

ويقول « لانحاكى الغرب فى كل شىء ولا نناهضه فى كل شىء ، بل نأخذ أنفسنا بتمحيص أمور الغرب والطموح إلى الابتكار ، ولعل هذا الطموح ورغبتنا عن التقليد من شأنه أن يعيدنا إلى حضارة أرقى من المدينه التى اتصل بها الغربيون ، نحن لا نناصر الجامدين ولا نناصر المقلدين ، إننا نريد أن نتبين لبلادنا مشخصات ومميزات ، نريد أن نعرف لأنفسنا جدارة الإنسان وشخصيته » .

* * *

تلك صورة من فكر الدكتور منصور فهمى الذى توفى فى عام ١٩٥٩ بعد حياة عريضة ، فقد ولد فى ١٧ يناير ١٨٨٦ فى قرية شرنقاش (دقهلية) حيث نزح أجداده من بلاد المغرب ، وحين آثر الشيخ البقلى مديرية المنوفية وهو عائد من الحج فأقام بها ، حيث توجد زاوية البقلى فهو: منصور على فهمى البقلى.

« كنت فى صباى شيطانا ، كنت أسابق أبناء الفلاحين على الطريق الزراعى ، هم على الحمير وأنا على حصان أغبر اللون ، وفى الصباح كنا نعوم فى ترعة (الساحل) وساعة الأصيل كنا نخرج من ترعة الساحل

لنصعد إلى قمة الأشجار نأكل التوت أو نجمع من الأعشاب بعض الحمام وصغار الغربان ، أما فى المساء فكنا نلعب كرة (الحكش) فى الجرن تحت ضوء القمر . وكنت أول من مارس كرة القدم عندما أدخلها دنلوب فى المدارس المصرية . حددت دراسة الفرنسية طريق مستقبلى وغيرت نهر حياتى . وأنا أحد تلاميذ مصطفى كامل . اعتنقت رسالته وأمنت بأهدافه ولفحنى لهيب ثورته ، دخلت مدرسة الحقوق ، عندما شن مصطفى كامل حملة كبرى دعا فيها لإنشاء جامعة أهلية . ومات مصطفى كامل قبل أن يشهد ثمرة دعوته . كنت فى السنة الثانية من مدرسة الحقوق عندما دخلت امتحان المسابقة التى جرت بين طلبة المدارس العليا لاختيار أعضاء الإرسال إلى الخارج ليعودوا بعد أساتذة فى الجامعة الجديدة . ووقع على الاختيار لأدرس الفلسفة وأحصل على الدكتوراه . فى باريس كنت معتدلا فى كل شىء لم يجرفنى تيار اللهو الذى يملأ شوارع باريس . كانت مدام ابريان تقدم لى بدل النبيذ كوبا من اللبن .

هكذا صور منصور « فهمى مطالع » حياته ، فقد عاد من أوربا سنة ١٩١٣ ليواجه المتاعب فاعتكف وكتب فصولا فى مجلة السفور وفى جريدة الأهرام .

ولم يلبث منصور فهمى أن عاد إلى الجامعة ، ووصل إلى منصب عميدها ، ثم عمل مديرا لدار الكتب . وأنشأ جامعة الاسكندرية ، كان أول مدير لها . وأحيل إلى المعاش عام ١٩٤٢ ثم عمل سكرتيرا للمجمع اللغوى وكان عضوا فيه منذ أنشائه ووكيلا لجمعية الهلال الأحمر . وعضوا فى جمعية الشبان المسلمين . ولجنة التأليف والترجمة والنشر والمجمع المصرى والجمعية الخيرية الإسلامية .

ولم يكن منصور فهمى كاتباً بارزا بقدر ماكان خطيباً جهيرا . كانت

شخصيته ذات طابع جذاب ، يتمثل فى بنائه الضخم ، وصوته الجهير ، وحركات يديه .

وكان كبير القلب ، كريم النفس ، أمدته مطالع حياته فى الريف واتصاله بالطرق الصوفية وقراءاته للأوراد ثم سفره إلى أوربا ، بذلك الطابع الروحى ، الذى يبدو من خلال سمته الريفى . فقد وجهته كتب الأوراد والتمائم إلى البحث عن حقائق أخفى من الحقائق الظاهرة السطحية.

وأمدته هذه التجارب فى حياته بصورة الزاهد : « أنا لا أسعى وراء شىء من ماديات الحياة . أقنع فى مكانى وعلى أرضى ، وبين يدى كفاءتى ، وبعد ذلك على الدنيا أن تسعى إلى لأنى أستحقها ولأنى أسير سيرا طبيعيا . ليس فى منطق سلبية ، بل وفيه اعتدال فى تقدير الذات . أفكر فى داخل أطار من المبدأ والعقيدة . أنفقت حياتى لم أتحلل مرة من مبادئى فى سلوك سلكته . وقد دلتنى تجربة العمر الطويل إلى أن المبادىء السلمية والقيم العليا هى الركاز المتين الذى ينبغى أن يتكىء عليه الإنسان وهو يشق طريقه فى الحياة والمبادىء والقيم العليا تستند دائماً على أساس من الدين والأخلاق أو الوطنية . وهى تهدف دائماً إلى خدمة المجاميع ولا تتأثر بشهوة أو نزعة فردية » .

هكذا تبدو صورة (منصور فهمى) الرجل الذى دعا إلى «ثقافة عربية إسلامية» خالصة كأساس لبناء فكرنا الجديد ، والذى استطاع أن يشارك الخالدين فى بعث اللغة العربية وحمايتها من غارات الشعوبيين وخلف أثارا نافعة لا تزال مبثوثة فى الصحف تكشف عن روح شفافة ونفس مؤمنة ، وروح صادقة لحب الله والوطن والعروبة والإسلام .

توفى عام ١٩٥٩

مؤلفاته :

محاضراته عن مى ١٩٥٤ ، خطرات نفس ١٩٣٠ .
مقالات فى الأهرام ١٩٢٠ — ١٩٣٢ تقريبا

— ٥٢ —

الدكتور يحي الدرديرى

(٩٥٤)

من أبرز الظواهر الواضحة الدلالة على تطور الفكر الإسلامى الحديث وتعمقه ظهور جيل من (دعاة الإسلام) من غير رجال الأزهر تأكيدا بأن مفهوم الإسلام: «دين وفكر وحضارة» وأن الإسلام لا يعترف بكلمة « رجال الدين » وإن اعترف بتخصص طائفة من العلماء للدراسات الإسلامية والفقهية، أما فيما عدا ذلك فإن كل مثقف مسلم يستطيع أن يشارك فى الدراسات والأبحاث . وقد ظهر فى الثلاثينات جيل من «دعاة الإسلام» من خريجى الجامعات الأوربية ودارسى العلم الحديث من أمثال : الدكتور على مظهر ، خريج جامعات برلين، محب الدين الخطيب الحقوقى القانونى من كلية حقوق استانبول ، عبد العزيز جاويش خريج جامعات كمبردج والمدرس بجامعة اكسفورد ، والدكتور يحي أحمد الدرديرى دكتور فى الحقوق والعلوم السياسية من جامعات سويسرا وألمانيا ، وعشرات من أمثال هؤلاء . ويتميز الدكتور الدرديرى بأنه إذا كان قد بدأ حياته واحداً من رعيل الحزب الوطنى كعشرات من مثقفى أوائل هذا القرن ، فإنه تخصص فى أمرين : دراسات التعاون ، والدراسات الإسلامية .

ومنذ عاد الدكتور الدرديرى من أوربا بعد أن أقام فيها قرابة ثلاثة عشر عاما مبعداً عن وطنه خلال الاحتلال البريطانى فإنه منذ عاد وقد حمل قلمه فى سبيل هذين الهدفين .

أما التعاون فقد رافق فيه خطوات رائد التعاون (عمر لطفى) وتابعه من بعد موليا دراسات التعاون اهتمامه الأكبر ، شارحا ومستفيضا

فى عشرات الأبحاث فقد أفرده بالدراسة فى جامعة جنيف وكان بعد رئيس جمعيات التعاون بالقاهرة وقد عمل فى بنك التسليف ، وله فى التعاون دراسة مطبوعة بالإضافة إلى عديد من الدراسات التى نشرها فى مجلة الشبان المسلمين منذ صدورها عام ١٩٢٩ إلى أن توفى عام ١٩٥٤ .

ولقد كانت دعوة الدكتور الدرديرى إلى « التعاون » تعنى فى هـــذه الفترة أنه لا يرضى عن ذلك النظام الذى كان يطبقه الاقطاع قبل الثورة ، فقد كانت دعوته إلى التعاون إنما تعنى فلسفة عميقة واسعة الأبعاد ، تشمل مختلف أنظمة الحياة اجتماعية وسياسية واقتصادية .

يقول « إذا ما بحثنا عن تأخر الشرقيين والمسلمين عامة والمصريين خاصة زاها ترجع إلى أسباب كثيرة أهمها : فقدان روح الاتحاد والتآلف بين الأفراد للقيام بالمشاريع النافعة لترقية الشعوب والنهوض بها على مستوى رفيع ، إن روح العصر الحاضر هى روح الجماعات ، وروح التضامن والتعاون ، وما نهض الغرب وساد إلا بهذه الروح القومية .

ولقد وجد الدكتور الدرديرى فى « التعاون » منطلقاً لأفكاره الإسلامية فقد كان يرى أن فى (الفكر العربى الإسلامى) ذخيرة خصبة لا حد لها فى بناء النهضة للأمة العربية والعالم الإسلامى كله . وهو الذى أمضى ثلاثة عشر عاما بين جامعات أوربا دارسا وفاحصا وحاصلا على أعلى درجات العلم منها فى مجال العلوم السياسية ، فما زاده هذا العلم الواسع إلا إيمانا بجذوره ، وتراثه ، لم تغره مظاهر الفكر الغربى ولم تنحرف به عن (القيم العليا فى الإسلام) وفى الفكر العربى الإسلامى حقاً ، لم يكن متعصباً أو رجعياً ، ولكنه كان صادقا مع نفسه ومع ضمير أمته فأخذ من الفكر الغربى ما رآه إنسانيا ، وأخذ من أساليبه ومناهجه ما يحقق للفكر العربى الإسلامى وللقيم الإسلامية الروحية والاجتماعية والسياسية والتعليمية ما يمكنها من أن

تبرز وتحيا وتحقق أثرها العلمى فى إعلان فجر نهضة جديدة للأمة العربية والعالم الإسلامى .

ولا شك كان الدكتور الدرديرى مؤصل الثقافة العربية والإسلامية قبل أن يذهب إلى أوربا ، كانت له قاعدة فكرية عالية ممتدة من أمته ووطنه ومن الإسلام واللغة العربية والشرق مهد النبوات والرسالات ، ولعل هذا هو الذى عصمه من الانحراف ومكنه من أن يمتص من فكر الغرب ويقتبس متمكنا ليبعث فكر الإسلام ويحييه ويعيش له داعيا فى غيرة لا حد لها وإيمان بعظمة الإسلام وقدرته على أن يمد الإنسان بالخير والحق والعدل .

ومن هنا كانت أبحاثه المتعددة فى مجلة الشبان المسلمين كل شهر فى هذا المجال ، فهو يتحدث عن تربية النفس عن طريق الفكر ، ويتحدث عن اثر المرأة وما يجب أن تكون عليه ، ويتصل بحثه بالقرآن ، ودراسة مشاكل المسلمين والعالم الإسلامى فلا يكاد يدع أمراً من أمور المسلمين وفكرهم وقضاياهم دون أن يتناوله بالبحث ويقضى فيه بالرأى المعتدل الهادىء العميق .

وإذا كان «الأسلوب هو الرجل» فإن الدكتور الدرديرى فى شخصيته يتمثل فى هذه الصورة من أسلوبه معتدلا عميقا يكتب فى أناة ، ويبحث فى عمق ، ويعالج المسائل دون عنف أو معاركة أو خصومة ، متحليا بخلق علماء الإسلام وطابع المفكرين الذين سبقوه على الطريق من فلاسفة وباحثين . . .

أما أبرز أعمال الدكتور (الدرديرى) فهو اشتراكه فى إنشاء جمعية (الشبان المسلمين) — والعمل بها منذ انشائها عام ١٩٢٧ إلى أن توفى رحمه الله ، وهو المراقب العام لها ، كاتبا وعاملا لا يكل ولا يمل خلال ربع قرن كامل ، يصدر المؤلفات ويرعى الشباب ، ويعمل ماوسعه العمل

فى مجال التعاون وفى مجال الفكر الإسلامى العربى .

وقد كان إنشاء جمعية الشبان المسلمين هو « رد التحدى » إزاء المعركة الضخمة التى أثارها التبشير فى حركة عنيفة هزت الرأى العام . فكان لابد أن تتجمع قوى مؤمنة بالله وبالوطن والفكر الإسلامى العربى لمواجهة الخطر ، وقد كان على رأس هؤلاء مثقفون تعلموا فى الغرب أو وفق مناهج الغرب ، وكان هؤلاء هم الذين يخاصمون هذه محاولة فى تشويه مفاهيم العالم الإسلامى وقيمه، فقد هاجم هذا الاتجاه الدكتور هيكل الذى تعلم فى باريس . والدكتور زكى مبارك الذى تعلم فى السربون ، والدكتور الدرديرى والدكتور أحمد فؤاد ، والأستاذ محمود أحمد الغمراوى أستاذ الكيمياء بكلية الطب والدكتور على مظهر خريج جامعات المانيا والأستاذ محمود على فضل أستاذ الطبيعة بجامعة القاهرة ، وعن عجب أن هؤلاء الذين درسوا العلوم والطبيعيات كانوا أكثر ايمانا وأعمق فهما لقيم الفكر العربى الإسلامى ، ومعنى هذا أنه ليس خريجوا الأزهر ودار العلوم وحدهم هم الذين كانوا يقاومون حركة التبشير والتغريب والشعوبية ويدافعون عن الإسلام والفكر العربى، ولكن هناك أيضاً العلماء الذين تعلموا فى مدارس الغرب واستطاعوا أن يكونوا أشد وفاء لجذورهم ، ولم يستطع المنهج الذى فرضه الاستعمار فى المدارس والجامعات أن يخدعهم أو يقصيهم عن قيمهم وأن وقع ذلك بالنسبة لعدد قليل ممن لم يبنوا قوائم فكرهم أســاساً على القيم العربية الإسلامية .

وقد كان الدكتور الدرديرى ومعه شهادات جامعات سويسرا وألمانيا يستطيع أن يتدرج فى وظائف الدولة حتى يبلغ أعلى مناصبها، ولكنه اختار أن يعمل فى مجال الخدمة فى جمعية الشبان المسلمين ، ومجال التعاون ، بينما كان زملاؤه ممن تعلموا مثل علمه — على حد تعبير السيد محب الدين الخطيب ، قد أخذوا كل شىء ولم يعطوا شيئا ، فى حين تجرد الدكتور الدرديرى من

هذه المطامع وأعطى من ذات نفسه وعلمه ، وذلك هو (الطريق) الذى دعا الناس إليه — فى كتابه الموسوم بهذا الاسم — على أنه طريق من يأخذ الكفاية ويعطى كثيراً مما عنده، وقلما يأخذ ، فهو لا يزاحم فى مطامع الحياة ولا يجعلها همه الأكبر ولكنه يعمل فى ضوء دعوة الإسلام إلى العمل، منتجا قويا، غير متطلع إلى الأجر والجزاء فإن أكبر همه أن يمنح ولا يجعل المتاع المادى أكبر همه وتلك أعلى مفاهيم (الزهد) عنده .

والدكتور الدرديرى يرى أن القرآن هو العقد الذى بين الله وعباده لسكنى هذه الأرض ، والإسلام هو دعوة (الإنسانية) فى أعلى درجاتها ، وأن أبرز معالم رسالة النبى هى : العلم والبحث والاستقراء ، تقديرا لأن أول آيات القرآن الكريم نزلت فى ذكر العلم والإشادة بالعلم ، وعنده أن معجزة معجزات الإسلام ونبيه هى حضه على العلم والتعليم مؤكدا أن لباب دعوته هى محاربة الجهل واخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ويصور معنى الزهد فى الإسلام وهو عنده : « أن تملك الدنيا لصالح البلاد وخير العباد ، والزهد ليس بأكل الخشن ولا لبس الغليظ وإنما الزهد قصر الأمل ، وإن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد فى الدنيا » .

وقد حمل الدكتور الدرديرى لواء الدعوة إلى توطيد العلائق بين الأمم الإسلامية ، فهو يرى أن يتكتل المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ليدرءوا عن أنفسهم طغيان الاستعمار ، وعنده إن «الأخوة الإسلامية» هى العمود الفقرى للجامعة الإنسانية التى تستطيع أن تحقق السلام العالمى المنشود ، وتضمن للإنسان حريته وكرامته على وجه الأرض وعلى اختلاف دينه وجنسه ولونه . ولا يرى الدعوة الإسلامية إلى الوحدة محققة أمرا إلا إذا كون المسلمون أنفسهم على الأخلاق والقوة والاخاء ، فهى أساس كل نهضة — وعنده إن (الجهاد) ليس هو جهاد العدو بقدر ماهو جهاد النفس ، وإن النصر فى هذا المجال هو نصر على العدو أساسا ، وعنده (أن ماصاب الأمة الإسلامية فى حياتها الاجتماعية من الخلل والإنحلال وماطرأ عليها

من الضعف والوهن يرجع أساساً إلى الجهل المنتشر ، والتقليد لسيئات المدنية الغربية ، وإهمال الفئة المتعلمة منا لواجباتها فى محاربة البدع والضلالات التى سرت فى جسم الأمة » وعنده أن حضارة الأمة تعلو بقدر تمكنها من ضبط نفسها ، أعنى بقدر ثبات أخلاقها ورسوخها ويقول مع جوستاف لبون « إن نواميس الأخلاق ليست أمورا فرضية ولكنها ضروريات لازمة » وعنده « إنه ليس هناك دواء ناجع لأمراض العالم الإسلامى إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم ، وهو خير كتاب يدعو إلى جماع الفضائل فى أعلى مراتبها . فأدب القرآن مؤسس على الدعوة إلى الاصلاح والعمل لخير الجميع ، وقائم على حرية العلم والفكر ، وهما أساس النهضة الصحيحة » وهو يدعو إلى التسامح ، وارتباط الإنسانية ، ويردد دائما هذا المعنى الذى استهل به العدد الأول من مجلة الشبان المسلمين ويكرره فيقول :

(ان أولى الخطوات لنهوضنا هو إيقاظ « الروح الإسلامية » وإذا قلنا الإسلام ، قلنا الفضيلة الجامعة لأكمل الصفات وأرقى الاخلاق) والدكتور الدرديرى لا يرى العلم وحده كافياً للنهضة مالم يرفده خلق، ولذلك فهو لاينسى يردد الدعوة إلى (الخلق) فيقول (ليس العلم بكاف وحده لرفعة الأمة وتقدمها ، ولكن ذلك لايكون إلا بالأخلاق السليمة القوية . وأخوف مانخافه على نهضات الأمم الإسلامية والشرقية هو الاكتفاء بالعلم الحديث دون مراعاة الأخلاق والعناية بها ، فتتعرض الأمم إلى الكبوات والزلات ، ومما يؤسف له أن العلم أصبح قبل كل شىء وسيلة الارتزاق ، وكثيرا مايؤدى بصاحبه إلى طرق لاتتفق مع الكرامة والشرف ، ولو كان لهذا العلم حارس من الخلق والعزة النفسية لما نزل بحامله موضع الخسة والامتهان » .

وإذا كان الدكتور الدرديرى قد نشر كتبه :

١ — مكانة العلم فى القرآن ٢ — التعاون ٣ — كيف نعلم القرآن لأبناء المسلمين ٤ — حياة محمد ٥ — هداية القرآن لنبى الإنسان ٦ — الطريق ٧ — أركان الإسلام ، فإن له تراثاً ضخما مايزال فى بطون الصحف والمجلات وفى مقدمتها مجلة الشبان المسلمين وصحيفتا اللواء والأخبار ومازال هذه الآثار النافعة تتطلع إلى من يجمعها وينشرها فى الناس تقديرا لكفاية هذا العالم المجاهد ، الذى احتجزه الاستعمار فى أوربا أثنى عشر عاما منذ ١٩١٢ — ١٩٢٠ وحال بينه وبين العودة إلى مصر ، فإذا عاد فإنه لايلبث أن يعتقل فى حادث الاعتداء على (سعد زغلول) ومقالته الرائعة فى جريدة الأخبار (٢٠ نوفمبر ١٩٢٤) تحت عنوان ٦٥ يوما فى (الزنزانة) السجن الانفرادى تكشف عما كان يلقاه أمثال هؤلاء المجاهدين العلماء فى تضيق الاحتلال عليهم لأنهم مؤمنون بوطنهم ،وإذا به يلتقى فى السجن بالشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان عائدا لتوه من مهجره ، فيقول :

« ماكان يدور بخلدى إننى بعد غيابى إثنى عشر عاما فى أوربا يحتفى بى بعد أربعة أشهر من مجيئى إلى وطننا العزيز ويضعنى فى دار سجنها أكثر من شهرين تحت التحقيق تحية للقدوم ، قد مضى على إثنا عشر عاما فى أوربا فى الدرس بين الجامعات ودور الكتب ، ولكن بحث الحقيقة من الوجهة النظرية لاتكفى فى اختبار الامتحانات العلمية » .

وهكذا يعود المهاجر ليجد السجن ، ولكنه يفكر فى السجن مع الشيخ جاويش فى إنشاء صحيفة وفتح مدرسة وانشاء جمعية لخدمة الفقراء، ولايسأم عمل الخير ولاينقطع عن أعمال البناء ، ولا شك أن الدكتور الدردرى نموذج من تلك النماذج الباهرة التى عملت فى ظل فترة ماقبل الثورة المصرية العربية . وحملت الشعلة وأضاءت الطريق إلى الحرية واليقظة .

آثارة ومؤلفاته :

مقالات وافتتاحيات مجلة مشبان المسلمين ١٩٢٩ — ١٩٥٤ .
التعاون ١٩٢٥ ، الصوم ١٩٥٨ ، الطريق ١٩٥٢ .
كيف نعلم القرآن لأبناء المسلمين ١٩٤٨ .
مكانة العلم فى القران ١٩٤٤ .
إعرف دينك ١٩٥٥ .

أعلام وأصحاب أقلام

صفحة

مدخل ٣
أحمد الأسكندري : اللغة العربية (١٨٧٥–١٩٣٨) . . ٩
أحمد تيمور : المخطوطات (١٨٧١–١٩٣٠) . . . ١٧
~~أحمد خيرت : الأغاني (...... –١٩٦٤) . . . ٢٥~~
أحمد زكي (باشا) : المخطوطات (١٨٦٨–١٩٣٤) . . ٣١
أحمد فؤاد (الدكتور) : وحدة وادي النيل (١٨٨٦–١٩٣١) ٣٩
أحمد كمال الأثري : الآثار الفرعونية (١٨٥١–١٩٢٣) . ٤٧
أحمد وفيق : علم القانون (٠٠٠٠–١٩٣٨) . . . ٥٣
أمين سامي : تقويم النيل (١٨٥٧–١٩٤١) . . . ٦٠
أمين الرافعي : الصحافة الوطنية (١٨٨٦–١٩٢٧) . . ٦٩

(ب)

البشير الابراهيمي: (الجزائر الإسلام . العربية) (١٨٨٩–١٩٦٤) ٧٨

(ت)

توفيق البكري : التصوف والإسلام (١٨٧٠–١٩٣٢) . ٨٦
توفيق أسكاروس : التاريخ القبطي (١٨٧٤–١٩٤٢). . ٩٥

(ج)

جمال الدين الأفغاني : اليقظة (١٧٣٨–١٨٩٧) . . . ١٠١

(ح)

حسن توفيق العدل: تاريخ أدب اللغة (١٨٦٢–١٩٠٤) . ١٢٦

الصفحة

حسين الهراوى : الاستشراق والإسلام (٠٠٠٠—١٩٥٤) . ١٣٣
حفنى ناصف : اللغة واللهجات (١٨٦٠ — ١٩١٧) . ١٣٩
حمزه فتح الله : حقوق المرأة (١٨٤٩ — ١٩١٨) . . ١٤٧

(ر)

رشيد رشا: مدرسة المنار (١٨٦٥ — ١٩٣٥) . . . ١٥٣
رفاعه الطهطاوى : الترجمة والتأليف (١٨٠١ — ١٨٧٣) . ١٦١

(ز)

زين العابدين السنوسى : الأدب العربى (٠٠٠٠—١٩٦٥) . ١٧٠

(س)

سليم حسن : الآثار الفرعونية (٠٠٠٠ — ١٩٦١) . . ١٧٩

(ش)

شبلى شميل : النشوء والارتقاء (١٨٥٣ — ١٩١٧) . . ١٨٥

(ط)

طاهر الجزائرى : دائرة المعارف (١٨٥٢ — ١٩٢٠) . . ١٩٤
طلعت حرب : بنك مصر (١٨٧٦ — ١٩٤١) . . . ٢٠٣

(ع)

عبد الحميد سعيد: الدفاع عن الحرية ٠٠٠٠ — ١٩٤٠) . ٢١٢
عبد الرحمن الجبرتى : مؤرخ مصر (١٧٥٤ — ١٩٠٢) . . ٢١٩
عبد الرحمن الكواكبى : الدفاع عن الحرية ١٨٤٩ — ١٩٠٢) ٢٢٦

صفحة

عبد السلام ذهنى : اللغة العربية (٠٠٠٠ — ١٩٤٣) . . ٢٣٦
عبد العزيز جاويش : الصحافة الوطنية (١٨٧٦ — ١٩٢٩) . ٢٤٢
عبد الله نديم : الكلمة الثائرة (١٧٤٥ — ١٨٩٦) . . ٢٥٣
عبد الوهاب النجار : الأدب العربى (١٨٦٢ — ١٩٤١) . ٢٦٢
عبد الوهاب: عزام الرحلة (٠٠٠٠ — ١٩٥٨) . . ٢٦٨
عثمان غالب (الدكتور) : كشف السرطان (١٨٤٥ — ١٩٢٠) ٢٨٥
على ابراهيم الدكتور) : الطب (١٨٨٠ — ١٩٤٧) . . ٢٧٥
على بهجت : الآثار العربية (١٨٥٨ — ١٩٢٤) . . . ٢٩٣
على مصطفى مشرفه (الدكتور) : تبسيط العلم (١٨٩٨ — ١٩٥٠) ٣٠٠
عمر لطفى : التعاون والشريعة (١٨٦٧ — ١٩١١) . . ٣١٠

(ف)

فريد وجدى : التقاء الدين والعلم (١٨٧٨ — ١٩٥٢) . . ٣١٧

(ق)

قاسم أمين : تحرير المرأة (١٨٦٣ — ١٩٠٨) . . . ٣٢٦

(ل)

لطفى جمعه : رائد القصة (١٨٨٦ — ١٩٥٣) . . . ٣٣٥

(م)

محجوب ثابت (الدكتور) : الطب والوطنية (١٨٨٤ — ١٩٤٥) ٣٤٢
محمد رضا الشبيبى : الأدب العربى (٠٠٠٠ — ١٩٦٦) . . ٣٥٢
محمد الخضرى : التاريخ والتشريع (١٨٧٢ — ١٩٢٧) . . ٣٦٠
محمد فريد : (المؤرخ) (١٨٦٨ — ١٩١٩) ٣٦٩

صفحة

محمد عبده : مجدد الإسلام (١٨٤٩ — ١٩٠٥) . . . ٣٨١
محمد عياد الطنطاوى : الرحلة إلى روسيا (١٨١٠ — ١٨٦١) . ٤٠٠
محمود أبو العيون: الاصلاح الاجتماعى (٠٠٠ — ١٩٥١) . ٤٠٥
محمود رشاد : الرحلة (١٨٥٤ — ١٩٢٥) ٤١٦
محمود مختار : فن النحت (١٨٩١ — ١٩٣٤) . . . ٤٢٢
مصطفى الغلاييني : الأدب العربى (١٨٨٦ — ١٩٤٥) . . ٤٣٥
منصور فهمى : اللغة والأدب (١٨٨٦ — ١٩٥٩) . . ٤٤٣

(ى)

يحيى الدديرى (الدكتور) : الدفاع عن الدين (٠٠٠٠ — ١٩٥٤) ٤٥٠

للمؤلف

موسوعة التراجم

تضم موسوعة التراجم المؤلفات الآتية :

- أعلام وأصحاب أقلام
- من أعلام الأدب والفكر
- مفكرون وأدباء من خلال آثارهم
- الأعلام الألف (صدر ٣ أجزاء)
- الجباه العالية
- رواد الحرية فى العالم العربى
- رواد القومية العربية
- أحمد زكى باشا (أعلام العرب)
- عبد العزيز جاويش (« «)
- زكى مبارك
- الإمام المراغى (مجموعة إقرأ)

للمؤلف حلقة أخرى من تراجم الأعلام تضم ٥٠ شخصية (عربية أو سلامية) فى العصر الحديث تحت عنوان :

« الجيل فى أعلامه »

1.